عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

تأليف

محمد نمر المدني

دار رسلان

عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

تأليف

محمد نمر المدني

عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

تاليف: محمد نمر المدني

سنة الطباعة: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٢٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

صدر للمؤلف

- هل يحكم الإسلام أوروبا
- الهولوكوست المحرم
- يهود ضد الصهيونية
- الدين والتطرف والإبادة
- هل أحرق اليهود في أفران الغاز

الفصل الأول

عقدة الأندلس
الماضي مازال حاضراً



البحث عن عقدة الأندلس

التأمل في علاقة الشرق المسلم والغرب المسيحي ودراسة عناصر وأشكال وتاريخ هذه العلاقة المعقّدة قادنا إلى العثور على تلك العقدة العميقة والقوية والراسخة عند الطرفين، وهذا ماتوصلنا إليه في المرحلة الأخيرة من البحث في هذا الموضوع، فوجدناها عقدة قائمة قوية البنية راسخة في الأذهان ومتغلغلة في القلوب. ورأيناها واضحة، بل إنها الرسوخ الفكري القائم الذي ينادينا لأن نكتشفه ونتحاور معه ونكتشف أشكاله وصفاته. كانت عقدة الأندلس قائمة واضحة وتدعو أي باحث لاكتشافها، لكن لم يجرؤ أحد من قبل على محاكاتها ولا حتى على البحث عنها. فالغرب منحاز وخائف من البحث في التاريخ الإسلامي. والمسلمون اعتادوا على تلقف الفكر الجديد من الغرب نفسه. وهانحن اليوم نوضح ملامحها ونحلل عناصرها ونعرضها للمسلمين وللغربيين على السواء ليتمكنوا من حلّ رموزها ومن إشفاء فكرهم من موروثاتها.هذا من ناحية، وبالبحث العكسي أيضاً من ناحية أخرى، فإن دخلنا في عناصر وخلفيات وموروثات هذه العقدة سنصل أيضاً إلى نتائج مماثلة للبحث الأول وسنكتشف بأنها العقدة التي تتحكم في علاقات الشرق والغرب منذ قرون وحتى يومنا هذا. فالحملات الصليبية ومرحلة الإستعمار الغربي وصناعة الصهيونية الغربية وإرسالها إلى قلب العالم الإسلامي ثم الغزو الغربي لبلدان إسلامية كل ذلك من نتاجات تلك العقدة التي نطلق عليها في هذا البحث اسماً جديداً في عالم الفكر والتاريخ الإجتماعي (عقدة الأندلس).

عقدة الأندلس عند المسلمين

إنّ غزو المسلمين القديم لأوروبا والقضاء على الجيوش الغربية التي تصدّت لهم آنذاك. وتمكنهم من إقامة ممالك عربية أو إسلامية استمرت لسبعة عقود من الزمن، تلاها تآمر على المسلمين ودحرهم عن أوروبا كلها، وإبادة كافة الأوروبيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام: تلك الأحداث التاريخية التي يصعب نسيانها

وتضاف إليها الحملات الصليبية الأوروبية على الشرق. تلك الصفحات الكبيرة من التاريخ تسببت في استحداث عقد حقيقية لدى المسلمين العرب والأوروبيين المسيحيين على السواء. وقد استمرّت هذه العقد عبر القرون الماضية. ونقترح في هذا البحث إطلاق تسمية "عقدة الأندلس" عليها. فعقدة المسلمين من تلك الصفحات تجعلهم يعتبرون أنّ أوروبا هي الأرض المفقودة والمجد الضائع والزمن الذي يجب العودة إليه والملك والإرث المسروق من المسلمين. وإنّ غالبية المسلمين يتغزلون بتلك الحقبة من التاريخ ويتحدثون عن الرغبة بعودتها. فالشاعر الباكستاني محمد إقبال يقول في إحدى قصائده العظيمة:

الصين لنا والعرب لنا

والهند لنا والكل لنا

أضحى الإسلام لنا دينا

وجميع الكون لنا وطنا

وهذه إشارة واضحة إلى المجد الغابر الذي عرفه الإسلام في بقاع كثيرة من العالم. وإنّ عقدة الأندلس عند المسلمين تحرّضهم وتدفعهم بقوة وبوضوح نحو العمل على استيطان أوروبا من جديد وأسلمتها وامتلاكها وإخضاعها إلى السيطرة الإسلامية. فمشكلة المسلمين التي تتمثّل في عقدة الأندلس هي أن أوروبا كانت فضاءً إسلامياً وأصبحت فجأة فضاءً مسيحياً، وهذا الفضاء الذي كان إسلامياً ذات قرون من الزمن يحلم الكثير من المسلمين باستعادته. وتبدو أوروبا للمسلمين حالة تاريخية خاصة ووضعاً استثنائياً في التاريخ الإسلامي، فتاريخ الفتوحات الإسلامية بشكل عام يشير إلى استقرار الفضاء الإسلامي واعتماد الإسلام كدين في البلدان التي وصلت إليها الفتوحات. ففتح بلاد فارس ومناطق في الصين وباكستان وغيرها أدّى إلى استمرار الوجود الإسلامي كدين لتلك الشعوب. إلا أن سقوط قرطبة وماتلاه من تصفية وذبح لأتباع الدين الإسلامي قضى نهائياً على وجود المسلمين في أوروبا وبالقوة والقتل والتهديد حيث أحلّت محاكم التفتيش بالقوة الديانة المسيحية محلّ الديانة الإسلامية في كافة مناطق أوروبا. وكانت هزيمة

المسلمين في الأندلس مأساوية للغاية إذ تمّ التآمر على المسلمين وذبحهم وتمت إبادة الظاهرة الإسلامية هناك إبادة تامة ربما لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، وتمت إبادة الفكر والعلم والفلسفة والنتاج الثقافي الأندلسي بكامله. ولعلّ مأساوية تلك المعركة النهائية تجعل بعض المسلمين يحلمون بالانتقام من الغرب ليعودوا إلى حيث كان مجد أجدادهم.

ثمّ إنّ مايزيد من استفحال هذه العقدة في زمننا هو أنّ أوروبا أصبحت غنية وقوية ومتحضرة وقوية النفوذ. وهي أيضاً من حيث موقعها بلاد الخصوبة والوفر والماء. فعيون المسلمين لاتتطلع مثلاً إلى بقعة فقيرة في أفريقيا كان قد وصل إليها الفتح الإسلامي ليستعيدوا مجدهم فيها. وتختلط الرؤية الإسلامية لأوروبا المعاصرة بعقدة الأندلس فيعتبر الكثيرون بأنه كان للإسلام فضل كبير على تطور أوروبا وعلى حضارتها الحديثة بالكامل.

وحتى اليوم تختلط الصورة الأوروبية الحديثة بصورة الأندلس الغابر في أذهان بعض المسلمين. فنزار قباني في قصائده الجميلة يرى أن حوائر ودروب غرناطة اليوم هي ذات طابع دمشقي خالص. بل هو يرى أنّ القطة التي رنت إليه هي حفيدة قطط الشام. ويكتشف في الفتاة الغرناطية التي جذبته أنها حفيدة طارق بن زياد. يقول نزار قباني في قصيدته:

" في مدخل الحمراء كان لقاؤنا

ماأجمل اللقيا بلا ميعاد

وجه دمشقي رأيت خلاله أجفان بلقيس

وجيد سعاد

... عانقت فيها عندما عانقتها

رجلاً يسمى طارق بن زياد."

نـزار قبـاني يعكـس صـورة التطلّع العربـي والإسـلامي نحـو الأنـدلس. فقـد وقـف نـزار في غرناطـة وقـال لأهلـها هـذه المدينـة هنـا كـانـت لأجـدادنا ، إنهـم كـانـوا هنـا وخلّفوا إرثاً وأحفاداً. ومنكم أنتم من هم أحفاد العرب.إذ يقول :

" قالت هنا الحمراء أرض جدودنا.

فاقرأ على جدرانها أمجادي

أمجادها .!؟

وصحت سنين سبعة في تينك العينين بعد رقاد.

ياليت فاتنتي الجميلة أدركت

أنّ الذين عنتهم أجدادي.."

ولعلّ نزار قبـاني وشعره هـذا يمثّل الرؤيـة العامـة الشـائعة عنـد العـرب والمسلمين تجـاه الأنـدلس. فهـو كـغيره يحمـل عقـدة الأنـدلس المؤلمـة.وهـو يتـألم بحسـرة كـبيرة وربما أكـثر مـن غيره على فقـدان ذلـك المجـد الغـابر. وتزيـد مـن اشـتعال حـرارة هـذه العقدة تلك القصـور والمساجد والـدروب الـتي مازالـت قائمـة ومازالـت تنطق بانتمائهـا العربي الإسـلامي.

وفي الشـارع الدمـشقي كـان آباؤنـا ينشـدون في مناسـبات عديـدة أهزوجـة تحمـل الحلم بامتلاك الأندلس وبقاع أخرى من أوروبا ، والأهـزوجة كـانـت في الأصـل موجّهـة للجنـرال الفرنـسي الـذي كـان منتـدباً علـى سـورية في الثلاثينيـات مـن القـرن الماضـي. تقول كلماتها :

"..خذ رجالك وارحل عنّا

وباريس مربط خيلنا.."

الإسبان اليوم شعب يعيش في موطنه وهو موطن أجداده الأوروبيين وبنفس الوقت فإنه ثمّة شعب آخر يتطلّع طوال قرون ولايتوقف عن الحلم وربمـا السعي عنـد البعض للعودة إلى امتلاك ذلك البلد. وبهذا تتضح معالم عقدة الأندلس عند الطرفين.

مهما تحدثنا عن نتائج اندحار العرب المسلمين عن الأندلس فلن نستطيع أن نصف هول تلك الحادثة. فذلك اليوم كان يوماً فاصلاً بين مرحلتين من الزمن: زمن ماقبل الأندلس وزمن مابعده. وذلك اليوم كان يرسم لمرحلة جديدة في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي كله. وهذه المرحلة مازالت قائمة حتى يومنا هذا.

عقدة الأندلس عند الأوروبيين

عقدة الأندلس والغزو الإسلامي لأوروبا مازالت ماثلة في أذهان الأوروبيين عموماً. وقد لمسنا أنّ هذه العقدة تحفّز في الأوروبيين دافعين اثنين وهما:

أولاً : دافع العدائية للمسلمين والعرب ويمثل هذا الدافع خوف الأوروبيين من عودة أوروبا إلى الفضاء الإسلامي. وانطلاقاً من هذا الدافع يستمر الغرب بغزواته المتتالية إلى بلدان العالم الإسلامي، ويستمر في دعم الكيان الصهيوني الذي صنع أساساً في الغرب وتمّ تصديره إلى قلب العالم الإسلامي ليبقى عنصر شغب وتخليف وحروب مستمرة. ونلاحظ من استطلاعات الرأي الكثيرة بأن حوالي ٤٠ ٪ من الأوروبيين يؤيدون إعادة غزو الغرب للبلدان الإسلامية واستعمارها وسلب ثرواتها. وهذا يعني أيضاً تخليفها ومنعها من امتلاك القوة التي تمكّنها من غزو أوروبا من جديد. وبالطبع فالأوروبيون ينطلقون في هذا الموقف العدائي من عقدة الأندلس نفسها.

ثانياً : دافع التفكير والتأمل بالتاريخ ودروسه، وهؤلاء الذين يمتلكون هذا الدافع ليسوا أقلة في أوروبا. ويتصاعد عددهم باستمرار. وقد كان هؤلاء يعانون من عقدة الأندلس الدارجة في أوروبا وفجأة يتأمل الواحد منهم تلك العقدة ويسعى لتبديدها، فيتسائل عن حقيقة الأحداث التاريخية وعن حقيقة مافعله المسلمون في الأندلس وعن حقيقة الدين الإسلامي نفسه. ومن هذه الفئة قسم يعتنق الدين الإسلامي ويتوصل لمبدأ الحوار الحضاري مع العرب والمسلمين. كما يكتب الكثير من الأوروبيين عن تاريخ الوجود الإسلامي في الأندلس ويعتبره فترة ذهبية كان لها الفضل في نهضة أوروبا كلها.

في تلك الفتوحات الإسلامية قتل من الأوروبيين أعداد كبيرة من المقاتلين المدافعين والذين كانوا يحاولون إيقاف الزحف الإسلامي على بلدانهم. ومازالت مقابرهم قائمة حتى اليوم، ومازالت النصب التذكارية التي تخلّدهم قائمة، وتؤدي دوراً بالتحريض والتذكير الدائم بذلك التاريخ، وهذه الذكرى تساهم في تثبيت عقدة الأندلس واستمرارها عند الأوروبيين. ففي جنوب فرنسا منطقة تسمى اليوم (الموت) (*la mourire*) وفيها مقابر لآلاف الجنود الفرنسيين الذين قتلوا في معركة كبيرة واستطاع المسلمون إثرها الزحف شمالاً حتى وقعوا في فخ معركة بلاط الشهداء المسماة بالفرنسية (*poitier*) ذلك التاريخ يراه الأوروبيون مؤلماً وهم مازالوا يخشون عودة متوقعة للمسلمين إلى بلدانهم. ويخشون حدوث مذابح لشعوبهم وتدمير لحضارتهم. ويكتب الكثير منهم اليوم معبرين عن هذه الخشية وعن مايعتقدونه وحشية وتخلفاً عند الشعوب الإسلامية التي ستدمر حضارة الغرب ومعالمه. ولسوء الحظ فقد جاءت اعتداءات القاعدة على برجي التجارة العالمي وفي أنفاق لندن وقطارات مدريد جاءت كعمل تدميري لحضارة الغرب ومعالمه الحديثة. وجاءت ضمن السياق الذي يخشاه الأوروبيون. ومن هنا نكتشف السبب الذي دعا الكثير من الغربيين إلى استذكار الصراع القديم بين الصليبية والمسلمين. والأوروبي بشكل عام يصعق اليوم عندما نفاجئه بذكر تاريخ العرب والمسلمين في الأندلس. وهذه الصعقة التي تعتريه على الفور والتي تجعله يخشى محدّثه العربي ويخشى الخوض في هذا الموضوع، هذه الصعقة تعبّر عن استفحال عقدة الأندلس في ذاكرته. فقد تخسر صديقاً أوروبياً إذا بادرته بالحديث عن أمجاد العرب والمسلمين في الأندلس أو عن فضل الحضارة الإسلامية على الغرب.

عندما اندحر المسلمون من أوروبا ارتكب الغرب مجازر إبادة قذرة بحق مواطنيه المسلمين. فقد جرت عملية تمشيط كاملة للمجتمعات الأوروبية وخلالها تمّت إبادة المسلمين بالكامل. وتم التمثيل بجثثهم وتقطيع أجسادهم وسحلهم وهم أحياء وحرق البعض منهم. وبهذه الطريقة البشعة التي تقشعرّ لها الأبدان تمت إبادة قرى بأكملها كان أهلها يعتنقون الإسلام ويتكلمون بالعربية والمازاران. وخشية من تلك المجازر

ارتـد الـكـثير مـن الغـربيين عـن الإسـلام واعتنقـوا المـسيحية ظاهريـاً ، واسـتمرت المسيحية في أبنائهم وأحفادهم إلى اليوم. ولم يتسنَّ لأولئك المرتدين في تلك العصور أن يعودوا إلى إظهار إسلامهم فقد كانت الكنيسة طوال قرون تتمتع بقوة وتهدد أي خروج عنها ، وكانت العقوبة شديدة القساوة ، وهي القتل والسفك والإبادة التامة لكل من يخرج عن هيمنة الكنيسة. ومن تلك الأحداث تولّد في أذهان الأوروبيين رعب وقلق وخوف: خوف من العودة إلى الإسلام ، وخوف من الإيمان بالإسلام وخوف من عودة ظهور الإسلام. ومجموع هذا يعني الخوف من الإسلام بكل مايحمله. وما هذه إلا ظاهرة عقدة الأندلس. واستمرت هذه العقدة حتى يومنا هذا ، ومازال الغربي يخشى عودة تلك المجازر التي ارتكبها أجداده الأوروبيون بحق المسلمين الحاكمين وبحق الأوروبيين الذين كانوا يعتنقون الإسلام.

فعقدة الأندلس عند الغربيين كانت نتيجة إرهاب الكنيسة المتطرفة للأوروبيين وإخافتهم من الإسلام ، أي أن عقدة الأندلس الغربية كانت صناعة غربية ولم تنشأ من إرهاب إسلامي لأنه لم يكن آنذاك أي إرهاب إسلامي للأوروبيين.

وفي عصرنا هذا صحت عقدة الأندلس نتيجة لعوامل كثيرة كانت بدايتها فيما فعلته جماعة القاعدة وتبع ذلك خشية الأوروبيين من تزايد نفوذ المواطنين المسلمين لديهم. فظهرت أصوات جديدة تتنبأ بإبادة المسلمين الأوروبيين مرة أخرى. وأصوات تتوقع حدوث حروب صليبية جديدة.

وتصدر عن بعض الكنائس الغربية وعن المتطرفين الغربيين الكثير من التصريحات التي تدلّ على معاناتهم من عقدة الأندلس.

فالغربيون يعتزّون كثيراً بقوميتهم وبانتمائهم الأوروبي وبفضلهم على العالم في الثقافة والصناعة والفنون والمدارس العديدة ، وهم يواجهون صعوبة في الاعتراف بتاريخ قديم هو تاريخ الوجود الإسلامي والعربي في بلدانهم. ومن هنا فأكثرهم يحاولون نسيان ذلك التاريخ ، ثم إن المناهج التاريخية الغربية الرسمية لاتعترف حتى اليوم بفضل المسلمين على الحضارة الغربية. ولأنهم اضطروا لدراسة نتاج ابن

سينا(Avicenne) وابن رشد وابن خلدون فهم يمنحونهم أسماء غربية بل ويمنحون ابن رشد (Averoee)هوية غربية فيعتبرونه فيلسوفاً غربياً فحسب.

وبسبب العقدة فإن العقل الغربي شديد الانحياز والتعصب لذاته، فتاريخ المجد الإسلامي في الغرب شديد الوضوح للناظرين ورغم ذلك فالغرب يصرّ على قراءته معكوساً، وحضور الآثار الإسلامية في غرناطة والحمراء يصرّ الغرب كله حتى اليوم أيضاً على قراءتها بشكل مغاير لما هي عليه. ويصرّ على ألاّ يرى فيها أية صورة حضارية. والتوحيد الإسلامي الشديد الوضوح والنقاء والذي لامثيل لوضوحه عند كافة الأديان يصر الغرب على ألا يكتشفه بل مازال يصف الإسلام بالإلحاد والوثنية. تلك الرؤى المنحازة ناتجة عن عقدة نفسية راسخة وعن مرض ثقافي متغلغل.

محرقة الموريسكوس مولّدة العقدة

عرفت الحمراء وغرناطة انفتاحاً إسلامياً على الآخر، وتعايشاً سلمياً ودياً بين الأديان السماوية الثلاث، ذلك التعايش والتسامح الذي لم تعرف أوروبا مثيلاً له منذ تلك القرون وحتى اليوم.فقد بني قصر الكازارا المسيحي آنذاك بأيدي عمال وفنانين مسلمين استقدمهم الملك لإنجاز ذلك المشروع. ونرى في ذلك الأثر المسيحي الذي مازال قائماً حتى اليوم نقوشاً إسلامية ودرع كاستيليا ذا المغزى المسيحي. وبنفس الطريقة استقدم مسلمون من غرناطة لبناء كنيسة اشبيليا. ثم استطاع ملك آراغون أن يوحّد اسبانيا بعد زواجه من الملكة. وفتح الباب للمحاكم الدينية المسيحية الخاصة بما سمي (معاقبة المرتدّين عن المسيحية) وهؤلاء هم الذين اعتنقوا الإسلام.

واستخدم مصطلح موريسكوس الذي كان يقصد به الذين اعتنقوا الإسلام والملقبين بالمرتدين عن المسيحية. وبدأت منذ عام ١٣٢٤ محاكمة هؤلاء (المرتدين) وحرقهم في محارق أقيمت لهذا الغرض. وبتوحّد الإسبان وبفضل تآمر الأمير (أبي عبد الله مع الملك فرديناند) واستطاعوا القضاء على الخلافة الإسلامية في جنوب اسبانيا. وبدخولهم غرناطة سلّم المتآمر مفاتيح المدينة للملك ولزوجته الملكة، وانتهى زمن المسلمين هناك. وراحت المحاكم الدينية الكاثوليكية تقضي على المسلمين. فقد

أمر المسلمون هناك وكان عددهم بضعة ملايين باعتناق المسيحية أو بالإبادة في المحرقة. وقد أبيد في تلك المحارق فعلاً عدة ملايين من المسلمين.

وتشير الدراسات التاريخية إلى أن السلطات الكنسية ظلّت تطارد المسلمين وتطارد الموريسكوس وتحرق بعضهم إلى أن أصبح عدد الذين عادوا إلى المسيحية حوالي نصف مليون شخص.

وهؤلاء لم يعف عنهم آنذاك بل ظلّوا يطاردون حتى تمّ نفيهم إلى أراضي السلطة العثمانية الإسلامية. تلك هي المحرقة التي أعدم فيها ملايين من المسلمين والتي سببت الفراق والخصام الطويل الذي مازال قائماً بين الشرق والغرب حتى يومنا هذا. وتلك هي المحرقة التي صنعت عند المسلمين وعند الأوروبيين عقدة نطلق عليها في هذا البحث اسم "عقدة الأندلس".

لقد ارتكبت المسيحية الغربية التجريبية آنذاك خطأً شديد الفداحة. وصنعت مذبحة رهيبة لايمكن أن يغفر لها تاريخ البشرية. كانت مذبحة ظالمة للغاية. لم يحدث أن ارتكب المسلمون أي نوع من تلك المذابح طوال التاريخ، ولا يمكن أن يحدث مثل ذلك في المستقبل.

فقد اقتيد مسلمون اسبان أبرياء آمنون إلى مذابح تحت راية الصليب المسيحي. واقتيدت النساء والأطفال جماعات جماعات وقطعت الرؤوس في المذابح الكنسية بكل يسر وهدوء. وأعلنت الكنيسة عن تمكنها من محو الظاهرة الإسلامية هناك.

فعندما يخشى الغرب من الإسلام اليوم فإنه في الوقت ذاته يخشى من أن يذبح الغربي الذي يعتنق الإسلام من قبل الغرب نفسه. فعقدة الخوف من الإسلام لاتقتصر على خشية الغربي من المسلمين فحسب بل خشيته الرهيبة والإساسية من الغرب السفاح الذي أباد الإسلام الغربي ذات مرة،

عندما تحدث توني بلير عن ظاهرة الحجاب النسائي الإسلامي في الغرب قال: " إنه من العصور الوسطى." وهذه العبارة تعني بدقة صورة نساء غرناطة وقرطبة اللواتي اعتنقن الإسلام في زمن المجد الإسلامي واللواتي اقتدن إلى المذابح والمحارق وأبدن

فيها. ومعنى هذا أنّ رئيس وزراء بريطانيا ٢٠٠٧ يذكّر الأوروبيين بخطورة أن يعتنقن الإسلام.!.ويلوّح لهم بتلك المذابح.

ومن مذكّرات القضاة ورجال الكنيسة الذين كانوا يحكمون على فلول المسلمين الأندلسيين بالإبادة نذكر أنهم كانوا يندهشون في الحكم على مواطنيهم إذ يجدون أنهم لايختلفون في العادات وبعض العقائد عن نظرائهم المسيحيين.

وكان القضاة يجدون مصاعب في معرفة المسلم وتمييزه عن المسيحي. وذلك الأمر يعنينا كثيراً، فهو يدلّ على التفاعل الاجتماعي الكامل والتسامح الديني والتفاهم بين أتباع الديانات.

إنّ مصطلح موريسكوس moriscos يعني الموت للإسلام. فكلمة مورت وتقرأ مور mort تعني الموت وهي المقطع الأول في المصطلح. وكلمة إسلام islam أخذ منها الجزء الأول من المقطع الأجنبي وهو المقطع الثاني في مصطلح موريسكوس. ويمكن للباحث تتبع تفاصيل رهيبة ومشاهدة لوحات نادرة وقديمة عن الموريسكوس في شبكة الأنترنيت وفي المراجع الغربية.

عقدة الأندلس في أدب العصر الوسيط

في أكثر نصوص الأدب الفرنسي الذي نتج في العصر الوسيط والمسمى بالفرنسية نجد انتقاداً للإسلام والمسلمين وهجوماً كبيراً عليهم. وهزءاً واستخفافاً بقصصهم وتاريخهم. وتروي النصوص والقصائد ملاحم شعرية لأبطال أوروبيين فتكوا برجال مسلمين في معارك تسميها تلك النصوص معارك الدفاع عن الدين والله والشعب والأرض. ومن بين أولئك الشعراء يهود فرنسيون. كما تميّزت فنون الرسم والنحت في العصر الوسيط بتمجيد بطولات الغربيين في دحرهم للمسلمين. ذلك النتاج الفرنسي القديم مازال يدرّس حتى يومنا هذا في المدارس والجامعات الأوروبية. وفي قسم الأدب الفرنسي بجامعة دمشق درسنا تلك النصوص واطّلعنا على تلك الفنون التي كانت تهزأ بأجدادنا المسلمين. ومن الطبيعي أن ندرسها نحن العرب

المسلمون. لكن لنكتشف الآن مدى تأثيرها على الطالب الأوروبي. إنها تعمّق في عقيدته الكراهية للمسلمين. وتمنحه صورة مزيفة عنهم. فتصورهم بأنهم ملحدون وكفار وقتلة ومتوحشون وكارهون. كما ترسّخ تلك الآداب في عقل الأوروبي عقدة الخوف من المسلمين وعقدة كره المسلمين. هذه العقدة التي مازال الغرب يتعمّد تثبيتها في مواطنيه بدأت اليوم تتجلي وبدأت تظهر لكل غربي حقيقة أن المسلمين مؤمنون وموحدون لله. وأنهم متحضرون ومحاورون للغرب وللمسيحية. ولعلّ لحظة انجلاء العقدة عند الغربي ترتبط بلحظة اكتشافه للإسلام. فالغربي يعرض اليوم عن ذلك الموروث الكاذب ويكفر به ويتحرر من عقده وزيفه ويتعرّف على الإسلام ومن هنا تكثر ظاهرة اعتناق الإسلام. وقد اخترنا صورة غلاف هذا الكتاب من فنون العصور الوسطى التي كانت تعادي المسلمين بشدة.

انتقال وانتشار عقدة الأندلس الغربية

لإدراك حالة العقدة عند الأوروبيين يمكن مقارنتهم بالروس أو الصينين أو اليابانيين أو الأفارقة السود. ففي المناطق التي ذكرناها لايحمل الناس ذلك العداء للإسلام والخوف منه مثلما يحمله الأوروبي. فالروس أصدقاء للمسلمين والعرب، واليابانيون والكوريون أصدقاء أيضاً. ولايتحاملون على الإسلام والمسلمين. ومن السهل التحاور معهم والتضامن معهم. وهم يقفون محايدين سياسياً عن مشكلة الأوروبيين في عدائهم للمسلمين فلا يدعمون إسرائيل ولا يتحالفون مع الصهاينة الغربيين. من خلال هذا التحليل نكتشف بأن الصهيونية كلها جاءت نتاج عقدة الأندلس الغربية. واستمرار الدعم الغربي للصهيونية هو استمرار للعقدة الغربية تلك. فقد صنعت الصهيونية في أوروبا وقام الغرب بتصديرها إلى قلب الوطن العربي وقدس المسلمين لتكون النزيف الدائم والحرب المستمرة بين المسلمين واليهود. وهذا مايبرر أنّ الغرب يسعى على الدوام لاستمرارية الصراع والحرب والاقتتال. فقد كان اليهود مكروهين في أوروبا ومازالوا حتى اليوم مكروهين. وكان الأوروبيون يسعون للتخلص منهم. فقاموا بإرسال اليهود إلى فلسطين. وهؤلاء اليهود الغربيون حملوا

معهم عقدة الأندلس الغربية. وقاموا بصهينتها وحاولوا تهويدها. وتشكلت عند أغلب اليهود المقيمين في أرض فلسطين عقدة جديدة ذات أصل غربي. ولهذا يستمر الصراع في المنطقة. كما حمل الأوروبيون المهاجرون إلى أمريكا وأوستراليا وكندا حملوا معهم عقدة الأندلس الغربية وأوروثوها لأبنائهم ولأحفادهم، واستمرت حتى اليوم في تلك الدول، ونلمس آثارها في المواقف السياسية لحكومات تلك الدول. لقد قامت حركة طالبان منذ سنوات بتدمير معابد وتماثيل بوذية مقدسة عند اليابانيين. ورغم أهميتها الدينية لديهم فلم يتحركوا ضد الإسلام والمسلمين، ذلك لأنهم لايمتلكون موروثاً معادياً للمسلمين.

نقصد بكلمة الغربي كلما نذكرها في هذا البحث إضافة لأوروبا الغربية أمريكا وكندا وأوستراليا والصهاينة الذين مازالوا يغتصبون أرض فلسطين.

نكتشف من هذا البحث ضرورة تحرير العقل الغربي من عقدة الأندلس القديمة والتي تبرر له معاداة المسلمين. وعندئذ سيزول الحقد الغربي على المسلمين وستزول السياسات الغربية المعادية للمسلمين، فلا نرى وقتئذ جنوداً غربيين محتلين لبلداننا. وعندما يزول الدعم الغربي للصهيونية سيعود هؤلاء الأوروبيون اليهود إلى بلدانهم وتعود فلسطين عربية إسلامية آمنة.

لتحرير الغربي من العقدة القديمة المزيفة والوهمية لابد من العمل الفردي في مجال الحوار مع الغرب على كافة الأصعدة. فكتابنا هذا يتحمّل جزءاً من مهمة الحوار مع الغرب ويعتبر أول مشروع صادم للغربيين الموهومين والذين رضعوا منذ طفولتهم العداء للمسلمين.

جذور معاداة الإسلام في الغرب

لمّا كانت عقدة الأندلس التي نقترحها تتمثل عند المسلمين بالسعي لغزو أوروبا فكرياً ودينياً مرة أخرى، ولما كانت عند الغربيين تتمثل بخشيتهم الدائمة والتي استمرت قروناً من الزمن، الخشية من عودة المسلمين ومن عودة الإسلام، فإن

الموقفين المتمثّلين في العقدة نفسها يمثّلان تفوقاً معنوياً عند المسلمين، يقارنه ضعف معنوي عند الغربيين يتمثّل بالخشية والخوف من الإسلام والمسلمين. فالمسلمون كانوا هناك ويحلمون بالعودة فاتحين. وفي الموروث الثقافي الغربي عداء كبير للمسلمين وللإسلام ويمكن تتبع عناصره التي استطعنا تتبعها واستقصائها كالتالي:

- تطغى على الموروث الثقافي الأوروبي سمة العقلية الغامضة والأبلسة، فبرغم تطور الغرب مازالت تسود على ثقافته الخرافات والأسحار والأفكار الشيطانية، وتلك تجعلهم مؤهلين للتوهم بأن الإسلام خرافة وبأن المسلمين قتلة ومرعبون. وما تلك الأوهام إلا تخلف حضاري وثقافي. ومرض نفسي حقيقي. وتلك هي العقدة.

- المجتمع الغربي مبتلى بداء الإهانة والحسد والغيرة ويمارس تلك العيوب تجاه المسلمين جميعاً. فمن الناحية الدينية يجد الغربي نفسه حاسداً للمسلم الواثق بدينه والمتكّل على الله والواثق بلقاء ربه. والممارس للعبادة والطاعة. وفي المجتمع الغربي عموماً ينجح المسلمون في أعمالهم وتجاراتهم ودراساتهم ويحصّلون أعلى المرتبات. ثمّ إنّ نسبة الجامعيين بين المسلمين أكثر منها في الوسط الاجتماعي العام. والمواطن الغربي الذي تمّ تأنيثه طوال عقود يشعر بالغيرة من العربي أو المسلم القادم من الخارج والقوي البنية والذي يمتلك قدرات تفوق قدرات الغربي بما في ذلك قدراته الجنسية. وكثيرة هي التصريحات التي نسمعها كل يوم والتي تعبر عن غيرة الغربيين من المسلمين ومن قدراتهم الكثيرة التي تفوق قدرات الغربيين، فقد تحدث نيكولا ساركوزي عن استفادة الجالية الإسلامية من الضرائب والجمعيات وتعويضات الأولاد.

- القلق الغربي القديم الذي مازال حاضراً من العرب والأتراك، فالعرب كانوا هناك، والأتراك العثمانيون كانوا هناك. ويعبر الغرب عن خشيته من عودتهم فقد صرح ساركوزي رئيس فرنسا مرات عديدة بأنه لن يسمح بأن تدخل تركيا في الاتحاد الأوروبي.

- تسود في المجتمع الغربي العقلية الصليبية القديمة المعادية للإسلام، والصدمة الصليبية من الإسلام، تلك التي أحدثت العقدة للغربيين.
- طوال القرون الماضية استمرّ الغرب في الإستعارة من الثقافة والفكر الإسلاميين، ومن تجارب وخبرات وأعمال المسلمين الناجحة التي تعتمد أساساً على إسلامهم، دون الإفصاح عن مصدر تلك الإستعارات ودون الاعتراف بصوابية الإسلام وفضله، وبالمقابل استمر المسلمون حتى يومنا هذا بالاعتقاد بعظمة الغرب وبالنهل من كل نتاجه الفكري والثقافي.

هذه العناصر هي التي تكوّن العقلية الأوروبية ولا يعني ذلك أن عداء الغرب للإسلام يجري في الدم الغربي كله. ولكن هذه العناصر متوارثة وهي التي تكوّن الذاكرة الجمعية للأمة. وإن هذه العناصر نفسها يمكن أن تستثمر في تعريف الأوروبي على عيوبه ومن ثمّ تعريفه بالحقيقة الإسلامية وبالتالي المصالحة معه بعيداً عن الأمراض الثقافية الموروثة.

نتاجات غربية تكشف عن الخوف من الإسلام

كثيرة هي النتاجات الغربية التي تعبر عن اتساع عقدته وخوفه من الإسلام. وقد اعتاد المراقبون المسلمون على الاحتجاج الفوري على تلك النتاجات وجعلها دليلاً آخر على استمرار العدائية بين المسلمين والغرب. ومن الممكن أن نقوم بتحليل تلك النتاجات وأسباب ظهورها واستمرارها. فتلك تعبير صريح عن حالة مرضية حقيقية عند الغرب وفي ثقافته وموروثه. وتتنوع هذه النتاجات المعادية للإسلام فنجدها في السينما والمسرح إذ قام أحدهم بقطع رؤوس ثلاثة أنبياء وعرضها على المسرح في مسرحية عرضت عام ٢٠٠٧ . وفي الرسوم الكاريكاتورية تجرأ الدانيماركي على رسم أشكال للشخصية العربية وادعى بأنه يقصد الرسول الكريم محمد. وفي مجالات الرسم والتصوير لايكفّ الغرب يوماً منذ عقود عن إظهار صورة الحجاب الإسلامي على أنها الشخصية المرعبة والمخيفة أو الأسيرة والسجينة، وتطالعنا هذه

الصور يومياً في وسائل الإعلام الغربي. تلك النتاجات وغيرها تزيد من تحامل الفرد الغربي على المسلمين. ولاتدل إلا على العقد المرضية في نفوس بعض الأوروبيين.

البروفيسور بورغات يعترف بالتمييز ضدّ المسلمين في فرنسا

يتحدث البروفيسور فرانسوا بورغات حول معاملة الحكومة الفرنسية للمسلمين المقيمين في فرنسا سواءً من ذوي الأصل المغاربي أو الفرنسيين الأصليين، فأبدى فرانسوا رأياً صريحاً بأن المسلمين يعانون من أنواع كثيرة من التفرقة ضدهم. وأضاف: لو لم يكن اسمي فرانسوا لاعتقلتني السلطات الفرنسية منذ زمن بعيد فهم لا يعجبهم أن ينتقدهم أحد بمثل انتقاداتي.

وإن معاداة الإسلام والمسلمين هي همّ وسائل الإعلام الفرنسية فصحيفة (Liberasion) الفرنسية نشرت خبراً عن قيام مسلم جزائري بقتل زوجته لأنه شك في سلوكها وأنه استند إلى القرآن الكريم في ذلك. يقول أحد الباحثين المسلمين بأنه اتصل بالصحيفة وطلب التحدث إلى المحرر المسؤول، وسأله هل يمكن أن تخبرني عن النص القرآني الذي استند إليه القاتل في قتل زوجته فها هو المصحف بين يدي ، ثم أضاف ولكني أجد أن القرآن لم يسمح له بقتلها وإنما طلب منه أن يأتي بأربعة شهداء وأن يرفع أمرها إلى القضاء الإسلامي. وهنا بدأ المحرر بتوجيه سيل من الشتائم للمتصل. وأضاف المتحدث أن يكون اسمك "محمد" أو "محمود" فمن المستحيل أن يتقبلك المجتمع الفرنسي.

خوف الأوروبي من قول الحقيقة الإسلامية

فيما مضى كان الكثير من الكتّاب والفلاسفة الغربيون يخشون البوح في امتداح الإسلام أو فكره أو رجالاته أو فضله على تطور البشرية. وبنفس الوقت كانوا ينهلون بوضوح من الإسلام ونتاجاته الكثيرة ويدرجونها في أعمالهم دون البوح عن مصدرها الإسلامي. وكان المتلقي الغربي يدرك أحياناً بأن هذه الحكمة التي

يتلقاها إسلامية وقد توجّب عليه هو أيضاً السكوت عن هذا الفهم للمصدر الإسلامي. وفي هذا الخضمّ كانت الحقيقة الإسلامية المذاعة تأخذ تدرج في الغرب على أنها شرح ديني جديد لجانب من تعاليم المسيحية أو يظنّها البعض إبداعاً فلسفياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو مسيحياً. وكان ناقل هذه الحقيقة الإسلامية وهو الذي يقدمها للجمهور الغربي يدّعي أحياناً بأنه هو المبدع لهذه الحكمة الجديدة.

لقد كان الخوف في التعبير عن الحقيقة الإسلامية شائعاً عند الأوروبيين عموماً. وكان متفقاً عليه تقريباً. وكان ظاهرة تعبّر عن زيف شائع وقد جرى الإتفاق على شيوعه في الغرب. لقد كان هناك شبه إجماع غربي يعتبر أن النهل من الفكر الإسلامي مباح واكتسابه ونقله مباح وبنفس الوقت ارتبط هذا كله بالإتفاق على عدم ذكر المصدر صراحة. وعندئذ كانت السلطة الحاكمة والكنيسة القوية توافق على ذيوع هذا الفكر والنتاج. فقد كانت العبارة الأولى في كتاب جان جاك روسو العقد الاجتماعي منقولة عن الفكر الإسلامي وعن مقولة عمر بن الخطاب الشهيرة.

يقول روسو: خلق الإنسان حراً فلماذا نستعبده.

ويقول عمر: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

وقامت الثورة الفرنسية معتمدة في شعاراتها الرئيسية الأولى على عبارة روسو الشهيرة هذه. وأصبحت فيما بعد أهم قوانين العدالة الاجتماعية في الغرب ومن ثم تم نقلها إلى العالم كله. وقد كان هذا المبدأ في أصله إسلامياً قرآنياً.

لم يكن بمقدور روسو في حينه أن يعلن عن المصدر الإسلامي للفكر الذي يطرحه. كان الغرب في تلك العصور خارجاً لتوّه من استبداد محاكم التفتيش الشهيرة التي استطاعت أن تدب الرعب في قلوب الأوروبيين جميعاً.

كان نتاج المسرحي الشهير وليم شيكسبير يحوي الكثير الكثير من الحكمة الإسلامية والفكر القرآني. والحقيقة فإن ميزان حكم شكسبير على أبطال مسرحياته جميعاً كان إسلامياً خالصاً. فلم يكن ميزان العدالة عنده مسيحياً ولا

يهودياً ولا فلسفياً. بل كان قرآنياً صرفاً. وكاد شيكسبير ينقل آيات قرآنية كاملة لكنه التزم عدم البوح بإعجابه بالإسلام.!!..

في مسرحيته تاجر البندقية انتقد الربا والجشع والابتزاز وخزن المواد والذهب عند اليهودي شايلوك من مبدأ إسلامي صرف. وفي مسرحية عطيل كان بطله مغربياً مسلماً. وكان المسلمون أقلة نادرين في أوروبا وكانوا يعانون من عنصرية وكراهية كبيرة آنذاك. فأعلن شيكسبير في مسرحيته بأن عطيل ارتكب جريمة قتل زوجته بعد أن اتهمها بالخيانة بسبب جهله بدينه وبسبب جهله بالحقيقة وبسبب انخداعه بمؤامرة. وفوق ذلك كله بسبب عادات اجتماعية متوارثة عنده وهي عادة قتل الزانية. ولم ينتقد شيكسبير الإسلام في تلك المسرحية بل أوضح بأن عطيل جاهل ومتهور ومخدوع. وإضافة إلى ذلك فقد أرسل شيكسبير رسالة للغرب مفادها بأن هؤلاء المسلمين المغاربة بواسل وأمناء ويحبون المجتمعات التي يعيشون فيها. ويعملون على خدمة السلطة والجيش المسيحي الغربي بوفاء كبير. وفي مسرحيته كليوباترا محاولة للتقريب بين الشرق والغرب.

أما فولتير بنتاجاته كلها وبتاريخ حياته الغريب فقد تبين لنا بوضوح أنه كان مسلماً تمام الإسلام. فمن المؤكد أن فولتير قد توصل في المرحلة الأخيرة من بحثه إلى اعتناق الإسلام. وربما لم يعلن عن إسلامه صراحة بسبب ذلك الخوف الشائع الذي كان حاضراً ومستمراً في أوروبا آنذاك. ففي روايته: كانديد التفاؤل. أكثر شخصياته كانت إسلامية والحكمة وميزان العدالة عنده كان إسلامياً. ودعوته للحوار بين الشعوب ولإيقاف الحروب والكراهية والغزوات ذلك أيضاً من الإسلام.

وكان آخر عمل لفولتير هو مسرحيته التي تحمل اسم (محمد) عرضت المسرحية لثلاثة أيام ومنعت في اليوم الرابع من العرض وتم توبيخ فولتير لأجلها. وحين حضرها أحد كبار رجال السلطة آنذاك قال : يخدعنا فولتير فنظن بأنه ينتقد الآخر ونكتشف بأنه ينتقدنا وينتقد المسيحية. وفي السنوات الأخيرة من حياته اضطهد فولتير فأقام في مزرعة خاصة به امتلكها وعمل بزراعتها وابتعد عن المدينة وانتقاداتها له. وحين وفاته لم تسمح الكنيسة بدفنه في مقبرة العظماء. ولم تؤدّ عليه

الصلاة الكنسية. ذلك لإدراك الكنيسة أنه كان قد اعتنق الإسلام. ومن الضروري الإشارة أن المصطلح الغربي الذي كان شائعاً في وصف المسلمين هو (الكفار أوالوثنيون) وكان يعرّف الإسلام بمصطلح الوثنية.

هذا الخوف القديم من قول الحقيقة الإسلامية كان من نتاج عصور الظلام الأوروبي. ورغم وجوده لم يمنع الأوروبي من قول الحقيقة الإسلامية تحت اسم مستعار. لكن ذلك أدى فيما مضى إلى استفادة الغرب من الإسلام بدون الإفصاح عنه. وموافقة الغرب على تحقيق هذه الفوائد بشرط عدم الإفصاح عن المصدر. وتلك الظاهرة كانت فيما مضى تشكّل عقبة كبيرة في طريق انتشار الإسلام في أوروبا.

وفي عصرنا هذا تغيرت أوروبا بعض الشيء، وتضاءلت هذه الظاهرة. وأصبح بإمكان الأوروبي قول الحقيقة التي يريد والإعلان عن مصدرها الإسلامي. ومن هنا بدأت تتهدّم حواجز الرعب الأوروبي من السلطة. وهذا سيساهم في انتشار الإسلام بسرعة مذهلة في الغرب كله.

عقدة الأوروبيين من الغزو الإسلامي لأوروبا

تكثر الأصوات الغربية المنتقدة والمستنكرة لما يسمى هناك بالغزو الإسلامي لأوروبا. والصورة هناك تفصح عن غزو ديني وفكري واجتماعي وثقافي لأوروبا وللغرب عموماً. وتحتجّ الصحافة والإعلام ويحتجّ الباحثون على ما يسمونه غزواً كثيفاً وتحدياً لأوروبا. كما تحتج المؤسسات الكنسية والدينية المسيحية والمؤسسات السياسية ممثّلة بالوزراء وغيرهم على هذه الظاهرة ويعربون عن قلقهم الشديد حيالها. ويقترح آخرون ضرورة وضع حدّ حاسم لهذا الغزو الإسلامي لبلدانهم. من ذلك التصريحات العنصرية لبعض الوزراء الغربيين. والانتقادات التي يوجهها الساسة وغيرهم للجالية المسلمة في دول الغرب. والحقيقة فإن النشاط الإسلامي الكثيف في دول الغرب والإقبال الكبير على الأسلمة واعتناق الدين أمور تقلق الغرب وتضعهم - رغم اعتقادهم بأنهم سليمون نفسياً – تضعهم في عقدة جديدة ظهرت لتوضح معالم عقدتهم القديمة عقدة الأندلس.

العقلية الأوروبية والإسلام

تتنوع المعتقدات في المجتمعات الأوروبية وقد أصبحت تعددية بالفعل كما كان نادى الملك البروسي فردريك الثاني في القرن الثامن عشر بأنه يجب أن يسمح لكل إنسان أن يسعى إلى الخلاص بطريقته الخاصة وقد حدث هذا بالفعل في أوروبا. إذ يمكنك أن تتبع الماركسية الجديدة أو أن لا تتبع أي دين أو تكون ملحداً ولا أحد يهتم بذلك ولكن عليك أن تحذر شيئاً واحداً : أن لا تكون مسلماً. وفي الحقيقة إن التعددية الحديثة وتسامحها المطلق يختفيان بحدة في وجه الإسلام. فالإسلام هو الدين والثقافة الوحيدة المحظورة في الغرب. ولمّا كان الغرب يمتلك محظورات غير مقنعة، وبنفس الوقت يفرضها على أبنائه فهو حالة مرضية.

فإن أردت أن تبني مسجداً فلا بد أن تتدخل البلدية بحساب كل متر من ارتفاع المنارة ويزعمون إجحافاً منهم بأن المنارة الإسلامية لاتناسب البيئة الأوروبية. ولو كنت مسلماً فعليك أن تحصل على تصريح للحصول على لحم حلال ويرفض طلبك في النهاية، بينما يستثنى اليهودي من الذبح بحجة أنه من الشعائر الدينية.

وفي الإعلام الغربي لم يطلق قط على هتلر بأنه "كاثوليكي" أو ستالين "النصراني الأرثوذوكسي"، ولم يطلق على فرانكو "الكاثوليكي الفاشي". ولكن إن ظهر مسلح عربي فسوف يطلق عليه " مسلم متطرف" حتى لو كان ملحداً أو شيوعياً أو نصرانياً فلسطينياً".

عقدة الخوف الأمريكي من العرب والمسلمين

رغم أحداث ١١ سبتمبر وأن منفذيها كانوا من العرب والمسلمين، لكنهم لم يستطيعوا تجنيد أي من الأميركيين الموجودين داخل الولايات المتحدة الأميركية، إذاً لماذا هذا الخوف من العرب الموجودين هناك؟ ولماذا دائماً الحديث بأنه ليس هناك نمط معين للإرهاب؟

خلص تقرير لشرطة مدينة نيويورك إلى نتائج مفادها أن الخطر الإرهابي الذي تواجهه الولايات المتحدة هو غير مرئي، ويكمن فيما يسمى بالإرهاب الداخلي، أي يعتبر كل الأشخاص مواطنين عاديين يقلقون الأمن. ما يركز عليه هذا التقرير هو المراحل التطورية التي تؤدي إلى التطرف، أي قبل أن يصل الشخص إلى مرحلة الإرهابي. ويتطرق التقرير إلى عدم جدوى تقديم صورة نمطية عن هؤلاء للتنبؤ بمن سيلتحق بصفوف الجماعات المتطرفة، وبالتالي فهو يضع الجميع في دائرة الاشتباه. هذا التصنيف يجعل الجالية العربية المسلمة في الولايات المتحدة هدفاً أولاً ودائماً وفي ذلك اضطهاد وعنصرية للمسلمين الأمريكيين.

يجب تفهّم عقدة الخوف الأميركية بعد هجوم ١١ سبتمبر يقارب الهجوم في الحرب العالمية الثانية الهجوم الياباني وخسائره فيجب تفهم العقدة، لكن لا نقبل تحول العقدة إلى عقدة ضد المسلمين أنفسهم بشكل عام .القضية أن دولة ثقافتها قليلة جداً خارج إطار الأميركي نفسه، والشخص العادي الأميركي لا يفهم أن هناك مسلماً غير إرهابي أو مسلماً لا علاقة له بالقضايا، يجب تفهم هذا الشيء، هذا الخوف الأمريكي من الإسلام ليس وليد أحداث أيلول. وإنما هو موروث الماضي القديم الذي انتقل من أوروبا إلى القارة الجديدة.

عقدة الغزو الثقافي الغربي عند العرب والمسلمين

يقف المسلمون باستمرار في جانب الحذر الشديد من الغزو الثقافي الغربي خشية تشويه ثقافتهم وفكرهم الإسلامي. وهذه الخشية قد تشمل بالخطأ أحياناً عناصر ثقافية من الممكن قبولها إسلامياً. فقد حرّمت العربية السعودية في الخمسينيات من القرن الماضي تدريس علوم الجغرافيا والفلسفة. وليس هذا الخوف والحذر بقديم. إنما هو جديد وغريب على المجتمعات العربية والإسلامية.

وتتعاظم هذه العقدة عند المسلمين العرب لدرجة أنهم يقومون بتفحّص كل مايأتي من الغرب من جديد في مقياس متعصب ودقيق ومتعسّف، حتى لو كان هذا الجديد (دمية) وفي هذا السياق انتقد الكثيرون شخصية باربي وتحدث الكثيرون

عن أضرار ثقافة باربي، مما سهّل على المستثمرين أسلمة باربي وذلك بتقليد هذه الشخصية في شخصية (فلة المسلمة المتحجبة). وفي إيران الإسلامية تم ابتداع شخصية أخرى بديلة عن باربي أيضاً.

تشير النصوص العربية الثقافية والفكرية والفلسفية والدينية القديمة إلى وجود علاقة فعليّة قويّة وحقيقيّة، ربطت الذات العربية فيما مضى بالذوات الحضاريّة الأخرى، حيث كانت عمليّة النَّهل من جميع الثقافات المبثوثة فى العالم أمرًا محببًا وجزءًا لا يتجزأ من تكوين الذات المجتمعية، حيث كان الاعتقاد العربي والإسلامي يرى أي علم مبثوث فى الكون هو ملك الجميع، ولا ينحصر فى أحدٍ دون سواه. وقد شكّلت حركة الترجمة والتأليف دورًا بارزًا فى نمو الحضارة العربية آنذاك، ولم تخش آنذاك الذات العربية من الغزو الفكرى أو الثقافي، لقد ترجم المسلمون كلّ مااطلعت عليه عيونهم ومااستطاعوا ترجمته بدون حذر أو منع أو حذف لأية نصوص أو أفكار. وينطبق على تلك الأزمنة الإسلامية مصطلح حرية التفكير والإعلام. وحدث آنذاك أن تأثّرت العديد من المذاهب الإسلامية بالفكر الفلسفي اليوناني، لكنّ هذا التأثر وأمثاله لن يحصل في هذا القرن، بعدما طويت صفحات الفكر اليوناني كلها وأصبحت من التراث العالمي البائد.

لم يكن المترجم العربى وقتها يخشى على هويَّته من الضياع، بل كان يعتبر أنّ كل علم منتشر فى الإنسانية هو جزء من كينونته.

وقد لعبت اللغة دورًا محوريًا فى هذا التواصل الحضارى والتفاعل الثقافي، انعكس فى طريقة الترجمة نفسها، مما ميَّز المترجمين العرب بقدرة عالية على هضم النصوص المترجمة، وتطويعها، واعادة انتاجها، بمفردات الثقافة العربية، حيث كان يبدو وكأن النص المترجم هو عربى الأصل والمنشأ والغاية والهدف، فقد كان المترجم يؤقلم النص ويضمّه إلى اللغة ويقضى على عناصر الغرابة فيه، الأمر الذى يوصف بابتلاع النص اسلوبًا ومضمونًا، بحيث يتم إدخال النصوص المترجمة فى دائرة الأنا "العربية" شعورًا بأنّ هذا النص هو ملكها ذائباً فيها، ومن ذلك أن كل مفكر عربي كان يشتغل بالفلسفة يذهب لابتداع تعريف جديد لها يتوافق مع فهمه

لها ومع توافقها مع الفكر الإسلامي. فذهب ابن رشد لتعريف الفلسفة وكان للفارابي تعريف آخر ولابن سينا تعريف خاص به.

ينقلب المشهد الثقافي اليوم ويتحول من تفاعل مع الحضارة إلى انفعال ومن "تواصل" إلى "انوصال"، فالذات العربية اليوم تعانى انجراحًا عميقًا لم يجد ترياقه بعد.

على صعيد اللغة، نحن اليوم لا نشعر أننا نرقى بالنص عندما ننقله إلى العربية، ولا نشعر بذوبان النص المترجم فى ذواتنا، ويبقى بعيدًا غريباً نافرًا عنّا، وإننا نريد المحافظة على تغريبه وإبعاده.ولانسمح اليوم للنص الغربي بالدخول إلى ثقافتنا. وحتى النص العلمي نجد فينا من يستبعده وينفيه.

بل وأبعد من ذلك، فنحن اليوم نرقى بالنص العربى عندما نترجمه إلى غير العربية! وهناك العديد من الكتّاب والمفكرين العرب ممن يعمد إلى الكتابة بغير العربية، لأن المرور عبر لغة الآخر هو الطريق المضمون للوصول إلى القارئ، بمن فيه العربي! وهذا يعود بالطبع إلى انبهارنا بالغرب نفسه الذي نستبعد ثقافته. ولعلّ أغلب هؤلاء الكتّاب الذين يعبرون من الغرب هم من المغرب العربي. لذلك تكثر المفردات الأجنبية المنقولة بحرفيتها فى نصوص المثقفين العرب، فالمثقف العربي لا يعترف بذاته إلا إذا اعترف بها الغير، ولا يقدّر أناه إلا بالقدر الذى يعترف الآخر بها، وهو يمارس كلّ ذلك فى الوقت نفسه الذى يعمد فيه إلى إقصاء الآخر وإبعاده والتعامل معه على أساس أنه "غازٍ وشرير ومتآمر".

انه لا بدّ من قلب علاقات القوّة التى تربط الحضارات بعضها البعض، وذلك من خلال تملك فعلي لثقافة الآخرين ومفرداتهم؛ "تملك" مبنى على إعادة إنتاج الأسئلة والأطروحات، والتحرر من الصور النمطية، والتحرر من شبح "الغزو الثقافي" ذلك أن المتاح اليوم لأية ثقافة ليس خصوصية مميزة ومتميزة، وإنما كيفيات وآليات خاصة، وطرق نوعية للمساهمة فى الثقافة الكونية والانخراط فى المعاصرة، وإقامة ثقافة حوارية فاعلة تستثمر الأصول، وتعيد إنتاجها وتتجاوزها في مرحلة متطورة، فتنعش

الفكر الإنساني وتشق له معابر وجودية، فاتحةً له دروبا "صاعدة"، ومحدثة توازنًا حضاريًا منشودًا.

لقد باتت مهمة مشاركتنا في التطور الثقافي الكوني ضرورة ملحّة لنا وللبشرية كلها. فالغرب يبث باستمرار كل نتاجه ويوصله للعالم كله. والغربي نفسه سئم من تكرار النمط الثقافي الغربي ومن زيفه وهو يطالبنا بإلحاح بأن نطلعه على تفاصيل نتاجنا الثقافي. ولأن المسلمين كأمّة إسلامية لم يقوموا بتنظيم أعمالهم ونتاجاتهم الفكرية ولأنهم عاجزون اليوم عن ذلك، فقد قام الأفراد الأقلة ببثّ أفكار على أنها ثقافة إسلامية. ويقوم باستمرار نشطاء وهواة الحوار الألكتروني بمحاولات للتعريف بالإسلام وفكره.

وإن الدين الإسلامي يتميّز بقدرته على الاستمرارية والحصانة من أية أفكار دخيلة، ولذلك فلاحاجة للمسلم بالحذر مما يطلق عليه مصطلح الغزو الثقافي. فقد ثبت أن الحوار الإسلامي مع الحضارات والفلسفات الأخرى يفيد تلك المدارس ويساهم بنشر الإسلام داخلها. ومن هنا فعلينا أن نرقى بتقبّل الثقافات الجديدة ونتحرر من عقدة الغزو الثقافي.

وقد ثبت بأن الغزو الثقافي المضاد لهويتنا ولإسلامنا إنما يدخل فينا رغم تمسّكنا بالحذر الشديد. فقد غزتنا حديثاً ثقافة الإبادة والتي هي من أصل صهيوني، ونحن نراها هذه الأيام منتشرة تتمثّل في أحداث العراق وفي الاقتتال الطائفي. كما غزتنا ثقافة الطائفية، وثقافة الأسطورة والخرافة، وكلها من أصل صهيوني وأوربي أيضاً. والحقيقة فإننا بفتح أذهاننا على الثقافات العالمية المعاصرة نصبح أكثر قدرة على تمييز الثقافة المضادة لنا، ونصبح أكثر قدرة على رفضها.

يجب أن نثق بقدرة إسلامنا على استيعاب الثقافات الغازية وتمريرها وفلترتها بسهولة، وبقدرته على التحصن من أي تشويه أو تغيير بسبب أية ثقافات غازية، فالإسلام أكبر وأعمق من كافة الثقافات البشرية التي ظهرت والتي من الممكن أن تظهر في المستقبل. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقضي على عقدة الخوف من أي غزو ثقافي.

معوقات فهم الإسلام في أوروبا

يهتم الإعلام الأوروبي باستمرار بالإسلام وبالظاهرة الإسلامية كلها، ويفرد لها مساحات واسعة من البحث والتحقيق. ورغم ذلك فمازال الإسلام غير مفهوم تماماً بالنسبة للأوروبيين عموماً، الإعلاميين منهم والمواطنين، وكذلك بالنسبة للمسلمين أنفسهم. ورغم أن عمر المواطنة الإسلامية في أوروبا يقارب القرن من الزمن. فإن المسلمين مازالوا يعانون من العديد من المشاكل مع الحكومات والإدارات في بلدانهم تلك. ويعود ذلك لأسباب عديدة نجدها عند الطرفين. فالغربيون يتعرفون على الإسلام من خلال قنوات كثيرة:

الإعلام والمطبوعات بأنواعها، وقسم كبير منها يعادي الإسلام، والقسم الذي لايتعمد معاداة الإسلام ويدّعي بأنه يعرّف بالإسلام والمسلمين نجده يجهل الإسلام وتفاصيله ويعطي صوراً خاطئة عنه. وهذا السبيل الغربي لم يصبح كفؤاً بأن يعطي لمواطنيه الصورة الحقيقية عن الإسلام.

المنهل الثاني الذي يعطي للغربيين صورة عن الإسلام هو المسلمون الغربيون أنفسهم، وهؤلاء كما سنكتشف من خلال هذا البحث لهم مشاكلهم الكثيرة، ومنها المشاكل الفكرية، وهم لم يرقوا حتى اليوم ليصبحوا صورة صحيحة عن الإسلام. فغالبيتهم يتمسكون بالموروث الثقافي والفكري والاجتماعي ويربطونه بالإسلام ويصدرونه للغرب على أنه إسلام. وعندئذ تصل للغربي صورة مشوهة عن الإسلام.

فخور بأنني مسلم بريطاني

انطلقت في مدينة لندن حملة إعلانات تهدف إلى التعريف بالإسلام ولإظهار المسلمين كعنصر مندمج وفعال في المجتمع. تعتمد الحملة على الملصقات والإعلانات الجدارية التي تظهر صور شخصيات مسلمة بريطانية وتحمل شعار "فخور بأنني مسلم بريطاني". تنظم الحملة جماعة "الإسلام سلام" او Islam is Peace التي

تقول إنها تهدف إلى تغيير النظرة السلبية التي يحملها البعض تجاه الإسلام ولتعريف الآخرين بأن المسلم مطالب بالتعايش السلمي في المجتمعات غير المسلمة. وتنشط الجماعة أيضاً في تعريف البريطانيين على الإسلام بواسطة موقعها الألكتروني باللغة الانكليزية. www_islamispeace_org_uk.htm

وهذه طريقة مثالية في تصحيح العقل الغربي بما يخص رأيه بالإسلام والمسلمين، وفي تصحيح الصورة السلبية عن الإسلام التي تشكّلت عند الغرب منذ قرون والتي بموجبها يتم اعتبار المسلمين ملحدين وكارهين وقتلة مجرمين. وستقوم مثل هذه الحملات بأدوار كثيرة نستشعر بعض معانيها:

١ – هي حملة تعريف بالمسلمين وبرفع التهم عنهم وبإصلاح الصورة السلبية عنهم.

٢ – من حيث لايدري البريطانيون فهي حملة أسلمة لهم. ومن المؤكد أنها ستؤدي إلى اعتناق البعض على الأقل للإسلام، وهذه الحملة من خلال نتائجها تعني أن أصحاب القرار الأوروبيين واقعون في أزمة القرار، فهم من ناحيتهم يدأبون ليل نهار لمنع أسلمة أوروبا وللوقوف مقابل هذه الموجة الإسلامية المتصاعدة. فالحكومات والسلطات والكنائس والأحزاب والبلديات كلها تنشط في الوقوف بوجه موجة الأسلمة. وبنفس الوقت فكل تلك الكيانات مضطرة للموافقة على مشروع كهذا يهدف وفق برنامجه إلى التعريف بالمسلمين البريطانيين ودعوة الجميع للتحاور والتعايش. إنهم من حيث لايدرون يعززون الإسلام في بلدانهم وهم أيضاً مضطرون لتعزيزه، وعلى هذا فلن يكون المستقبل الأوروبي إلا لصالح المسلمين.

٣ – هذه الحملة تدل على وجود مشكلة كبيرة في بريطانيا، وهي معاناة المسلمين هناك من التمييز والفوبيا، وتدل على أن السلطات المتعددة في بريطانيا على الأقل تشعر بعمق الأزمة وباستفحالها وببلوغها درجة الذروة. ولذلك تمت الموافقة على حملة إعلامية كبيرة.

احتجاج كنسي على انتشار الإسلام

في وسط ألمانيا وفي باحة الكنيسة الإنجيلية في ساكسونيا عبّر رجل الدين المسيحي رولاند ويسيلبيرج عن احتجاجه على تضاؤل نسبة المسيحية وتحوّل الشبان إلى الإسلام بانتحاره . حيث صبّ على جسده الكاز وأشعل النار بنفسه. وترك وصية واضحة يقول فيها إنه قلق من الانتشار السريع والمتزايد للمسلمين في ألمانيا ، وأنه كممثّل للكنيسة عجز عن منع تلك الظاهرة أو تخفيفها.

وفي احتجاج آخر عبّرت الكنيسة البابوية غير مرة عن قلقها من انتشار الإسلام في أوروبا. وحذّرت بشدة بأنها لن تسمح بأن تتحول أوروبا إلى الإسلام.

خوف آخر من المسلمين وليس من الإسلام

إنّ قسماً من الأوروبيين يعبّرون عن خشيتهم من قوة المسلمين أو قدرتهم على التسلّط على أوروبا. وهؤلاء يعلنون أنهم لايخشون من الإسلام نفسه بل من المسلمين ومن تصرّفاتهم المحتملة ، وهم يسترجعون ذكريات وأحداثاً ثابتة سمعوا عنها في تاريخهم القديم تتحدث عن معارك طاحنة قتل فيها آلاف من الأوروبيين. وهم يستشهدون على مخاوفهم بجرائم حديثة ارتكبها المتطرفون كتفجير قطارات مدريد. وهؤلاء يعلنون عن إعجابهم وتفهمهم لكثير من المفاهيم الإسلامية. إنهم لايخشون من الإسلام نفسه وإنما يخافون من جرائم كبيرة ووحشية يتنبؤون بأن المسلمين قد يقومون بها.

وأمام هذا الواقع يتوجّب على المسلمين المبادرة بطمأنة المواطن الغربي ، وبتعريفه بسماحة الإسلام مع مواطنيه جميعاً. ويتم ذلك التعريف بتصرفات الأفراد كأداء شخصي وفردي وبأعمال الجمعيات والمؤسسات الإسلامية المتعددة. وفي هذه المناسبة ندعو المتطرفين الإسلاميين لأن يكونوا عامل طمأنينة وسلام وحوار مع الغرب ، وأن يتوقفوا عن تهديد الغرب وعن ارتكاب أعمال إرهابية ترعب مواطنيه. وفي حالات قليلة يتطرق بعض الغربيين إلى الإسلام نفسه ويتهم هؤلاء الإسلام بأنه بجهاديته

يتحمّل عبء مايفعله المتطرفون. ومن الطبيعي أن نحكم على الذين يخشون من المسلمين بأنهم يحملون خشية من الإسلام نفسه، وذلك بسبب عدم فهمهم للدين الحنيف.

مصطلح الفوبيا وعقدة الخوف

ابتدع تعبير الفوبيا من الإسلام وأطلق استخدامه في ١٩٩٦ على يد "لجنة المسلمين البريطانيين. والفوبيا من الإسلام." تعني الكلمة أو التعبير "الخوف الذي لا مبرر له من الإسلام" ولكنه يستخدم ليعني "التعصب والتحيز ضد المسلمين" وهو ينضم لمجموعة تزيد عن أكثر من ٥٠٠ نوع من الفوبيا أو المخاوف المرضية التي تغطي كل جوانب الحياة تقريبا.

لقد نال المصطلح درجة من القبول اللغوي والسياسي إلى حد قيام السكرتير العام للأمم المتحدة برئاسة مؤتمر بعنوان "مواجهة الفوبيا من الإسلام" في ديسمبر ٢٠٠٤ فضلاً عن إدانة قمة المجلس الأوروبي للفوبيا من الإسلام. ويعتقد بعض المحللين المسلمين وغير المسلمين في الغرب بأن مصدر الفوبيا والمعاداة والكراهية إنما نشأ من قبل المسلمين الغربيين وأن أبناء الغرب وكردّة فعل منهم أخذوا يمارسون معاداة الإسلام والمسلمين، وهي الظاهرة التي أطلق عليها مصطلح الفوبيا الإسلامية.

فقد تحدثت الصاندي تايمز عن قيام جماعة حزب التحرير في عملية تشهير داخل الجامعات البريطانية تحت اسم "أوقفوا الفوبيا من الإسلام".وقالت الصحيفة:

"يسعى حزب التحرير في بريطانيا إلى فرض القانون الإسلامي على العالم ويتبنى هجمات انتحارية ضد الإسرائيليين. وهو بأعماله يواجه التحريم والإبعاد في بريطانيا العظمى".

يطرح هذا المصطلح العديد من المشاكل على الرغم من ذلك. أولاً ما معنى القول إن الخوف من الإسلام "لا مبرر له" بينما يمثل المسلمون الذين يعملون باسم الإسلام المصدر الأول والأساسي للعدوان، سواء اللفظي والبدني، على مستوى العالم

ضد غير المسلمين والمسلمين على حد سواء؟ ما يتساءل عنه المرء هو ما هو القدر من الخوف من الإسلام الذي له مبرر؟

وهناك تحيز وتعصب ضد المسلمين، إلا أن مصطلح "الفوبيا من الإسلام" يخلط ويدمج وبطريقة مخادعة بين ظاهرتين متميزتين: الخوف من الإسلام والخوف من الإسلام الراديكالي المتطرف.

اعتاد المروجون لمصطلح "الفوبيا من الإسلام" على المبالغة والتهويل في حجم المشكلة ويقال إن المسلمين البريطانيين يعانون من التمييز الدائم في دوائر الشرطة.

ومن الناحية الثقافية: يدعي رئيس المدرسة العليا للعلوم الإسلامية والاجتماعية بفيرجينيا طه جابر العلواني أن المسلمين "يواجهون فيضاناً قوياً من الأعمال الأدبية المعادية للإسلام تدعو لكراهية الإسلام، روايات وأفلام وكتب وأبحاث ودراسات. هناك ما يقترب من ألف رواية من هذا النوع من بين فقط الروايات الأكثر مبيعاً." ألف رواية من الروايات الأكثر مبيعاً؟ أمر يصعب تصديقه.

وتتحدث الصاندي تايمز متهمة الإسلامية بتوليد الفوبيا وتكتب:إن تلاعب حزب التحرير بعبارة "أوقفوا الفوبيا من الإسلام" إنما يكشف عن خداع تضليل هذه العبارة. ومن الواضح جداً أن هدف هذه الحملة هو محاربة التحيز والتعصب ضد المسلمين في أعقاب تفجيرات لندن، ولكنها تستشهد *بأنتوني جليز* من جامعة برنيل بلندن في القول بأن جدول الأعمال والأهداف الحقيقي هو نشر اتجاهات معاداة السامية ومعاداة الهندوسية ومعاداة المثلية الجنسية ومعاداة الأنثي، وإثارة الاستياء والغيظ من التأثيرات الثقافية الغربية. وتقول صحيفة الصانداي تايمز في نهاية المقال: على المسلمين أن يتوقفوا عن استخدام هذا المصطلح سيئ السمعة وأن ينصرفوا إلى دراسة استبطانية جادة لأفكارهم ودوافعهم ومشاعرهم. وبدلاً من لوم الضحية المحتملة على خوفها من جلادها، من الأفضل لهم تأمل الطريقة التي حوّل بها الإسلاميون المتطرفون إيمانهم الديني إلى عقيدة تحتفي وتحتفل بالقتل (القاعدة التي تقول: "أنتم تحبون الحياة ونحن نحب الموت") وابتكار وتطوير استراتيجيات من أجل خلاص وإصلاح دينهم عن طريق مقاومة وقتال هذه الشمولية.

متطرف يهودي يصف الإسلام بالفاشية

استخدم الناشط المتطرف ديفيد هورويتز صوراً مزيفة للتنديد بعملية رجم الزانية في الإسلام، في إطار حملته ضد ما يصفه بـ"الفاشية الإسلامية"، في حين أن الصور مأخوذة من فيلم هولندي أُنتج في ١٩٩٤.تمّ وضع الناشط الأمريكي على رأس قائمة أسوأ الأشخاص في العالم؛ لاستخدامه إحدى الصور الترويجية في حملته ضد الإسلام قائلاً إنها تشير إلى عملية دفن فتاة إيرانية تمهيداً لرجمها.

واعتبر أن هورويتز يروج للكراهية والحرب من خلال حملته المعروفة باسم "أسبوع التوعية ضد الفاشية الإسلامية" في الجامعات الأمريكية. وكان الناشط المتطرف ديفيد هورويتز، قد أعلن عن عزمه القيام بحملة للتوعية بالفاشية الإسلامية، تستمر أسبوعاً من ٢٢ تشرين الأول ٢٠٠٧وقال هورويتز، " سوف تهتز الأمة بأكملها لأكبر حملة احتجاج محافظة في الحرم الجامعية، في أسبوع التوعية بالفاشية الإسلامية، وهي دعوة لإيقاظ الأمريكيين في مائتي حرم جامعي وكلية."هذه هي الفوبيا التي يواجه بها المسلمون في الغرب. والتي تجعلهم يقلقون باستمرار وينشغلون ليل نهار في مواجهة سيل هادر من الاتهامات، بينما عربنا يقفون متفرجين وأحياناً لاتصلهم أخبار مايحدث في الغرب.

عقدة جدار الحماية عند المسلمين

العرب والمسلمون المغتربون هم وحدهم من بين الشعوب الأخرى الذين يجدون صعوبات في الامتزاج بالمجتمعات الغربية رغم أنهم اختاروها وفضّلوها عن المجتمعات العربية والإسلامية التي كانوا يعيشون فيها. وهم يمتعونً حقيقة من الانصهار في المجتمعات الغربية.وبنفس الوقت فهم جميعاً و بكل فئاتهم وبفضل تجربة الغربة يصفون مجتمعاتنا العربية بالتخلف والفقر وينتقدون كلّ مظاهرها.

إنهم عندما يعيشون في الغرب يتعاملون مع مظاهره وحضارته وفق أسلوب رافض للغرب كله، وهناك يحددون هويتهم الأولى ويتمسكون بكل عناصرها. وعندما

يـزورون بلـدانهم الأصـلية، فـانهم ينتقـدون المجتمعـات الـشرقية، ويـصفونها بـالتخلف الـكـبير ويتـصنّعون شخـصيات متـأثّرة بالطـابع الغربـي. ذلـك الغـرب الـذي يرفـضون معاييره ويرفضون الذوبان في مجتمعاته عندما كانوا جـزءاً منـه. وإن في ذلـك تـاقـضاً كبيراً عند أولئك الأشخاص.

إنّ العرب والمسلمين الذين قاموا بتدمير مركـز التجارة العـالمي امتلكـوا ميـزات وترحيبـاً في الولايـات المتحـدة كانـت تؤهلـهم للعـيش المـشترك والمتـساوي مـع مئـات الملايـين مـن سـكانها. وإن تلـك الميـزات كانـت جـديرة بـأن تجعلـهم يتفـاهمون مـع المجتمع الأميريكـي كغيرهـم، ويعـدلون عـن تنفيـذ الهجـوم الكـبير. فقـد اسـتخدموا كافة الوسائل الحضارية الغربيـة وربمـا دخلـوا مبنـى التجـارة العـالمي وانبهـروا بعظمـة بني البشـر الذين استطاعوا تشييده، وانبهروا بقدرة الغـرب علـى تسخير العلـم لفائـدة البشر. لكن لماذا لم يتكيف أي واحد من هؤلاء مع المجتمـع الأمريكـي ولم ينـصهر ضمنه.؟؟ ذلك لأنه أقام جداراً عـازلاً بينـه وبـين الغـرب كلـه. وإنّ المعلمـة الـتي كانـت تـدرّس محمـد عطـا في معهـد الطـيران تحـدثت عـن طالبهـا وأبـدت عـدم تفهمهـا لعملـه الانتحاري، وبدت شـديدة الدهـشة مـن عملـه، بـل إنهـا بـدت تعجـز عـن تـصديق قيامـه بذلك العمل. وقالت:

" كـان طيلـة فـترة الدراسـة ذكيـاً ونـشيطاً ومتعـاملاً (أي أنـه كـان متفهمـاً للمجتمع الأمريكـي) لكنـه في الزيـارة الأخيرة لـه حمـل شـهادته ومـضى مـسرعاً دون وداع" (أي دون مجاملات طبيعية).

وبهـذه الكلمـات تعبّـر تلـك المعلّمـة عـن شـيء لم تفهمـه في حينـه ألا وهـو الجـدار الذي كان ينصبه محمد عطا ليظل باستمرار حـاجزاً بينـه وبـين المجتمـع الأمريكـي. بل إن تدميره لمركـز التجارة العـالمي، والأحـداث الأخـرى المشـابهة لهـي خير دليل علـى وجود هذا الجدار عند كثير من المتطرفين. للتأكيـد نقـول: إننـا نتحـدث عـن ظـاهرة نعتقد بوجودها عند بعض المسلمين وليس كلهم.

عندما جاءت الرسوم الكاريكاتورية من الدانيمارك لم يجرؤ أحد من المسلمين على التحقيق في تلك الرسوم، رغم أنّ ذلك العمل كـان سيعطي فوائـد عامـة في فهـم

ذلك الحدث وذلك الاعتداء. هل جاء أحد من المسلمين إلى تلك الرسوم وأجرى عليها دراسة فنية ودراسة نقدية كاريكاتورية خاصة بذلك الفن، وتلك الدراسة كانت ضرورية ولاشك. لكن المسلمين بشكل عام أجمعوا على منع إظهار تلك الرسوم ومنع نشرها واكتفوا باغلاق جميع الأبواب. بل واعتبروا كل اجتهاد أو تحليل جريمة محرّمة. وهنا وضع المسلمون جدار حماية لاضرورة له. لقد تجرأت صحيفة أردنية وأدرجت بعض الرسوم الكاريكاتورية تلك وقامت بالتعليق عليها وبانتقادها، وكان ادراجها كنوع من الإيضاح، ورغم ذلك فقد حكم على الصحيفة وعلى رئيسها. وتمّ تجريمه. ولعلّ هذا الحظر وهذا المنع هو جدار الحماية الذي يعتبر كلّ المسلمين أطفالاً ويخشى على انزلاقهم في الكفر والردة. لكنّ المسلمين ليسوا كذلك على الاطلاق. صحيح أنه تم الاتفاق على منع نشر الرسوم الكاريكاتورية لكن وبنفس الوقت فان نسبة الذين رأوها تزيد عن ٤٠ ٪ من عدد المسلمين في العالم كله، ورغم ذلك لم يتأثروا بها.أي أن لاخوف حقيقي عليهم من رؤيتها، ولاخوف حقيقي من نشرها. لكننا نرفضها من منطلق آخر وهو صدورها من الجانب الغربي كموقف طائفي معاد للإسلام وللمسلمين. وموقف استفزازي وتحدّ سافر للمليار ونصف المليار من المسلمين.

لماذا نقيم جدار الحماية ؟

نحن اليوم أقلّ انفتاحاً على الآخر مما تنصّ عليه الآيات القرآنية الكريمة، ونحن أقل انفتاحاً من مواقف وتعليمات رسولنا الكريم محمد عليه السلام. فالقرآن يتحدث في آيات كثيرة عن المسيحية ويخصص سورة كاملة باسم سورة مريم عليها السلام ويذكر المسيح باسمه خمساً وعشرين مرة. والرسول الكريم حاور المسيحية وأوصانا بها خيراً.

الإسلام وتعاليمه منفتح على الآخرين كل الانفتاح، فالقرآن نفسه يعرّفنا بالآخر الذي هو يهودي ومسيحي ووثني. وتروي لنا الآيات القرآنية الكريمة أخبار وتواريخ تلك الشعوب، وتطلعنا على عقائدها. وهذا انفتاح واسع على الآخر، وهو

يفيدنا في عدم الخشية منه وفي حمل الجرأة على مناقشته ومحاورته والتعرف على أموره وعقائده. ويأمرنا القرآن الكريم والرسول بالسفر والسعي والتعلم والعمل في كل بقاع الأرض. يقول الرسول العظيم: ".. اطلبوا العلم ولو في الصين.." وهذا الحديث يحمل ضمناً أمراً بالتعامل الطبيعي مع الآخر دون وضع جدار حماية.وأن يذهب واحد من الجيل الإسلامي الأول إلى الصين ليقيم فيها ويتعلم أحد علومها، فذاك يعني أن يتكيف مع الأفراد الذين يعيش معهم طوال فترة إقامته هناك، بشرط أن يلتزم بعقائد الإسلام وشرائعه فحسب. وإن الفاتحين المسلمين الأوائل الذين دخلوا بلاد الشام وشمال أفريقية وأوروبا وبلاد آسيا، كان همّهم الالتزام بالإسلام ونشره بين الشعوب، وبنفس الوقت فقد كانوا يوافقون على اقتباس كل مايرونه جديداً ومفيداً ولايتعارض مع عقيدتهم. وكانوا أيضاً قابلين للتكيف مع المجتمعات الجديدة التي أقاموا فيها. فالخلافة الأموية التي كان مركزها دمشق، وازدهارها الكبير آنذاك إنما حصل بفضل عوامل عديدة، وكان من بينها: اعتماد الإسلام كمنهج وعقيدة وقوانين حكومية. وثانيهما هو الاستفادة من كافة خبرات وتجارب وحضارات تلك الشعوب التي امتزج بها المسلمون وتكيفوا معها في الشرق والغرب والشمال والجنوب. فبلاد فارس لم تتحول آنذاك إلى نموذج للسلطة الإسلامية التي كانت في مكّة والمدينة. بل بقيت بلاد فارس بكل خصائصها وزاد على تلك الخصائص التزام مواطنيها بشرائع الإسلام. وكذا بلاد الأندلس وشمال أفريقيا وغيرها، فقد ظلت كافة تلك الشعوب ملتزمة بصفاتها الاجتماعية وعاش معهم العرب الفاتحون وفق أنظمة وعادات تلك الشعوب، وبنفس الوقت تحلّت بالإسلام. ولم يكن المسلمون الأوائل يتمنّعون عن التكيف في المجتمعات الجديدة، ولم يضعوا جدار حماية بينهم وبين تلك الشعوب كما يفعل اليوم بعض من مسلمينا.بل وبفضل ذلك الانفتاح الكبير استطاع الفاتحون الأوائل نقل الإسلام إلى تلك البلدان الكثيرة. وإنّ الانفتاح على الآخر بغية فهم مذهبه واعتقاده يتطلب من المسلم أن يفتح ذهنه لفهم الآخر. وهذا يتضمن منح الآخر فرصة التعبير عن مذهبه أو ديانته أو فكره. وهذا يوجب علينا أن نستقبل كل المعلومات التي توجه إلينا استقبالاً طبيعياً، لأن قطع هذا الاستقبال سيؤدي إلى قطع الحوار كله. وعندئذ يقام الجدار بيننا وبين

الآخر، وتحدث القطيعة وسنخسر ثمرات كبيرة كنا سنحققها من الحوار الحقيقي معه.فلربما كان سيضم موقفه إلى موقفنا ولربما كان سيتحول إلى الإسلام عندما يكون الآخر غير مسلم.

فهم الآخر بدون جدار الحماية

إننا لن نتوصل إلى فهم الآخر أبداً إذا أقفل المتحاور ماكينة المعالجة الذهنية لكل ماهو مرتبط بالمذهب الآخر أو الدين الآخر. فلا يمكن أن نكتفي باستقبال المعلومة المرسلة إلينا. بل يتوجب علينا أن نعالجها في أذهاننا معالجة صادقة وحيادية ومعالجة حرة:

مثل ذلك قول أهل السنة بأن الشيعة يصلّون على القرص، وهذا القول يحمل عند السنة ويصدّر معاني وثنية يتم اتهام الشيعة بها، اذ يفهم البعض بأن القرص هو الهدف.!! وهنا ندخل في الخلافات والاتّهامات. لكن يتوجب على السني أن يسعى لفهم الرأي الشيعي بهذا القرص، عسى أن يقلل ذلك من المشكلة والاتهام. وفي محاولة التعرف على المسيحية يجب على المسلم أن يتغاضى بادىء الأمر عن عقيدة الثالوث المسيحي. وأن لايجعلها جداراً منيعاً يعيق تحاوره مع المسيحية. وفي مشروع الحوار الإسلامي المسيحي يتعين على المسلم هدم الجدار المعيق لهذا الحوار والذي يشمل تاريخ الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية. وأعمال جنود الغرب الأخيرة في العراق وأفغانستان، هذا إضافة إلى عقدة الماضي القديم الذي اندحر فيه المسلمون عن أوروبا. فإذا استمر الشخص باعتبار أوروبا عدواً لن يتسنى له الحوار مع أي غربي على الإطلاق. بينما حين ننتزع هذا الرأي من أذهاننا يتيسر علينا المحاورة والتوصل إلى نتائج مفيدة. فنحن نلاحظ أن في الغرب الكثيرين ممن يعتنقون الإسلام. وهذا خير دليل على إمكانية التحاور مع الغرب.

نتائج جدار الحماية

إن خوف المسلم وخشيته من التعرف على فكر الآخر جعله ينصب جداراً يمنع حدوث أي تمازج فكري معه.وبالتالي فقد أصبح هذا الآخر مجهولاً وغير معروف في ذهن هذا الشخص وأصبح من السهولة قبول كل الأطروحات الطائفية التي تتهم الآخر. وعلى هذا فإن كل مسلم وافق على تصديق الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وقام باتهام المذهب الآخر وتكفيره، إنما فعل ذلك بسبب جهله بذلك المذهب وبعقيدة أتباعه.ومن هنا توجب علينا جميعاً أن نتعرف بديمقراطية فكرية على المذاهب الإسلامية وعقائدها بهدف الاستنارة والتواصل. وبهدف أن يشعر كلّ واحد منا بالانتماء إلى الإسلام الواحد.

اليهودية في الغرب لاتقيم جدار حماية ولذلك استطاعت أن تتوغل في أعماق الحياة الاجتماعية الغربية كلها. وفي أعصاب السياسة والاقتصاد والمال وغيرها.بل تدخّلت في خصائص العقيدة المسيحية.

جدار الحماية يمنع أو يحد من تعرف الآخرين على الإسلام وبالتالي يتعذّر فهم الإسلام وتقبله عندهم. ولو أننا لم نكن نقيم هذا الجدار لكان الإسلام سيحقق انتشاراً واسعاً في البلدان الغربية. فقد استطاعت اليهودية أن تتداخل في الديانة المسيحية وتنشئ مذهباً دينياً عالمياً جديداً، وهو المسيحية الصهيونية التي انتشرت في الولايات المتحدة وأوروبا. حدث هذا رغم أن اليهودية ديانة محرّفة ومشبوهة وضعيفة، ولعلّ أعظم عقائدها هي هيكل سليمان وأرض الميعاد والمحرقة وحرق القرابين. فيما نحن المسلمين نمتلك ديانة موسوعية في كل المجالات المعرفية، ونمتلك جدارة في إيصال الإسلام إلى كافة البشر.

عقدة جدار الخوف عند المسلمين

تكوّن جدار الخوف عند الأفراد من خشيتهم على أن تؤدي الأفكار الأخرى الجديدة (التي قد تدخل أذهانهم)إلى تغيير مذهبهم أو عقيدتهم أو دينهم. وبنفس

الوقت فإن مشايخ وفقهاء المذاهب الإسلامية يعمدون عادة إلى توليد هذه الخاصية في أذهان المسلمين.ويعتبرونها الجدار الواقي والحافظ للعقيدة الدينية عند الفرد وفق الدين والمذهب. وقد ازدادت متانة هذا الجدار حتى أصبحت التربية البيتية والمدرسية تعززه وتقوي أسسه، ونتج عن ذلك أن ابتلي الفرد بطبع يمنعه من قبول أي جديد. وإن الأحداث التاريخية الكبيرة (ومن بينها ظاهرة الاقتتال بين السنة والشيعة في العراق) تعزز هذا الجدار.

تطرف عند المسلمين الأوروبيين

ليس من الإنصاف أن نحكم على المسلمين الأوروبين عموماً بالتطرف، فمنهم المتحضرون المتفهمون للحياة الغربية ولصفاتها المتنوعة. لكنّ الصورة العامة لمسلمي الغرب قاتمة وتشير إلى تفاقم التطرف.

يقول أحد الباحثين المسلمين: "رأيت نساء منقّبات في شوارع لندن أكثر مما أراه في شوارع بيروت أو دمشق." وإذا نظرنا إلى هذه الصورة من باب الحماس الديني فإننا نستبشر بها خيراً، ولكن من الوجهة الإسلامية نفسها يمكن القول بأن النقاب ليس من الإسلام بل هو من الموروث التاريخي والثقافي الذي يسيء إلى الإسلام وصورته، وعلى هذا فنحن لانرجوه لمجتمعاتنا العربية فكيف نوافق على انتشاره في الغرب ؟

وكيف نسمح بأن يقوم مسلمون غربيون بتشويه صورة الإسلام هناك ؟ تتحدث باحثة غربية مسلمة عن ظاهرة ازدياد المنقبات وتقول:

" تحدثت إلى الكثير من أولئك المنقّبات بأنّ النقاب ليس من الإسلام وأن لاضرورة لارتدائه، فسمعت تعليقاتهن، فكانت الكثيرات منهن يدركن بأنّ النقاب ليس من الإسلام، ورغم قناعتهن تلك فهن يلتزمن به كرمز مميّز وكمواجهة تحدٍ للمجتمع الغربي."

لقد نقل المسلمون الغربيون من بلدانهم الأصلية عناصر كثيرة كافية لتجعلهم متطرفين:

نقلوا الموروث الثقافي الدخيل على الإسلام وجعلوه إسلامياً وتشددّوا في التمسك به. ونقلوا الصراعات الفكرية الكثيرة التي ينشغل بها العرب والمسلمون، ونقلوا مبدأ العداء للغرب وعاشوا في الغرب كأعداء داخليين لمجتمعه.

ولّما أصبحوا أصحاب حقوق مدنية كافية راحوا يتحدون قيم تلك المجتمعات بطرق بشعة لايستطيعون هم أنفسهم فعلها في بلدانهم الأصلية الإسلامية. فهذا يصرّح بأمله بأن يعود الجنود البريطانيون من العراق مغلّفين بأكياس نايلون.

وآخرون يطالبون بمدارس إسلامية تعلّم اللغة العربية (و- أو الباكستانية)، وآخرون يطالبون بتخصيص مساجد داخل المدارس والجامعات وأماكن العمل.

دعوة للمحاورة بذهن منفتح

عندما نشاهد برنامجاً وثائقياً أو علمياً وعندما نقرأ في مقرر مدرسي أو جامعي فقد اعتدنا على استقبال الفكرة كما هي ونقوم بحفظها في ذاكرتنا بشكل طبيعي.واننا في كافة المحاورات العامة نعرض أفكاراً ومعلومات كنا قد حفظناها في ذاكرتنا. كما ونتلقى بيسر معلومات جديدة ونقوم بحفظها في ذاكرتنا. وعندما تأتينا معلومة مذهلة، فاننا نقوم بمحاكمتها بمنطق وبحرية، وسنصل إلى نتيجة مفيدة على الفور. فان اقتنعنا بهذه المعلومة الجديدة سنقوم بخزنها في ذاكرتنا ونعتبرها معلومة جديدة وجديرة بالاقتناء. لكننا أثناء المحاورة المذهبية أو الدينية مع الآخر، نقوم بمنع دخول أية معلومة جديدة، ونطبق الباب كي لاتدخل إلى أذهاننا معلومات عقائدية تتعلق بالمذهب الآخر .وبالتالي فلن نجري أية محاكمة منطقية لأية فكرة جديدة أو لفكرة ليست مخزونة في ذواكرنا. بل إن الكثير من المسلمين يقومون باستمرار بإغلاق دائم للذواكر المتخصصة بالأمور الدينية والمذهبية، وهذا الإغلاق والإقفال المستمر لايسمح بدخول أية فكرة جديدة أو عابرة حتى لو كانت أحياناً تتفق مع عقائد مذهبهم نفسه. والذهن المنفتح هو الذي يجعل من المحاورة ممكنة ومفيدة. بينما الذهن المنغلق يجعل المحاورة عقيمة وغير مجدية. وعند الكثير من المسلمين رفض آلي للكثير من القضايا الجديدة، وهذا الرفض يصدر عندهم

آلياً أي بدون تفكّر وبدون دراسة، فإذا اقترحت الآن على القراء اقتراحاً ربما سيحكم البعض على الفور بتحريمه، ماراأيكم ياسادة ؟ إذا تحجبت المرأة وفوق الحجاب ارتدت باروكة شعر مستعار وخرجت إلى الشارع هل تكون متحجبة أم كاشفة ؟. الإجابة تتطلّب التفكير والتمعّن بالقضية قبل النطق بحكم آلي سريع فليس كل مسلم حاكم بأمر الله.

الميل لنظريات المؤامرة على الإسلام

في كل البلدان التي تم مسح آراء المسلمين فيها لم تر أغلبية المسلمين أن العرب هم الذين قاموا بهجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على أمريكا. تراوحت النسب المئوية لمن يرى من المسلمين أن العرب هم من قاموا بالهجمات من مجرد ١٥٪ في باكستان إلى ٤٨٪ من مسلمي فرنسا. ومما يؤيد تنامي الاتجاهات السلبية في تركيا أن عدد الأتراك الذين يتهمون العرب انخفض من ٤٦٪ عام ٢٠٠٢ إلى ١٦٪ عام ٢٠٠٦. في كلمات أخرى، ترى الأغلبية في المجتمعات الإسلامية العشرة أن الحادي عشر من سبتمبر كان خدعة ومؤامرة دبرتها وارتكبتها الحكومة الأمريكية وإسرائيل أو جهات أخرى.

وبالمثل ينتشر التعصب والتحيز ضد اليهود انتشاراً واسعاً بين المسلمين، حيث تراوحت الأحكام السلبية والمعادية لليهود ما بين ٢٨٪ لدى المسلمين الفرنسيين إلى ٩٨٪ في الأردن (التي بالرغم من اعتدال الحكم الملكي بها إلا أن أغلبية سكانها من العرب الفلسطينيين). بالإضافة إلى ذلك ينظر المسلمون في بلدان بعينها (خاصة مصر والأردن) إلى اليهود بعين تملؤها الريبة ويرونهم مسئولين عن العلاقات السيئة بين المسلمين والغربيين.

وتمتد نظريات المؤامرة إلى قضايا وموضوعات أكبر. عند سؤالهم "من هو المسئول في المقام الأول عن الفشل في تحقيق الرخاء الاقتصادي في الأمم الإسلامية؟" ألقى اللوم ما بين ١٤٪ (في باكستان) و ٤٣٪ (في الأردن) على سياسات أمريكا والدول الغربية الأخرى بدلاً من إلقاء اللوم على المشكلات المحلية الداخلية.

عداء مسلمي الغرب للغرب وقيمه

ومن أغرب مايتّصف به مسلمو الغرب هو عداؤهم المعلن للغرب كله ولقيمه. بينما كان يتوجب عليهم أن يكونوا وسيطاً فكرياً وسياسياً بين الغرب باعتبارهم أبناءه، والدول الإسلامية التي تمتّ لهم بصلاة عديدة. وأن يكونوا ناقلين للجوانب الحضارية الغربية وناشريها في البلدان العربية والإسلامية.

إنهم بدل ذلك يختلقون مشكلات عديدة مع الغرب، فالمجتمع الغربي منفتح مع المسلمين ومتسامح وتضمن قوانينه العلمانية كافة حقوق المسلمين وغيرهم. ويتعامل الغرب بشفافية مع المسلمين وغيرهم. ليست هناك مشكلة دينية أو اجتماعية لمسلمي الغرب بل هناك مشكلة سياسية برزت مع تطور الأحداث.

لقد استفاد المسلمون والإسلاميون الأتراك من مجاراتهم للغرب ومن تفاعلهم معه وانتحلوا منه منهجاً عملياً في التفكير والأداء الديني ووصلوا بواسطته إلى السيطرة على تركيا حكومة ورئاسة وجماهيرياً. ويضاف إلى ذلك رضا الغرب كله على نهجهم العلماني.

فالجاليات الإسلامية في الغرب بشكل عام لاتمتلك تقنية التفهم والعيش مع الغرب، بل هي تعمل بطريقة التحدي والمواجهة له ولقيمه مستفيدة ومستغلة في تلك المواجهة تسامح الغرب نفسه. فالحجاب والنقاب المنتشر في الغرب هو نوع من التحدي أكثر من كونه تدين والتزام. وقد أكّدت باحثة ميدانية أنها أثناء لقاءاتها مع الكثير من المنقبات في الغرب عبّرن لها عن عدم اقتناعهن بشرعية النقاب، وأنهن إنما يلبسنه بهدف آخر، ذلك هو هدف إعلان الهوية والتميّز والتحدي للمجتمع الغربي. ترى مانوع هذا التحدي؟ إنه بلا شك يحمل في أحد أشكاله التحدي العنصري والطائفي.

تحدي الثقافة الأوروبية

ومن بين طرق التحدي التي يتبعها مسلمو الغرب تحديات كثيرة متعددة الجوانب للثقافة الأوروبية. فبعض المشايخ الأوروبيين يحرّمون تعلّم اللغات الأوروبية ويعتبرونها لغة العدو ولغة الاستعمار. كما يصرّ هؤلاء على إلقاء خطبهم في المساجد باللغة الأم (عربية وباكستانية وأردو) ويتمنّعون عن تعلم واستخدام اللغات الأوروبية.

أظهرت دراسة أجرتها جامعة تشيستر على ٣٠٠ مسجد في بريطانيا أن أئمة المساجد يفتقرون إلى المهنية والمؤهلات اللغوية للتصدي لانتشار "التطرف" في صفوف الشباب البريطاني المسلم. وأن ٨٪ فقط من أئمة المساجد، ولدوا في بريطانيا. وأن ٦٪ فقط من أولئك الأئمة يتحدثون اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة التحدث الأولى. وأن جيل المهاجرين الأوائل هو المسيطر على إدارة المساجد البريطانية. وقال البروفسور رون جيفز إن هدف الدراسة هو البحث في أهلية أئمة المساجد للتكيف مع ثقافة بريطانيا المعاصرة. وطالب اللورد أحمد بمنع الأئمة الذين لا يتحدثون باللغة الإنجليزية، أو لا يفهمون الثقافة البريطانية من الممارسة. وقال الدكتور أسامة حسن إمام مسجد في لندن أن عدداً من المساجد لا يلبي حاجة المسلمين الذين ولدوا ونشأوا في بريطانيا.

وتكثر مظاهر تحدّي المسلمين للثقافة الأوروبية إذ يخطب أحد المشايخ ذات جمعة ويقول: "النساء الكاشفات واللحم المكشوف يحرّض الكلاب الجائعة." أنسي ذلك الخطيب بأنه يعيش في بلد غربي كافة سكانه تقريباً لايرون عيباً في كشف جسد المرأة؟

مصطلح المصالحة مع المسيحية

اعتاد الباحثون الإسلاميون استخدام هذا المصطلح انطلاقاً من الحروب الصليبية القديمة، والتي يعتبرها المسلمون صراعاً دينياً بين الإسلام والمسيحية. والحقيقة أن تلك الحملات لم تكن تحمل طابعاً مسيحياً صرفاً. ولم تكن حرباً

مسيحية على الإسلام بالمعنى الكامل للكلمة. فقد اعتاد الأوروبيون منذ عهد الرومان التطلع إلى بلاد الشرق وتوسيع نفوذهم نحوها، وكانت الحروب الصليبية نوعاً من ذلك التوسع. وفي حملات نابليون على مصر تقول الوثائق الفرنسية العديدة إن نابليون نفسه كان يحمل حلماً منذ نشأته، وهو تطلعه نحو الشرق ونحو تلك الآثار الفرعونية العريقة، إضافة لتطلعه لتوسيع النفوذ الفرنسي في أوروبا نفسها. ومن ذلك أنه قام باحتلال أجزاء كبيرة من دول أوروبا المسيحية نفسها.

ثم إن المسيحية العربية التي حافظت على تحالفها مع المسلمين طوال العصور الماضية، هل نتصالح معها ونحن متصالحون دائمون ؟؟.

كان يتوجب علينا أن ننسى الحروب الصليبية منذ لحظة خروج الجنود الأوروبيين آنذاك. فتلك معركة انتهت وطواها الزمن. أما أن نقيس كل المستجدات الحديثة بناء على تلك الحروب القديمة فلن نحقق من ذلك أية فائدة.

ففي عصرنا غزا الأمريكيون العراق لهدف واحد وهو خدمة اسرائيل. ثم بدأت حملاتهم على إيران لخدمة اسرائيل لالخدمة المسيحية. وإن اسرائيل نفسها قامت في أرض عربية ككيان قوي بفضل قوة وخبث المنظمات الصهيونية، لابدعم مسيحي ولابرضى المسيحية نفسها.

تصوير الغرب على أنه معاد الإسلام

بين المسلمين والغرب إشكاليتان ثقافيتان متبادلتان ومتناقضتان في آن معاً. فالمسلمون يصوّرون الغرب على أنه خصم معاد للإسلام. والغرب يصوّر المسلمين على أنهم هم الخصم المعادي للإسلام. ولهذين التصورين حضور تاريخي طويل ومستمر وهما يشكّلان أحد أسس الخلاف والصدام بين الطرفين. ومن الممكن أن يتجاوزا هذين التصورين بسهولة ونجد في الغرب أفراداً تعايشوا مع مسلمين أو تزاوجوا معهم أو اعتنقوا الإسلام وهؤلاء بالطبع استطاعوا أن يقضوا على ذلك التصور المعادي للمسلمين.

لايتوقف المسلمون عن ابتداع النظريات والطروحات التي تؤكد معاداة الغرب للإسلام. بل يتوقف المسلمون عند كل صغيرة وكبيرة في علاقتهم بالغرب،

فمسألة الحجاب في فرنسا كتب عنها الإسلاميون ملايين الصفحات ومازال الباحثون الإسلاميون يقفون عندها باستمرار. وقد وضع أحدهم كتاباً كبيراً بالفرنسية يعرض لفصول القضية وأبعادها.ويعتبر المسلمون عموماً أن كل من يكتشف جذور فتنة غربية تدل على عدائه للإسلام مبدعاً وسبّاقاً.وفي الوقت نفسه فالمسلمون ينشغلون برفض الحادث إعلامياً وخطابياً وكلامياً.

وفي شباط ٢٠٠٧ ابتدأت اسرائيل بحفريات تحت جدار الأقصى. ومنذ لحظة دخول الجرافات الصهيونية، قامت الفضائيات العربية بتحريض الشارع الإسلامي على الاستنكار، فاشتعل الاستنكار وتضخم وقيل في ذلك الكثير وكتب عنه الكثير وسيكتب عنه إلى ماشاء الله. لكن بعد مضي أشهر على ذلك الاعتداء على المقدسات الأثرية الإسلامية ماذا فعل المسلمون ؟ لاشيء بالطبع. وهذا يعكس المنهجية العربية المتوارثة والتي ترتبط باللغة العربية نفسها، من حيث إنها لغة إطناب وخطابة وجمالية. فكان الرد العربي والإسلامي لغوياً، وخطابياً فصيحاً، تماماً كفصول التاريخ الإسلامي القديمة، حيث أبدع الفقهاء والمدوّنون بتحليل ماتم تحليله ثم بنقد التحليل الجديد، ثم بانقسام الرأي حول النقد نفسه..الخ.

والغرب هو بشر وكيانات ومؤسسات بشرية مدنية، ويمكن التحاور معها والتوصل بالحوار إلى نتائج مرضية في كل صغيرة وكبيرة، ويستطيع المسلمون مؤسسات وأفراداً وهيئات وحكومات أن يتحاوروا مع الغرب بهدف إيجاد حلول للمشاكل الطارئة. كمشكلة الحجاب الإسلامي في فرنسا، مثلاً، ولكن لجوء البعض إلى تصوير الغرب على أنه العدو القديم والدائم للإسلام وللمسلمين، والاكتفاء بهذه الإجراءات كسياسة إسلامية ثابتة، فذلك لايجدي نفعاً. بل يزيد من حدة الخلاف بين الإسلام والغرب.

فالغرب في الحقيقة ليس عدوّاً للإسلام، والمسيحية ليست عدوّة للإسلام. بل إن سياسة أغلب حكّام الغرب الحاليين تؤدي إلى العدائية للإسلام. وإلى توظيف المسيحية وتسييسها فذلك يسير في سياسة العدائية للإسلام.

تصوير الإسلام على أنه معاد للغرب

وفي الغرب وبسبب أحداث السنوات الأخيرة تم تهويل صورة مفترضة وهي تشير إلى العدائية الإسلامية التاريخية للغرب المسيحي. وتم تهويل حجم الخطر الإسلامي المفترض فرأى الساسة بأنه شيوعية جديدة وحلف قوي جديد يهدد الغرب تهديداً حقيقياً. وتقوم الصهيونية بتهويل صورة الإسلام وبجعله خطراً كبيراً على الغرب كله. كما تنشط بعض الكنائس المسيحية الصهيونية بتخويف أبناء الغرب من الإسلام والمسلمين. وبقراءة سليمة للحدث السياسي الحالي نكتشف أن الغرب بكل قوته ووسائله لايحارب إلا المسلمين. ولا ينشغل إلا بهم وببلدانهم. فالغرب يتدخل بسلاحه وعتاده العسكري الضخم في مناطق إسلامية كثيرة ولايتدخل في مناطق غير إسلامية على الإطلاق.

والحقيقة أن الإسلام نفسه كشريعة وفكر ديني لايمتلك بداخله أي نوع من العدائية تجاه أحد بل هو يحمل لجميع البشر غصن الزيتون، ولايمكن أن نستنبط من الإسلام أو من القرآن الكريم أو الحديث النبوي مفاهيم تشرّع للمسلمين العداء للغرب. بل سنجد فيها مايدعونا للتعاون مع الغرب والحوار معه. واعتماداً على مفهوم معاداة الغرب للإسلام نجح المسلمون في خلق مصطلح جديد، وتمت إضافته إلى القواميس اللغوية والموسوعات السياسية العالمية وصرنا نسمعه في كل يوم، وهو مصطلح إسلاموفوبيا، والذي يعني كره الإسلام وممارسة العدائية ضد الإسلام. كما ويسعى المسلمون في الغرب إلى إصدر قوانين حكومية تجرّم من يمارس الإسلاموفوبيا. وقد أصبح هذا المصطلح في الغرب معادلاً لمصطلح معاداة السامية. إلاّ أنّ معاداة السامية تعتبر جريمة يحاكم كلّ من تثبت عليه.

وفي الثامن من أيلول تحدث بابا الفاتيكان (بنديكتوس) عن ضرورة إبقاء أوروبا محافظة على مسيحيتها، وألمح إلى ضرورة منع أسلمة أوروبا. ويندرج هذا الخطاب ضمن سياسة اعتبار الإسلام معادياً للغرب.

ويتحدث الكثير من الغربيين هذه الأيام عن تصوراتهم بأن الإسلام والمسلمين هما العدو الأوحد للغرب. وتلك تصورات تدل على جهلهم بالإسلام وعلى قلة معرفتهم بالمسلمين وبالتاريخ الإسلامي. وتدلّ أيضاً على حالة مرضية حقيقية في ثقافة وفي عقول هؤلاء المتحدثين. إنهم مرضى حقيقيون، وإن وجدنا بينهم الساسة والحكّام والقادة ورجال دين مسيحيين فتلك ثقافة مرضى.

ظلّ هذا المرض متوارثاً في أوروبا منذ العصور الوسطى. حين كان ينظر إلى المسلم على أنه الغول الهالك والمدمّر والمتعطش للشهوات. وقد ظهرت تلك الرؤية الغربية في الأدب الغربي الوسيط وفي الفنون وغيرها، واستمرت في بعض النتاجات التي تلتها وهاهي تعود للظهور اليوم بشكل واسع النطاق.

ظاهرة الاحتجاج على المدّ الإسلامي

هناك حركة من السخط والهيجان أخذت في التململ، في أوساط النخب الأوروبية، وبقدر أكبر بكثير داخل الأوساط الجماهيرية التي تحتج بصوت آخذ في الارتفاع أمام التطورات الجارية. هذا الشعور عبّر عنه بالخصوص القانون الفرنسي ضد الحجاب، وعبر عنه التبرم الذي أثاره تطبيق نفس القوانين على الرموز الدينية المسيحية كذلك، كما يعبر عنه الإصرار على تقديم الخمر في العشاءات الرسمية. ويذكر أنه في العديد من المدن الفرنسية في بداية سنة ٢٠٠٦ تعمّد توزيع الشوربة بلحم الخنزير على الفقراء، وبهذا يتم إقصاء فقراء المسلمين عن سبق نية وتعمد من تلك المعونات الغذائية.

كما عبّرت الكنيسة البابوية في (آب ٢٠٠٧)عن قلقها الكبير بسبب ظاهرة المدّ الإسلامي الذي يغزو أوروبا، وأكّدت بأنها عازمة على التصدي له بالحوار بين الطوائف المسيحية نفسها وبين المسيحية والمسلمين.

كما عبّر عنها كبار الساسة في الغرب ومنهم جورج بوش الذي قال: لقد أصبحت ظاهرة التطرف الإسلامي عالمية وتفشت في العالم كله ويتوجب علينا أن نسلّم بتفشيها ونتعامل معها وفق ذلك.

وقد ناقش البرلمان الأوروبي مرات عديدة ظاهرة المدّ الإسلامي داخل الاتحاد الأوروبي... واقترحت إجراءات وقوانين تحدّ منها.

الرؤية الغربية الكاذبة حول الإسلام

انتشار الإسلام باكتساح الممالك النصرانية ودخول كثير من النصارى الإسلام عن رغبة وحرية في اعتناقه، تلك حقيقة لايعترف بها الغرب. يزعم الأوروبيون دوماً بأن الإسلام انتشر بالنار والسيف ومع بطلان هذا الافتراء تاريخياً إلاّ أن هذا الاعتقاد مازال موجوداً لدى البعض. وقد توجهت اوروبا إلى الطعن في نبي الإسلام حتى إن المستشرقة الألمانية كتبت تقول: " لم يعرف التاريخ شخصية أثارت من الخوف والكراهية وحتى الاحتقار في الثقافة الغربية أكثر من شخصية محمد(صلى الله عليه وسلم) في العالم النصراني وحتى دانتي في (الكوميديا الإلهية) عبّر عما يشعر به عدد كبير من النصارى في القرون الوسطى" هذه النظرة ما تزال قائمة والدليل على ذلك ما كتبه سلمان رشدى واحتفال أوروبا به وتكريمه. حتى عندما قالت آنا ماري شميل أن ما كتبه رشدي آذى مشاعر ملايين المسلمين، انطلقت نيران الانتقاد لها في ألمانيا مما يبرهن أنه حتى في عام ١٩٩٥ ما يزال من غير الممكن سياسياً بل ومن المحظور إظهار أي تعاطف وتفهم للإسلام." العقلية الغربية ترى أن أوروبا هي مركز العالم وأن جذور الحضارة الأوروبية تعود إلى اللاتين واليونان متجاهلين تماماً التأثير الإسلامي مقنعين أنفسهم أن حضارتهم أو ما يطلق

عليه مشروع التحديث هي الأفضل وهي قمة الحضارة ولا بد أن تسود العالم. إن العقلية الصليبية مستيقظة جداً وحية. ومازالت تتحكم بموروث الغرب في موقفه من الإسلام. وهي التي تفسر الإمبريالية الثقافية التي ظهرت في كتابة فرانسيس فوكوياما وصموئيل هنتجتون. وتتلخص نظرتهم بأن العالم الإسلامي سوف يختفي عاجلاً أو آجلاً أو يصبح هامشياً، وهذه الأفكار يمكن أن نعيدها إلى تفكير ما يسمى عصر التنوير الأوروبي.

مصطلح التهديد الأوروبي للغرب

يستخدم بعض المحللين الغربيين مصطلح التهديد الأوروبي للغرب، انطلاقاً من أنّ المسلمين الأوروبيين باتوا يهددون الأمة الأوروبية. ويسأل دانيال بايبس قائلاً " *متى يصبح التهديد الأمني في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية خطراً داخلياً ؟* "

ويقول الخبير في شؤون القاعدة روهان غوتاراتنا إن الهجمات الرئيسة التي وقعت في العقد الماضي في الغرب كانت جميعها من تنفيذ مهاجرين ما عدا تفجير أوكلاهوما سيتي في ١٩٩٥. ولعل نظرة عن كثب تكشف أن هؤلاء لم يكونوا أي نوع من المهاجرين، بل مهاجرون من خلفية محددة: فمن الـ ٢١٢ مشبوهاً وإرهابياً محكوماً (بأعمال إرهابية) بين ١٩٩٣ و ٢٠٠٣، ٨٦ في المئة منهم كان من المهاجرين المسلمين، والباقون غربيون معتنقون جدد للإسلام.

وفي ألمانيا تمّ القبض على أربعة أشخاص اتهموا بالتحضير لعمل إرهابي كبير يرتبط بالقاعدة. وقيل إنّ ثلاثة منهم هم من أصل ألماني مسيحي اعتنقوا الإسلام منذ وقت قريب وتحولوا إلى معادين للغرب نفسه.

والغرب اليوم لايحصر خشيته من التطرف الإسلامي القادم إليه من الخارج، بل هو يخشى مسلميه الذين هم قسم من بنيته العامة. وإنّ النسبة الأكبر من هؤلاء المسلمين الذين يقلقون الغرب هم من أصول غربية مسيحية. فقد اعتقل وحكم عشرات من هؤلاء بتهم تتعلق باعتداءات إرهابية.

يدعون لتدمير الفكر الإسلامي المتشدد

يقترح شتاين العمل على تدمير ايديولجية الإسلام الراديكالي، (ولايقصد بذلك المتطرف فحسب)، ويدعو لمهاجمته في كل مكان. حتى في البلدان الإسلامية نفسها، والتدخّل لدى أنظمة الحكومات الإسلامية لتيسير تلك المخططات، والمساعدة في إصلاح الإسلام فيها (على حدّ قوله)، ونشر المدنية والحضارة الغربية إلى أماكن ومناطق جديدة ونائية. والهدف منها الإبقاء على الظاهرة الغربية المهددة بالزوال في مناطق أخرى جديدة.

ونلاحظ التدخل الأمريكي في شؤون المدارس الدينية الباكستانية التي يبلغ عدد طلابها قرابة مليونين من الذكور والإناث. كما نتذكّر حادثة مهاجمة المسجد الأحمر من قبل الجيش الباكستاني التي قضت على آلاف من المعتصمين بداخله. إنّ تلك المدارس الدينية هي مجتمعات حقيقية قائمة في باكستان. ولمّا كان عدد طلابها يقارب المليونين فهذا يعني أنّ أسر هؤلاء الطلاب التابعين أيديولوجياً لتلك المدارس يصل عددهم إلى أكثر من عشرة ملايين. فيصبح من المستحيل إزالة تلك المدارس. ويستحيل تنفيذ خطة شتاين ونظرياته.

وإن كافة تنظيرات الغربيين بما يخصّ الإسلام والمسلمين تكاد تكون بعيدة عن الواقع، فهم يجلسون بعيداً ويضعون تصوّرات ومخططات شبه ألعاب ألكترونية، ويعتمدون في تصميمها على أسس رقمية ورياضية. دون أن يتفهموا الحقائق التي هي على أرض الواقع. فمن هذه الحقائق التي يدركها أي مسلم ولا يدركها أولئك المنظّرون أن الإسلام هو الدم الذي يسري في عروق كل مسلم.

مؤسسات دولية تسعى لوقف أسلمة أوروبا

على المستوى الدولي. هناك حركات وجماعات مسيحية متطرفة كثيرة تسعى لوقف أسلمة أوروبا. ويزداد عددها باستمرار. إضافة لزيادة تماديها على المسلمين في كل يوم.

"الاتحاد الألماني للحركات المدنية لحماية الديمقراطية والوطن وحقوق الإنسان"

هذا الاتحاد يسعى إلى "الوقوف ضد تكوين مجتمع إسلامي أصولي متواز في ألمانيا"، و"إلى الوقوف أمام المسلمين الذين يريدون من خلال مطالبهم محاولة فرض بعض نصوص الشريعة الإسلامية على المواطنين الأوروبيين". ومن بين مطالب الاتحاد "مراجعة المادة الرابعة من القانون المدني (الخاصة بحرية ممارسة الدين) وذلك فيما يتعلق بتطبيقها على الإسلام السياسي، ومنع بناء المآذن و"تجاهل البنوك والممولين الذين يقدمون ودائع مالية مطابقة للشريعة الإسلامية حتى لا يدخل النموذج الاقتصادي الإسلامي في نظامنا الاقتصادي". وقد قام أحد أعضاء الاتحاد بتقديم بلاغ ضد انتشار القرآن زاعماً بأنه مليء بسبّ الأديان وأتباع الديانات والجمعيات العقائدية" وأيضا "التحريض على العصيان". هذا البلاغ رُفض من قبل المحكمة البدائية في هامبورغ. وكان قدوة الاتحاد القس رولاند فايسلبرغ في شرق ألمانيا الذي أحرق نفسه يوم ذكرى الإصلاح البروتستانتي عام ٢٠٠٦ تعبيراً عن خوفه من انتشار الإسلام في ألمانيا.

شكاوى المسلمين البريطانيين

تقول السيدة عديلة تيلاديا: كامرأة منقبة لا أشعر بالأمان هنا في بريطانيا. فعندما أسير في الشارع يُنظر إلي وكأني ارتكبت جريمة ما. يأتي ذلك رغم أنني لا اتفق مطلقاً مع المسئولين عن محاولات التفجير في مطار جلاسكو ووسط لندن، ولا أرى أن هناك ما يبرر قتل المدنيين الأبرياء. وأتعرض وزوجي للإساءة اللفظية من أناس جهلاء عادة ما يلبسون جميع المسلمين الثوب ذاته. وما أريده هو أن يعرف الناس أنني لا أرتدي الزي الإسلامي لترويع الناس، بل لتغطية نفسي _ إنه ليس رمزاً للعدوان أو الإرهاب. ويقول المغترب سعيد لادري: المحاولات الإرهابية الأخيرة قضت على الشغل تماماً. والانجليز يخشون الآن دخول المحال العربية. ما حدث سوف يؤثر على صورة العرب والمسلمين في لندن. وأشعر أن العرب خائفون من اتهامات البريطانيين لهم ، الأمر الذي يؤذي مشاعر العرب بالطبع.

الجهاد الألكتروني واجب إسلامي

مئات المواقع على الشبكة العالمية وكلها تمنحك مئات الوصلات المشابهة، وتشغل جميعها بمناهضة الإسلام والمسلمين وبانتقاد نفوذهم المتزايد وتمددهم في أوروبا. ويزور هذه المواقع يومياً بضعة ملايين من أبناء الغرب، فهي مواقع شهيرة وشعبية ولها مؤيدون كثر في الغرب. منها مواقع ألمانية وفرنسية وبريطانية. وتنشر هذه المواقع انتقادات لاذعة ومؤلمة للمسلمين. ويستطيع الزائر إضافة رأيه وتعليقه على الموضوعات المنشورة فيصبح المشاركون في مواضيعها آلاف من الأوروبيين. ومن خلال أسماء المشاركين والزائرين لاحظنا أنّ أغلبهم يهود أوروبيون. وهؤلاء تكون ملاحظاتهم شديدة الوقاحة والكره للمسلمين. ويتدخل نادراً بعض المسلمين الغربيين ويدافعون عن دينهم وعن أتباع الإسلام.

المعركة على هذه الصفحات شديدة الحدّة والحرب فيها مشتعلة باستمرار. وهي تحدث تأثيراً كبيراً في الرأي العام الغربي بل وتحضّر لمواجهة حقيقية ضد المسلمين. مما يعني ضرورة التحرك الثقافي الفعال عند المسلمين والعمل على مواجهة تلك الفتنة الكبيرة التي يجري تحضيرها. ويستطيع كل عربي أو مسلم أن يكون فعّالاً في مواجهة تلك الفتنة بدخوله على هذه الصفحات باللغات الأوروبية وبترجمة مواضيعها وبإضافة رأيه المدافع عن الإسلام والمقنع للغربي. لقد أصبح تدخّل المسلمين في تلك المواقع ضرورة ملحّة وواجب ديني وجهاد إسلامي حقيقي، ومن أشهر تلك المواقع التي ندعو لزيارتها www.politicallyincorrect.de. ومن هذه المواقع ننقل بعض النصوص القليلة العنصرية والتي يمكننا نشرها باللغة العربية:

- واحد من المشكلات الشديدة الخطورة على الغرب تعاظم الإسلام ودوره وانتشار ثقافته بسرعة في أوروبا. والنتيجة التي سنشهدها هي التغير العميق الذي سيبدل حياتنا كلياً. وأسلمة عالمنا هذه ترتبط بالسياسة وبرؤوسنا وبأصواتنا. فنحن مقدمون على ديكتاتوريات ظالمة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل تتواطأ حكومات الغرب مع الإسلاميين وتفسح لهم مجال الارتقاء؟؟. هل يتواطأ بعض

المحافظين مع الإسلاميين ويعملون على تقويتهم بواسطة الانتخابات؟.؟ إنه لابد لنا من العمل على هدم الديمقراطيات المزيفة في الغرب التي تضرّ بمصالحنا. فالتعددية الثقافية شعار يؤدي للتمدد الإسلامي، ودعاتها الكثيرون في الغرب ليسوا سوى مقربين من الإسلاموية

- يتمدد الإسلام في الغرب ضارباً عرض الحائط كل ثقافتنا ونافياً لها وللقيم المدنية والحضارية المعاصرة.
- لقد حلّت محلّ السياسة الرسمية مصطلحات جديدة وباتت همّ السياسيين وشغلهم الشاغل: وهذه المصطلحات هي الإسلاموفوبيا والتعصبية والإرهاب الإسلاموي والعنصرية وغيرها.
- بدعم من دعاة الديمقراطية في بلداننا تنشط الجماعات الإسلامية وقريباً سيكون لها إمارات إسلامية دكتاتورية في أوروبا.

جماعة "الرب يريد المحبة" تسعى لتنصير المسلمين

تعتقد هذه الجماعة بأنّ وقف أسلمة أوروبا ممكن بطريقة سهلة كما تظن وهي تنصير المسلمين في البلدان الإسلامية، وهي ترسم خططاً وبرامج لتنصير الشعوب الإسلامية. ولاشك بأن القائمين على هذه الجماعة سذّج ومحسوري الرؤية. إذ يستحيل على الغرب كله وبكل قدراته أن ينصّر أكثر من شخص واحد متهور في أي بلد إسلامي. وقد برزت في ألمانيا جماعة متطرفة تحمل اسم "الرب يريد المحبة"، تنشر الفساد والتفرقة. ففي يوليو/ ٢٠٠٧ لفتت هذه الجماعة الأنظار إليها أثناء ندوة – ضمن سلسة من الندوات الإعلامية نظمتها مدينة ميونخ – برئاسة أخصائي القانون والخبير في شؤون الإسلام في جامعة أيرلنغن ماتياس روهه تحت عنوان "القانون الألماني والشريعة الإسلامية". هذه الندوة أُنهيت بسبب الصخب الكبير الذي أشيع أثرها. وننقل عن الأنترنيت نصاً لهذه الجماعة عنوانه: محاربون صليبيون.

وجاء في النص: " كان نداء البابا اوربان للمحاربين الصليبيين الأُوَل: "مشيئة الرب". وكان عليهم أن يطردوا المسلمين من الأرض المقدسة". ومكتوب على صفحة الويب "الرب يريد المحبة" التي أُعدت في ربيع ٢٠٠٧ بمناسة الاحتفال بعيد الميلاد الثمانين للبابا بندكتوس السادس عشر: "لقد حان الوقت أن نتحرك لحماية الغرب وكل المهددين من الإسلام الراديكالي. هكذا يرى المحاربون الصليبيون المعاصرون أنهم ينقذون الغرب من الأسلمة، بقولهم:

يتوجب علينا "محاولة إعادة تنصير البلد الأصلي والتبشير المسيحي بين المسلمين بحذر، حيث ينبغي علينا محاولة إبعادهم عن تمسكهم بـ"النبي محمد" بطريقة لطيفة".

المسيحيون الراديكاليون يعبئون ضد الإسلام

يصف السيد أندرياس روينز مسؤول الحوار بين الأديان بأسقفية ميونيخ نشاط المسيحيين الراديكاليين قائلاً:

"إنهم حقا مجموعة صغيرة من حيث العدد، ولكنهم يُحدثون ضغطاً هائلاً من خلال رسائل القرّاء والمكالمات التليفونية التي تصل الأسقفية وفي الندوات العامة".

ويتابع قائلاً: "إنهم يخلقون جواً من الاضطراب، ويتسببون في أضرار كثيرة". بينما تحاول الكنيستان الكبيرتان توضيح الديانات المختلفة بموضوعية كما تسعى كنائس كثيرة إلى ممارسة الحوار يرى المسيحيون الأصوليون أن الإسلام خطر جديد يهدد أوروبا. وفي رأي السيد أندرياس رينز أن هذه المجموعات تنتشر على نطاق واسع من أقصى اليمين إلى وسط المجتمع.

ولا تعتبر حركة *"الرب يريد المحبة"* في هذا المجال إلا شيئاً بسيطاً، إذ تنتشر الحركات المسيحية المتطرفة المعادية للإسلام في الغرب عموماً.

وزير إيطالي يرتدي تي شيرت معاد للإسلام

وزير الإصلاح الإيطالي روبيرتو كارديرولي من حزب رابطة الشمال قد اضطر إلى الاستقالة في شباط بسبب ارتدائه "تي شيرت" طبعت عليه إحدى الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد. ولا فرق بينه وبين رفيقه الحزبي ووزير العدل روبرتو كاستلّي الذي قال: "لا أعتقد أن هناك إسلاماً وسطياً" وأطلق على المجلس الإسلامي الإيطالي الذي أسسته وزارة الداخلية حديثاً بـ"الوحش".

جمعية ((باكس أوروبا)) شعارها: أوقفوا أسلمة أوروبا

يُعد الكاتب أودو أولفكوته محرر صحيفة فرانكفورتر ألغماينة السابق أشهر شخصية معارضة للحركات الإسلامية بجمعيته المسماه "باكس أوروبا". ويريد أولفكوته تأسيس حزب خاص معارض للإسلام تشارك فيه كل القوى الناقدة للإسلام تحت قيادته. وقد خططت جمعية "باكس أوروبا" لمظاهرة كبيرة في بروكسل بمناسبة ذكرى الحادي عشر من أيلول. وحسبما أدلى القائمون على المظاهرة كان على المتظاهرين من جميع أنحاء أوروبا الهتاف بشعار "أوقفوا أسلمة أوروبا". إلا أن عمدة مدينة بروكسل فريدي تيلمنز قرر منع المظاهرة، وكان ينبغي أن تُعقد بمدينة كولونيا. لكن السيد أولفكوته اعتذر عن المشاركة في كولونيا بحجة أن الأمن لن يكون مكفولاً للمتظاهرين، أو ربما لأن أولفكوته لم يجد الكثير من المساندين المشاهير؟

الخوف من الإسلام والفخر بذلك

إنّ صفحات الأنترنت مليئة بمثل هذه النوازع التي تعبّر عن كراهية المسلمين. وإنّ ما يزيد على أربعة ملايين زائر يقرأون صفحة الانترنت www.politicallyincorrect.de الخاصة بالسيد ستيفان هيرا من مدينة برغش غلادباخ مدرس الدين الكاثوليكي بالمدرسة الابتدائية.

وعلى صفحة الويب يمكن شراء شارات وفناجين مكتوب عليها "*الخوف من الإسلام والفخر بذلك*". وفي التعليقات على صفحة الويب يقرأ المرء على سبيل المثال ملحوظات عن فضائح اللحوم الفاسدة التي تسبب فيها المسلمون: "لا بد من إيقاف الفضائح الكبيرة تجاه الخبز الألماني" ويتساءل أندرياس فون مونتبارد قائلاً: "هل يمكن وصف التغذية المنتظمة بالقاذورات للمواطنين بجهاد التغذية؟". ولم يقم أحد حلقة مناقشة على هذه الصفحة بالوقوف حيال ترعرع الكراهية ضد المسلمين. ويكتب أحد مستخدمي هذه الصفحة دون أن يذكر اسمه: "لماذا لا ينبغي أن أكره المسلمين بصفة عامة مثل النازيين؟ فكلاهما أيدلوجيا فاشية دينية مزيّفة" حسب قوله.

تعكس صفحات الأنترنيت هذه مايحمله المتعصبون في الغرب على الإسلام، وليس أمام المسلمين سوى مواجهة تلك الأحقاد بالحكمة والحوار المنفتح، وبالمشاركة في هذه الصفحات نفسها.

اتحاد الكنائس البروتستانت ((أسْلمة ألمانيا ممكنة))

إلى جانب المسيحيين المعادين للإسلام يوجد أيضاً اتحاد الكنائس البروتستانتية، وهو عبارة عن تنظيم شامل يضم حوالي ١، ٣ مليون شخص من المحافظين البروتستانت في ألمانيا. وينشر السيد أولفكوته أفكاره الجنونية في مجلة الإعلام المسيحية "برو" الخاصة بالاتحاد. والسيد هارتموت شتيب، السكرتير العام لاتحاد الكنائس البروتستانتية، فيرى أن حملة أولفكوته ضد أسْلمة أوروبا "مسألة مهمة". ويضيف قائلاً: "أرى أن أسْلمة ألمانيا ممكنة. فبالنسبة للإسلام لا تتعدى أن تكون مسألة ديمغرافية. والإسلام يريد السيطرة، وهذا ما أراه واقعياً".

شعار: أوقفوا أسلمة أوروبا

منعت السلطات البلجيكية مظاهرة معادية للإسلام في ٢٠٠٧ ذكرى أحداث الحادي عشر من أيلول أرادت عدة منظمات أوروبية من ألمانيا وهولندا والدانمارك وبريطانيا الزحف بها على بروكسل والتظاهر تحت شعار أوقفوا أسلمة أوروبا. وتعكس هذه الشعارات إحساس الأوروبيين بظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام واتجاه أوروبا الواضح نحو الأسلمة.

جماعة تدعو المسلمين لاعتناق المسيحية هذه الجماعة تزعم بأنها عثرت على الحلّ السهل المنال حسب دعاتها، وهو أيسر وأسهل الحلول لمشكلة النزاع القائم مع الإسلاميين كما تعتقد. ومن سذاجتها فهي تعمل على محاولة تنصير مسلمي العالم كله، وبتنصيرهم تنتهي الأزمة. وهذا الحلم الساذج نجد جذوره في تاريخ اسبانيا التي أجبرت مسلميها في العام ١٣٢٥ على اعتناق المسيحية أو مواجهة الإبادة، ورغم عودة الملايين منهم إلى المسيحية مضطرين فقد أبيد أكثرهم وأجبر نصف مليون وهم الذين بقوا أحياء على مغادرة البلاد والتوجه نحو تركيا المسلمة.

الكنائس الكبرى في ألمانيا ليست محصنة ضد تأثير جماعات المحافظين البروتستانت، فعلى سبيل المثال يغلب تأثير هؤلاء المحافظين على ورقة العمل التي قدمتها الكنسية البروتستانتية حول التعايش بين المسيحيين والمسلمين في ألمانيا. وكانت السيدة كرستينا شرماخر، رئيسة معهد الإسلام التابع لاتحاد الكنائس البروتستانتية، مشاركة في كتابة الورقة التي تحمل عنوان "الوضوح وحسن الجيرة".والسيدة شرماخر تنادي بوضع حد أمام الإسلام، وهذا الحد موضع خلاف لدى الجمهور. وإذا سألها أحد عن الإسلام، لن يحصل على إجابة. لكنها لا تتردد في أن تقول "إن المسيحية هي الديانة الوحيدة الحقة". بناء على ذلك ألّفت تقويماً للصلاة يُصلى فيه للمسلمين الذين ينبغي عليهم أن يتعرفوا أخيراً على المسيح. وتعلق السيدة سابينا شيفر من معهد ارلنغن لمسؤولية الإعلام قائلة: "إن المحافظين البروتستانت يستغلون الحركة المعادية للإسلام لمصالحهم". وهي تراقب منذ سنوات صورة الإسلام في وسائل الإعلام، وتوضح السيدة المتخصصة في شئون الإعلام أن "الحجج

التي تستند عليها الحركات المدنية يغلب عليها الطابع المسيحي الأصولي". لقد أصبح الجو أكثر توتراً، فبعد أن أظهر المسلمون وجودهم في المجتمع الألماني بصورة واضحة من خلال بناء المساجد أصبحت ردود الفعل متوترة تكاد تصل إلى حد الإيذاء.

كما أن الناقدين من المتخصصين في علوم الإسلام، أمثال السيدة اورزولا شبولر-شتيغمان من جامعة ماربورغ، مصابون بحالة من الفزع بسبب الانفعال الذي أحدثه الجدل حول الإسلام.

السيدة شبولر-شتيغمان معروفة بنقدها اللاذع إلى حد ما للجمعيات الإسلامية وتحذر من استغلال مخاوف المدنيين. وتقول: "من الصواب أن يكون المرء ناقداً، ولكن لا داعي لتصعيد الموقف".

الفزع من الشريعة الإسلامية

تقدمت رينات سومر نائبة رئيس وفد البرلمان الأوروبي حول تركيا بطلب لعقد جلسة استماع حول " الشريعة في أوروبا ".

وقد أزعجها وجود اتجاه في مؤسسات الاتحاد الأوروبي القانونية وفي بعض الدول الأوروبية قوانين الشريعة الإسلامية في نظامها القانوني بسبب تزايد أعداد المهاجرين القادمين من الدول الإسلامية. وقفت رينات لتقول: " إن الشريعة الإسلامية لا تطابق على الإطلاق - حتى في شكلها المعتدل - القيم والمعايير الأوروبية، وإن وجود أشكال مختلفة للشريعة لا يغير من هذا الأمر شيئاً " واعتبرت ما سمته بـ "الأسلمة الزاحفة" استناداً إلى الفهم الخاطئ للتسامح "خطراً متنامياً" وطالبت بالدفاع عن الثقافة الأوروبية قائلة: "علينا أن نكون واضحين ومحددين في تعريفنا للثقافة والقيم الأوروبية والدفاع عنها".

وحذرت سومير- الألمانية التي تنتمي إلى الحزب الديمقراطي المسيحي - من إدماج بعض القوانين الإسلامية في القوانين الأوروبية مؤكدة أن هناك " خطراً متزايداً من

أن يؤدي إنشاء مجتمعات إسلامية موازية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كنظام قانوني إضافي داخل المجتمعات الأوروبية". وتطرقت سومر إلى الحجاب، ورأت أنّ الحجاب رمز سياسي وليس دينياً.

ونوقش في الاجتماع احتمال منع الإسلام جذرياً في أوروبا، فرأت سومير أن منع الإسلام أو رموزه وشعائره في الاتحاد الأوروبي أمر غير وارد، فذلك لن يخدم أي طرف لأن حرية الاعتقاد والعبادة هي من الحقوق الأساسية المكفولة للجميع، لكن الدين كما قالت: " ينبغي أن يبقى شأناً ذاتياً خاصاً ولا يتعدى ذلك إلى الأمور العامة والاجتماعية والقانونية ".

الأحزاب العنصرية الأوروبية

كانت الأحزاب العنصرية الغربية بوجه عام منشغلة بمواجهة اليهود والأفارقة السود أحياناً وغيرهم من الأجانب. لكن بفضل تطور الأحداث أصبح شاغلها الوحيد اليوم هو المسلمين. إذ يكمن التهديد القوي الوحيد للمسلمين الأوروبيين في احتمال سيطرة الأحزاب العنصرية على الحكومات وقيامها بابعاد المسلمين طرداً أو التخلص منهم إبادة. ويرى المحللون الغربيون أن تلك الأحزاب تعارض بقوة تزايد الهجرة والمهاجرين. وقد توالدت هذه المعارضة في العديد من الدول الأوروبية واستطاعت أن تفرض" ليس فقط مراقبة صارمة وفعالة على الحدود، بل طرد المهاجرين الذين لم تسوَّ وضعياتهم القانونية بعد. إن حركة ضد الهجرة آخذة في التشكل أمام أعيننا، وبشكل غير محسوس. وإذا كان خطابها لا زال محتشماً" فإن قدراتها هائلة بالفعل. إن العناصر المعادية للهجرة وللإسلام، لها على العموم جذور فاشستية ونازية، ولقد تمكنت مع الزمن من كسب أفاق كبرى، وتجردت من معاداتها للسامية التي رافقتها في جذورها ومن نظرياتها الاقتصادية المريبة لتركز كل اهتمامها على المسائل العقدية، والديمغرافية، والهوياتية، وعلى دراسة الإسلام والمسلمين. وإن "الحزب الوطني البريطاني" وكذلك ال"فلامس بيلانغ البلجيكي" يعدّان نموذجين يتطوران بقوة تجاه فرض قوتهم الانتخابية. بل إن السباق

نحو الرئاسة الفرنسية قد تلخص سنة٢٠٠٢ في منافسة مفتوحة بين "جاك شراك" والفاشي الجديد "جون-ماري لوبين" وهناك أحزاب أخرى من هذه الطينة سبق لها بالفعل أن وصلت إلى الحكم. مثل"جورج هايدر"وحزبه "فراي هيتليتش" بالنمسا وقد حكموا لفترة قصيرة. وهناك عصبة الشمال الإيطالية التي ظلت لمدة طويلة من مكونات التحالف الحاكم. فهذه الأحزاب يتنبأ لها بعض المحللين بالاتساع والتقدم وبالقدرة على الاستيلاء على السلطة لأن خطابها المعادي للإسلاميين، وفي غالب الأحيان للإسلام يجد صداه في المجتمعات الأوروبية. وأحزاب التيارات المهيمنة سوف يكون عليها أن تتبنى ولو جزئيا هذه الأحزاب العنصرية(كمثال على ذلك الحزب المحافظ في الدانمارك" الذي تمكن من العودة إلى الحكم -بعد ٧٢ سنة قضاها على هامش الحياة السياسية-أساساً بسبب السخط الذي تسببه الهجرة لدى هذه الشعوب). وهذه الأحزاب سوف تستفيد بكل تأكيد من الوضع عندما تتضخم الهجرة أكثر وتصل إلى نسب مرتفعة في أوروبا مع ما يحتمله ذلك من هجرات مكثفة قادمة من إفريقيا، كما تشير إلى ذلك العديد من المؤشرات. لكن من الانصاف أن نتحدّث عن تراجع نفوذ هذه الأحزاب وتضاؤل مؤيديها في أوروبا. فالحزب الفاشي الفرنسي الذي يتزعمه جان ماري لو بين لم يحز الا على أصوات ضئيلة للغاية في انتخابات فرنسا ٢٠٠٧. لكنّ مؤيدي تلك الفكرة يذهبون بعيداً في تصوراتهم لمأساة المسلمين القادمة على حدّ تعبيرهم ، فيقول رالف بيتيرس: إنه بمجرد وصول تلك الأحزاب الفاشية إلى السلطة سوف تلغي هذه الأحزاب الوطنية، التعددية الثقافية، وسوف تعمل على إعادة نشر وتكريس القيم والتقاليد الأوروبية. ولا يسعنا إلا أن نخمن حول الوسائل التي سوف يستعملونها وحول رد فعل المسلمين. يقف "رالف بيتيرس" طويلاً عند المظاهر الفاشية والعنيفة لبعض الفرق ويتوقع أن تكتسي ردود الفعل المعادية للإسلام والمسلمين أشكالاً تتسم بالتهديد. بل هو حتى يرسم سيناريو تُرى فيه "بواخر أمريكية وقد رست في الموانيء الأوروبية، والمارينز وقد نزلوا إلى الأرض في سواحل مدينة بريست الفرنسية ، أو بريميرهافن الهولاندية، أو باري الإيطالية من أجل تأمين إجلاء المسلمين من أوروبا في أحسن الظروف.

اليمين الفرنسي يتبنى الفاشية

رغم اندحار الحزب العنصري المتطرف الذي يترأسه جان ماري لوبين، فإن الحزب اليميني الذي انتخبه ٥٦ ٪ من الفرنسيين، والذي أصبح زعيمه نيكولا ساركوزي رئيساً للجمهورية، فقد تبنى عنصرية وفاشية شديدة التطرف. وأعلن عن عدائه للوجود الإسلامي في فرنسا، كما أوضح موالاته الكبيرة للولايات المتحدة وللصهيونية العالمية. وساعة إعلان فوزه بدأ الصراع بين المسلمين الفرنسيين والحكومة، حيث انطلق الفرنسيون من أصول عربية وإسلامية للاعتراض على سياسته. وأحرقوا مئات السيارات، واعتقل مئة منهم. لقد كانت فرنسا طوال تاريخها معادية للمخططات الصهيونية والأمريكية.ومساندة للقضية العربية إلى حدّ ما، وكانت على الدوام تلتزم بمباديء وقيم إنسانية انطلاقاً من قيم مفكريها وفلاسفتها وأدبائها، وقيم الثورة الفرنسية. واليوم تعلن فرنسا ساركوزي تخليها عن تلك القيم والخوض في تجربة العنصرية والتطرف. وكلّ ذلك في سبيل مواجهة النشاط الإسلامي الذي يتمدد في العالم وفي أوروبا. لكنّ قراءة متأنية لمستقبل فرنسا تدل على أنها ستبقى فرنسا التي عرفها العالم كله، فرنسا القيم والفكر والأدب والإبداع، وأن مغامرة ساركوزي لن تكون سوى تجربة قد تدوم لبضع سنوات وقد تنتهي برفضه كما يرفض الأمريكيون جورج بوش وكما يرفض البريطانيون توني بليربل إنّ هذه المغامرة المفعمة بالأخطار ستعيد الفرنسيين في السنوات القادمة إلى القيم التي تميّزوا بها عن غيرهم من شعوب أوروبا.وستكون محرّضاً قوياً على تلك العودة.

العنف بين الحداثة والدين

يوخن هبلر باحث في معهد التنمية والسلام في جامعة دوسبورغ -إسن أبدع دراسة موسّعة بعنوان: الحرب القمع الإرهاب العنف بين الحداثة والدين، وجاء فيها: "النقد الذاتي إحدى الشروط الأساسية لتناول الطرفين الغربي والإسلامي لظاهرة العنف

وطرحها في مبادرات الحوار بين المسلمين والعالم الغربي." ينتقد يوخين هبلر الطرق التي سلكها الغرب حتى الآن في طرح وتقييم الجرائم التي ارتكبها، حيث يقول:

"المثير للاهتمام أن طرحنا وتقييمنا للجرائم المرتكبة من طرفنا يتسم بطابع جزئي هامشي كما أن الحال يختلف من دولة غربية إلى أخرى. كذلك أعتقد بأننا، وهذا أمر مثير للاهتمام، سلكنا في هذا السياق خطأ مبنياً على المركزية الأوروبية. فقد انصب اهتمامنا في مجال عرض جرائم العنف المرتكبة منا أثناء الحرب العالمية الثانية وتحديداً في سياق المحرقة "هولوكوست" على الضحايا اليهود الأوروبيين أو البولنديين. أما الضحايا الروس على سبيل المثال فلم نعبأ بهم على نحو يستحق الذكر. بمعنى أننا نربط تلك الأعمال بمجتمعاتنا معتبرين ذلك نمطاً مفرطاً بشعاً من أنماط الحروب الأهلية الأوروبية في حد ذاتها. لكننا نادراً ما نطرح تلك الجرائم في إطار المقارنة مع حالات شبيهة على مستوى الثقافات الأخرى" لقد تجرأ هبلر وانتقد الإهتمام الأوروبي الكبير بأكذوبة المحرقة وبمنحها أهمية أكثر مما تستحقه. فقد ظلّ محظوراً على أبناء الغرب التحقيق أو الكشف أو مناقشة ملابسات المحرقة. وليس هذا المنع ضغوطاً صهيونية على حكومات الغرب. والحقيقة فإن الأحداث التي بدأت بهجمات أيلول، وماتلاها من مظاهر الأسلمة وتهديد أوروبا، هذه الأحداث بدأت تكشف خفايا أوروبا. وخفايا الغرب وسياساته. وهذا مايشكّل مصدر قلق للأنظمة الغربية التي كانت تنوّم شعوبها فوق أرشيف كبير من الأكاذيب والخدع والأساطيرلاحظ هبلر أن المجتمعات الأوروبية بدأت منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ووقوع هجمات إرهابية ذات خلفية إسلاموية داخل أوروبا، تميل إلى إغفال النظر عن تطورات شبيهة داخل شرائحها الاجتماعية أفرزت هي أيضاً العنف. ولم يستطع هيبلر نكران ذريعة المحرقة النازية لكنه قارنها مع جرائم الأوروبيين الأخرى واعتبر أن الغرب يبالغ كثيراً حين يعترف بإقدامه على إبادة اليهود ويتناسى أفعاله الشريرة التي أباد فيها عشرات ملايين من الروس والألمان. ويعترف هبلر بأن الغرب صنع ثقافة الإبادة ومارسها وظلّت أيديولوجيته الحالية.

مشاريع حكومية لمنع توسع الإسلام في فرنسا

تمنع الدولة توسع الإسلام في فرنسا وذلك عن طريق إجراءات ومشاريع عديدة ومنها حوارات خاصة أو جانبية مع رؤساء البلديات الذين تعتمدهم السلطة، وهؤلاء بالطبع يختلفون عن ممثليّ الدعاة ومنهم قيادات اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا وجامع باريس والاتحاد القومي للمسلمين في فرنسا.

تسعى فرنسا لتحقيق أهدافها عن طريق التواصل مع جامعة الأزهر في مصر والمسئولة عن إعداد الأئمة والدعاة حيث أصبحت تمثل تياراً متشدداً تعدى الإخوان المسلمين خلال السنوات العشر الأخيرة وكذلك تهميش الصفوة المتميزة في مجال التمثيل الفعلي. وهكذا نرى أن التجمع والمشاركة يسمح بهما إذا كان ذلك بعيداً عن الدعوة أو السياسة أو التدخل فيها وإذا كان محافظاً على القوانين التي أصدرتها الحكومة . ويسعى اتحاد المنظمات الإسلامية لإنشاء مدارس إسلامية وذلك في إطار حماية قانون الحجاب في فرنسا. ولكن المعارضين بشدة لهذا القانون يرفضون هذه الفكرة لأنها ستساعد على زيادة الفجوة بين الجالية الإسلامية والمجتمع الفرنسي مما يؤدي إلى عزلها عن المجتمع وانحصارها فيه.

وبالتالي نجد أن الموازنة التي تسعى إليها التجمعات الإسلامية يشوبها الغموض فهي من ناحية تفضّل تأسيس إسلام بعيد عن السياسة ومحايد لها ومن ناحية أخرى تؤكد للسلطات وجود مخاطبين أو دعاة محترمين ويتميزون بقلة المجادلة. وهكذا نجد أن الدور الحضاري للإسلام المنتظر من ساركوزي الذي يميل إلى الثقافة الانجليزية في علاقتها بالعلمانية يمكن أن تصاب بالفشل. فالعلاقة المرنة التي تربط بين اتحاد المنظمات الإسلامية والسلطة تساعد على تواجد إسلامي مستقر ولكن يشوبه الجمود بسبب سلب أدواته منه مما يؤدي إلى وجود خطاب لا يتناسب مع اهتمامات الشباب في المناطق المختلفة مما يؤدي بدوره إلى فقد مكانة التبليغ. وبعدما تفشل المؤسسات المسئولة عن عملية الدمج بين الثقافة الإسلامية والمجتمع الفرنسي في تلبية متطلبات الشباب المختلفة لا يبقى أمامنا إلا التيار السلفي الذي

يهدد فرنسا عن طريق الجهاد ولكن يهددها بشكل اكبر عن طريق خطابه الذي يدعو فيه مؤيديه إلى عدم إرسال أبنائهم إلى المدارس العامة.

وبالتالي فقد ينجح التيار السلفي في إجبار المجتمع على الاعتراف بالمهاجرين وإظهار الهوية المنفردة للجالية الإسلامية. ويعتبر هذا التيار السلفي نواة التطاول على الخطاب الحكومي الفرنسي الرسمي، وهذه النواة تكبر باستمرار ويتصاعد دورها بين المسلمين الفرنسيين، وهي التي انتبه إليها وحذّر منها كثير من المراقبين وتصوروا أن تشكّل في المستقبل إمارة إسلامية صغيرة في إحدى الضواحي الباريسية.

الإنتماء الحضاري المطلوب

إن المسلمين الذين قاموا بتفجير مركز التجارة العالمي وحافلات القطارات في اسبانيا، إنما قاموا بتدمير وسائل حضارية ورموز حضارية هي إرث جديد للبشرية، وأولئك الانتحاريون لم يكن بوسعهم أن يدمروا رموز الحضارة هذه دون أن يكتسبوا قسماً من إرث تلك الحضارة نفسها. بل إنهم استخدموا وسخّروا منتجات تلك الحضارة ليدمروها بواسطتها. فقد ركب الانتحاريون في طائرات وسافروا إلى تلك البلدان وتعلموا لغاتها وأنظمة العيش فيها، ثم تعلّم بعضهم قيادة الطائرات في معاهد أمريكية، أي أنهم اكتسبوا علوماً حضارية حديثة، ثم استخدموا شبكة الأنترنيت والهاتف الجوال والسيارات وغيرها ثم اشتروا بطاقات سفر ودرسوا مخططات الرحلات : وكل ذلك نتاج الحضارة التي كانوا يريدون تدميرها. ثم أنهم درسوا نظريات هندسية حديثة وسخّروها لأجل التدمير.كان يتوجب على تلك الحضارة أن تبهرهم وتجذبهم وتجعلهم ينتمون اليها انتماءً حقيقياً.بل ويستفيدون منها في تطوير بلدانهم العربية. لكن هذا لم يحصل بالنسبة لهم، ولو تسنى له أن يحصل مع أحدهم لكان هذا المنبهر المنتمي سيبدل رأيه وسيعدل عن تدمير واحد من مظاهر الحضارة التي استلبته. وبالمقابل فإن الروسي والياباني والأوروبي والإفريقي عندما يهبط في الولايات المتحدة فإنه سيشعر بانتماء إلى هذه الحضارة العظيمة وإنه لن يشعر بأن شيئاً فيها ليس مخصصاً له هو بالذات،

- لكن ماهو السرّ الذي يجعل المسلم العربي يختلف من هذه الناحية عن بقية الشعوب؟؟ ولماذا لايستطيع المسلم خصوصاً أن يتجاوب مع مظاهر الحياة العامة في الغرب ؟ سنعالج هذا الأمر في بحثنا هذا.

تصريحات إسلامية شديدة الحدّة

يعتقد الجهاديون الإسلامويون بأنّ عقيدة المسلمين" بطابعها الجهادي وبتفوقها الإسلامي تحسم كل ما كان ممكناً مع عقيدة المسيحيين الأوروبيين غير الممارسين لدينهم. وإنّ التناقض الاجتماعي في أوروبا يؤدي بالعديد من المسلمين إلى اعتبار أوروبا على أنها قارة ناضجة مهيئة للأسلمة وللسيطرة عليها. وهذا ما تنتج عنه مطالب إسلاموية حادّة اللهجة مثل ذلك تصريح للشيخ عمر البكري الذي قال :

"أريد أن أرى راية الإسلام ترفرف فوق الرقم١٠ بداونين ستريت"(وهو مقر الوزارة الأولى البريطانية).

ويقول إمام آخر يقيم في بلجيكا:

"سوف نتسلم قريباً الحكم في هذه البلاد" وحينها سوف يندم أولئك الذين ينتقدوننا اليوم. فاستعدوا ، إن الساعة اقتربت.

ومثل هذه التصريحات القوية تخرّب العلاقة الاجتماعية مع الأوروبيين غير المسلمين وتعيق الحوار معهم إضافة لجلبها الكثير من المشاكل الأخرى. لكن من أين لهؤلاء الذين يطلقون التهديدات الهائلة من أين تأتيهم هذه الثقة ؟ فهل إن رؤيتهم للواقع وللمجتمع الغربي وإقباله على الإسلام هي التي تمنحه كل هذه الثقة في إخطار الغرب وتهديده؟.

عقدة الإختلاط عند المسلمين الأوروبيين

مازال المسلمون حتى عصرنا هذا منشغلين بمشكلة عويصة وهي معاناتهم من عقدة الاختلاط بين الرجال والنساء وهم ينشغلون بوضع قوانين وأحكام ناظمة له.

ولمّا لم يكونوا قادرين على العيش في حياة غربية طبيعية فلماذا اختاروا الغرب ليقيموا فيه؟ ألم يغامروا ويتحملوا المصاعب بغية الوصول إلى أوروبا؟ ألم يعبروا البحار في قوارب الموت؟

ينظر عادة إلى الغرب على أنه مجال تطوير عام للفرد ويهاجر مواطنونا بغية تطوير جوانب كثيرة فيهم، والمشكلة التي تنشأ لاحقاً هي أنهم يصبحوا أكثر تخلفاً من أبناء بلدانهم الأصلية. فغالبية مجتمعاتنا لم تعد تعاني من عقدة التعامل بين الذكور والإناث، بينما نجد مسلمون في الغرب يعانون من هذه العقدة.

ففي السابع من أيار ٢٠٠٧ ألغيت مباراة في كرة القدم بين فريقين من رجال دين مسلمين ومسيحيين في العاصمة النرويجية أوسلو بسبب اعتراض المسلمين على إمكانية مشاركة قسيسات في الفريق المسيحي وقال أحد منظمي المباراة: إن الخلاف بدأ عندما رفض المسلمون اللعب أمام فريق مختلط من الجنسين بسبب تناقض هذا الأمر مع معتقداتهم الدينية.

وكان من المقرر أن تقام المباراة في إطار مؤتمر للتقريب بين العقائد. ويتضمن المؤتمر نشاطات وفعاليات عديدة ومنها تلك المباراة.

وقال المسلمون إنه من المستحيل أن يلعبوا أمام فريق يضم قسيسات خشية من حدوث احتكاك جسدي.

وذكرت المحطة التلفزيونية العامة "ان ار كي" أن الائمة قالوا إن التلامس الجسماني مع النساء سيكون غير ملائم.

وقال الإمام سيناید كوبيليكا للمحطة التلفزيونية "ان ار كي" في معرض تفسيره لذلك "البعض يقول إن التلامس الجسماني هو المشكلة. فهو يؤدي إلى إثارة مشاعر خاصة قد تؤدي إلى أمر محظور."

وقالت وكالة الأنباء النرويجية إن الكنيسة بذلت محاولات عديدة لمدة يومين لإقناع القسيسات بارتداء ملابس أكثر اتساعاً وسراويل طويلة تغطي الساقين، وعندما فشل هذا الاقتراح قالت الكنيسة إنه يتعين عليهن عدم الاشتراك في المباراة مما أثار استياء القسيسات وأدى إلى استقالة كابتن الفريق.

غير أن المتحدث الإعلامي قال إن الحصيلة لم تكن سلبية بالكامل فقد توصلنا لفهم أعمق لكل طرف. ومعنى كلامه أنه فهم تخلّف أولئك المشايخ المسلمين.

عقدة تعامل الرجال مع النساء والتي يقال لها خطأً بالاختلاط هذه العقدة تعبّر عن ضعف وتخلف. وقد آن الأوان لأن يتحرر الناس منها. ولعلّه من غرائب الحدث أن تستمر وينقلها المسلمون معهم إلى الغرب.

مخاوف إسلامية من الإبادة

إن المسلمين قلقون بالفعل منذ سنوات من احتمال احتقان مثل هذا الصراع، ومن احتمال حدوث احتجازات جماعية عنيفة، متبوعة بإجلاءات جماعية، بل ويخشى البعض من احتمال حدوث إبادة جماعية للمسلمين في أوربا.ولقد سبق لكريم صديقي عندما كان مديراً للمعهد الإسلامي بلندن في الثمانينات من القرن العشرين أن لوّح إلى إمكانية وجود رغبة كامنة لدى الأوروبيين لإعادة إحياء "طيف غرف الغاز الهتلرية المزعومة، للمسلمين هذه المرة". وذلك في كتابه المسمّى "كن حذراً مع محمد" الذي صدر له سنة ١٩٨٩ .

وكذلك حذّر المسلم البريطاني "شبير أكثر" بقوله:"في المرة القادمة التي سوف تكون فيها غرف للغاز في أوروبا، لن يكون هناك أدنى شك حول هوية الذين سوف يوضعون داخلها" يعني المسلمين.

ويتحدّث "حنيف قريشي" عن صورة مشابهة في روايته المسمّاة (بودا الضواحي)

اذ يهيء بطل روايته لحرب عصابات لأنه يتوقع أن تقوم عندما يهجم البيض على السود والآسيويين ويحاولون وضع المسلمين جميعاً في غرف الغاز.

ولكن يبقى كذلك من المحتمل جداً أن يسعى الأوروبيون إلى تحقيق مطالبهم بطرق سلمية، ويتوقع بعض المحللين الأوروبيين أن يأتي العنف من المسلمين، ويستدلّون على ذلك وفقاً للميولات الأخيرة نحو التخويف والإرهاب. فالعديد من

استطلاعات الرأي تؤكد أن حوالي٥٪ من المسلمين البريطانيين يؤيدون تفجيرات لندن في يوم ٧ تموز ، وهو ما يشير عندهم إلى قابلية عامة للجوء المسلمين إلى العنف.

والوقائع تدل على أنّ العنف موجود وقد بدأ العمل به بالفعل، فقد مارسته الجماعات الإسلامية ضد الغرب، في تفجيرات لندن ومدريد وواشنطن. وفي أعمال متفرقة في دول العالم كالتفجيرات والاغتيالات التي تستهدف الغرب وأبناءه في السعودية والكويت وغيرها. كما أنّ الغرب يمارس العنف ضد المسلمين منذ عدة قرون. وهو اليوم يصعّدها في العراق وأفغانستان وغيرها. وفي أوروبا نفسها تتم ابادة المسلمين الذين يحاولون دخول أوروبا بالتسللّ غير الشرعي. كما وتقوم المخابرات الأمريكية باعتقال سري واختطاف أفراد من المسلمين.

انبهار العرب بالغرب

يجمع العربي عموماً بين نقيضين ثابتين وهما انبهاره الكبير بالغرب وإعجابه به من ناحية ،وكرهه لهذا الغرب وعداؤه له من ناحية أخرى. وإن جميع المغتربين العرب قد عبّروا أفضل تعبيرعن ذهولهم واعجابهم الكبير بالغرب حين اختاروه كموطن بديل وجديد لهم وبنفس الوقت استمروا في معاداته.ويتمثّل هذا الانبهار بصور عديدة نذكر بعضها:

- انبهار بكل النتاجات الغربية من الصناعات والعلوم والنظريات الجديدة وغيرها.

- انبهار بأقوال الأشخاص الغربيين، فاذا كتبنا الآن رأياً لكاتب أو باحث غربي سينبهر به القراء أكثر مما يحققه عشرات الكتب التي يضعها عرب مسلمون. ومازالت طريقة الباحثين العرب تعتمد كأساس مهم للبحث على أقوال أشخاص غربيين، وقد يكون هؤلاء الغربيون لايحملون أهمية علمية كبيرة في بلدانهم. بل إن بعض الأبحاث تقوم على أساس واحد وهو جمع العديد من أقوال الغربيين في موضوع واحد.

- الاقتناع بعربي يحمل شهادة علمية من دولة غربية، وسيكون تعامل الناس معه أفضل من مثيله الذي يحمل شهادة عربية(اذا كان طبيباً مثلاً)، وسيجد الأول وظيفة أفضل في كافة الدول العربية.

- تعتبر الهجرة إلى الغرب حلم عدد كبير من الشباب العربي، وفي سبيل تلك الهجرة، أي في سبيل أن تطأ قدماه أرض أوروبا، يخاطر العربي أو المسلم بروحه وماله ونصيبه ويركب البحار أحياناً، ويضع احتمال الموت نصب عينيه ورغم ذلك يقبل بتلك المغامرة الخطيرة. وماذلك إلاّ عمل انتحاري حقيقي.

مرض أوروبا

تنتشر في الوطن العربي حالة ليست طبيعية على الإطلاق، وتكثر العناصر المكوّنة لهذه الحالة التي يمكن أن نعتبرها مرضية. فبين العرب أفراد يحملون حلماً كبيراً بالوصول إلى أوربا.

ويعتبرونها الفردوس المفقود. وموطن الأحلام، وأبعد مايمكن أن يحلمون به.وثمّة أشخاص حاولوا السفر إلى بلد الأحلام عدة مرات. وآخرون طردوا منها وأعادوا المحاولة. ولو تيسّر لنا أن نستطلع آراء الشارع العربي لوجدنا أن نسبة كبيرة يعتقدون بأن وصول العربي إلى أوروبا يعني تخلّصه من كافة المشكلات التي تواجهه في أيامه.وأنّ حياته هناك تعني أنه سيكون مرتاحاً تماماً وسيعيش بدون أية مشاكل أو عقبات. أي أن كافة المشاكل المعيشية والاجتماعية والسياسية عند البعض والمشاكل اليومية من متاعب العمل والتعامل مع الآخرين والفقر والفشل وكل ذلك يعتقد هؤلاء بأنهم سيتخلصون منه عندما تطأ أقدامهم أرض أوروبا.

وهذا الحلم ليس الاّ حلماً بالفردوس الأرضي.ولمّا كانت أوروبا بالنسبة لهم كالجنة المحرومين منها، فتلك حالة غير طبيعية، وإن هي إلاّ مرض نفسي واجتماعي نطلق عليه هنا اسم "مرض أوروبا".ونطلق هذا المصطلح لأول مرة على الصعيد العالمي. وإنّ مانسميه هنا بمرض أوروبا يشكّل عاملاً قوياً لسعي مجتمعات إسلامية كبيرة لجعل أوروبا مستعمرة إسلامية جديدة. ويدعم هذا المرض ويقويه

غنى أوروبا مالياً وخصوبة وجمال الطبيعة فيها الذي تكوّنه الخصوبة والأمطار الغزيرة. في حين أنّ العرب الحالمين يعيشون في مناطق صحراوية جافة بشكل عام. ويضاف إلى ذلك الحريات الشخصية التي يعيشها الفرد الأوروبي والديمقراطيات الجزئية المزيفة التي تخدع المواطن.

الإنتحار نحو الحضارة الأوروبية

الاندفاع العربي في الهجرة إلى أوروبا ، حالة فريدة لاتعرفها أية شعوب عالمية معاصرة. وللتعرّف على هذه الحالة يمكننا أن نفترض بأن تسمح أوروبا باستقبال مواطنين جزائريين وتسمح لهم بالاقامة فيها دون عقبات أو شروط. ولنتخيل ماالذي يحصل بعد سنة واحدة. مما لاشك فيه أن خمسة ملايين جزائري على الأقل سيزحفون نحو أوروبا خلال سنة واحدة. ومن دولة عربية واحدة. وسنرى نفس النتيجة في أية دولة عربية أخرى. أي أن الرغبة في الهجرة نحو أوروبا هي هاجس العرب المسلمين بكافة فئاتهم.كما تعتبر أوروبا بالنسبة للعرب الباب نحو العالمية. فمن خلالها يدخل العربي العالم الحديث المتحضّر. أوضاع صعبة تلك التي يعانيها المضطرون والحالمون بالهجرة إلى أوروبا ، فمن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الصعبة التي يعيشونها في بلدانهم، إلى تشديد الإجراءات في بلدان اللجوء أو الهجرة يضطر هؤلاء الراغبون في الهجرة إلى البحث عن الوسائل أياً كانت عواقبها ، لتحقيق هدفهم، وهنا تبدأ مافيا الهجرة أو ما يطلق عليها "مافيا المتاجرة بالبشر" في اصطيادهم واستغلال ظروفهم بالوعد بتحقيق رغباتهم.وإن كان التقرير التالي يلقي الضوء على تلك المافيا التي تسببت وسائلها في أحيان كثيرة في وقوع مآس للمهاجرين كالغرق في البحار والمحيطات، أو إلقاء السلطات القبض على هؤلاء المهاجرين وإعادتهم من حيث أتوا ، في أفضل الأحيان، إن لم تتركهم في عرض البحر مشردين، لا هم عادوا إلى بلادهم ولا هم هاجروا إلى تلك البلدان رغم كل ذلك، إلا أن هناك أطرافاً أخرى تشترك في تلك المأساة التي يواجهها هؤلاء اللاجئون.

من يقتل المهاجرين ؟

الطرف الأول: البلدان التي لم توفر لأبنائها حياة كريمة بسبب الاستبداد أو الفساد، مما دفعهم إلى البحث عن كل الوسائل للهجرة إن لم يكن الهرب منها بحثاً عن حياة أفضل، وإن كلفه ذلك ماله بل حياته.

الطرف الثاني: هو الظلم الأوروبي الجديد الواقع على هؤلاء اللاجئين والمهاجرين، سواء كانت وسائل ذلك الظلم فى إصدار قوانين جديدة أو تعطيل قوانين عادلة كانت موجودة، أو العنف بجميع أشكاله غير المبرر غالباً ضد هؤلاء الباحثين عن حياة كريمة فى أوروبا، وهي في النهاية إجراءات ناتجة عن عقدة "الإسلاموفوبيا" التي أضحت تسيطر على عقلية صناع القرار في كثير من البلدان الأوروبية.

وللمقارنة بين قدرة أي دولة على استيعاب المهاجرين إليها، نذكر أن سورية تستقبل العرب الراغبين في الإقامة فيها باستمرار، ففي ١٩٤٨ استقبلت مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين، وفي ١٩٦٧ تكرر وفود النازحين، وفي الحرب الأهلية اللبنانية وفد إلى سورية أكثر من نصف مليون لبناني، وخلال سنوات حكم صدّام وفد إلى سورية حوالي نصف مليون عراقي، وفي الحرب اللبنانية ٢٠٠٦ استقبلت سورية مئات الآلاف من اللبنانيين، وخلال هذه الأيام مازالت تستقبل في كل يوم ٣٠٠٠ عراقي، وقد أصبح عدد العراقيين المقيمين في بلدهم سورية حوالي ١،٥ مليون نسمة.وصورة مشابهة نراها في السعودية ودول الخليج حيث يقيم ويعمل فيها أكثر من عشرة ملايين من العرب والمسلمين وغيرهم من شعوب العالم. وبمقارنة هذه الصورة مع صورة أوروبية نشاهدها على شاشات التلفزة كل يوم، وهي ترينا بضعة أشخاص من العرب الذين يحاولون الدخول إلى أوروبا بواسطة قارب بحري، فتقوم قوات مراقبة السواحل باغراق القارب بمن فيه، وتقوم بإبادة هذا القادم الجديد قبل أن تطأ قدماه أوروبا. تلك هي العنصرية وسياسة الكره وعمل الإبادة.

الطرف الثالث: هو اللاجئ أو المهاجر الذي سعى إلى الهجرة بأي طريقة، حتى لو كان ذلك بوسائل غير مشروعة تكلفه ماله وحريته، بل حياته ومستقبل أسرته،

فأصبح هذا المهاجر ضحية ومسؤولاً في الوقت ذاته عن موته وفقدانه. فهو الذي يدرك خطورة إقدامه على الهجرة غير الشرعية وهو الذي وافق بعمل انتحاري حقيقي على خوض التجربة المهلكة.

عقدة خوف المسلمين من تجديد الفكر الإسلامي

الطبيعة العامة السائدة عند المسلمين بشكل عام وهي الموقف السائد الذي يعبّر عنه أغلب المسلمين أفراداً منوعين ومشايخ وعلماء دين وفقهاء هي الخوف من أي تجديد في الفكر الإسلامي، ورغم معرفتهم بمضمون الآية القرآنية الكريمة التي تدعوهم للتطور وترك موروث الآباء والأجداد والتي تقول (هذا ماوجدنا عليه آباءنا) فهم يلتزمون بالحفاظ على الموروث دون تمييز بأنه إسلامي أو اجتماعي.

فتجربة الإسلامية العلمانية التركية هي اليوم أفضل درس للمسلمين العرب توجب عليهم أن ينهلوا منه بشغف، بينما وجدنا إعلامنا وكتّابنا ومفكرينا ذهبوا على الفور ينتقدون التجربة التركية ويحاولون البحث عن نقاط عيوب فيها. بل وذهب برنامج تلفزيوني في الجزيرة ليقول إنهم الخطر العثماني الجديد الذي يهدد العرب ويعيد مجد الإمبراطورية العثمانية.!. العقل المتطرف الإسلامي يحرص على أن يعيش دوماً في الماضي ويرفض مستجدات الحاضر. فالقضية التي كان يرفضها منذ خمسين سنة وافق على تقبلها منذ ثلاثين سنة، والقضية التي كان يرفضها منذ ثلاثين سنة وافق على تقبلها منذ عشر سنوات والقضية التي يرفضها اليوم سيوافق على تقبلها بعد عشر سنوات. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً: فقد كانت جامعات عربية تحرّم تدريس الفلسفة والجغرافيا منذ عقود ووافقت على إيقاف تحريمها بعد ذلك. كان التطرف السلفي يحرّم شرب القهوة ويحرم تدخين السجائر وبفضل شيوعهما فقط لم يعد هذا التحريم وارداً عنده.

الفصل الثاني

العلاقات المتوترة بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

العلاقة المعقدة

الجرح النازف

الهوية الإسلامية المفقودة

منذ مطلع القرن العاشر تقريباً وحتى نهاية القرن الثامن عشر استمرت العلاقة الإسلامية مع المسيحية الغربية بالتعقيد والمواجهات والتحدي والصراع على النفوذ، وكان ذلك شبه جرح نازف باستمرار لايهدأ ولاتقلّ حدّته.

كانت الأحداث شديدة العنف والدموية، نتجت عنها أحقاد عميقة متأصلة لم تخفّ حدّتها حتى يومنا هذا، نتعرف على بعض فصول ذلك التاريخ المؤلم ونرجو ألاّ يكون محفزاً عند البعض لتعميق الكره تجاه الأوروبيين، فنحن نكشف عن الحقائق بهدف صيانة وتصحيح تلك العلاقة التي أصبحت عقدة حقيقية لابهدف تعميق الخلاف الغربي الإسلامي:

- استمرت الحروب والإقتتالات بين الطرفين وخلالها كان الجانبان يخسران الأرواح الكثيرة.

- استمرت أعمال القرصنة من الجانب الغربي المسيحي، حيث كانوا يختطفون أعداداً من المسلمين نساء ورجالاً ويجعلونهم عبيداً، فانتشرت تجارة العبيد المسلمين في أوروبا.

- كان يلزم العبيد بالتنصير وبترك الإسلام.

- في المقاطعات المسلمة الإسبانية قام المسيحيون بإبادة المسلمين وأجبر الناجون على اعتناق المسيحية، وبعد قرون جرى استعباد هؤلاء وتهجير وإبادة من ثبت أنه مازال يخفي إسلامه. وبالطبع فقد استمر الإسلام خفياً في قلوب الكثير من الناجين، ومع تشكل النظام الغربي الحديث أصبح الإسلام بالنسبة لأولئك (المسلمين القدامى) هو الهوية المفقودة والممنوعة والتي توجب عليهم إخفاؤها خشية الإبادة.

- مازال في الغرب حتى يومنا هذا عائلات ومجتمعات صغيرة تعتقد بأنها منحدرة من أصول إسلامية ومازال هؤلاء عاجزين عن العودة إلى دينهم الهوية المفقودة.

- في العقود القريبة الماضية كان المسلمون لايمتلكون قدرة ولا حضوراً عالمياً يمكنهم من الترويج لدينهم ومن نصرته ومن الدفاع عن حقوق أولئك المسلمين المحرومين من العقيدة. بينما في السنوات الأخيرة تطورت الأحداث كثيراً، وأصبح

الإسلام حاضراً في أنحاء العالم كله، وهذا الحضور مكّن الأوروبيين الذين يميلون نحو الإسلام من التحرر الحقيقي من ربق العبودية الغربية لهم. فانطلقوا يعلنون أسلمتهم باندفاع كبير وبرغبة عارمة: ومن الطبيعي أن نجد منهم أشخاصاً تفوق عطاءاتهم للدين الإسلامي كل مانقدمه ونمنحه نحن العرب المسلمين لهذا الدين الحنيف.

- انتشرت ظاهرة الأسلمة في الغرب لأن الغربي تحرر من الربق الفكري، وشاعت هذه الظاهرة بقوة، فجامع باريس يعلن في كل يوم عن عشرات وربما عن مئات من الذين يعتنقون الإسلام. وتجري الأسلمة بدون مساهمات وسعي يذكر للعرب والإيرانيين والأتراك وغيرهم. ورغم ذلك فبإمكان هؤلاء المساهمة في دعم هذه الأعمال، وستفيد مساهماتهم في تسريع هذه الظاهرة التي هي تسير بمفردها بشكل آلي.

- مما تقدم يثبت للبشرية كلها أن الإسلام يمتلك خاصية ليست موجودة إلا فيه هو فحسب: وهي أنه دين لايمكن العبث فيه ولايمكن محوه من القلوب ولايمكن إبادته، فبعد حوالي عشرة قرون من مجازر الغرب التي حاولت إبادة الإسلام الغربي نهائياً عاد الإسلام إلى الغرب مزهواً، وبقي أحفاد المسلمين الغربيين يحنّون لدين أسلافهم حتى بدأوا اليوم يرون النور ويعلنون عن عودتهم للهوية التي حرموا منها.

- يعود الفضل في ظاهرة أسلمة أوروبا اليوم إلى كثير من المسلمين، وإلى أحداث عديدة قلبت التاريخ وجعلته يميل لصالح المسلمين، وقد يراها البعض منا أحداثاً تسيء إلى الإسلام: نذكر من تلك الأحداث ثورة الإمام الخميني والأسلمة الجديدة لدولة كانت علمانية، وظاهرة حزب الله في لبنان. وظاهرة حركة حماس في فلسطين وظاهرة الأحزاب الإسلامية في بلدان المغرب العربي. وحديثاً سيكون لانتصار المسلمين في تركيا وفي قدرتهم على محاكاة العالم كله بلسان علماني وحضاري وإسلامي سيكون لهم تأثير كبير على دفع عجلة أسلمة أوروبا.

انتشار واسع للإسلام في العصور الوسطى

وجدت هناك مناطق، منذ بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر، تحت حكم السلاطين المسلمين حيث كان الإسلام على مر العصور يشكّل دين الأغلبية. إلى جانب الأندلس، وكانت تلك أيضاً حالة العديد من جزر البحر المتوسط والثغور الإسلامية الصغيرة في كل من جنوب فرنسا وإيطاليا.

وقد استطاع الأوروبيون في العصور اللاحقة تنصير تلك المناطق وإخضاعها لنفوذهم حتى يومنا هذا، لكنّ الجذور العربية والإسلامية والتأثيرات الثقافية والدينية بقيت ماثلة في الغرب حتى يومنا هذا:

ففي اللغة الفرنسية يمكن إحصاء عدد الكلمات التي هي من أصول عربية أو إسلامية والتي تقارب خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير. ويجدها الباحث في القواميس الفرنسية المعاصرة كلها حيث يشار عادة للكلمة التي هي من أصل عربي بمصطلح Ar.

سكان جزر البحر المتوسط التابعة لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا مازالوا يستخدمون فيضاً هائلاً من الكلمات العربية، بل لبعض هذه الجزر لغة محكية خاصة بها هي لغة مشتقة عن العربية التي مزجت للضرورة بلغات أوروبية.

اللغة الإسبانية هي الأكثر تأثراً بالعربية وتحوي عشرات الآلاف من المصطلحات والأسماء والصفات التي هي مشتقة عن العربية.

تاريخ الإسلام في غرب أوروبا باعتباره دين الأقلية

إن هذا التاريخ يبتدئ حوالي مستهل القرن التاسع، في الوقت الذي قرر فيه الحكام المسيحيون، خاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية، عدم الاستمرار في قتل أسرى الحرب المسلمين بل استخدامهم كعبيد بدل ذلك. مع بداية القرن الحادي عشر ازدادت هذه الظاهرة حجماً بشكل بارز، حيث تواجدت في البلدان المسيحية لشبه الجزيرة الإيبيرية وفي إيطاليا وجنوب فرنسا وكذا في صقلية وجزر البليار، أعداد متباينة من المملوكين والأسرى المسلمين. إن وجود هؤلاء في هذه المناطق إلى حدود

القرن التاسع عشر وإلى غاية إلغاء العبودية يمكن إثباته عن طريق الوثائق. وإن تاريخ هؤلاء العبيد والأسرى المسلمين يتميز بطابع إجبارهم على التنصير والاندماج التام في المجتمع المسيحي.

بالنسبة لبعض مناطق شبه جزيرة إيبيريا شكلت مرحلة ما بين بداية القرن الثاني عشر والسادس عشر مرحلة خاصة. لما وضع الحكام المسيحيون في الشمال أيديهم على عدد كبير من مناطق إسبانيا المسلمة، منحوا لأسباب عملية نوعاً من الحرية الدينية والحماية للجاليات الإسلامية المتبقية في مناطق سيادتهم، بالرغم من أن الكنيسة لم تكن سعيدة بهذا الأمر، يدل على ذلك أنها مثلاً وافقت في مجمع فيينا سنة ١٣١١ على حظر كل تظاهرة للطقوس الإسلامية، كالآذان مثلاً من فوق مآذن المساجد. إن هذه الأقليات المسلمة المعترف بها رسمياً في إسبانيا المسيحية استمرت في وجودها قليلاً بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. بعدئذ أجبرت على التنصير بشكل جماعي، حيث أطلق على أعضائها تسمية "الزنادقة غير المهتدين" وتم إبعادهم مع بداية القرن السابع عشر إلى إفريقيا الشمالية ومناطق الخلافة العثمانية. غير أن هذا الأمر لم يضع في الحقيقة حداً لتواجد العبيد المسلمين في أوربا الغربية بما في ذلك إسبانيا.

المسلمون الأسرى حسب المصادر الإسلامية

غالبا ما تشير المصادر الإسلامية إلى المسلم الذي أسره المسيحيون باستعمال لفظة أسير. وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على الأسرى الذين تم بيعهم وسقطوا بذلك في العبودية الحقيقية حسب وجهة النظر القانونية الغربية. إن هذا المس بالوضعية الشخصية للأسرى المسلمين لم يتم الاعتراف به البتة في الشريعة الإسلامية، بل على العكس ظل الأسير يتمتع مبدئياً بكامل حقوقه، الأمر الذي كانت تنتج عنه مشاكل في ميدان أحكام الزواج مثلاً. إن الفقهاء المسلمين واجهوا من بين ما واجهوه قضايا ناتجة عن الفصال الاضطراري بين الزوجين. هل يمكن للزوجة التي

يوجد زوجها أسيراً خلال سنوات عديدة في مكان مجهول عند الروم أن تطلب الطلاق مثلاً.

إن القضية الإسلامية التي كانت تواجه المرء في الحقيقة هي تحرير الأحبة والإخوة المسلمين من العبودية وكذا السهر على عودتهم سالمين إلى البلاد الإسلامية. أما أفضل سبيل إلى ذلك فكان عن طريق الفداء. وقد كان الإسلام يعتبر هذا الأمر بمثابة مسؤولية ملقاة على عاتق الجماعة الإسلامية، كما كان يستعان أيضاً من بيت مال المسلمين. في حالات أخرى كان الناس يلتمسون من السلطان تبادل الأسرى المسيحيين بإخوانهم المسلمين في البلاد المسيحية بدل إطلاق سراحهم مقابل المال. كما كانت تنظم أيضاً بأمر من السلطات جمع التبرعات في المساجد.

إن تدخل السلطات في تحرير الأسرى المسلمين جعل القضية من الشؤون الحكومية. هناك بالطبع عدد كبير من أمثلة الافتداء أو تبادل الأسرى نتيجة جهود البعثات الخاصة أو في إطار الاتفاقيات الدولية. إلا أن تحرير الأسرى والسهر على عودتهم سالمين على يد السلطان كان يزيد من عظمة هذا الأخير. هكذا نجد مثلاً مؤرخ الخليفة الموحدي "أبو يعقوب يوسف" من القرن الثاني عشر يثني عليه ثناءً كبيراً لأنه افتدى سكان إشبيلية الذين وقعوا أسرى في أيدي الجيوش القشتالية: "وأنقذهم من ربقة عبودية الكفر إلى حرية الإسلام". بمعنى آخر أنقذهم من التنصير وتسميتهم بالأسماء المسيحية التي كانت غالباً ما تلي أسرهم ومن ثمة عبوديتهم.

من البديهي أن تبادل الأسرى كان فيه عزاء وسعادة لأولئك الأسرى الذين لم يساقوا بعد إلى أسواق العبيد. كانت هذه حالة المحظوظين البارزين من الأسارى الذين كانوا يوضعون بعد عملية تصفية أولى، تحت تصرف الملوك المسيحيين قصد استخدامهم والمتاجرة بيهم. في حين أن الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن حول أسواق العبيد، ومن ثم يتم التوزيع على الصعيد الدولي.

إلى جانب الاهتمام الرسمي للسلطات الإسلامية، كانت هناك أيضاً مبادرات فردية أدت إلى إحداث وظيفة خاصة عرفت "بالفكّاك". إن الفكّاك غالباً ما يكون تاجراً وصاحب علاقات دولية يستعد أيضاً للسهر على افتداء الأسرى خلال رحلاته

التجارية. هكذا كان يعقد العقود مع المالكين الأحرار لأجل افتداء أسرى معينين من البلاد المسيحية مقابل مبلغ مالي محدد. إن نشاطات هؤلاء الفكّاكين معروفة أيضاً من خلال المصادر الأوروبية. هكذا كان في العام ١٤٠٧ علي الغرناطي المسلم يستقر في منطقة Roussillon جنوب فرنسا قصد افتداء الأسرى المسلمين.

في البلاد المسيحية ظهرت هناك المؤسسة الموازية المعروفة بالفكاك Alfaqueque المقابل الطبيعي لمصطلح الفكاك في العربية. لقد كان الفكاكون غالباً من اليهود الذين يتحملون مسؤولية مرافقة الأسارى إلى البلاد الإسلامية، وفي طريق عودتهم يرافقون الأسارى المسيحيين إلى البلاد المسيحية. مما لا ريب فيه أن الحكام المسيحيين بسبب المعارك والحصارات التي تستنزف خزائن أموالهم كانوا لا يترددون في بيع أسارى الحرب مباشرة مقابل مبلغ من المال.

إن الأقليات الإسلامية التي كانت تعيش تحت حكم النصارى في إسبانيا كانت أيضاً تعمل جاهدة قصد تحرير الأسارى المسلمين من عبوديتهم. إن العبيد المحررين كانوا ينضمون أحياناً إلى الجماعات الإسلامية المحلية التي عرفت في بعض الأحيان كيف تستهوي بعض المحررين من بين العلماء. وقد كان هؤلاء يشكلون حافزاً جديداً للدفع بحركة دراسة الإسلام بين هذه الجماعات التي كان مستواها في العلوم الإسلامية جد منخفض.

من الطرق الأخرى التي كانت تؤدي إلى الافتداء ما كان مبنياً على الجهود التي يبذلها الأسير نفسه. هذا يعني أن الأسير كان يحاول بشتى الطرق جمع المبلغ المالي الذي يتطلبه تحرير رقبته. هكذا نقرأ في وثيقة لعام ١٣٠٣ عبارة عن تصريح لقاضٍ مسلم إلى أسيرين مسلمين يرخص لهما أخذ الزكاة من الجماعات الإسلامية في مملكة بلنسية تحت حكم ملك أراغون، قصد جمع المبلغ المالي لافتداء أنفسهما. في بعض الحالات وخاصة عندما يكون المالك شديد التعلق بوداد وإخلاص عبده، كان الأسير يكتسب هذا المبلغ المالي عن طريق عمل مشرف أو ممارسة محكمة لصنعة ما خلال مدة معينة. مما يتبادر إلى الذهن بداهة أن رجال المهن وكذا النخبة المثقفة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، كانوا يحظون دون غيرهم

بمعاملة امتيازية. إلا أن اعتبارات عديدة ذات طبيعة اقتصادية وجغرافية كانت تلعب دورها في هذا المجال، ففي جزر البليار مثلاً حيث فرار الأسير يعد من المستحيلات، كان الأسارى المسلمون الذين يؤتى بهم من مكان آخر يسعون بأنفسهم إلى اكتساب حريتهم. إن الاعتقاد كان سائداً أن العبيد الذين كانوا يتواجدون في مثل هذه الظروف كانوا يجهدون أنفسهم أكثر. علاوة على ذلك لم يكونوا في حالتهم هذه يحتاجون إلى الحراسة الدائمة والثمينة.

من المبادرات الأخرى التي كان الأسير يحاولها المراسلة مع عائلته في موطنه حيث يطلعهم على مكان وجوده وكذا المبلغ المالي الذي هو في حاجة إليه لافتداء نفسه. من الأمثلة الخاصة لمثل هذه المراسلات رسالة بعث بها ابن برطلة الخطيب المشهور من مدينة مرسية، الذي أخذ أسيرا من طرف النصارى في القرن الثالث عشر. خلال أسره نظم هذا الخطيب قصيدة على بحر الرجز موجها فيها نداءه إلى عطف وشفقة إخوانه المسلمين. وقد أطلق على قصيدته هذه: "*ذكرى المتفجعين وبشرى المسترجعين*".

في حالات عدم توفر المبلغ المالي الضروري كانت بعض العائلات تجعل أحياناً ولداً لها رهناً حتى يجمع الأب المسرح ذلك القدر المالي الذي طلب منه. وكما هو العادة كان الفقهاء يواجهون بمثل هذه القضايا عندما يطرأ مشكل ما. إن الابن الرهينة في حالة وفاة أبيه قبل جمع القدر المالي لتحريره، كان يشترط تحريره من ممتلكات أبيه قبل تقسيم ميراثه. بالإضافة إلى ذلك كان يحدث تفادي أسير مهدد بتقديم الأبناء كرهينة. إن الفقهاء كانوا يحكمون على جميع سكان حصن تخلصوا من الأسر عن طريق تقديم الأطفال كرهائن، أن يساهموا كل على حسب إمكانيته لجمع المقدار الذي يتطلبه افتداء كل الأطفال الرهائن .

رابطات فكّ الأسرى المسيحيين

من الجانب الأوروبي المسيحي ظهرت هناك مبادرات قصد فدية الأوروبيين الذين سقطوا في شرك العبودية في البلاد الإسلامية. وقد اهتمّت بهذه الأنشطة منذ القرن

الثالث عشر العديد من الجمعيات الدينية والرابطات اللائكية (خاصة الرابطات الجندية) التي ساهمت مراراً في عملية تبادل الأسرى والعبيد المسلمين في البلاد المسيحية بإخوانهم المسيحيين في البلاد الإسلامية. مع نهاية القرن الثالث عشر تأسست بمبادرة من يوحنا المتي (من مقاطعة بروفانس Provence بفرنسا) "جمعية الثالوثيين" Trinitaires كانت تستهدف تحرير وافتداء العبيد النصارى في البلاد الإسلامية. إن أعضاء الجمعية أعطوا عهدهم على تخصيص الثلث من ممتلكاتهم لفدية السجناء الأسرى. مع بداية القرن الرابع عشر أسست طريقة مريم الرحيمة في برشلونة لنفس الغرض أيضاً . من الحالات الاستثنائية في هذا المجال التدخلات الكتابية للصوفي الإفريقي الشمالي الحرّالي الذي توفي في دمشق ١٢٤٠. لقد بعث هذا الشخص إلى السلطات الكنسية في المدينة الإسبانية تركونة Taragona حيث يوجد عدد من أعضاء أسرته في الأسر، برسالة بديعة الأسلوب. في رسالته يصر الحرّالي على وحدة الجنس البشري: "فكتب إلى قسيس تركونة ليفك أسرهم ويزيل عنهم أسرهم: "بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي خلق البشر من نفس واحدة وبرأ أبدانهم كلها من أديم الأرض الواحدة فجعلهم بالحقيقة ذوي رحم واحدة، لو تعارفوا حق المعرفة بما اشتركت فيه أبدانهم وانفردت بالنفس الواحدة نفوسهم وتحققت بروح الله أرواحهم، ما تقاطعوا ولا تسافكوا الدماء ولا تواثبوا تواثب الأسد على النعاج...." في هذه الرسالة يستدرج المؤلف زملاءه النصارى الإسبان للنظر إلى أبعد مما تسمح به الحدود الدينية المعروفة نافياً عن هذه الأخيرة معناها الديني الجوهري. إن الدعوة الدينية لإبراهيم الأب الأول لكل من الروم والعرب، تبني في رأيه على أسس عميقة ومشتركة بين المسلمين والمسيحيين. إن الحرالي يستند في رسالته هذه ضمنياً على الموقف الصوفي من وحدة الوجود الذي يقول من بين ما يقوله إن الديانات التاريخية ما هي إلا تجليات ومظاهر لجوهر واحد مشترك بين الإنسانية جمعاء. إن الحرالي يقتفي هاهنا أثر معاصره المتصوف الأندلسي محي الدين بن عربي من مدينة مرسية. غير أن هذه الرسالة أثارت شعور قسيس تركونة الذي علق عليها قائلاً إن صاحبها قد تجاوز فيها الأسس الدينية. غير أنه في الأخير أطلق سراح أعضاء عائلة الحرالي.

ابتداع طرق روحية لفك الأسرى

بالإضافة إلى هذه الوسائل المادية التي أتينا على ذكرها كانت هناك طرق روحية أخرى مختلفة تماماً، تنتهج لفدية الأسرى خاصة عن طريق شفاعة الأولياء والصالحين الذين تنسب لهم في هذا المجال كفاءات خاصة. من ناحية كان الأمر يتعلق بمعجزات عرضية وطارئة تقوم بها شخصيات دينية معروفة خلال حياتهم. من جهة ثانية، كان هناك أولياء أصبحوا بعد وفاتهم "متخصصين" في حل مثل هذه الوسائل، بحيث لم يكن في استطاعتهم تحقيق افتداء الأسرى فحسب، بل كانوا يقومون بإجراءات وقائية لتلافي سقوط المسافرين في يد النصارى. وكما هو شأن كل الأولياء في كل زمان ومكان، كان هؤلاء الأولياء المسلمون، خاصة من خلال الحكايات التي تشاع عنهم والدعوات والصلوات التي توجه إليهم، يلعبون دور الأطباء النفسانيين أيضاً. إن تقديس الأولياء والحديث عن معجزاتهم كانت بالنسبة للأسير وكذا عائلته بمثابة عزاء وتسلية بحيث يجعلهم ذلك يفكرون على الأقل في إمكانية الخلاص بحدوث معجزة. إن أقدم مثل معروف لدينا حول هذا التدخل المعجز يتعلق بأحد أكابر العلماء القرطبيين المتوفى سنة ٨٨٩، ألا وهو المحدث والمفسر المشهور بقي بن مخلد.

يقال إن امرأة يائسة لم تكن تملك ما تفتدي به ابنها الأسير عند النصارى لجأت إليه مرفوقة بابنها وهو يتمتع بصحة جيدة. بعدئذ حكى الأسير قائلاً إن السلاسل الحديدية في كعبيه سرعان ما كسرت بحيث لم يستطع أحد من النصارى ولو من القساوسة إعادة القيد إلى مكانه. ولما أدركوا أنه يحظى بعناية ربانية خاصة تركوه حراً طليقاً بل رافقوه إلى الديار الإسلامية.

إن مثل هذه المعجزات تنسب إلى الصلحاء أيضاً من العصور اللاحقة. فمثلاً الزاهد الأندلسي الشريف من القرن الثاني عشر عرف كيف يرخي الأغلال الحديدية في رقبته وتمكن بعد ذلك برفقة صديق له من قطع مسافة، كان قد استغرق قطعها يوماً كاملاً خلال أخذهما أسيرين في البلاد المسيحية، في ساعات قليلة غير أن هذه المرة في الاتجاه المعاكس وفي الطريق إلى الحرية.

مما يحكى أيضاً أن الشاطبي، وهو من الصلحاء الأندلسيين من نفس المرحلة، صد مائة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه. وفي واقعة أخرى عرف كيف يغير اتجاه الرياح بكيفية جعلت سفينة مسيحية محملة بالأسرى المسلمين تتكسر في اليابسة بحيث تحرر الأسرى المسلمون ولقي المسيحيون ما يستحقونه من جزاء. كما كان الولي الأندلسي الشستري ينادي على الأسرى بحيث أن المنادى عليه كان من مكنته أن يحيى في البلاد الإسلامية في اليوم القادم.

من بين الأولياء المشهورين في مدينة سبتة على مضيق جبل طارق حيث كان القراصنة المسيحيون يضربون عادة عسسهم، ريحان الأسود. لقد كان هذا الشخص مقدساً خلال القرون الوسطى لدى الخاصة والعامة. كان اسمه في الحقيقة بمثابة رمز: ريحان الذي يعني الحبق أيضاً كان كثيراً ما يطلق على العبيد، كما أن لفظة الأسود تدل أيضاً على نفس المعنى. يقال إن زوجة ملاح أسر من طرف المسيحيين طلبت منه التدخل لافتداء زوجها. ولم يمر وقت طويل على دعاء الولي حتى عاد البحار عند زوجته سالماً. هكذا كان ريحان الأسود يعتبر الولي والحامي الأول للملاحين والمسافرين. من ثم أصبح قبره من أهم القبور التي يتعبد فيها في سبتة كما كان العلماء يعدون الدفن بجواره شرفاً عظيماً.

في فاس كان يعيش حوالي منتصف القرن السادس عشر الولي الصالح رضوان الجنوي نجل أحد الرعايا الجنويين الذي رحل إلى إفريقيا الشمالية أواخر القرن الخامس عشر واعتنق الإسلام. كان متزوجاً بامرأة يهودية دخلت أيضاً الإسلام. إن الكرامات التي تنسب إليه تتعلق ببركته في الاستشفاء وفي افتداء الأسرى والعثور على المواد المضاعة أو المسروقة أو العبيد الهاربين. عمل رضوان الجنوي جهده قصد تحرير أسرى الحرب بعد معركة وادي المخازن التي دارت بين المغرب والبرتغال. لقد أدان حينئذ السلطان المغربي المنصور عندما اختار تحرير الأسارى المسيحيين بالمال بدل استبدالهم بالأسرى المسلمين عند البرتغال. إن الروايات التي تشاع حول دور كل هؤلاء في فداء الأسرى تعبر عن التأثير المأساوي الذي لعبته هذه الظاهرة الشرسة في حياة الناس اليومية خلال القرون الوسطى.

الأسرى المسلمون العلماء

إن مجموعة خاصة من بين الأسرى المسلمين كانت تتشكل من نخبة صغيرة من المثقفين التي استخدمت لإنجاز بعض المهام الخاصة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من العلماء حسب كفاءاتهم. في البداية كان رجال العلوم الدنيوية العرب مطلوبين بكثرة. إن الأطباء المسلمين مثلاً كانوا يباعون في أسواق العبيد بأثمنة باهضة وكانوا يحاطون بتقدير كبير من طرف السلطات العمومية. هكذا كانت السلطات المحلية لمدينة فيلافرنكا Vilafranca تتوفر على طبيب مسلم عبد متخصص في علاج أمراض العيون. ولما علم بذلك ملك اراغون بيدرو الرابع Pedro IV أمر حكام المدينة المذكورة كي يبعثوا بهذا الخبير إلى برشلونة لمدة محددة قصد معالجة أحد أعوانه المصاب بمرض خطير.

إن علوماً أخرى غير الطب كانت ممثلة في الأسارى المسلمين. مما لا ريب فيه أن أحسن نموذج في هذا المجال هو الجغرافي المغربي الوزان الفاسي الغرناطي الأصل. لما كان عائداً من رحلته إلى مصر عبر البحر سنة ١٥١٩ أسره القراصنة الصقليون وفي حوزته المسودات الدراسية التي كان قد وضعها خلال رحلاته حول إفريقيا. وعندما علم القراصنة بالقيمة الفريدة لغنيمتهم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما الذي نصر العالم المسلم في سادس يناير ١٥٢٠ وسماه باسمه الخاص: يوحنا ليون. خلال هذه المرحلة الجديدة من حياته تعلم ليون الإفريقي اللغة الإيطالية كما ألف معتمداً على ملاحظاته الدراسية كتابه المعنون: *وصف إفريقيا* الذي ظل خلال عدد من القرون أهم مرجع جغرافي في أوربا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وخاصة إفريقيا المسلمة. في حوالي ١٥٥٠ سمح لليون الإفريقي بالرحيل إلى تونس. وقد درس قبل ذلك اللغة العبرية في بولونيا حيث ساهم في إعداد معجم عربي-عبري-لاتيني الأمر الذي يجعل منه أحد الممهدين الأوائل لعلم تأليف قواميس اللغات السامية المقارنة.

إن فريقاً آخر من العلماء المسلمين الأسرى استخدم لنسخ المخطوطات العربية. لقد كان الناس في إسبانيا المسيحية في أمس الحاجة إلى النصوص العربية لممارسة الطب العربي مثلاً ودراسة الفلسفة العربية إلى جانب الاهتمام المتزايد من الجانب

الأوروبي لترجمة النصوص العلمية العربية. إن مساهمة الأسارى المسلمين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في نسخ المخطوطات العلمية العربية يمكن استخلاصها من خواتم هذه المخطوطات، بحيث أن هؤلاء النساخة لم يكونوا يختمون كتبهم بتاريخ الكتابة والتوقيع فقط، بل كانوا يضيفون إلى ذلك دعاءات يعبرون فيها عن رغبتهم في الخلاص وكذا وضعية الأسر التي يعيشون فيها.

من العبارات الواضحة في هذا الصدد ما كتبه ناسخ مسلم من برشلونة سنة ١١٦٦ حيث يتبع اسمه بالدعاء التالي: "فك أسره وارحم من قال آمين حين يقرأه". وفي مخطوط آخر يعود إلى سنة ١٢٢٧ من طليطلة يتبع ناسخ آخر اسمه بالدعاء التالي: "استنقذه الله لا رب سواه". وفي مخطوط آخر من نفس المرحلة أيضا يشير ناسخ مسلم بعد ذكر اسمه أنه يوجد أسيراً في طليطلة مختتماً بالدعاء التالي: "أطلق الله سبيله". إن هذا الناسخ الأخير المدعو يوسف بن محمد التنيوخي اللوشي حرر فعلاً من الأسر. وقد توفي سنة ١٢٦١ في غرناطة حيث دفن بمحضر من السلطان الذي كان عنده خطيباً وصاحب القلم الأعلى. إن كتب التاريخ العربية التي تتضمن نبذة عن حياته تذكر له أيضاً بعض الأبيات الشعرية يعبر فيها عن تجارب حياته. يقول:

ليس للمرء اختيار في الذي	يتمنى من حراك أو سكون
إنما الأمـــــر لرب واحـد	إن يشأ قال له كن فيكون.

في بعض الأحيان الأخرى يذكر الناسخون أسماء أسيادهم الذين هم في خدمتهم. يتعلق الأمر هاهنا دائما بأصحاب المكتبات اليهود المرموقين. هكذا كان هؤلاء الأسرى المسلمون ناقلو المخطوطات يلعبون دوراً وسيطياً في نشر العلوم والفلسفة العربية في العالم المسيحي خاصة في المرحلة التي بلغ فيها تأثير الثقافة العربية في أوربا الغربية أقصى مداه. فيما بعد القرن الثالث عشر أصبحت المخطوطات العربية المنقولة من طرف الأسارى المسلمين في الديار المسيحية نادرة جداً. فيما يخص القرنين الخامس عشر والسادس عشر لا نكاد نعثر إلا على بعض النسخ القليلة. من الجانب المسيحي كان هناك أيضاً اهتمام كبير بالأسرى المسلمين العلماء الذين خبروا العلوم الدينية. كانت دراسة الإسلام والعربية تعتبر من

الشروط اللازمة لتكوين المبشرين المكلفين بتبليغ تعاليم *الإنجيل* إلى الذين كان يطلق عليهم "الوثنيون". لقد كان الرهبان الفرنسيسكانيون والدومينيكيون بالخصوص نشيطين في هذا المجال حيث أسسوا لأجل هذا الغرض مراكز تعليمية خاصة. ومن العلماء الذين لعبوا دوراً مهماً في هذا المجال العالم اللاهوتي الكتالوني ريموندس لولوس Raimundus Lullus الذي لقن مبادئ العربية والإسلام على يد عبد مسلم خلال سنين عديدة. يروي أن العالم العبد المسلم أنكر في حديث له مع لولوس ألوهية المسيح والأقانيم الثلاثة وفق تعاليم *القرآن*. حينئذ رد عليه لولوس بالاستهزاء بالنبي محمد صافعاً إياه على وجهه ورأسه وجميع جسمه. بعدئذ لم يجد العالم المسلم المغلوب على أمره إلا أن يتأسف على تعليمه العربية وتوضيحه *القرآن* والشريعة الإسلامية لريموندس لولوس. بعد محاولة فاشلة لقتل سيده وضع العبد المسلم في السجن حيث مات مخنوقا. إن هذه المأساة التبشيرية نجدها عند المتكلم اللاهوتي الكتالوني في سيرته الذاتية.

دور الأسرى في نشر الثقافة الإسلامية

إن هذا المثل للعالم العبد الذي كان في خدمة ريموندس لولوس ليس الوحيد من نوعه. إن العلماء المسلمين الأسرى المستخدمين كأساتذة لعبوا دوراً مهماً في الدراسة الأولى للعربية في أوربا الغربية المسيحية خلال القرون الوسطى المتأخرة. ومما يدل على ذلك دلالة واضحة في هذا الميدان وقائع حياة العالم التونسي أصلاً محمد بن خروف التونسي من القرن السادس عشر. لقد أخذ هذا أسيراً على يد الإسبان حيث انتهى به الأمر إلى أن يصبح مملوكاً في يد راهب أجبره على تعليمه كتاب المفصل المشهور في النحو للزمخشري. عن طريق وساطة العالم الفاسي المشهور أبو عبد الله اليسيتني عند السلطان الوطاسي حرره هذا الأخير من الأسر. حينئذ رافقه القس الإسباني الذي كان أحد الأنساب المقربين لحاكم مدينة غرناطة، إلى فاس قصد متابعة دراسته العربية على يده هناك.. غير أن العالم الفاسي المذكور اليسيتني كتب فتوى يحظر فيها هذه الدروس على الرغم من أن ابن خروف كان قد وعد

القس الإسباني بذلك قبل تحريره. وكحجة على ذلك أبان العالم المسلم أنه وفقاً للمذهب المالكي يمنع تعليم القراءة والكتابة بالعربية لغير المسلم، لأن هذا الأخير عن طريق معرفته بالعربية سوف يعمل على الطعن في كلام الله. لقد درس ابن خروف بعد افتدائه سنة ١٥٤٠ حتى وفاته علم الكلام وعلم الأصول والبلاغة. كما اكتسب شهرة واسعة في ميدان العلوم العقلية.

إن ريموندس لولوس وكثيرين غيره من المؤلفين صنفوا كتباً حول المناظرات بين علماء الدين المسيحيين وخصومهم العلماء المسلمين، كانت تستعمل ككتب دراسية في تكوين الطلبة المبشرين. بطبيعة الحال كان المناظرون المسيحيون يخرجون دائماً منتصرين في هذه المجادلات الكلامية! إن الكثير من الناس يعتقدون أن هذه الكتب الجدالية المناهضة للإسلام وليدة الخيال الأدبي، بمعنى أن هذه المحاورات التي تتضمنها تلك الكتب لم تجر في واقع الأمر.

ومن الطبيعي أن يكون شكل ومحتوى هذه النصوص في النهاية وليد غرفة الدراسة. إلا أن واقع اتخاذ العالم المسلم العبد كموضوع تجربة في المناظرات الدينية مع علماء الدين المسيحي ظاهرة معروفة. وهذا الأمر يبدو واضحاً من مجموعة من النصوص العربية المخطوطة كتبها هؤلاء العلماء المسلمون في غالب الأحيان بعد فديتهم وعودتهم سالمين إلى أوطانهم. في هذه النصوص نجد النصر حليف المجادل المسلم على خصمه النصراني! إن أقدم مثال على هذه المجادلات نجده عند الخزرجي المزداد بقرطبة ١١٢٥ الذي أخذ أسيراً عن سن تناهز ٢١ إلى طليطلة المسيحية حيث وجد نفسه مضطراً للدخول في نقاشات دينية بين قس وأقلية مسلمة محلية. لما علم القس بتدخل الخزرجي بعث إليه برسالة حاقدة حول عظمة المسيحية ودناءة الإسلام. إلا أن الخزرجي لم يجرؤ على الرد عليه في حينه ملتزما السكوت: "وامتنع من مراجعة القس تخوفاً منه لكونه يومئذ مدجناً بين أظهر القوم وفي قبة ديانتهم". ولما ألح عليه مسلمو تلك المدينة وكان وقت رحيله قد دنا، كتب رسالته في الرد على القس بعنوان: "*مقامع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان*". إن العدد الكبير من المخطوطات المحفوظة من عمله هذا تشهد على الشهرة الكبيرة التي

كان يتمتع بها خاصة في شمال إفريقيا. إن مقدمة *رسالة الخزرجي* كما وصلتنا وضعها كاتب مجهول جمع فيها رسالة القس ورد الخزرجي عليه في كتاب واحد.

في مقاله "حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدون" يقول الباحث المغربي بتشريفة مستنداً على كتاب المراكشي، الذي سيأتي ذكره: "ومن الغريب أنه -لما كان كفيفا- أملى كتابه المذكور في الأسر على مملوك له من أبناء الروم قد علمه الكتابة".

هناك استشهادات مفصلة محفوظة من نص لمؤلف يدعى عبد الله الأسير الذي كان يناظر حوالي نهاية القرن الثالث عشر من المحتمل في المدينة الفرنسية مونبولييه. وفي كتالونيا كان يناظر هناك حوالي سنة ١٣٠٩ الأسير التونسي الأصل محمد القيسي. إن كتابه الذي لم ينشر بعد يعتبر وثيقة تاريخية فريدة من نوعها. إن المؤلف الذي كان أعمى يقول إنه لما أراد تسجيل تجاربه في كتاب، لم يجد أحداً يأخذ عنه مهمة تحرير كتابه بالعربية: "لبعد ديارنا وانقطاعنا عن أهل ملتنا، لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب".

أسير يحاور المسيحية

خلال القرن الخامس عشر كتب محمد الأنصاري الأندلسي مؤلفاً تحت عنوان: "*رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب*" حيث خصص الفصل الأخير منه لمجادلاته التي خاضها في قشتالة خلال إقامته هناك كأسير. لقد قسم رده على المآخذ المسيحية حول الإسلام إلى ستة مجالس وقعت حسب ما يذكره في كل من شلمنقة، مجريط وشقوبية. أما الأشخاص الذين جادلهم فكانوا مثلاً من خدام البلاطات والأساقفة والرهبان والوعاظ والشمامسة.. إن المؤلف يذكر مثلاً أنه حضر محاضرة في جامعة شلمنقة. وبعد انتهاء المحاضرة خرج في رفقة الخطيب وقسيس الاعتراف الخاص بالملك عبر رحبة الكنيسة العظمى في طريقه إلى مسكنه المجاور. خلال ذلك دار بينهما الحوار التالي: "فلما بلغنا وسط الكنيسة رأيت صوراً من الخشب مطلية بأنواع [الألوان] محكمة الصنعة تخيل للناظر أنها تكلمه. فجعلت

أسألهم عنها وأسوق لهم المعلوم سوق المجهول معرضاً بهم ومستدرجاً للأسقف، فقلت وقد وقفت على صورة عيسى مصلوباً على خشبة الصلب ويداه مسمرتان وكان الدم يقطر منهما:

من هذا المسكين؟

قال لي: أو ما تعرفه؟

قلت: لا!

قال: هذا عيسى بن مريم.

قلت: فما له على هذه الحالة؟

قال: أو لست تعلم أن اليهود صلبوه؟

قلت: لا علم لي بذلك .

قال: فإنه كان من قصته كذا وكذا.

فقلت له: أليس هذا ما تزعمون أنه إله؟

قال: بلى!

قلت: فإن إلهاً تصلبه اليهود ولا ينتصر لنفسه؟

فعلم أني كنت أتجاهل مستدرجاً له الكلام، فقال: قصة المسيح من الخفاء والغموض بحيث لا يهتم إليها المسلمون ولا كثير من النصارى لدقتها وخفائها إلا من أيد بتأييد إلهي مثل علمائنا وإنما أنظاركم معشر المسلمين جلية لا تذكر ونحن قد خصنا الله تعالى بهذا السر الخفي واتخذناه عهداً يؤمن به عوامنا تقليداً لا علماً.

قلت: ليت علماءكم مثل عوامكم إذا كان يرجى لهم الفلاح وكيف لعوامكم بفهم ما تستحيله العقول وبيعة المعقول والمنقول، بل من أين ذلك لعلمائكم فضلا عن عوامكم؟

[قال]: فإن صحت لك الحكمة في ذلك هل تعتقده صواباً؟

قلت: إن قبله العقل وعضده النقل اعتقدته، وإن كان صوابكم في كل ما تزعمون ضربنا به الأرض!

قال: فإن الحكمة في صلب المسيح والتحامه في بطن مريم هي أن آدم [عليه السلام] لما خالف أمر الله بأكله من الشجرة استوجب بذلك النار هو وجميع ذريته من النبيين وغيرهم وأنهم كانوا في النار أجمعين بسبب ذنب أبيهم حتى صلب المسيح وأريق دمه، فحينئذ كسر أقفال النار فأخرجهم منها، فلما أراده من الصلب حل في بطن مريم والتحم فيها وصار إنساناً ذا جسم كسائر البشر واحتمل معاناة الصلب والقتل ليخلصنا من النار بحكمته وفضله إذ لم يمكن في الحكمة الإلهية أن يعاقب آدم على ذنبه لأنه عبد ومنزلته حطيطة بالنسبة إلى منزلة مولاه وسيده، فاقتضت حكمته أن يقتص من إله مثله فأخذ الجسم كما ذكر وصبر على صلب اليهود وامتهانهم ليخرج صفوة خلقه الأنبياء من الجحيم. فعل ذلك وأراده بفضل رحمته ورأفته فهو الإنسان التام من جهة الجسم و [الإله] التام من جهة الروح". قال المؤلف: "فلما ملأ أسماعي من التشنيعات الكافرية المستحيلة عقلاً ونقلاً ضحكت متعجباً.

فقال: مما ضحكت؟

قلت: ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بكم هذا المبلغ العظيم الذي لا يجوز على الحيوان البهيمي!".

المنظور الأوروبي الغربي لتاريخ العصور الوسطى

إن الرق والعبودية حول البحر المتوسط خلال القرون الوسطى كانت ظاهرة اجتماعية واقتصادية مهمة سمح بها وأقرها كل من الإسلام والمسيحية معاً. إن مؤسسة العبودية نتجت عنها حركة تجارية دولية لنقل العبيد من مختلف الجهات وفي الاتجاهات المتعددة. ولما كانت إسبانيا المسلمة في القسم الغربي من حوض البحر المتوسط البلاد الأكثر قوة من هذه الجهة إلى حوالي نهاية القرن الحادي عشر،

كان نقل العبيد الغربيين يتم في اتجاهها من شمال وشرق أوربا من جهة ومن إفريقيا السوداء من جهة أخرى. بالإضافة إلى ذلك كانت إسبانيا المسلمة تلعب أيضاً دور بلد العبور في بيع العبيد الأوروبيين في اتجاه شمال إفريقيا ومصر. غير أنه مع ظهور الحروب الصليبية صوب الأراضي المقدسة وكذا حروب الفتوح المسيحية ضد إسبانيا المسلمة وشمال إفريقيا ابتداء من نهاية القرن الحادي عشر حدث هاهنا تغير ملموس. إن الأساطيل المسيحية عندما سيطرت على البحر المتوسط عملت على تدعيم عملياتها العسكرية المتزايدة باستمرار في البر ضد الأراضي الإسلامية. ونتيجة لذلك بدأت تظهر في الأسواق الأوروبية أعداد مهمة من العبيد المسلمين.

كانت هناك في الواقع ثلاثة مصادر تزود أوروبا الغربية بالعبيد في القرون الوسطى: شن الحروب في إطار المعارك وحصار المدن ثم القرصنة البحرية وأخيراً عن طريق تجارة العبيد الدولية. إن القرصنة كانت في الحقيقة نوعاً من شن الحروب في البحر. ارتبطت بالقرصنة البحرية إجراءات ضغط كثيرة ضد جاليات التجار الأجانب والسفن التي تلجأ إلى اليابسة حيث تصادر بطاقمها ومسافريها وحمولتها، كما يصادر الأشخاص والسلع التي سيطر عليها نتيجة غرق سفينة من السفن. إن العلاقة بين الدول المسيحية والدول الإسلامية كانت في العادة علاقة حرب، ما عدا في حالات اتفاقات خاصة (كانت توقع في الغالب بين الطرفين لمدة معينة) فكان يتم تحديد نوع العلاقة بين الدول الإسلامية والمسيحية. في إطار هذه العلاقة كان اختطاف الأسرى في البحر وفي مناطق العدو مسألة جارياً بها العمل. وكان الحكام يمنحون سفن القرصنة، مقابل دفع مبلغ من المال، ترخيصاً يسمح لهم ببيع غنائم الأسرى في موانئ الربط كعبيد، إلا أن السفن التجارية أيضاً في حالة تعرضها لهجوم ما، كانت تتكشف في طريقها عن قراصنة إلى أن ينتهي الهجوم وتنقل الغنيمة بطريقة مشروعة إلى الأسواق المحلية، بعد أن يحدد المسؤولون الحكوميون أن الغنيمة ليس فيها رعايا الملك الذي تم عقد اتفاق وقف القتال معه. إن الاتفاقات الدولية بين الدول المسيحية والإسلامية كانت تؤدي في الأوساط الإسلامية إلى مشادات حول وضعية بعض المجموعات من الأسارى. هل يمكن مثلاً مساعدة

الأسارى المسلمين من بلاد أخرى بعد أن تمكنوا من النزول في ميناء مدينة بلد مسلم هرباً من سفينة مسيحية طاقمها من رعايا ملك عقد معه الحاكم المسلم معاهدة سلم؟ أم يجب إرجاع هؤلاء الأسارى المسلمين إلى السفينة التي فروا منها. يجيب ابن سيراج عن هذه القضية الأخيرة بالنفي.

فيما يتعلق بالطريق الأخيرة في تزويد أوروبا بالعبيد المسلمين، أي بواسطة تجارة العبيد الدولية فإنها كانت في النهاية مبنية على المصالح المشتركة للطرفين الإسلامي والمسيحي. ومن ثم ففي إطار القانون الدولي آنذاك، كانت ذات طبيعة "سلمية". إن هذه التجارة جلبت خاصة العبيد الإفريقيين بقوافلهم عبر الصحراء وعن طريق شمال إفريقيا إلى أوربا الجنوبية. وفيما بعد حوالي ١٤٧٠ حول اتجاه قوافل العبيد هذه إلى إفريقيا الغربية أي إلى الموانئ التي تم فتحها من طرف البرتغال بما في ذلك غينيا.

خلال القرون الوسطى المتأخرة أصبحت نسبة العبيد الذين يعيشون في دول أوروبا الجنوبية محدودة. إن علاقات القوى الدولية المتذبذبة هي التي كانت تحدد نسبة العبيد المسلمين بين مجموع العبيد الموجودين في بلد وزمن معينين. في صقلية مثلاً خلال القرن الثالث عشر كانت أغلبية العبيد ذات الأصول الإسلامية، غالباً ما تنحدر من إسبانيا المسلمة والمغرب. وفي القرب الرابع عشر انعكست الآية بحيث أصبح أغلب العبيد هناك، خاصة في صقلية من اليونان والتتار والألبان والبلغار والروس والترك. على عكس ذلك زاد في القرن الخامس عشر عدد العبيد الإفريقيين بسبب صعوبة المنفذ إلى أسواق العبيد في أوروبا الشرقية نتيجة تزايد سلطة الأتراك وسقوط القسطنطينية.

إن العبيد ذوي الأصول الإسلامية في جنوب أوروبا خلال القرون الوسطى المتأخرة نجدهم ممثلين في مختلف القطاعات الاجتماعية. نجدهم كفلاحين وحرفيين وخدم في الأديرة وعند الرهبان. نجدهم كذلك كخليلات ومطربات ومستخدمين في بلاط النبلاء. من البديهي أن هذه الجماعات لعبت دور صلة الوصل داخل اللقاء الثقافي المسيحي الإسلامي في القرون الوسطى خاصة في ميدان الثقافة

المادية والعلوم التقنية والموسيقى والشعر والقصص. في بعض الحالات يمكن إثبات هذا على أساس الوثائق، فمثلاً هناك حالة عبد مسلم حرره سيده شريطة تعليمه إياه فناً خاصاً في صباغة الحرير التي كان هذا العبد وحده على معرفة بها في حين كان هذا الفن غير معروف في البلاد المسيحية.

المعروف أن الغالبية العظمى من هؤلاء العبيد المحررين لم يكونوا يعودون إلى وطنهم الأصل. إن إدماجهم في المجتمعات الأوروبية تزامن مع عملية تنصيرهم وتعميدهم. غالباً ما كان العبيد المسلمون قبل بيعهم للمرة الأولى يتم إخضاعهم للتنصير وتلقيبهم بأسماء مسيحية. في الوثائق المتعلقة بهذه القضية كان غالباً ما تتم الإشارة إلى أصولهم الإسلامية بصورة عامة وأحياناً يتم ذكر اسمهم الإسلامي السابق. في أحيان أخرى ومع نهاية القرن الحادي عشر، كان التنصير والتسمية يحدثان بعد البيع الأول. في دير القديسة مريم في سبرادو Santa María de Sobrado في إقليم لاكورونيا كان العبيد المسلمون يتم تنصيرهم مباشرة بعد وصولهم، فكان المسمى "غالب" يطلق عليه "طوماس" وعلي يدعى لورينتيوس Laurentius إلخ أما وضعيتهم الدينية قبل تنصرهم فيتم الإشارة إليها في الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع "بالوثنيين" païens. غير أن هناك في الحقيقة عدداً من الأمثلة المعروفة عن العبيد الذين حافظوا على اسمهم الإسلامي مما يدل على أنهم لم ينصروا. إلا أن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بالحرية الكافية لممارسة شعائر دينهم. أما أطفال العبيد فكانوا ينصرون أيضاً مباشرة بعد ولادتهم.

إن التنصير الفعلي للعبيد المسلمين لم يكن في حقيقة الأمر نتيجة ضغط مادي مباشر -مما يتعارض ونصوص التعاليم الكنسية- بل كان نتيجة ثقل الضغط الاجتماعي بحيث كانت حظوظ تحسين الوضعية الاجتماعية للعبيد كالترقي مثلاً من وضعية عبد إلى قن أو التحرر تلعب دوراً مهماً في هذا المجال. إن هاتين الطريقتين في تحسين الوضعية الاجتماعية للعبد كانت ترد في البلاد المسيحية بعد عملية التنصير. غير أنه لم يكن يلتزم بهذا الشرط بدقة خاصة في مناطق من إسبانيا المسيحية حيث الأقليات الإسلامية كانت تتمتع بنوع من التسامح الديني المعتاد. في

قانون طرطوشة Codex de Tortosa كان التنصير يعتبر شرطاً لازماً لكل تحرير ولكنه لم يكن سبباً له. من ثم كان للمالك المسيحي الحق في بيع العبيد المسلمين المنصرين.

إن اليهود لم يكن يسمح لهم بامتلاك عبيد مسيحيين وكان العبيد المسلمون في يدهم يشكلون خطراً بسبب إمكانية تنصيرهم. من ثم كانت القاعدة السائدة في تجارة العبيد بين اليهود والمسيحيين التنصيص في العقود التجارية على أن البائع المسيحي يشترط على نفسه استعادة قبول العبد المسلم وإرجاع القدر المالي إلى المالك اليهودي في حالة ما إذا قرر العبد المسلم الدخول في المسيحية. إن التنصر كوسيلة ينهجها البعض للتحرير تثبتها العديد من الوصايا القروسطوية حيث أن العبيد المتعلق بهم الأمر غالباً ما يتم تحريرهم بعد عدد من السنوات في خدمة مالكيهم شريطة حدوث التنصير.

إن المسلمين الذين كانوا يعيشون بوصفهم أقلية تحت الحكم المسيحي المتسامح يطلق عليهم اسم Mudéjares، الاسم الذي يحتمل اشتقاقه من اللفظة العربية مدجن بمعنى المخضع أو المطوع. وبعد تنصيرهم مع بداية القرن ١٦ لم يعد يطلق عليهم Mudéjares بل أصبحوا يدعون الموريسكيون مما يفيد نوعاً من القدح، يكتب di Croce : "إن المسلمين جمعوا ثروات كبيرة ووضعوها في خزينة، وبعد وقت معين فتحوها وقدموها لمسلم ثقة يذهب إلى مختلف الأقاليم يفتدي بها الأسارى والعبيد المسلمين الذين يوجدون في السجن عند المسيحيين أو دول أخرى".

الإسلام التستّري

إن تنصير العبيد المسلمين كان يكرس إن صح القول ضرورة اندماجهم التام. كان الأمر يؤدي بهؤلاء العبيد المنصرين إلى الخضوع للقوانين والقواعد الكنسية بما في ذلك محاكم التفتيش حيث أصبح من الصعب المحافظة على عقيدتهم الإسلامية. إلا أن عمليات التنصير الواقعة تحت ضغط اجتماعي بين العبيد المسلمين

كانت غالباً ما تؤدي إلى الاستمرار في التشبث بالعقيدة الإسلامية بطريقة سرية. بعبارة أخرى أدى هذا الواقع إلى ظهور نوع من الإسلام التستري يمكن مقارنته بالإسلام الذي كان يمارسه الموريسكيون خفية في إسبانيا القرن السادس عشر قبل نفيهم في بداية القرن السابع عشر.

إن آثار مثل تلك الطرق الاعتقادية الإسلامية الخفية نجدها مثلاً في ملف محاكمة من بداية القرن الرابع عشر ضد فرسان الهيكل في الدولة البابوية. إن المستجوب غوالتيريوس Gualterius أحد فرسان الهيكل شهد أن زميله ألبرتوس Albertus، بعد انتمائه للطريقة، دعاه شريطة عدم إفشاء السر أن يجحد الاعتقاد بالمسيح. وعلى سؤاله: لكن بماذا سأومن إذن؟ أجابه ألبرتوس قائلاً: بذلك الإله الأكبر الوحيد الذي يعبده المسلمون. من أجل معرفة تجارب الحياة الدينية للأسارى والعبيد المسلمين في أوربا الغربية إلى حد ما يمكن الرجوع إلى الآثار الدينية الأصيلة النادرة التي تركها البعض منهم. هذا مثلاً شأن الديوان الشعري للشاعر الأندلسي عبد الكريم القيسي من القرن الخامس عشر حيث يحتفظ بمجموعة من القصائد التي ترجع إلى مرحلة أسره في المدينة البرتغالية آبرة. من تلك القصائد قصيدة في مدح النبي يختمها بدعاء للخلاص، نقتطف منها هذه الأبيات:

يا موثقاً بين العدى بقيوده	يجني لديهم ذلة وصغارا
حكم الإله عليه بالأسر الذي	ما في عظيم بلائه يتمارى
اصبر لحكم الله وارض بما قضى	تكتب لديه من الأنام خيارا
وسل السراج بجاه أفضل مرسل	لترى له عن عاجل أسرارا
فبجاهه رفع الإله شدائدا	عن خلقه كانت تهول ونارا[1]

وفي خاتمة قصيدته يتوجه الشاعر بدعائه إلى النبي نفسه قائلاً:

فاشفع لنا يا ربنا في كربنا	يا خير هاد محتداً ونجارا
فلك الشفاعة في غد مخصوصة	ولك الوسيلة في الجنان جهارا

صلــى عليك الله مــا بلــغ المنـــى   من أم قبــرك في القبـــور وزارا
وابتل قطر الزهر من قطـر الندى   ســرى النسيم يرقم الأشجــارا.

غربيون يعودون لاكتشاف الهوية المفقودة

بنـاء علـى مـا تقـدم تجـدر الإشـارة إلى أن علـى المـؤرخين الأوربـيين للمـسيحية أن يأخذوا في اعتبارهم احتمـال وجـود مـسلمين متسترين بـين المجموعـات المـسيحية الـتي يدرسونها.. بالنسبة لإسبانيا يمكـن إثبات وجـود هـؤلاء المـسلمين بنـاء علـى المـستندات العربيـة إلى حدود القـرن التاسـع عشر. وإن إرغـام هـذه الأقليـات المـسلمة علـى التـصير مـن أهـم العوامـل الـتي تفـسر لنـا النجـاح الـذي تلقـاه اليـوم الحركـات الإسـلامية الإحيائية في الغرب حيث يعاد اكتشاف الإسلام كهويـة أصيلة مفقـودة. هـذا لا يهـم فقط ما يدعى "الصحوة الإسـلامية" وسـط أقليـة مـسلمة مـن أصـل إسـباني خاصـة في إقليم أندلوسيا، بل يخص أيضاً "المسلمـين السـود" في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنه لا يهم في هذا المجال معرفة ما إذا كانـت هـذه الأقليـات تنحـدر مباشـرة أو لا مـن سلف مـسلم. المهـم هـو أن هـذه الأقليـات المـسلمة تجـد في الإسـلام عنـصر إلهـام بحيـث تـرى فيـه اسـتعادة لمجـد ثقافـة وهويـة مهـضومتين، خاصـة وأن الـضغط علـى الإسـلام ومحاربته في الغرب كان واقعاً تاريخياً.   هـكـذا تـتـضح لنــا حـدود رؤيــة تاريخيـة حقيقية لوضعية الإسلام في غرب أوربا اليوم، وذلك من خلال دراسة مـصائر الأسـرى والعبيـد المـسلمين وخلفهـم وكـذا القمـع الممـارس علـى عقيـدتهم الإسـلامية. إن هـذا التاريخ الذي ما يزال في معظمه مجهولاً يمكـن اعتبـاره مرحلـة تتصدر مـا قبـل تـاريخ الجاليـات الإسـلامية في غـرب أوروبـا منـذ نهايـة القـرن التاسـع عشـر وإلى اليـوم. مـن خـلال هـذه الرؤيـة التاريخيـة يتـضح كيـف أن عوامـل مثـل عـصر التنـوير والثـورة الفرنـسية وإعـلان الحريـة الدينيـة كحـق إنـساني وإلغـاء العبوديـة لعبـت دوراً جوهريـاً لانبعاث المرحلة الجديدة في تاريخ الإسـلام الغربي التي نشهدها اليوم.

الفصل الثالث

لقاء الإسلام والآخر

نجحنا في اللقاء الأول وفشلنا في الثاني

يتمثّل نجاح المسلمين في اللقاء الأول بتمكّنهم من إقامة دولة إسلامية ومن استمرار حكمهم وبسط سيطرتهم طوال قرون. وأثناء ذلك نجحوا في التحاور مع الغرب المسيحي ومع الأقليات اليهودية، وفي تكوين فكر وثقافة مشرقة وفي مدّ ازدهار واسع في تلك البقاع.

لم يكن المسلمون الذين قاموا بالفتوحات الكبيرة يحملون مؤثرات العقد التي نحملها نحن اليوم أي لم يكونوا قد ابتلوا بالعقدة التي نطلق عليها اسم عقدة الأندلس، ولذلك فقد كانوا أكثر تسامحاً وانفتاحاً على الآخر، وكانوا محاورين حقيقيين للآخر مهما كان انتماؤه. لكننا اليوم وبفضل عقدة الأندلس والتفرعات التي نشأت عنها صرنا أقل انفتاحاً وصار فينا من هو أكثر تطرفاً وعداءً للغرب.

خاض المسلمون تجارب التقاء عديدة مع الآخر غير المسلم. وكانت اللقاءات القديمة ناجحة ومفيدة ونتج عنها تحاور إسلامي حضاري مع الآخر واعتراف بثقافته وحضارته. واستفادة من نتاجه وإرثه وفكره. فقد التقى الفاتحون العرب المسلمون مع حضارة فارس ومع الشعوب الشرق آسيوية. وعاش العرب المسلمون الأوائل في بلدان بعيدة مثل أندونيسيا وجنوب الدول الروسية والهند وباكستان وغيرها وكان التقاء الأوروبيين الأول في غزو المسلمين لأوروبا واستمرار سيطرتهم طوال سبعة قرون على مناطق واسعة منها، واندحارهم عنها بعد سقوط غرناطة.. بعدها قام الغرب المسيحي بإعدام الإسلام وإزالته من أوروبا كلها.كانت تلك التجربة الأولى، ولعلّ استمرارها طوال سبعة قرون لايجعلها فاشلة. بل كانت ناجحة على كافة الأصعدة.

والتجربة الثانية بدأت بأعمال هجرة فردية إلى الدول الغربية. فقبلها الغرب ورحبّ بها طوال القرن العشرين كله. ونتيجة لتلك الهجرات أصبح المسلمون كياناً قوياً في تلك البلدان، وأصبح الإسلام ديانة أوروبية. وأصبح الدين الثاني بعد المسيحية. وبلغ عدد المسلمين في أوروبا كلها خمسة عشر مليوناً، وفي فرنسا وحدها خمسة ملايين مسلم تقريباً. فهل سيفشل المشروع الإسلامي الثاني في أوروبا ؟ .

واذا مافشلت التجربة الثانية هذه فسنكون مضطرين لطرح سؤال عريض وخطير يقول:

ألا يستطيع المسلمون اليوم أن يتحاوروا مع الغرب؟.

لقد كان اللقاء الأول للإسلام مع الغرب قائماً على صفحة بيضاء ليس فيها سابقة مؤلمة ولذلك كان ناجحاً. أما اللقاء الجديد الثاني فقد شابته عقدة الماضي الأندلسي والتي ارتبطت بالحروب الصليبية المريرة والغزوات الغربية الكثيرة للبلدان الإسلامية ولهذه الأسباب فلم ينجح اللقاء الثاني حتى يومنا هذا.

وتضاف إلى أسباب الفشل الحاضر في العلاقة بين الإسلام والغرب أن الغرب نفسه مريض الماضي ومريض العلاقة القديمة. وأنه مازال يتصرف بموجب مرضه وخشيته من مذبحة موريكوس جديدة يباد فيها المسلمون الغربيون بمن فيهم أبناء الغرب نفسه وهم المسيحيون الذين يتحولون إلى الإسلام.

تجربة الممالك العربية

حكم المسلمون السنّة بلاد الأندلس طوال سبعة قرون، وخلالها حصل التفاعل الفكري والديني والاجتماعي بين الشعوب العربية والإسلامية من جهة، وبين الغرب المسيحي من جهة أخرى، وكانت تلك هي التجربة الأولى بالنسبة لهذين الشعبين. وقد بلغ هذا التفاعل أوجه عندما دخلت في دين الإسلام أفواج كثيرة من مسيحيي الغرب، وعندما تطور فكر أبناء الشرق فتمت صياغة علوم كثيرة جديدة، ومنها هندسة عمارة جديدة وثقافة أدبية وعامة تمثلت بالشعر والفن والموسيقا وغيرها، وبلغت تلك التفاعلات أوجها في نتاج فكري وفلسفي:تمثّل ذلك في ابن باجة: الذي قال بنظام العزلة والوحدة مع الكتب والفلسفة. وابن طفيل الذي أحرقت كتبه في النهاية ولم يبق منها الا حي بن يقظان. وابن رشد الأندلسي، الذي اعتمد على الإسلام كعقيدة دينية سماوية، وعلى الفكر اليوناني كموروث غربي إنساني عريق. وبنفس الوقت فقد سخّر الحاضر الذي كان يشهده وهو التحاور الإسلامي مع الغرب ومع المسيحية الغربية.وصاغ ابن رشد فكراً وفلسفة استطاع بها أن يكون

فيلسوف الغرب ومنظر الفلسفة الأوروبية التي تلته. وبنفس الوقت فقد حافظ على عقيدته كمسلم سني محلل لفكر ابن تيمية وأبي حنيفة. وهنا لابد من الإشارة إلى تسخيره لفكر ابن تيمية وأبي حنيفة تسخيراً حضارياً فقد توصل إلى بناء فلسفة حضارية، ولم يتوصل من خلالهما إلى استبعاد الغرب والمسيحية ولا إلى معاداتهما، كما تفعل السلفية المعاصرة. كان ابن رشد قاضي القضاة في عصره، وقد منحته السلطة حرية التفكير والبحث والتوصل إلى نتائج، فخالف ابن سينا الذي جعل الفلسفة دينية، وقام ابن رشد بفصل الدين عن الفلسفة. وطالب السلطة بإجراء إصلاحات سياسية. ودينية وقانونية. لقد فرض على الجميع من قبل السلطة، ولذلك تمكّن من التطور في البحث .كان مفكراً في مجالات متنوعة، السلطة، الدين، اللاهوت. وكانت الفلسفة بالنسبة له إلزامية. وعندما فقد دعم السلطة له فقد مكانته ونتاجه الجديد. وتوقف عمله. وفي الأندلس أيضاً ظهر ابن ميمون، صاحب كتاب دلالة الحائرين، وكان يجمع الأساسي والجوهري بغية إدخال العلم إلى العالم.وحاول أن يوفّق بين العلم والحكمة.

وعندما توقف ذلك النتاج الفكري المميز بدأت العلاقة بين الإسلام والمسيحية بالتدهور. واستمرّ هذا التدهور حتى عصرنا الحديث.

وبعدما قام الغرب بطرد وإبادة المسلمين، قام بتطهير المجتمع الغربي من الإسلام. وحصلت أعمال إبادة بشعة للمسلمين العرب والغربيين وعاد من أراد النجاة بنفسه إلى الديانة المسيحية. كانت نهاية التجربة مؤلمة للمسلمين في أوروبا. وكانت نتائجها مؤلمة بالطبع. ومن المفيد أن نكتشف بأن محاولة إبادة الإسلام في أوروبا آنذاك لم تنجح، لأنهم كانوا يبيدون الكيان الملموس والمرئي الذي هو المسلم بذاته. لكن عقيدة هذا المسلم ونتاجه قد تغلغلا في العقول والنفوس الغربية، فأصبح الإسلام جزءاً من التراث والموروث الغربي الحتمي ولم يكن من الممكن إزالته.

وبعد ذلك بدأ الغرب بصياغة تركيب جديد للكيان الغربي بشكل عام. فمن ناحية الفكر الفلسفي تم الاعتماد على نتاج ابن رشد وتطوير الفكر الغربي الذي خطا خطوات كبيرة وذهب إلى مسافات بعيدة.

ثم قام الغرب بصياغة المسيحية نفسها كديانة وعقيدة. فانقسمت الكنيسة على نفسها عدة انقسامات.وبشكل عام تمت صياغة مسيحية تعتمد على مبادىء إسلامية كثيرة. فقد استعار الغرب المسيحي من الإسلام قسماً من العقائد والشرائع والأخلاقيات، واستعار أيضاً مفاهيم الحلال والحرام.وأضافها إلى مسيحيته مع حفاظه على الصيغة الرئيسية والشكل العام لديانته المسيحية.وفي هذه الصيغة حافظ على عقيدة التثليث وعقيدة أن المسيح ابن الله رغم أن بعض المجتهدين المسيحيين أخذوا آنذاك بالرأي الإسلامي كله الذي يقول بنبوة المسيح وبطبيعته البشرية الخالصة.

إن التجربة الإسلامية الأولى في أوروبا كانت أنجح بكثير من التجربة الإسلامية الثانية فيها، فقد استمرت التجربة الأولى سبعة قرون، أي مايعادل نصف العمر الزمني لرسالة الإسلام منذ ظهورها. بينما لم يمض على التجربة الثانية قرن كامل وبدأت تشيع مظاهر رفض المسلمين داخل المجتمع الأوروبي. ونسمع كل يوم عن اعتقالات ومحاكمات للمسلمين، وعن طرد لآخرين وإغراق لسفن تحمل مهاجرين مسلمين.

إن أحد أهم أسباب فشلنا في اللقاء الثاني مع الغرب هو عناد الغرب نفسه بشأن المحاورة مع المسلمين. وثبات الغرب على مواقفه القديمة المعادية للإسلام. ورسوخ عقدة الغرب من المسلمين وتعامله معنا بموجبها. فلسنا وحدنا من يحمل مسؤولية الفشل في المحاورة الجديدة بل إننا نحن والغرب نتحمل المسؤولية بالتساوي.

تسامح مسلمي الأندلس

اتسم مسلمو الأندلس بالانفتاح الحضاري الواسع على الآخر، وبالتسامح وبالقابلية للاندماج الاجتماعي والثقافي والفكري.وللتعرف على ذلك الانفتاح نتصفح كتاب ثقافة التسامح في اسبانيا الوسيطة الذي صدر في العام ٢٠٠٢، لمؤلفته الكاتبة الاسبانية مينوكال. التي نعتبرها شاهداً أوروبياً مسيحياً على ازدهار الحضارة الإسلامية الأندلسية. إذ تصرّ المؤلفة على أن الحداثة الأوروبية تعود في

كثير من مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس من نموذج حضاري وإنساني، وترى أن تعايش الديانات السماوية الثلاث في ظل الإسلام بالأندلس العربية يظل حلماً إنسانياً مفتوحاً على المستقبل. وتمتد الفترة التي تعرضها المؤلفة من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى بداية القرن الثالث عشر، .وتنطلق المؤلفة من افتراض أن استقرار الأمويين بأوروبا يعتبر حدثاً حاسماً أسّس أوروبا الحديثة وصنعها صنعاً، وتتوقف الكاتبة أمام أشكال التأثير التي مارستها الحضارة العربية على العموم والأموية على الخصوص، الغنية والمركبة والفريدة في نوعها، في الثقافة الأوروبية الحديثة، ومن خلالها في حضارة العالم بأسره. وتتحدث عن الحوار والتسامح بين الديانات الثلاث التي تعايشت في الأندلس آنذاك، ومن التساكن الذي غلب على تجاوز القيم الثقافية المتنافرة والمنتمية إلى شعوب وجماعات إثنية متنوعة.

وتعتبر أن قرطبة الإسلامية كانت عاصمة العالم. وتصف غناها المذهل وحماماتها العمومية التسعمائة، وحوانيتها التي تصل إلى عشرات الألوف، ومساجدها التي بلغت الألوف، وماءها المسكوب في القنوات، وشوارعها المبلطة. كانت قرطبة جوهرة العالم الساطعة التي تلمع في الغرب، مدينة النبل، معروفة بثرواتها وبكبريائها، يحتفى بها لملاذها ومتعها، متألقة في كل شيء، لامعة على الخصوص بالعلوم العقلية السبعة.

وتقول الكاتبة وهي تحدثنا عن إنشاء لؤلؤة قرطبة ومسجدها "إن مشروع قرطبة والأندلس كان يتمثل في السعي إلى إعادة إنتاج ما دمر في سوريا، وهذا يفيدنا كثيراً في فهم انشغال الأمويين بالحفاظ على هذه الدولة وتعددها الإثني والديني ."

وتنقل الكاتبة نصاً لبول أليفار القرطبي المسيحي يقول فيه: "يعشق المسيحيون قراءة الأشعار والقصائد العربية، ويدرسون الفقهاء والفلاسفة العرب، لا من أجل الرد عليهم أو مجادلتهم، وإنما من أجل اكتساب عربية جيدة وأنيقة .هل يوجد من بين غير المتدينين من مازال يستطيع قراءة الحواشي على الكتابات المقدسة باللاتينية، أو كيف يعكف على دراسة الأناجيل أو الأنبياء والدعاة والمبشرين؟

للأسف، فبحماس يقرأ الشبان المسيحيون ويدرسون الكتب العربية، إنهم يصرفون أموالاً طائلة في جمع مكتبات هائلة. يحتقرون الأدب المسيحي، ويعتبرونه غير جدير بالاهتمام. ومن فرط ذلك نسوا لغتهم. فمقابل كل رجل قادر على كتابة رسالة باللاتينية، هناك ألف يتحدثون العربية بأناقة، وينظمون بهذه اللغة الأشعار.

وإن ظاهرة تعلم العربية إلى حد الإتقان أدّى إلى الاعتناق الكثيف للإسلام، إذ كانت جموع غفيرة تغادر الكنيسة وتنضم إلى الدين الجديد. وتصاعد اعتناق الدين الجديد وتعلّم اللغة العربية الفاتنة حتى تعريت المسيحية واليهودية بكتبها المقدسة وصلواتها الخاصة، فأطلق العرب على هؤلاء اسم "المستعربين". وبفضل التلاقح والافتتان تولدت لغة جديدة هي "الموزاراب" وتسللت إلى البيوت منتقلة من جيل إلى جيل ، فعاشت "الموزاراب" اللغة الرومانية لمسيحيي الأندلس في حضن دار الإسلام، وكانت تحاذي العربية وتحاورها باستمرار.

ويتحدث بعض اليهود المعاصرين اليوم وهم جماعات دينية معادية للصهيونية عن ازدهار اليهود في الأندلس الإسلامي ويصفون تلك المرحلة بأنها أفضل مرحلة ازدهار عرفها اليهود طوال تاريخهم الطويل. وتكتشف الكاتبة الاسبانية ازدهار اليهود في قرطبة الإسلامية وتقول:اختار اليهود الأندلسيون طريق الاندماج في الثقافة العربية الإسلامية، وانفتح الباب على مصراعيه أمام وجوههم، حتى بلغوا أعلى المراتب عن جدارة وكفاءة، وبرز منهم من وصل منصب وزير الخليفة. ويعتبر حسداي بن شبروت نموذجاً لثقافة الاندماج والتسامح، وهذا بعد أن كانوا يحتلون أسفل المراتب الاجتماعية والثقافية في عهد القوط المسيحيين .ومع ذلك لم تؤاخذ العشيرة اليهودية حسداي على النجاح الذي حققه داخل الخلافة، بل بقي "ناصي" العشيرة وأميرها، وكان يرتفع شأنه في كل سنة، فعاش اليهود حالة التفتح والرخاء التامين. ومن مظاهر تأثير الاستعراب في الثقافة اليهودية والديانة اليهودية عودة الحياة للغة العبرية وخروجها للمرة الأولى منذ آلاف السنين من المعابد لتصبح متعددة الاستعمال، وتنظيم شعر حي يفيض بالعذوبة والجمال. فقد تأثر اليهود بشيوع اللغة العربية وباعتبارها لغة القرآن ولغة اللسان الدارج في وقت واحد. اكتشفوا من جديد

موروثهم الخاص الذي كان مستتراً منذ زمن، ورأوا أن لغة التوراة تستحق، مثل لغة المسلمين أن تتجاوز حدود الصلاة. فتجاوزت الصلاة إلى الغزل والحب وغير ذلك. فظهرت لأول مرة في تاريخ اليهود أشعار حب وغزل باللغة العبرية. واعتبر اليهود هذه العبرية لغة مقدسة رغم أنها لم تكن فيما مضى لغة التوراة. لقد حكم مسلمو الأندلس بالإسلام السني الذي ننتمي نحن إليه اليوم، وكانوا أكثر انفتاحاً على الآخر منّا نحن المسلمين المعاصرين. فلماذا تراجعت فينا مفاهيم التحاور والتمازج والانفتاح؟ أليس لأننا نبني أحكامنا على أسس غير متينة؟ هذه الأسس التي هي أحداث مرحلية غير ثابتة.!. هذه التي تتمثّل بالصراع العربي الإسرائيلي ودعم حكومات الغرب لإسرائيل واحتلال جيوش الغرب للعراق وضغوطهم على الكثير من الدول الإسلامية: هذه الأحداث عنونت طريقة الأسس الثابتة عند المسلمين في تعاملهم مع الغرب. لكنّ الأسس الثابتة يجب أن تقوم على قواعد وقوانين إسلامية ثابتة. كان العصر الأندلسي عصراً ذهبياً بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين ولليهود أيضاً. والفضل في زهائه لايعود إلى المسلمين وحدهم بل أيضاً إلى المسيحيين الأوروبيين أنفسهم الذين كانوا على درجة من الارتقاء تفوق ارتقاء الأوروبيين المعاصرين. والذين تفهموا أهمية الحوار والتفاعل الحضاري وحصدوا ثمراته. فقد أقبل الإسبان آنذاك على الإسلام بكثرة. وكان إسلامهم متحضراً ينمّ عن تفهمهم للديانات السماوية لدرجة أنهم خلطوا بين الإسلام والمسيحية فظهر بعضهم كأشخاص يعتنقون الديانتين ويؤمنون بهما ويمارسون الطقوس والعادات والعبادات والمعاملات بصفتين دينيتين في وقت واحد. وعندما همّ المسيحيون المتعصبون بذبح مسلمي إسبانيا والتخلّص منهم نهائياً. تقول وثائق المحاكمات إنه كان من العسير على القضاة معرفة المسيحي من المسلم. فالمسلمون الذين أريد القضاء عليهم تبين أنهم مازالوا أيضاً مسيحيين وأنهم لم يختلفوا في شيء يمكن ملاحظته عن مواطنيهم المسيحيين. ورغم تلك الشبهة فقد كان يباد بالمحرقة أو يقطع رؤوس كل من كان مشبوهاً بانتمائه للإسلام. وذلك الظلم الكبير الذي مارسته المسيحية المتطرفة آنذاك لجم أفواه الأوروبيين طوال قرون عن ذكر كلمة إسلام. فوقع الغرب في عقدة الخوف من الإسلام ومن عودته وتمدده.

الحوار الإسلامي القديم مع الغرب

يمكننا الوقوف على النتاج الفكري والأدبي والفلسفي، لمحاولة الكشف عن النمط العلائقي الذى تشكّلت منه الروابط الثقافية، بين الثقافة "العربية الكلاسيكية" وثقافات الشعوب الأخرى، خلال عصور الازدهار، لنجد أنّ النتائج المتمخضة عنها، تفصح عن علاقة فعليّة قويّة وحقيقيّة ربطت الذات العربية فى تلك الآونة بالذوات الحضاريّة الأخرى، ولعلّ الانفتاح الذهني الذي كان يتمتع به أجدادنا قد حرمنا منه نحن الأحفاد المعاصرين.

لأنهم كانوا يواجهون الآخر بدون عقدة ولأننا نستمر اليوم في الحكم على هذا الغرب كله من منظار عقدة شديدة العمق في أغوارنا. فلا يستطيع الفرد منا أن يذكر الغرب بدون أن يذكر تاريخ المجد الإسلامي في تلك القارة الغنية.

فالمسلمون الذين يقصدون أوروبا لأجل التعلّم والدراسة فيها يعتقدون بأنهم أصحاب حق في نهل هذه العلوم العلوم الغربية، اعتماداً على رأي مسبق يحملونه وهو أن لأجدادنا الفضل العلمي على الغرب كله، بل ويقول البعض اليوم إن الغرب أخذ من علومنا ماينفع ويفيد وترك لنا العادات والموروث الثقافي الذي لايفيده فوائد مباشرة.

لقد كانت عمليَّة النَّهل من جميع الثقافات المبثوثة فى العالم أمرًا محببًا عند أجدادنا المسلمين وكانت جزءًا لا يتجزأ من تكوين الذات المجتمعية، حيث يبدو أيّ علم مبثوث فى الكون هو ملك الجميع، ولا ينحصر فى أحدٍ دون سواه. وذلك انطلاقاً من المفهوم القرآني للعلوم وللتعلّم. بينما اليوم يتخلّى بعض المسلمين عن علوم كثيرة، بل إنهم أحياناً لايعتبرونها علوماً. كعلوم الموسيقا والرسم الزيتي والنحت والأدب والمسرح والرقص.

وقد شكلّت حركة الترجمة والتأليف من قبل دورًا بارزًا فى نمو الحضارة العربية، فى ظلّ اجواء تفتّح ثقافيٍّ مميّزٍ ومبدع ، لم تخش فيه الذات العربية من "الغزو الفكرى أو الثقافى "، فلم يكن المترجم العربى وقتها يخشى على هويَّته من الضياع، بل كان يعدّ اى علم منتشر فى الإنسانية هو جزء من كينونته. وقد لعبت

اللغة دورًا محوريًّا فى هذا التواصل الحضارى والتفاعل الثقافي انعكس فى طريقة الترجمة نفسها، مما ميَّز المترجمين العرب بقدرة عالية على هضم النصوص المترجمة، وتطويعها، وإعادة انتاجها، بمفردات الثقافة العربية، حيث كان يبدو وكأن النص المترجم هو عربى الأصل والمنشأ والغاية والهدف، فقد كان المترجم يؤقلم النص ويضمّه إلى اللغة ويقضي على عناصر الغرابة فيه، الأمر الذى يوصف بابتلاع النص اسلوبًا ومضمونًا، بحيث يتم إدخال النصوص المترجمة فى دائرة الأنا "العربية" شعورًا بأنّ هذا النص هو ملكها ذائب فيها، لذلك فإنها فى مرحلة متقدمة تستغني عن "الأصل بلغته الأساسية" لأنها رقت به إلى لغتها وأصبح جزءًا من مفرداتها بل ويخدم أهدافها.

وفي هذا السياق كان المترجمون العرب والمسلمون يترجمون الأسماء فيعرّبون أسماء الأشخاص والمدن ويعرّبون المصطلحات ومفردات النظرية الجديدة التي يقومون بتعريبها.ويبتدعون مصطلحات جديدة.ولم تكن هناك خشية على تأثير النصوص على الفكر والعقيدة الإسلامية، فكانت الجرأة في ترجمة الفكر اليوناني الذي يحمل عقائد وثنية وإلحادية تؤله الأشخاص والأشياء كالشمس والقمر والرياح والنار. وتقدّس سلسلة طويلة من الأشياء.

وكان في تلك الفلسفات عقائد دينية وطقوس وعبادات كثيرة، لم يرَ المعرّبون فيها خطراً على الإسلام.بينما مسلمونا المعاصرون يرون أخطاراً على الدين والعقيدة في أفكار ومظاهر غربية شديدة الصغر كالخطر الذي رآه البعض في(لعبة باربي) فنحن في عصرنا الحاضر نفتقر لعملية الترجمة بكامل تفاصيلها. وقد وقف العرب تقريباً عند نتاج الغرب في سنوات الستينيات من القرن الماضي. اذ أنجزت ترجمات العظماء حتى ذلك التاريخ أمثال هوغو وراسين وفولتير وكانت وديكارت وبلزاك وكامو وغيرهم.

وترجمت روايات عالمية لأمثال آغاثا كريستي وغيرها. وتوقفت بعد تلك العقود أعمال الترجمة الحقيقية المستمرة. وفي هذه السنوات تصدر من هنا وهناك ترجمات قليلة ونادرة لبعض النتاجات الغربية. لكنها لاتغطي مجمل الحركة الثقافية

والفكرية والعلمية الغربية. هذا من ناحية الكم أما من الناحية التقنية فينقلب المشهد ويتحول من تفاعل إلى انفعال ومن "تواصل" إلى "انوصال" وتبعية بلهاء، ويصبح "التثاقف" فيه "انثقاف" ويغدو "التحاور" فيه "انحوار". فالعرب ينتقون مترجماتهم انتقاءً مزاجياً بحيث يتفق الموضوع المترجم مع وجهات النظر والإيديولوجيات والسياسات الشائعة فحسب. فقد ترجم غارودي لأنه يساند القضية العربية والإسلامية. ولأنه تحوّل إلى الإسلام. وترجم نعوم تشومسكي لأنه يعادي السياسات الأمريكية والإسرائيلية.

ولعلّ القاريء العربي المنحاز أيضاً هو الذي يشارك في اختيار الموضوع المترجم إلى العربية. وهذه الترجمات الانتقائية قليلة الكمّ والتنوع مقارنة مع النتاج الغربي والعالمي الكثيف. وفي المجالات العلمية كافة تندر الترجمات مما يجعلنا متخلفين علمياً عن العالم المعاصر. وتعاني الذات العربية اليوم انجراحًا عميقًا لم يجد ترياقه بعد، لذلك فإنها تلجأ إلى الماضى بقوّة تبحث فى التاريخ متمسكةً "بهويّةٍ مقدسةٍ خالدة" محدثة قطيعة حادّة مع غيرها من الذوات الحضارية، وفى الوقت عينه الذى تطلب فيه من الآخر الاعتراف الدائم بها. فعلى صعيد اللغة، نحن اليوم لا نشعر أننا نرقى بالنص عندما ننقله إلى العربية، ولا نشعر بذوبان النص المترجم فى ذواتنا، ويبقى بعيدًا غريبًا نافرًا عنا، بل وأبعد من ذلك، فنحن اليوم نرقى بالنص العربى عندما نترجمه إلى غير العربية! وهناك العديد من الكتّاب والمفكرين العرب ممن يعمد إلى الكتابة أو النشر الأول للكتاب بغير العربية، ثم يترجم كتابه ليقرأه العرب بعدما قرأه أبناء الغرب، لأن المرور عبر لغة الآخر هو الطريق المضمون للوصول إلى القارئ العربي! فلو أنّ هذا الكتاب الذي بين يديك الآن عزيزي القاريء كتب بلغة أوروبية وترجم إلى العربية لكان انتشاره العربي أكبر بكثير من انتشاره الحالي ككتاب عربي. هذا رغم أن الكتّاب والباحثين الغربيين لايفوقوننا قدرات ولا معرفة ولاخبرة.

وتكثر في نصوصنا العربية المفردات الأجنبية المنقولة بحرفيتها، ولكن ذلك إن دلّ على شيء، فإنه يدلّ على أن المثقف العربى اليوم لا يتكلم لغته إلا عبر لغة

أخرى، فهو بالتإلى لا يعترف بذاته إلا إذا اعترف بها الغير، وهو يمارس كلّ ذلك في الوقت نفسه الذى يعمد فيه إلى إقصاء الآخر وإبعاده والتعامل معه على أساس أنه "غازٍ وشرير ومتآمر". فنحن اليوم لا نعيش حالة تفاعل حضاري، بل انفعال أشبه ما يكون بردّة فعل، لأننا لم نعد ندرك ذواتنا، إلا عبر إدراك الآخر لنا.

نجاح الإندماج في شرق آسيا

في عصور الفتوحات هاجر عدد من المسلمين إلى بلدان شرق آسيا واستوطنوا فيها (ماليزيا – أندونيسيا – الهند - الصين وغيرها)، واستطاعوا عبر العصور اللاحقة أن يتعايشوا بسلام ووئام مع أهل البلاد الأصليين.

والأهم من ذلك أنهم استطاعوا رغم قلة تعدادهم أن ينشروا الإسلام في تلك البلدان. وكان المسلمون أقلة في تلك البلدان فأوجدوا فكراً إسلامياً يتناسب مع وضعهم العددي والعرقي. لم يمارس أولئك الدعوة بالطريقة التي يمارسها الإسلاميون اليوم بل انعطف الناس نحوهم وأعجبوا بإسلامهم واعتنقوه.

ولم يعملوا بمنطق الجهاد الذي تعمل به القاعدة اليوم، وإلاَ فكانوا سيبادون بالكامل. وضع أولئك المسلمين الأقلة يشابه تقريباً وضع المسلمين الغربيين المعاصرين ومن هنا نشير إلى ضرورة الاستفادة من طريقتهم.

لنلاحظ أن الإسلام لم يباد ولم يحظّر ويمنع في شرقي آسيا كما حصل في التجربة الأوروبية. ولذلك فلم يخلّف ذلك الوجود الإسلامي أية عقدة ثقافية بين الشعبين الإسلامي والبوذي. فقد كان التسامح الديني متبادلاً بين الطرفين واستمر متبادلاً طوال القرون التالية. ولذلك فلم ينتج عن ذلك الحوار والتعايش صدام شبه أبدي كالصدام الذي نشأ بين الغرب والشرق.

المواطنة الإسلامية الحديثة في أوروبا

تجربة المواطنة الإسلامية الحديثة في أوروبا، بدأت فعلياً مع انتهاء الانتداب والاستعمار الغربي للبلدان العربية ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي ماتزال مستمرة حتى يومنا هذا. وقد رحّب الغرب بالمهاجرين إليه وجعلهم أبناء مجتمعه بفضل المفاهيم الحضارية السائدة عنده. وقد ازداد عدد المسلمين في الغرب فأصبح خمسة ملايين في فرنسا تقريباً، وأصبح الإسلام هو الديانة الثانية فيه بعد المسيحية.

وتأتي اليهودية في الدرجة الثالثة رغم قدمها في أوروبا. وأصبح عدد مسلمي أوروبا الغربية حوالي خمسة عشر مليوناً. وإن هذه المواطنة الإسلامية في المجتمع الغربي المسيحي هي تجربتنا الثانية من نوعها عبر التاريخ الإسلامي. ويتوجب علينا بلاشك أن نصونها ونحافظ على تواجدنا هناك وأن نمتّن علاقاتنا مع أبناء الغرب المسيحي كي لاتفشل تجربتنا الثانية من نوعها.

وفي هذه التجربة الثانية حصل التمازج الاجتماعي والتبادل الثقافي والفكري بين الشعبين وتحاور الإسلام مع المسيحية، وتأثر المسلمون بالغرب وتأثر الغرب أيضاً بالمسلمين. كما وشغل المسلمون وظائف مهمة وأصبح لهم نفوذ سياسي ومالي واجتماعي. وظهر تأثيرهم على الانتخابات العامة فاحتاج إلى أصواتهم المرشحون للرئاسة. وقد سخّر أصواتهم جورج بوش وجاك شيراك. وفجأة تسممّ ربيع التجربة الإسلامية في الغرب، وجاء ذلك في أعمال العنف التي يقوم بها مسلمون متطرفون ومتعصبون. فنتج عنها اعتداءات على المساجد الإسلامية وعلى كنائس مسيحية عربية وعلى المسلمين أنفسهم. وذهب ضحيتها قتلى وجرحى عديدون. كما أدت تلك الاعتداءات إلى المراقبة الصارمة للهجرة العربية والإسلامية إلى الغرب. وإلى استصدار قوانين جديدة تحدّ منها. وإلى اعتبار الغرب للمواطنة الإسلامية في أرضه مشكلة تحتاج إلى الحل.

والحقيقة أن هناك إشكالية دائمة في تعامل المسلمين الأوروبيين مع الغرب وفي تعامل الغرب معهم. فلا أحد من الفريقين فهم الآخر أو استطاع التوصل إلى صيغة نهائية في التعامل معه. ورغم النجاح الظاهر في ظاهرة الإسلام الغربي فإن المسلمين

مازالوا عاجزين عن الانفتاح الحقيقي على مجتمعاتهم التي يقيمون فيها، كما وتتسم مواقفهم بالخوف من الغرب الذي هو موطنهم الفعلي. إنهم يعيشون هناك بأجسادهم ويعيشون في بلدانهم الأصلية بأرواحهم.

بن لادن يدعو الأمريكيين لاعتناق الإسلام

دعا زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن الأمريكيين إلى قبول الإسلام لإنهاء الحرب في العراق.وأضاف مخاطباً الشعب الأمريكي في شريط بث في الثامن من أيلول ٢٠٠٧ أن هناك طريقين لإنهاء الحرب في العراق إما "تصعيد القتل والقتال ضدكم، أما الثاني فهو أن ترفضوا النظام الأمريكي وتقبلوا الإسلام". ويأتي طلب بن لادن للأمريكيين باعتناق الإسلام ليدلّ على معرفته بالغليان الإسلامي الكبير والإقبال على اعتناقه بكثرة في الولايات المتحدة ودول العالم كله. ومما لاشك فيه بأن طلبه هذا سيكون مؤثراً على شعوب العالم وسيكون له صدى واسع. وسيكون مساهمة حقيقية في انتشار الإسلام في العالم كله، فبن لادن هو اليوم أهمّ وسيلة إعلامية في العالم. ويكاد يهتم بخطابه غالبية شعوب العالم. حتى أولئك الذين يكرهون الشيخ بن لادن فسوف يصلهم خطابه وسيكون له تأثير ما في نفوسهم. وبن لادن نفسه يحمل عقدة الأندلس وأداؤه العام تجاه الغرب ودعوته الغربيين إلى الإسلام يدل على ذلك.

التصادم بين الحضارتين

يرى بعض المفكرين والمنظّرين الإسلاميين أن التصادم بين الإسلام والمسيحية الغربية أمر حتمي لامفر منه، وهؤلاء يقومون بتعميق الكراهية والفراق بين هاتين المنظومتين.بل ويقوم بعضهم بتحضير الرأي العام الإسلامي لخوض تلك المواجهة. ويقول الدكتور محمد عمارة: (الصراع بين الغرب والشرق واقع وقديم) (في الغرب ينشرون ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام والمسلمين) ويسود هذا الرأي في

المجتمعات العربية الإسلامية، كما ونلاحظ انتشاره في بلدان إسلامية أخرى كماليزيا وأندونيسيا وباكستان.

وفي الوقت نفسه، نكتشف في الغرب المسيحي نفسه استعداداً كبيراً ورغبة عارمة للتحاور مع الإسلام والمسلمين. إذ لابد من الفصل بين الشعوب وبين حكامها، فحكّام الغرب يخوضون صراعات مع الإسلام لأنهم يتحركون ضمن منظومة صهيونية، وهذه المنظومة لاتلقى تأييداً في الشارع الأوروبي كله.كما يلاحظ في الغرب اهتمام كبير في التعرف على الإسلام، ودراسته ودراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. واقبال على اعتناق الإسلام كدين سماوي وتوحيدي وحضاري. وبناء على تلك المعطيات يرى الباحثون الغربيون بأن لاصدام بين الحضارتين على الاطلاق، وأن المستقبل سيشهد حواراً متطوراً وتفاهماً أوسع بينهما.

صحيح أن الغرب كله يبحث اليوم عن الإسلام، ففي الأسبوع الذي تلا هجمات أيلول ٢٠٠١ بيعت هناك ملايين من نسخ الكتب التي تعرّف بالإسلام وتتحدث عنه. وكان ذلك تعبيراً عن الذهول الكبير الذي أصاب أبناء الغرب، وسعياً لإيجاد أجوبة عن الأسئلة الكثيرة التي طرحها كل المواطنين هناك. ترى ماهو هذا الإسلام الذي يجعل أشخاصاً أثرياء يعيشون في جبال أفغانستان ؟. ماهو الإسلام الذي يجعل أشخاصاً متمدنين يعيشون بيننا ويبدعون في دراسة الطيران ويقدرون على إجراء دراسات هندسية وعلمية عديدة لهذه الأبراج ثم يدمرونها في ساعة واحدة؟ ولأن الكتاب الأول الذي يقرأه الغربي لن يعطيه الجواب الكامل عن الإسلام. فإنه سيقرأ الكتاب الثاني ثم الثالث ثم عشرات الكتب وتلك في النهاية ستوصله إلى اعتناق الإسلام.كما نلاحظ في الفترة الأخيرة كثرة السياسيين الغربيين الناطقين باللغة العربية. ويقول ليفلي ماك أوخلاند، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة ايكس سيتر اللندنية: ".. نلاحظ إقبالاً بريطانياً شديداً ومتزايداً على دراسة الإسلام وتاريخه، ونلاحظ اهتماماً جاداً بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية. والبريطانيون يدركون أن القاعدة لاتمثّل المسلمين جميعاً. ونحن في هذا القسم توجّه إلينا باستمرار دعوات من كافة المناطق البريطانية لنحاضر فيها ولنعرفهم على الإسلام

وعلى أركانه وعقائده، وعلى التاريخ الإسلامي. وهذه الدعوات أصبحت شبه أسبوعية.ورغم أحداث الهجوم على قطارات لندن فقد ظلّ هذا الاهتمام قائماً، ولم يتأثّر بها..." وتتميز دراسة الإسلام بأنها كشراب البلسم الشافي، فمن بدأ يتعرف عليه يطلب المزيد من علومه، وكلما تعمّق في التعرف عليه كلما ازدادت قناعته به. ولن تؤدي دراسة الإسلام إلاّ إلى الإيمان به واعتناقه كدين. فإنّ أكثر المستشرقين الأوائل الذين بدؤوا بالتعرف على الإسلام اعتنقوه في نهاية المطاف.

لماذا تفشل المواطنة الإسلامية الحديثة في الغرب؟

يحمل المسلمون في وقت واحد رأيين متناقضين عن الغرب، ونرى هذا التناقض عند أغلب الأفراد تقريباً. وأما الرأي الأول فيتمثّل في الإعجاب الكبير بالغرب والانبهار به، والانبهار بكلّ ماحققه الغرب من علوم وصناعات وحريات فردية وديمقراطيات وغير ذلك. وهذا الرأي يتناقض مع الرأي الثاني الذي يحمله كثير من المسلمين والذي يتمثّل في معاداة الغرب واعتباره عدواً للعرب والمسلمين، ومغتصباً لأرضهم ولثرواتهم. وفي معاداة المسيحية الغربية عند البعض، وفي اتهام الغرب بالفوضى والانحلال والفساد الخلقي، ويتضخم هذا الاتهام عند البعض ليصبح اتهاماً بالجاهلية، واعتبار الغرب لايمثّل حضارة معاصرة على الإطلاق. وضمن أشكال الفهم هذه ينحصر تعامل المسلم مع الغرب. فالمسلم (العربي الذي نعرفه) يذهب إلى أوروبا ليأخذ منها مايريد هو أخذه، وبنفس الوقت ليترك أوروبا للأوروبيين. وسيحافظ على أسلوبه ورأيه هذا طوال عشرات السنين. ويستمر هذا العربي المسلم بالنهل الدائم من الثقافة العربية ويشمل ذلك ثقافة معادية للغرب ولمواقفه رغم أنه انتمى لذلك الغرب. وبذلك يعزز باستمرار انفصاله عن الغرب وعن المجتمع الذي يعيش هو بداخله.

ومن غرائب أخبار المسلمين في الغرب أن أحدهم ذهب يجلد زوجته في السويد. وآخر قام بختان ابنته في الولايات المتحدة، فقد قامت والدتها الغربية برفع دعوى على الزوج وحكم عليه بالسجن ست سنوات. ومن أسباب فشل المواطنة الإسلامية في

الغرب أيضاً، أن الغرب في حقيقته خال من القيم الإنسانية، بينما مواطنونا المسلمون مفعمون بها. فتسوء علاقتهم مع الغرب ككل نتيجة لذلك التناقض.

عجز المسلم عن الاندماج في المجتمع الغربي

الاندماج في المجتمع الغربي لايعني تخلي الفرد عن دينه وإسلامه، بل نقصد به أن يشعر الفرد بأنه مواطن وابن هذه الدولة التي اختار العيش فيها، وأن انتماءه لها أهم من انتمائه لبلده السابق. إن عجز المسلم عن الاندماج كبقية الشعوب الأخرى داخل المجتمع الغربي لايرتبط بتدين هذا الفرد، ولايرتبط بتعصبه لقوميته بل هو من نتاج الموروث التاريخي والاجتماعي الذي يحمله الفرد، ويتلخص هذا الموروث بعبارة واحدة (الشرق شرق والغرب غرب) وعمر هذا الموروث عشرات القرون. وهذا الموروث خفيّ لايراه المستشرقون أو الدارسون لمجتمعاتنا الإسلامية، ولذلك فإن معظمهم يخرجون بنتائج متفائلة للغاية، ويرون إمكانية التحاور اليسير بين الحضارتين. وتأتي تلك الاستنتاجات بعد محاوراتهم مع العرب المسلمين وبعد دراسة الإسلام وعقائده وأفكاره. ولأن الإسلام أكثر تطوراً وأكثر تنوراً من المسلمين أنفسهم، ولأن الإسلام لايتأثر بالموروث التاريخي والاجتماعي ويبقى إسلاماً عظيماً شامخاً، فإن تعرف المستشرقين على الإسلام يجعلهم متفائلين للغاية. وليس الإسلام سبباً في عدم تمكّن المسلمين من الانفتاح على المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها لأن الإسلام موجود هناك وليس نادراً ولأن المساجد قائمة والمسلمون موجودون في كل مدينة أوروبية تقريباً. بل إنّ غالبية المسلمين المغتربين لايحملون تجاه بعضهم البعض مشاعر الودّ والتعاون والتحالف والتفضيل، بل إنهم في أغلب الأحيان يحملون تجاه بعضهم البعض مشاعر البغض والمكر والحسد والعداء.!وهذا يعني أنهم لايجعلون من العامل الإسلامي أساساً في مواقفهم وتعاملاتهم وحيواتهم اليومية.ويعني أيضاً أن مشكلاتهم مع المجتمع الغربي لاتتعلق بإسلامهم على الإطلاق.

نحن بحاجة ماسّة للغرب

نحن بحاجة ماسّة للغرب، وبحاجة للاستفادة من نتاجاته الحديثة كلها. فالغرب في الحقيقة مدارس وعلوم في السياسة والفنون والصناعة والفكر والإعلام والتكنولوجيا وغير ذلك. ونحن نمتلك فكراً إسلامياً وتاريخاً مجيداً نستطيع أن نقدمه للغرب. فهو بحاجة لبضاعتنا ونحن بحاجة لبضاعته. ومن هذا المنطلق تسقط كافة الدعاوى الطائفية والجهادية التي تسعى لتأجيج المواجهة مع الغرب. يطلق بعض المسلمين وخاصة المتطرفون شعارات معاداة الغرب، ومقاطعته، بل وتتطور الأزمة أكثر عند أفراد القاعدة الذين حاولوا إجراء فصل تام بين الغرب والشرق الإسلامي. ففي بياناتهم الكثيرة أمروا المسلمين المقيمين في دول الغرب بأن لايدخلوا المباني أو الأبراج أو القطارات وكادوا أن يأمروا المسلمين بالعودة إلى بلدانهم الإسلامية ليتم الفصل النهائي بين الغرب والشرق.

وإنّ أفراد القاعدة أنفسهم ورغم إعلانهم الصريح عن عدائهم للغرب وعن رغبتهم بتدميره. فهم شعروا باستمرار بحاجتهم للغرب نفسه ولنتاجه الصناعي والعلمي والتقني والفكري والمصرفي وغير ذلك الكثير.فعندما قاموا بتدمير مركز التجارة العالمي استخدموا الكومبيوتر والأنترنيت ودرسوا قيادة الطائرات وركبوا سيارات وقطارات وطائرات وكل ذلك من نتاج الغرب نفسه. وعندما نتأكد من أننا بحاجة لعلوم الغرب ونتاجه ندرك أهمية التحاور معه. وأهمية المصالحة معه، ونستبعد نزوة محاربته.

وفي مجتمعات الدول الإسلامية كلها يستفيد الفرد من نتاج الغرب كله. ففي هذا العصر استطاع الغرب أن يطوّر كافة العلوم ويصل بها إلى نتائج مذهلة. وصحيح أن فينا أطباء وفيزيائيين وفنانين وأدباء مبدعين ولكنهم جميعاً يستخدمون سلّم النتاج العلمي الحديث ويتحركون بواسطته ويتطورون من خلاله. فصحيح أننا نصنع السيارات في بلداننا، لكننا لأجل صناعتها نستخدم آلاف العناصر والمصنوعات والنظريات العلمية المستوردة من الغرب.

لكننا بهذا الجهاد السلمي اكتشفنا أن قتل الآخر ليس سوى عقبة وعرقلة لجهادنا هذا، ويصبح القتل جريمة تستهدفنا نحن المجاهدين الحقيقيين. وتستهدف أصدقاءنا المسلمين الآخرين والمسيحيين عرب وغربيين.

العلاقة المعقدة بين المسلمين والغرب

يمكن تلخيص العلاقة القائمة بيننا وبين الغرب من الناحية الثقافية والسياسية على الشكل التالي:

١. علاقة خصومة وكره وعداوة وعلاقة تحامل كل فريق على الآخر، وعلاقة حرب واسعة نراها في الكثير من البلدان الإسلامية.

٢. وبنفس الوقت فهي علاقة حاجة كل فريق للآخر. فنحن بحاجة ماسّة للغرب ولكلّ نتاجاته وهو بحاجة ماسّة لنا من نواح كثيرة. فالغرب بحاجة للمهاجرين المسلمين أنفسهم. ففي أواخر القرن الماضي، أعلنت الخارجية الكندية عن حاجتها لتوطين بضعة ملايين جدد من المهاجرين إليها. وجاء في الإعلان الحرص على أن يكون هؤلاء المهاجرون من المسلمين ومن الشرق الأوسط بالذات، نظراً لعدم إمكانية تفشي الإيدز في هذه الشعوب (وبالطبع فالتقرير يقصد بأن دينهم الإسلامي يمنعهم من الموبقات وينظّفهم ويطهّرهم.)

٣. وبنفس الوقت فهي علاقة انبهار كل فريق بالآخر. فالغربيون يقصدون الشرق باستمرار لينهلوا من ثقافاته وتراثه وعمرانه وهم مولعون بتاريخه وآثاره العريقة. ثمّ إنّ الغرب استعار ثقافة وفكراً من الإسلام وعمل بها بكلّ ثقة: وألبسها ثوباً جديداً فجعل بعضها بمثابة فكر مجدد ومطور للمسيحية الغربية، وجعل بعضها الآخر بمثابة فكر ثقافي حضاري ضروري للبشرية. وحول الانبهار ذكرنا أن بعض المسلمين هم انتحاريون في سعيهم للوصول إلى أوروبا فهذا الانبهار يصل إلى حدّ الانتحار والتضحية بالنفس مقابل التواصل مع الغرب.

٤. هي علاقة عقدة قديمة وحاضرة عقدة خصومة وعقدة عدائية.

٥. علاقة خوف كل فريق من الآخر. وهذا الخوف كما ذكرنا سابقاً يصل عند البعض لدرجة الرعب من الآخر.

٦. علاقة الرغبة الحقيقية الدفينة بالحوار مع الآخر.

٧. علاقة تبادل حقيقي قائم في كافة المجالات تقريباً.

وبالنتيجة فإن هذه العلاقة تحوي متناقضات كثيرة وتتّسم بالتعقيد، وتحتوي على عناصر علائقية لايمكن حلّ عقدها إلا بحوار جادّ ترافقه رغبة في التفاهم بين الطرفين، ولمّا كان النظام الغربي المسيطر على مقادير السلطة لايسعى للحوار الجادّ فيصبح من الضروري التحاور العربي الإسلامي مع هيئات ومنظمات مدنية تمثّل المجتمع والأفراد وتتجاوز السلطات الاستعمارية الغربية.

سلطة الإسلاميين

بعد حلم طويل دام قرابة القرن من الزمن، وبعد عمل فكري وتنظيمي وجهاد كبير استطاع الإسلاميون اليوم أن يكونوا المحرك الرئيسي للأحداث التي ترسم مستقبل الأمة الإسلامية.فهم القادرون اليوم على توجيه ورسم الحدث والمستقبل في لبنان والعراق وأفغانستان والصومال، وبعض الشيء في اليمن والسودان ومصر. إضافة لتحكمهم بمستقبل المسلمين في الغرب.فطوال القرن الماضي كان مفكروهم وقادتهم يحلمون بيوم واحد من السيطرة على الحكم ودفة الأحداث ويعدون الجميع بالعدالة والرفاه والأمان وبتطبيق عدل الله وشريعته.واليوم يتحكم الإسلاميون الشيعة والسنة في أحداث العراق وكانت منهم حرب إسلاموية إسلاموية، وطائفية وفئوية وتصفوية وعرقية. وبرزت أعمالهم كمشاريع إبادة قذرة تتناقض مع شريعة الله، وتبين أنهم عجزوا عن القدرة على إدارة أمور المسلمين منذ اللحظة الأولى لتسلمهم تلك الإدارة. وتشير تلك النتائج إلى أن الجماعات الإسلامية عجزت عن تطبيق الحل الديني الذي كانت منذ قيامها تسعى لترسيخه. وأنها بعجزها هذا إنما تستغني عن الحل الديني نهائياً وتلجأ إلى الحل العلماني الذي كانت تستنكره وتحاربه طوال عقود مضت. وإن الفترة الزمنية القصيرة القادمة

ستحدد المستقبل النهائي لتلك الحركات الإسلامية، ومستوى مناصرتها أو معاداتها في المجتمعات الإسلامية. فإن استمرت في مشروعات الاقتتالات الطائفية والعرقية وبذلك ستدفع الأمور دفعا نحو تعميق التمزقات الدينية والاجتماعية وزعزعة أسس الاستقرار العام، ومن ثم تجعل من المعطى الديني عامل تفجير للحمة الداخلية وتمزيق عرى السلم الأهلي بدل أن يكون عامل توحيد ورأب للتصدعات، عندئذ تثبت للمسلمين أنفسهم أن الإسلاميين عجزوا عن قيادة شعوبهم. وأن الإسلام عاجز بطبعه عن بناء أسس الإجماع العام. مما يؤدي إلى تحييد هذه الحركات الإسلامية نهائياً وطي صفحتها لزمن ليس بالقصير.بل ودفنها كما دفن العالم في حينه حركات كثيرة فاشلة. فحينما تعجز الحركات الإسلامية عن بناء المشترك ومد جسور التواصل بين الأفراد والمجموعات، وحينما تتحول إلى عامل تناحر وانقسام، فإن أتباعها هم قبل غيرهم أول من يؤسس شروط تجاوزها وإلغائها، ومن ثم يشرعون الباب واسعاً أمام الحل العلماني باعتباره الأقدر على ضمان السلم المدني واستعادة مقومات الوحدة وعوامل الانسجام الاجتماعي . وإن مدخل علاج الأحداث الطائفية لا يقوم على تأجيج هذه الصراعات وإنهاك الجسم الإسلامي. بل يكون بالالتزام بميزان العدل والإنصاف، وترسيخ عرى الوحدة بين مختلف المسلمين وانتماءاتهم المذهبية والقومية. ويلاحظ أن كثيراً من عمليات الاقتتال تحمل طابع التصفية العرقية والمذهبية، وهذا هو طابع الإبادة الجديد بكل مفاهيمه ومعانيه على شريعتنا وثقافتنا، وقد شاعت فلسفة الإبادة في الغرب على أيدي مفكرين يهود وصهاينة . فاعتنقت الصهيونية تلك الفلسفة، وروجتها في أوساط السياسة الغربية. وهاهي اليوم تغزو مجتمعاتنا الطيبة. لكن تلك المشاريع ستفشل ولاشك، وسيظل هناك سنة وشيعة وسلفية ومتصوفة، ومسيحية وعروبة وكردية وآشورية وغيره.

الفصل الثالث

الطاولة الممسوحة حسب ديكارت

Tabula Raza

الطاولة الممسوحة

كما يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت في نظريته (لنمسح الطاولة ولنبدأ من جديد.) فإننا ندعو المسلمين والمسيحيين الغربيين إلى فتح صفحة جديدة في العلاقات تكون خالية من عقد وأوهام الماضي المؤلم وتؤسس لحوار حضاري جديد بين الطرفين. ولابدّ من مسح الماضي المشحون كله ذلك الذي يحوي مجازر واحتلالاً وغزوات وأعمال إبادة وأحقاداً. ولنحدد نحن المسلمين الكيان الذي نتحاور معه في الغرب. فما دامت حكومات الغرب تصمّ الآذان عن التحاور الجادّ معنا فلنتحاور منذ اليوم مع الكنائس الغربية ومع المؤسسات الدينية المسيحية، فقد اختار الرسول شخصاً واحداً مسيحياً ذات يوم للتحاور معه وكان ذلك الشخص النجاشي. ولابدّ أن حوارنا سيتطور باستمرار ليصل إلى مؤسسات غربية رفيعة.

وبسبب تأثير الصهيونية الكبير على الإعلام والنفوذ في الغرب فلعله من الضروري أن نسلك طريق الحوار مع اليهود المعتدلين والمتدينين والعلمانيين المعادين للصهيونية. فإن نسبة اليهود المعادين للصهيونية يبلغ بالفعل وحسب تقديرنا ثمانين بالمائة من مجموع يهود العالم. وهؤلاء جميعاً يفرزون أنفسهم عن الصهيونية وأعمالها، ويمتلكون قابلية للتحاور مع العرب والمسلمين، بل وبينهم حاخامات يدعون لإقامة دولة عربية أو إسلامية في أرض فلسطين، ولإيضاح هذه الصورة يمكن الرجوع لكتاب يهود ضدّ الصهيونية.

دعوة لإعتذار المسلمين والمسيحيين

شهد التّاريخ عدّة حوادث. "باسم السيِّد المسيح، ونحن كمسيحيين نعتذر ويتوجب علينا أن نعتذر عمّا قام به هؤلاء الأشخاص من أذىً للمسلمين. باسم السيِّد المسيح. ونحن المسيحيين نعتذر أيضاً عن كافة أعمال الغزو والقتل والتدمير التي يرتكبها جنود الغرب بأمرة حكّامهم المعتدين."

"ونحن المسلمين في الوقت نفسه، فإننا أيضاً نقدّم اعتذارنا للمسيحيّين عن كل خطأ أو اعتداء حصل من بعض المسلمين ضد المسيحيين باسم الإسلام، لأنّنا لا نريد أن يؤذي بعضنا البعض الآخر."

تلك هي صيغة الاعتذار الواجب تقديمها كمنهج أول في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي. الأمر الذي يطيّب القلوب ويبرئ المجتمعات العامة مما يفعله الأفراد من أخطاء. لأنّ أخطاءً فردية تجاه أفراد من أتباع ديانة ما تجعل الكثير منهم يعتقدون بأن جميع أتباع الديانة الأخرى يحملون لهم الكره والقتل والتدمير.

فحين أعلن جورج بوش الصغير عن عزمه على القيام بحرب صليبية ضد المسلمين عجز عن إقناع مسيحيي العالم بذلك المشروع الطائفي. فما كان منه إلا الاعتذار كتصحيح صوري لخطئه. والأهمّ من هذا هو أنه لايمثّل المسيحية بل إن المسيحية براء من صليبية بوش الصغير. فالمسيحية سلام وعدل وحوار.

وإنّ اعتداءات التطرف الإسلاموي في دول الغرب سببت موجة من خوف المسيحية الغربية من الغزو الإسلاموي المدمر لدول الغرب. وجعلت الكثير من أولئك يتّهمون الإسلام كله والمسلمين جميعاً ويحمّلونهم مسؤولية ماحدث. ومن هنا تأتي ضرورة الاعتذار وضرورة الانطلاق من هذا الاعتذار إلى مرحلة الحوار والوفاق.

وعلى ضوء هذا، نحن نتمنى السلام للعالم كلّه، على أساس أن نتبادل خيراتنا، وأن نحرك طاقاتنا في سبيل الخير للإنسان كل الإنسان.

وفي هذه الدعوة نشمل اعتذار الشرق من الغرب واعتذار الغرب من الشرق. فهذا الاعتذار المرجو عن الماضي المعقد سوف يهيئ لمستقبل واضح ومشرق في العلاقة بين الفريقين.

وهذا الاعتذار الذي نرجو حدوثه يعتبر ضرورة ملحّة في هذا العصر وليس مجرد رجاء وحلم.

يتعين علينا كمسلمين أن لانشترط قبل اعتذارنا أن يكون متبادلاً، وأن لانطالب الغرب على الفور بالرد على اعتذارنا بالمثل، بل من الممكن أن نكون نحن المبادرين والموضحين لأهمية الاعتذار التاريخي، وبناء عليه ندعو أطرافاً كثيرة في

الغرب أن تتفهم اعتذارنا وتقوم بعمل مماثل. ومما لاشك فيه أننا سنجد في الغرب آذاناً صاغية ومتفهمة لمبادرتنا هذه.

المسيح رسول السلام والغزاة رسل الصهيونية

يعتقد المسيحيون بأنّ المسيح رسول سلام إلى البشر كافة. ويؤمن المسلمون أيضاً بأنّ السيد المسيح جاء بالسلام على الأرض، وبأنّ كل الأديان السماوية تدعو إلى السّلام، فالتحية الإسلامية التي يلتقي فيها المسلم مع الآخرين هي (السلام عليكم)، فكأنّه بذلك يقول للآخر: إن علاقتي معك هي علاقة سلام، بمعنى أني لا يمكن أن أسيء إليك أو أؤذيك أو أحاربك أو أرهبك.

والقرآن الكريم يتحدّث عن أهل الجنة ويصفهم : (تحيتهم فيها سلام). والجنّة في المصطلح الإسلامي هي دار السلام، والناس في الجنة هم ناس السلام، ولا يمكن أن يسيء أحد إلى أحد، لأنهم يعيشون السلام بين يدي الله. وفي بعض النصوص الإسلامية، أن الله هو السلام، وهو الذي يجسّد السلام، وإنّ أحد أسماء الله الحسنى التي يتداولها المسلمون هو السلام، وإن السلام على الأرض ينطلق من خلال احترام الإنسان للإنسان، وهذا هو الذي نسميه العدل؛ أن يكون لكل إنسان الحق في أن يعيش ويحيا، وأن يمارس كل طاقاته في الخير، وأن لا يحرم إنساناً حقه في الحياة وفي الحرية.

لذلك، نحن مسلمون ومسيحيون نؤمن بالسلام مع العدل؛ أن يعيش العالم السلام، وأن يأخذ كل إنسان حقه في الحياة وفي الحرية.

وحسب الآيةً القرآنية فإنّ كلّ الرسالات وكل الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، وكل الكتب المقدسة التي أنزلها الله، إنما كانت من أجل أن يقوم الناس بالعدل، ومن أجل أن يحلّ السلام، وعندما نجد حكاماً في الغرب لايمارسون إحلال السلام على الأرض فأولئك يناقضون عقائد شعوبهم المسيحية والمسلمة ويخالفون تعاليم القرآن والإنجيل والتوراة. وبمخالفة أولئك الحكّام لرغبات وعقائد شعوبهم يصبح

من الواجب أن نقوم بالفصل مابين أولئك الحكّام وشعوبهم، وبالتالي أن نؤكّد على تحاورنا مع الشعوب المسيحية، وأن نجرّد المسيحية من الأخطاء والأعمال والعدوان الذي يرتكبه أولئك الحكّام باسمها.

فليست المسيحية هي التي غزت واحتلّت العراق وأفغانستان، بل إنّ الذين يغزون بلدان المسلمين ويمارسون الإبادة على شعوبها هم حكّام مستبدون متصهينون.

لقد أرسل الغرب مبشرين مسيحيين إلى البلدان الإسلامية، وكثيرة جداً محاولات التبشير تلك. وكانت النتائج أنه فشل في كافة مشاريع التبشير تلك. والسبب واضح وهو أن الغرب ليس مسيحياً حقيقياً أصلاً فكيف به أن يدعو لمسيحية دينية. وكان مبشروه ولاشك لايرون ضرورة لتبشيرهم داخل مجتمعات متدينة ومؤمنة بالله الواحد ومعتنقة لديانة سماوية هي الإسلام. لقد فشل المبشّرون لأنهم لم يكونوا مؤمنين لا بأدوارهم ولا حتى بالعقيدة التي يريدون أن يدعوا لها. فأولئك تعلّموا الدين والعقيدة والإيمان هنا في البلدان الإسلامية واعتنقوا الإسلام بدل من أن يزيحوا المسلمين عن عقيدتهم. لقد اعتنق الإسلام حوالي نصف المبشرين الغربيين تقريباً. بل وأصبح هؤلاء هم رسل الإسلام إلى الغرب ودعاة الإسلام في الغرب. ففي وثيقة لوزارة الخارجية الفرنسية في زمن الانتداب الفرنسي لسورية نقرأ هذه النصوص:

" *أقام المبشّر ❖❖❖ ثلاثة أشهر في الحيّ الشيعي بدمشق وطوال تلك الفترة لم يستطع أن ينصّر ولا شخص من أبناء حارة الشيعة ./. نقترح بإلغاء المحاولة لأننا لن نتوصّل إلى أية نتائج معهم* ".

الفصل التام بين المسيحية الغربية والديانة المسيحية

منذ أن اعتنقت أوروبا المسيحية لم تتحالف المسيحية العربية مع المسيحية الغربية. بل بقيتا على خلاف دائم. وتشير أحداث التاريخ منذ القديم إلى وجود

خلافات ونزاعات واقتتالات أحياناً بين هذين الفريقين. فالرومان المسيحيون اقتتلوا مع الأقباط والآشورية والكلدانية والغساسنة المسيحيين.

وطوال التاريخ كان الغرب المسيحي من ناحية أخرى يقوم بمحاولات لاستقطاب المسيحية العربية ولم يفلح فيها جميعاً. وفي عصرنا هذا نلمس فراقاً كبيراً بين هذين الفريقين وفي الأحداث الأخيرة لم يستطع الأمريكيون أن يتحالفوا مع مسيحيي العراق بل ولم يقم الغرب بأدنى محاولات لحماية الأقليات المسيحية العراقية كلدان وآشور.

ونرى أمريكا تتحالف مع الأحزاب الكردية وتمنحها سلطات وقوات وحماية. الأمر الذي يعني أن أمريكا لاتحمل أيديولوجية دينية مسيحية حقيقية بل تحمل استعمارية صهيونية. ومن جانبهم فإن المسيحيين العراقيين لم يسعوا لأي تحالف مع الغزاة الجدد لأنهم لايعتبرونهم مسيحيين. وفي لبنان تنعكس الصورة ضد الفكر العدواني الغربي إذ يحكى عن تفاهم اجتماعي بين شيعة الجنوب والغزاة الأوروبيين المسيحيين، ونسمع عن حالات زواج كثيرة بين بنات الجنوب المسلمات وجنود الغزاة الذين اعتنقوا الإسلام وأحبوا أهله.

الكنيسة الإنكليزية تنتقد سياسة بريطانيا

للكنيسة الغربية نفوذ فعلي مازال قائماً وقوياً رغم العلمانية المعلنة في الغرب. فهي تتدخل في الأمور الحساسة وتعلن عن مواقفها بقوة وجرأة. فتارة تصدر تصريحات معادية لقضايا المسلمين، وتارة أخرى تلتفت إلى مصالح الغرب نفسه وتطالب الحكومات الغربية بالتوقف عن العسكرة والإحتلال والغزو بغية حماية الجنود الغربيين فحسب. يقول تقرير الكنيسة الإنكليزية إن أخطاء الحكومة البريطانية الكارثية في الأزمة العراقية دفعت المسلمين في بريطانيا إلى انتهاج سياسة أكثر تشدداً. وإن سياسة بلير تجاه العراق أضرت بصورة بريطانيا، وأدت إلى عزلتها في أوروبا .

وقد صدّق روان وليامز أسقف كارتنبري على هذا التقرير الذي أشار إلى أن بريطانيا باتت مركزاً لتجنيد الجهاديين بسبب احتلال العراق ومواصلة الحكومة سياستها "غير العادلة" في المنطقة .

وأشار التقرير إلى أنه بدلاً من مكافحة التطرف شاركت الحكومة في الحرب ضد الإرهاب مما أمد القاعدة بالدعاية اللازمة لجذب المسلمين المعارضين للهيمنة الغربية.

وكما نلاحظ فإن الموقف الكنسي البريطاني في تقريره يسعى فحسب لمصالح بريطانيا وسكانها وهذا جائز له. لكنه لاينتقد المظالم والاعتداءات العنصرية والاحتلال ودعم الغرب لإسرائيل. فالرؤية الكنسية البريطانية ليست إيمانية صافية وليست تسامحية وليست إنسانية كما كان يجب أن تكون. وبالتالي فهي ليست رؤية مسيحية خالصة بل رؤية عنصرية تمّ تسخيرها لصالح القضايا الغربية. بينما المسيحيون العرب ينطقون برؤى مسيحية إيمانية حقيقية.

مسلمو أمريكا أكثر اندماجاً من مسلمي أوروبا

تدلّ هذه الدراسة على أنّ العقدة الغربية من الإسلام هي في أوروبا أكثر تجذّراً مما هي عليه في أمريكا. فهي في أوروبا متوارثة تاريخياً وهي أيضاً مفاهيم شعبية وفولكورية وثقافية وموروث متوارث، ويسيطر في الغرب الأكثرية الذين هم من أصول أوروبية عريقة. أما انتقال عقدة الغرب من الإسلام إلى دول الغرب الأخرى كالولايات المتحدة وكندا وأوستراليا والكيان الصهيوني فذلك النقل للعقدة حدث عن طريق المهاجرين الغربيين إلى تلك الدول، وهؤلاء المهاجرون ليسوا أكثرية طاحنة في تلك الدول. وتدلّ هذه الدراسة أيضاً على إمكانية اندماج المسلمين في المجتمعات الغربية عندما تتهيأ الأجواء المناسبة للاندماج. ففي الولايات المتحدة يتصف المجتمع بقلّة عدائيته للمسلمين مقارنة مع المجتمعات الأوروبية.

جاء في دراسة أمريكية جديدة أن المسلمين مندمجون بشكل جيد في المجتمع الأمريكي وأن آراءهم معتدلة بالمقارنة مع غيرهم.

كما جاء أن المسلمين الامريكيين، ومعظمهم مهاجرون، يؤمنون بقيم أمريكا كقدسية العمل ورفض التطرف . كما أن مداخيلهم ومستوى تعليمهم لا يختلف عن عامة الشعب الأمريكي، حسب الدراسة. لكن معظم المشاركين في استطلاع الرأي الذي اعتمدت عليه الدراسة قالوا ان حياة المسلمين اليومية صارت أصعب بعد هجمات ١١ سبتمبر. ويجدر بالذكر أن نصف المسلمين من غير المهاجرين هم من السود، وعدد كثير منهم اعتنق الإسلام بعد ديانة أخرى. وحسب نفس المصدر، فإن للمسلمين عامة نظرة إيجابية عن المجتمع الأمريكي، كما يقول معظمهم إن الحياة في أوساطهم جيدة. وتختلف آراء المسلمين الأمريكيين عن أمثالهم في أوروبا الغربية، فيقول مركز "بيو" للأبحاث إن معظم المسلمين في بريطانيا وفرنسا وأسبانيا يشتكون من البطالة والتمييز ضدهم .

لكن حسب نفس استطلاع الرأي، فان مسلمي أمريكا يرفضون التشدد أكثر من غيرهم في بلدان أخرى، غير أن هناك تقبلاً له في بعض الأوساط المسلمة التي تم استطلاع رأيها، كالسود مثلاً.

كما أن عامل السن يلعب دوراً مهماً حيث نسبة الشبان الأمريكيين التي تقول إن الهجمات الانتحارية دفاعاً عن الإسلام يمكن تبريرها أكبر منها بكثير عند كبار السن .

كيف نتحاور مع الآخر؟

الحوار مع الآخر الذي هو مسلم ينتمي إلى مذهب إسلامي آخر يجب أن نسخّره للمصلحة المشتركة والمصلحة العامة وقبل كل شيء للمصلحة الإسلامية. وأن نحقق منه فوائد لانتائج سلبية. إذ لاضرورة لحوار لايعود على الجميع بالفائدة. ولاحاجة لحوار نخرج منه مختلفين. فإذا تحاورنا بهدف الاختلاف، وخرجنا متشاحنين

متناقضين أكثر مما كنا قبل الحوار، وأساء كل فريق للآخر، عندئذ لن يوصف أحد منا بالبطولة ولا بالانتصار على الأخر بل سيوصف المتحاورون بالتخلف وبالإساءة للإسلام عموماً.

اذا تحاورت مع مسلم ينتمي لمذهب آخر بهدف الإساءة لمذهبه، فإنك بذلك تسعى للإساءة إلى الإسلام نفسه. لأنه هو ومذهبه من الإسلام، ولأن انتقاصك لمذهبه سيكون موجهاً لأحد أركان أو مظاهرالإسلام.

ويجب أن يتم الحوار ضمن أطر يجري الاتفاق عليها فلايتعداها أحد المتحاورين كي لايصبح الحوار نفسه فتنة.

عندما يتم الحوار بين شخصين يتعين على كل محاور منهما أن يعتبر الآخر مسلماً وألاّ يستهين بإسلامه أو بانتمائه.ولا ببعض العقائد التي تتعلق بمذهبه، فإذا انطلقت إشارات النقد والاستهانة فإنها ستثبت في أذهان المتابعين للحوار (اذا كان الحوار مذاعاً) وستصبح منذ تلك اللحظة إشارات تفرقة واختلاف. وإن حوارات تلفزيونية استفزازية عديدة بين سنة وشيعة أدت إلى تعريف الجمهور بمصطلحات انتقادية جديدة، وساهمت في ازدياد المشاعر الطائفية بدلاً من مساهمتها بإخمادها.

الحوار يعني تبادلاً مفيداً للمعلومات والثقافات والعقائد، فلتكن الفائدة هدفنا منه، ولن تتحقق الفائدة الاّ من خلال الالتزام بأدبيات الحوار وديمقراطيته.

نبحث عند الآخر عن النقاط التي نشترك بها معه وعمّانراه ايجابياً عنده، فهذه النقاط التي تجمعنا مع الآخرهي التي تعزز الحوار والتبادل المعلوماتي بل والتعامل كله بيننا. وبنفس الوقت فسوف يلتزم هو بشروط الحوار هذه ويكتشف كلّ منا ايجابيات الآخر وسيكون الحوار مفيداً لكلينا.

لانبحث عما نراه نقاط خلاف بيننا أو نقاط استفزاز للآخر، وإن مرّت بذاكرتنا فلانذكرها. فذلك يقودنا نحن الاثنين إلى الاختلاف والشعور بالطائفية، وعندئذ يكون الصمت أفضل من الحوار.

ليس كل ماعند الآخر مرفوضاً نهائياً، بل إنه لمن الطبيعي أن يبدع أهل السنة في أمر ديني لم يتوصل اليه أهل الشيعة، وكذلك فمن الممكن أن يبدع الشيعة في

أمر ديني لم يتوصل اليه أهل السنة. ولذلك فمن الطبيعي أن يستفيد كل قوم من القوم الآخرين مع الحفاظ على عقيدتهم المذهبية. فقد بدأت الصحوة الإسلامية الحديثة عند أهل السنة منذ محمد عبدة، وقام الإيرانيون بترجمة كل النتاج الفكري السني طوال قرن من الزمن واستفاد الشيعة كثيراً من الفكر الإصلاحي السني. ولم يتعاملوا معه على أنه فكر الآخر.وبانتصار الثورة الإيرانية بزعامة آية الله الخميني أنتجت الشيعة فكراً إسلامياً غزيراً ومتنوعاً لكن العرب والسنة لم يعيروه أي اهتمام ، ولم يقم أحد بترجمته ودراسته. ومن بين تلك العناوين :

(الإعلام الإسلامي، الإخراج السينمائي الإسلامي، الدين والسياسة، الحجاب الإسلامي) تلك أبحاث لايمكن أن نحكم بأنها شيعية أو سنية، بل هي إسلامية تتناسب مع كل المذاهب الإسلامية وخاصة مع أهل السنة.فقد استطاع الشيعة أن ينتقلوا من الحوزات العلمية ومن المنفى المأساوي ومن السجون إلى رأس السلطة، ثم إنهم حققوا نجاحات باهرة في استمرارهم في السلطة، وثمة نجاح شيعي باهر أيضاً وهو ظاهرة حزب الله، فمهما كان الانتماء السياسي للقارىء اللبناني فإنه بلاشك يقدّر عالياً تمكن حزب الله من طرد الصهاينة ثم قصفهم بالصواريخ في الحرب الأخيرة. كل ذلك يستدعي المسلم السني لأن يغرف معارف وتجارب وخبرات المسلمين الشيعة. لأنها معارف إسلامية تحقق له الفائدة ولن تضره بشيء. وبنفس الوقت فلن تؤثّر على انتمائه المذهبي.

ان لكل كلمة ننطقها أثناء الحوار المذهبي أهمية كبيرة وخطورة بنفس الوقت.وقد تؤزم الحوار وتسبب المشاكل بين المتحاورين، وقد حدث اقتتال يحمل سمة الطائفية والسياسية في جامعة بيروت العربية بسبب سوء التحاور بين شخصين.

لانستخدم كلمة طائفة ولاكلمة طائفية. فنقول مذهب ومذهبية، لأننا عندما نحمل مصطلح (طائفة) ونستخدمه فهذا يؤدي إلى مشاكل طائفية حقيقية. لاشك بأن كل متحاور هو صاحب عقيدة ويعتقد بأن مذهبه وعقيدته هي الاعتقاد الديني الصحيح، وإن دعوته لعقيدتنا لن تتم باستفزازه والتهجم عليه ولا بإهانة عقيدته، بل بعرض ايجابيات عقيدتنا ومذهبنا، وذلك سيقوده إلى محاكمة ذاته واختيار ماوجده

أفضل اعتقاد أو مذهب. ومن الطبيعي، ومن الإسلام أيضاً أن يسعى كلّ من السني والشيعي لنشر مذهبه في أوساط المجتمع الآخر. بل إن المسلم الذي ينتقل بين هذين المذهبين لن يصبح كافراً، ولذلك فإن مثل هذه الأحداث يجب ألاّ تشكّل نقاط اختلاف بين السنة والشيعة.

دعوة الآخر إلى مذهبنا أو عقيدتنا لن تتم بحوار واحد ولابحوار لساعات أو أيام بل قد تستغرق أشهراً أو سنوات. وبنفس الوقت فقد ينضم الآخر إلى مذهبنا من تلقاء نفسه دون دعوة أو تعريف بمذهبنا. وإن أحداثاً فردية في الانتقال بين المذهبين السني والشيعي لن تفيد ولن تضر أياً من المذهبين، بل ستبقى حالات فردية خاصة، وبنفس الوقت فهي تعبير حقيقي وصادق عن التحالف والتفاهم والارتقاء بين المذهبين. أفضل وسيلة للدعوة إلى الإسلام هي أن نتحلى نحن المسلمين بصفات ينبهر بها الآخر ويجد فيها الجوانب العديدة التي يفتقدها هو في حياته وعقيدته (وهذه الصفات هي الإسلام نفسه). وعندئذ سينضم إلى ديننا أو مذهبنا من تلقاء نفسه. ففي العصر الحديث يدخل الإسلام مئات الآلاف من الأشخاص دون أن يقوم أحد بدعوتهم إلى ديانة التوحيد. ويقول مدير أحد المراكز الإسلامية في أفريقيا: في كل دقيقة يأتينا شخص يعلن إسلامه، إنهم يقبلون على الإسلام بشكل مذهل. لايحق للمتحاور أن يكفّر الآخر اعتماداً على قواعد وفقه مذهبه هو. أحياناً يحمل الحوار السني الشيعي الذي نشاهده على الفضائيات، اتهامات بأعمال سياسية ويتبادل الطرفان الاتهامات فيما بينهما. تلك هي اتهامات سياسية، وأحداث سياسية، فالإجابة على أسئلة من نوع: من قام بتفجير تلك الحافلة، ومن قام باغتيال ذلك الشخص، تلك اتهامات لأفعال سياسية ويتوجب على المتحاورين ألاّ يناقشا الأحداث السياسية بنهج طائفي. حين يكون الحوار الإسلامي الإسلامي تبادل اتهامات وتلاسناً بالكلمات، وتدخلاً بالشرائع المذهبية لكل متحاور. عندئذ يصبح هذا الحوار جزءاً من معركة الاقتتال الطائفي، ومكملاً لها.بل مروّجاً وداعماً. ويصبح إيقاف الحوار أفضل من متابعته. وفي هذه الحال نحكم على المتحاورين بالانحياز الطائفي لابالفقهاء والعقلاء والمفكرين.

الفصل الرابع

أسلمة أوروبا حقيقة قادمة

أسلمة أوروبا في العقد القادم

يتحدث الأوروبيون أنفسهم عن الغليان الإسلامي الكبير في الغرب وعن توقع أسلمة أوروبا جزئياً على الأقل في العقد القادم. وتأتي هذه التوقعات من المواطنين العاديين الذين يشاركون بمداخلات في صفحات الأنترنيت ومن رجال الكنيسة الغربية ومن الفاتيكان ورجال السياسة الكثر. هذا وينظر عالمياً إلى الأقلية الإسلامية في أوروبا على أنها عامل التطور الأكثر حسماً بالنسبة للقارة الأوروبية بأكملها، فرغم أن عدد مسلمي أوروبا حسب الإحصائيات الرسمية لايتجاوز العشرين مليوناً، فإن فاعليتهم تفوق حجمهم بكثير. وينظر الغرب إلى نشاطهم وفاعليتهم على أنهما عوامل خطر يهدد الكيان الغربي وينذر بامتداد نفوذ الإسلام فيه.

وأمام هذا المدّ الإسلامي الكبير في أوروبا والذي لايشابهه إلا زمن الفتوحات الإسلامية المتسارع، تطرح في الغرب العديد من الطرق والأساليب التي يأمل منظّروها أن تحدّ من النفوذ الإسلامي فيه، ورغم ذلك تشير النبوءات المستقبلية إلى احتمال تمكّن المسلمين الأوروبيين من السيطرة على أوروبا أو جزء منها في المستقبل القريب، وتأتي هذه النبوءة ضمن احتمالات عديدة أخرى نتناول تحليلها في هذا الكتاب. فمن ناحيته يسير الإسلام خطوات كبيرة في أوروبا بشكل آلي ودون حاجته للتدخل البشري. ويفرض نفسه على الأفراد والقوانين رغم مشاريع الإعاقة الكثيرة التي تضعها أنظمة الحكم الغربية في طريقه، وسنوضّح في هذا البحث تفاصيل تلك المسيرة التي ستؤدي إلى سيطرة الإسلام على أوروبا في العقود القادمة كما هو واضح. وفي حديثه عن التطرف الإسلامي (أيلول ٢٠٠٧) اعتبر الرئيس بوش أن التطرف الإسلامي ينتشر ويغزو العالم. وهو يقصد ضمناً أن الإسلام يغزو العالم.

أوروبا مجبرة على اعتناق الإسلام

أوروبا مضطرة اليوم للتثقف العميق بالإسلام وباللغة العربية التي هي لغة القرآن. وتنشأ هذه الضرورة من أسباب كثيرة ومن أهمها: أنّ أوروبا حكومات وشعوباً باتت تعتبر الإسلام جزءاً من كيانها الخاص، إذ يعتبر الإسلام هو الديانة الثانية في أغلب الدول الأوروبية. فالإسلام هو ديانة جزء من شعب أوروبا وهذا ماأوجب على أوروبا ككل أن تضطر لتصعيد اهتمامها به. وهذا الاهتمام أسفر عن نتائج كثيرة تظل دوماً في صالح الإسلام والمسلمين.فعلى الصعيد الحكومي والرسمي والسياسي تزداد المشاريع والمؤتمرات والدراسات الخاصة بالإسلام والمسلمين. وعلى الصعيد الشعبي في كل يوم يكتشف الأوروبي جوانب جديدة صحيحة تتعلق بالإسلام. فلا تصدر صحيفة غربية إلا وتحوي جانباً من الحديث عن الإسلام والمسلمين. وتزداد اهتمامات الإعلام الغربي أحياناً فتجري استطلاعات واسعة وتحقيقات وتدرج ملفات كبيرة تتعلق بالإسلام. وكلّ هذه الاهتمامات الغربية تساهم بشكل يومي في زيادة إقبال الأوروبيين على الإسلام مما سيؤدي في النهاية إلى أسلمة أوروبا بكاملها.

التربية الأوروبية تساهم في نشر الإسلام

التربية الأوروبية بما فيها حرية التفكير والاعتقاد وحرية الفكر والمعرفة وانتشار عادة التثقف والقراءة، والأهم من ذلك هو الانفتاح الإعلامي الواسع الذي لاحدود له تقريباً: هذا الانفتاح يمكّن الصحافة والإعلام والأقلام العديدة من نشر كل مايمكن تصوره وكل مايمكن أن يقال عن الإسلام. إنهم في الغرب لايمتلكون محظورات إعلامية ولذلك فهم ينشرون مواضيع ومقالات مازال يمنع التحدث بها في بعض الدول الإسلامية. وهذه الصراحة في الخطاب الغربي تساهم في نشر الإسلام بسرعة كبيرة في دول الغرب.

التربية الغربية بكلّ خصائصها جعلت الفرد مؤهّلاً لاعتناق الإسلام. ويضاف إلى ذلك خصائص المجتمع الغربي الحالية، هذه الخصائص جعلت الفرد الغربي

مؤهلاً لاعتناق الدين الإسلامي، فالأسلمة هناك تعني الثورة على الجمود الفكري الغربي، والانتفاضة على الواقع المزيف. والجرأة على رفض الأكذوبة التاريخية الغربية.

الأكذوبة التاريخية الغربية

هي أكبر أكذوبة عرفتها البشرية، وتلك الأكذوبة التي مارسها الغرب كسلطة كنسية متطرفة وسلطة حاكمة مستبدة على أبناء الغرب كله. فقد تم خداع الغربي بمفاهيم تعادي الإسلام ومن أهم هذه المفاهيم التي استطاع الغرب أن يحافظ على ترسيخها طوال قرون خلت:

- تصوير الإسلام على أنه وثنية إلحادية كافرة، وهذا التصوير يحمل في طياته تحذيراً شديداً للغربي يمنعه من اعتناق الإسلام.
- تصوير المسلمين على أنهم معادون للديانة المسيحية السماوية، وبالتالي فهم أعداء للغرب كله ولقيمه حسب تلك الأكذوبة.
- تصوير العرب والمسلمين على أنهم يعملون باستمرار على العودة للغرب والسيطرة عليه وعلى أنهم إن استطاعوا ذلك فسوف يذبحون أبناء الغرب ويستعبدونهم وبالتالي فقد تم إقناع الغربي بضرورة هيمنة الغرب على الدول الإسلامية وشعوبها، وبضرورة أن ينهب الغرب ثروات هذه الشعوب وخيرات بلدانهم.
- وفي سياق تلك الأكذوبة تم سحق مسلمي أسبانيا وتحذير غيرهم من اعتناق الإسلام، واتجهت الحملات الصليبية نحو البلدان الإسلامية، وتبعها تقاسم الوطن العربي وسيطرة الاستعمار الغربي عليه، ثمّ تنصيب صهاينة أوروبيين في فلسطين للحفاظ على النفوذ الغربي الدائم والمستمر على البلدان الإسلامية. وأخيراً عاد التدخل الغربي بقوة ليمارس إبادة حقيقية للمسلمين في العراق وأفغانستان وفي الصومال وهو يسعى لغزو دول أخرى. هذا التدخل الغربي في شؤون المسلمين يأتي في سياق الأكذوبة الغربية التي تعادي الإسلام ويرسّخ عند الغربي نفسه تلك الأكذوبة

العدائيـة. ويحـذّره في الوقـت نفسـه مـن مناصـرة المسلمين أو مـن اعتنـاق الإسـلام، فالـصورة الـسائدة المفروضـة هنـاك والمطلـوب اتبّاعهـا هـي صـورة العدائيـة للإسـلام وواجب الغربي بأن يقاتل في جيوش الغرب فيقتل ويبيد المسلمين.

تلك الأكذوبة وفصولها لم تعد تنطلي على المواطن الغربي، فالانفتاح الإعلامي مكّن الغربي من التوصل إلى الحقيقة. وبفضل الحريات المعلنة في الغرب فقد أصبح تطور الغربي يعني تملّصه من فصول ذلك الانتماء الزائف وتلك الأكذوبة المغرضة المفروضة عليه بالقوة. وأصبحت حرية الأوروبي ترتبط حقيقة بتحرره من عناصر تلك الأكذوبة ومن هيمنة السلطات الكنسية والحكومية على عقله.

لقد أصبح تحرر الأوروبي يعني اعتناقه الإسلام.

الحدث العالمي والظروف تساهم في انتشار الإسلام

الظـروف الحاليـة كلهـا والمنـاخ الـسياسي والثقـافي والأحـداث العالميـة الجاريـة كلها تساهم في نشر انتشار الإسلام في العالم. فالمرحلة التي نعيشها اليوم لايعادلها في التاريخ الإسلامي إلا مرحلة ظهور الإسلام وانتشاره السريع في العقود الأولى من التاريخ الهجري. إن اهتمام الغرب بالإسلام. ومعاداته في بعض الأوساط، تعمّد البعض الإساءة إلى الإسلام وغزوات الغرب ضد البلدان الإسلامية وتعقّد قضية الكيان الصهيوني العنصري. هذه أيضاً عوامل تزيد من انتشاره.

وفي الجهة المقابلة هناك مسلمو الغرب والمسلمون الجدد من أبناء الغرب، وهناك أعمال التطرف وأصوات قادة الجماعات المتطرفة، وهناك الإعلام العربي والإسلامي الذي غزا العالم في السنوات الأخيرة. هذه أيضاً عوامل مساعدة في انتشار الإسلام.

اعتاد الغرب على تفشي موضة بين أفراده. وكانت موضة الماركسية والوجودية والسوريالية وغيرها واليوم حان وقت موضة جديدة تتفشى في الغرب كله وهي أفضل ما اكتشفه الغرب بعد طول التجارب والتنقلات المؤلمة. وهذه موضة الإسلام الأوروبي إذا صحّ التعبير.

أوروبا إسلامية منذ الآن

عندما يتحدث أي سياسي أوروبي عن الإسلام والمسلمين فإنه يتحدث عن شأن يخصّ دولته أيضاً، ومنهم من يقول بوضوح شديد (الإسلام دين مواطنيّ) لأن الإسلام هو دين لجزء كبير من مواطنيه، والمسلمون هم أيضاً مواطنو دولته. ولن يحاول ولن يقدر أن يقصي الإسلام والمسلمين لأنهم مواطنوه. بل إن مايحدث هو العكس في أغلب الأحيان، إذ يأتي مرشحو أوروبا إلى استمالة المسلمين والحصول على أصواتهم.

وإنّ الانتقاد الذي وجّهه نيكولا ساركوزي لمنظمي أعمال الشغب من المسلمين في ضواحي باريس ٢٠٠٧ لايستهدف المسلمين الفرنسيين ككل بل يستهدف منظمي الشغب أنفسهم.ويوجّه مثل هذا النقد لمواطني الدول العربية والإسلامية أحياناً من قبل سياسيي بلدانهم.

من هذا المنطلق أصبح سياسيو الغرب يمتلكون حقاً في التعبير عن الإسلام والمسلمين، ولم يعد ذلك حكراً علينا نحن بمفردنا. ونلمس ذلك بوضوح ونلمس جرأتهم واندفاعهم أثناء الحديث عن الإسلام، ففي المقابلات والحوارات المتلفزة وعندما يسأل الصحفي العربي سياسياً أوروبياً عن أمر يتعلق بمسلمي أوروبا يستنفر الأخير معبّراً عن حقه في تناول القضية الإسلامية ويعبّر عن امتلاكه لتلك القضية فيتعامل معها على أنها قضيته وقضية حكومته وشعبه، وفي كثير من الأحيان يقول السياسيون الغربيون بوضوح إن الإسلام هو دين شعوبهم ومواطنيهم. وإنّ هذه المسؤولية التي يحملها السياسيون الغربيون هي ذات حدّين اثنين ويرتبط أحدهما بتطوير وتحديث الفكر الإسلامي والذي ينجم عنه ارتفاع في عدد الداخلين في الدين الحنيف.

بوّابات الإسلام إلى أوروبا

يدخل الإسلام في هذا العصر إلى أوروبا عن طريق بوابات عديدة واسعة ومفتوحة بالكامل أمام الدين الحق. وعبر هذه البوابات يصل الإسلام بسهولة ويسر إلى أي أوروبي يريد التعرف عليه والتأمل به.

البوابة الأولى: وهي الإسلام التركي العلماني الواعي والمتفهم للحضارة العالمية المعاصرة. والخالي تقريباً من العنف والجهادية. والإسلام التركي قريب من أوروبا من حيث جغرافية تركيا الملاصقة للدول الأوروبية. وقريب من حيث العدد الكبير للجالية التركية المستوطنة في دول الغرب وفيها جماعات إسلامية تتبع أيديولوجياً للفكر السياسي الديني عند الجماعات التركية. والإسلام التركي قريب من أوروبا من حيث علمانيته ونضجه الحضاري والسياسي والفكري.

البوابة الثانية: منطقة المغرب العربي القريبة جداً من أوروبا والتي تمتلك جالية إسلامية كبيرة في دول الغرب، ويتبع هؤلاء فكرياً وثقافياً واجتماعياً لدولهم الأمّ. وهم سواء أرادوا نقل الإسلام أم أنهم لم يعملوا على نقله في كلا الحالتين هم رسل الإسلام إلى أوروبا. وهم إسلام حي يعيش في وسط أوروبا. وبذلك يساهمون في نقل الإسلام أو بالتعريف به على أقل تقدير.

البوابة الثالثة: المسلمون الأوروبيون، الذين هم من أصول عربية وباكستانية وغيرها.وهؤلاء يحافظون على قضايا بلدانهم الأصلية ويقومون بدور التعريف بالإسلام والدعوة لاعتناقه. وهؤلاء سفراء للإسلام في دول الغرب وهم يساهمون بوجودهم في الغرب على أقل تقدير في التعريف بالإسلام ونقله إلى المجتمعات الغربية، وهؤلاء يمتلكون ثقافات متعددة نظراً لانحدارهم من دول كثيرة وهذا التنوع الثقافي والاجتماعي والعرقي للمسلمين الغربيين يعتبر عاملاً مساعداً في نشر الإسلام في أوروبا.

البوابة الرابعة: الإسلام الشيعي الإيراني: يذكر هنا أن إيران الإسلامية تمتلك مخططات ومناهج عمل لتوسيع مناطق نفوذ الإسلام في العالم، وهي تخصص لذلك مبالغ كبيرة من المال. وترسل العلماء والدعاة والمتخصصين بالدعوة إلى أوروبا وغيرها. ويذكر على سبيل المثال أنّ عدد أفراد الديبلوماسية الإيرانية في دولة الفاتيكان يبلغ ثمانين شخصاً. وهذه أكبر بعثة ديبلوماسية في الفاتيكان، مما يدلّ على جدّية إيران في الحوار الإسلامي المسيحي والحوار الحضاري مع الغرب وأبنائه. ويعتبر الشكل المذهبي عند الإيرانيين نموذجاً وصورة أخرى عن الإسلام. فالإيرانيون

بعيدون عن أعمال القاعدة ونهجها الذي يخيف الأوروبيين، وعناصر الفقه الشيعي تعطي صورة جديدة عن الإسلام للغربي الذي تعرّف على صورة الإسلام السنّي وقد تكون الصورة الشيعية أحياناً أكثر جاذبية لبعض الأفراد الأوروبيين فمن خلالها يعتنقون الإسلام. وسواء اعتنق الغربي الإسلام الشيعي أم السني أم الصوفي أم الوهابي فإنه بالنتيجة يكون قد ركب القطار الإسلامي الطويل، ويكون قد انضم إلى مجموع المسلمين.

البوابة الخامسة: الإعلام بأنواعه والأنترنيت. وهذا الإعلام الذي أشاع الفكر الإسلامي ونشره للعالم كله، فأصبح في متناول الجميع. هذا الإعلام المفتوح الذي فرضه الغرب القوي علينا يساهم في نشر الإسلام بسرعة مذهلة في المجتمعات العالمية كلها. فقد أدرك العالم كله تقريباً حقيقة أولى مفادها أنّ الإسلام دين قيم وأخلاق وبناء للفرد وحمايته من الانحدار والفساد الأخلاقي. وحول الرأي السائد عن الإسلام ننقل ما عرضته قناة الجزيرة في برنامج وثائقي إخباري:

في دول شرق آسيا وفي مناطق كانت تابعة للاتحاد السوفيتي السابق، ينتشر الفساد والانحلال وهلاك القيم، ويقوم دعاة نشطاء مسلمون بتربية الأفراد وتنشئتهم حسب الشريعة والدعوة الإسلامية. فيتحدث هؤلاء الدعاة والمشايخ لقناة الجزيرة ونرى في التقرير المصور سيدات مسيحيات وغير مسيحيات يأتين بأولادهن إلى هذه المدارس الدينية ويقلن للشيخ: ".. خذ ابني وربّه وعلمه القيم والأخلاق كما تريد وكما يجب أن يكون لأننا نريد أن ننقذه من مستقبل منحطّ ومن الانسياق في ركب العصابات والفساد." ويعلّق الداعية على مايحدث فيقول: "هؤلاء الأسر لايهمهم إن صار أولادهم مسلمين أم لا فهم يدركون أن أولادهم لايعرفون أية قيم دينية ويهمهم تعليمهم القيم الدينية عندنا فهم يثقون بنا ويعجبون بما توصل إليه طلابنا ويثقون بعلومنا وقيمنا."

لقد أصبح الإسلام حلاً لمشاكل المجتمعات الغربية وأبناء الغرب يعترفون بهذا الحل، ومن هنا ينتشر الإسلام بسرعة كبيرة في الغرب.ونتوقع له مستقبلاً مذهلاً.

البوابة السادسة: المسلمون الجدد من أبناء الغرب، وهؤلاء يعتبرهم الغرب أكبر خطر يهدد كيانه وهم الذين سيقومون بتغيير كل أوروبا، ويزداد عددهم بشكل كبير كلّ يوم. وهؤلاء هم الوحيدون الذين لاتقدر أوروبا اليوم على إيقاف نشاطهم أو إيقاف تفكيرهم عن العمل. فالغرب مبني على أسس الحرية الفردية وحرية الاعتقاد وهذا ما يساهم في تزايد اعتناق الغربيين للإسلام.

لقد أصبح تحرر الغربي من هيمنة السلطات الكنسية والحكومية على تسيير عقله يعني اعتناقه الإسلام. فأصبح الإسلام هو من موجبات تحرر الغربي نفسه.

البوابة السابعة: الغرب نفسه بكل نشاطاته: فالغرب كله، بكل خطاباته ونشاطاته أصبح أحد أهم السبل الرئيسية التي تؤدي إلى أسلمة أوروبا. حتى عندما يكون الخطاب معادياً للمسلمين في غرضه ومحتواه فهو يؤدي دوراً إيجابياً في أسلمة أوروبا، فعندما أعلن أحد النواب الهولنديين عن مطالبه بحظر القرآن الكريم في هولندا، فإن إعلانه يحفّز الهولنديين وغيرهم على التساؤل والتعرف على هذا الكتاب الذي يطالب نائب برلماني بحظر تداوله. ويأتي نتيجة لذلك اطّلاع الغربي على القرآن الكريم وهنا تبدأ سلسلة لاتنتهي من التعرف على الإسلام ستؤدي في أحد فصولها إلى اعتناق هذا الفرد للإسلام مهما كان موقفه المبدئي من هذا الدين.

تبرئة المسيحية من حكام الغرب

اننا نتفق مع المسيحية عموماً ومع جزء من المسيحية الغربية أيضاً في نقاط تفاهم مشتركة عديدة، وعلى هذا فمن الحكمة أن نتحالف معها. وفي هذه السنوات خصوصاً نحن في مواجهة كبيرة وتحد ديني مع المسيحية الصهيونية التي تشتغل ليل نهار بهدف إيقاف موجات الأسلمة في المجتمعات المسيحية الغربية كلّها.

ان مواجهتنا للمشاريع الاستعمارية الكبيرة يجب أن لاتجعلنا ننغمس في معاداة الغرب كله، بل إن الطرق الواسعة المفتوحة أمامنا والتي لايستطيع حكّام الغرب اغلاقها دوننا تتمثل في تحالفنا مع أبناء الغرب والتحاور معهم وكسب مواقفهم،

وسيكون ذلك تحولاً في معركة مواجهتنا مع الغرب. وستكون مكاسبنا فيها أكبر وأكثر.

لايحق للرئيس الأمريكي أن يتكلم باسم مسيحيي العالم ويعلن عن حرب صليبية جديدة، لأنه ورغم زعمه باعتناق المسيحية فهو ليس مسيحياً. إنه يعلن صراحة وبواسطة برامجه العديدة عن انتمائه للمسيحية الصهيونية تلك التي لم تعد ديناً بل أصبحت أيديولوجيا سياسية تخدم الصهيونية ودولة الكيان المؤقتة.

الغرب مقبل على الإسلام لأن حجة الإسلام دامغة

تتحدث الصحفية الأمريكية ديبورا بوتر التي اعتنقت الإسلام مؤخراً عن قناعة الغربين بالإسلام وحتمية توصلهم إلى اعتناقه وتقول:

"إن الناس في أوربا وأمريكا يُقبلونَ على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة لأنهم متعطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي بل إن عدداً من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدأوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة لا سبيل إلى إنكارها" ("رجال و نساء أسلموا" ج٨/ص ١١٤).

والقرآن يبين لكم الحق وإن عيسى عليه السلام بشر، وإنه رسول الله إلى بني إسرائيل ، وإن رسالته كانت الدعوة إلى توحيد الله وبيان أن ذاته سبحانه وتعإلى ليست بمركبة، وليست صفاته مشابهة، وأنه يتنزه عن الولد. قال الله تعإلى: (ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولاتقولوا ثلاثه. انتهوا خيراً لكم . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) (النسأء الآية ١٧٠)

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا. أن دعوا للرحمن ولداً. ومايبنغي للرحمن أن يتخذ ولداً) مريم الآيات ٨٨ – ٩٢.

وقوله تعإلى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) المائده الآية ٧٥.

فقد قرن الله لفظ المسيح وأمه ((ابن مريم)) ليلفت الأنظار بأنه ابن مريم لاإبن الله. وبيّن أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن أكل الطعام تحول الطعام في جسمه دماً ولحما وعظماً ، وينضح عرقاً، ويخرج فضلاته التي لو بقيت في الجسم لأضرته. .

وكما قال بحق الدكتور عبد الحليم محمود _ في كتابه _ التفكير الفسلفي في الإسلام : إن كائناً من هذا النمط لايمكن إلا أن يكون بشراً خاضعاً لكل القوانين البشرية التي لاتؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول ، ويصور القرآن محاكمة مقبلة _ يوم القيامه _ تبرئ عيسى مما ألصقه به أتباعه من التثليث وتدينهم فيقول الله تعإلى:

(وإذا قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب. ماقلت لهم إلا ماأمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) المائدة الآيات ١١٦

ثلاثة احتمالات يواجهها المسلمون في أوروبا

الوجود الإسلامي في أوروبا هو اليوم غليان إسلامي كبير يقلق الغرب. وقد وصل هذا الوجود إلى نقطة الذروة ويبشّر بمرحلة جديدة حاسمة، فماهي المرحلة الجديدة التي ستحدد مستقبل الإسلام والمسلمين في قارة أوروبا؟.

الاحتمال الأول: إدماج توافقي للمسلمين في المجتمعات الغربية، بحيث ينصهر المسلم انصهاراً تاماً في المجتمع الغربي. ويتخلّى عن أخلاقيات الإسلام بكاملها، كأن يوافق (مثلاً) على ظاهرة المثلية الجنسية.

الاحتمال الثاني: الذي يتوقع حدوثه كثير من الغربيين وهو طرد تام للمسلمين، أو إبادتهم بالكامل والتخلص من ظاهرة الإسلام الأوروبي إلى الأبد كما يأمل أصحاب هذا الرأي العنصري، ويذكر أنّ الأوروبيين ارتكبوا جرائم الإبادة هذه عندما سقطت الخلافة الإسلامية في الأندلس حيث قامت محاكم التفتيش بأعمال إبادة تامّة لكافة المسلمين من الأصول العربية ومن أبناء الغرب الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

الاحتمال الثالث: الذي يتنبأ به كثير من المتحدثين في الغرب. والذي يتناوله الخطاب السياسي في أوروبا وأمريكا بوضوح تام، ويعرض أبرز المرشحين برامج لمنع حدوثه. وهو يتنبأ بوصول إسلامي إلى السلطة في إحدى الدول الأوروبية وتتالي الوصول إلى الحكم في الدول الأوروبية الأخرى. فأي سيناريو من هذه السيناريوهات هو الأكثر احتمالاً؟ وماالذي ستشهده العقود الأوروبية القادمة من أحداث ؟

عوامل داخلية تدفع أوروبا نحو الإسلام

أولاً: تفريغ المسيحية الغربية من قيمها التاريخية وتقاليدها الدينية

إن عدد المسيحيين الملتزمين يتناقص في الجيلين الماضيين لدرجة انه بدأ يطلق على أوروبا اسم "القارة المظلمة". ويقول المراقبون في هذا الصدد إن مساجد بريطانيا يعمرها عدد من المسلمين هو أكبر من عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة

الأنكليكانية في أيام الآحاد، رغم قلة عدد المسلمين بالنسبة للمسيحيين فيها. وهذا يعكس ارتباط المسلمين بدينهم وابتعاد المسيحيين عن المسيحية.

إن التيارات والميول الحاضرة توحي بأن "أسلمة" أوروبا ستحدث لا محالة لأن الأوروبيين يجدون حضانة الأطفال شاقة وإيقاف الهجرة صعباً، وحتى تنويع مصادر المهاجرين غير متوافر، ويفضّلون القنوع والتسليم بما يطلقون عليه "الخرف الحضاري" لقد بلغت أوروبا، في الوقت نفسه درجة عالية من الازدهار والسلام وأظهرت قدرة فريدة على الحفاظ على تماسكها.

ثانياً: عظمة الإسلام

إنّ صفات الدين الإسلامي وميزاته العظيمة التي تجعله جذّاباً للنفس البشرية مهما كان نوعها. فالإسلام دين يملأ الفراغ الديني عند المواطن الغربي، ذلك الفراغ الذي صاغته العلمانية الأوروبية طوال مايقرب قرنين من الزمن، والذي ساهمت الصهيونية العالمية في ترسيخه. والحقيقة فإن خشية الأوروبيين الحقيقية تكمن في ما يجدونه خطر تحوّل الأوروبيين إلى الإسلام، وهذه الخشية تفوق مايرونه خطر الإسلاميين أنفسهم. وإنّ كافة الدراسات الغربية تعبّر عن هذه الخشية الكامنة في الإسلام نفسه.

ثالثاً: تدني نسبة الولادات المسيحية في أوروبا

إن سكان أوروبا الأصليين يتضاءل عددهم يوماً بعد يوم. وتذكر إحصاءات الاتحاد الأوروبي أن النسبة المطلوبة للحفاظ على عدد سكان أوروبا الحالي يتطلب نسبة ولادة تبلغ ٢,١ للمرأة الواحدة، في حين أن النسبة الحالية هي ١,٥ وهي آخذة في التدنّي. وتشير دراسة إلى أن سكان أوروبا سيتدنى عددهم من ٣٧٥ مليون نسمة إلى ٢٧٥ في عام ٢٠٧٥ إن لم تستمر الهجرة إلى البلدان الأوروبية. ويحتاج الاتحاد الأوروبي إلى ١,٦ مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين

والمتقاعدين. أما الآن فانه يحتاج إلى ١٣,٥ مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل من قبل.

لذلك فإن الإسلام والمسلمين يأتون لملء هذا الفراغ. ففي حين تتداعى المسيحية يزداد الإسلام قوة، ويؤكد وجوده ويعمل على تحقيق طموحاته. وفي حين يتناقص عدد الأوروبيين بسبب الشيخوخة، والإعراض عن الزواج أو الزواج المتأخر، أو بسبب انتشار الزواج المثلي. يتكاثر المسلمون الذين يتزوجون في أعمار مبكرة، ويكثرون من الإنجاب. وإن نسبة ٥ في المئة من الاتحاد الأوروبي، او ٢٠ مليون نسمة يعتبرون أنفسهم مسلمين، وإن استمرت الأمور على ما هي عليه ستصل النسبة إلى ١٠ في المئة في عام ٢٠٢٠. وإن تركت العناصر غير الإسلامية أوروبا فستصبح غالبية السكان من المسلمين في عقود قليلة.

حين يحصل هذا ستبدو الكاتدرائيات الضخمة كبقايا أثرية من عصر بائد، على الأقل إلى أن يحولها نظام مثل حركة طالبان إلى مساجد. وستذبل الثقافات القومية مثل الفرنسية والإيطالية والبريطانية وتذوي لتحل محلّها الهوية الإسلامية التي تضم عناصر من أفريقيا الشمالية وتركيا وآسيا وغيرها. هذه التنبؤات ليست جديدة. ففي ١٩٦٨، ألقى السياسي البريطاني خطابه الشهير "أنهار الدم" الذي حذّر من خلاله من السماح لكثير من المهاجرين بالاستيطان في أوروبا، وكانت بريطانيا حينها تزدحم بشكل خاص بالهنود. (وقد تسببت هذه الكلمات بعرقلة مستقبله السياسي).

رابعاً: حاجة الأوروبي للإسلام

بعد ارتفاع مشاكل وأمراض "الإلحادية" التي شاعت في الغرب منذ عقود، وبعد فشل الأطروحات الفلسفية كبديل عن التدين، ظهرت الحاجة ماسّة للتدين عند الغربيين المحسوبين على المسيحية. ولمّا تمّ تشويه المسيحية الغربية أصبحت بوضعها الراهن غير قادرة على ضمّ المؤمنين، بل إنّ الكثير من الكنائس قد بيعت أو تم تحويلها إلى متاحف وقصور. وفي هذه الأجواء يبحث الفرد عن الاعتقاد الديني الذي

يربطه بالله، فلا يجد أمامه سوى العقيدة الإسلامية التي تناديه وتسعى إليه. وهذا مايعلل ظاهرة الأسلمة الواسعة في أوروبا بدون وسيط أو داعية للإسلام. إذ تفيد استطلاعات بأنّ نسبة ٤٠٪ من المتأسلمين الجدد في ألمانيا قد دخلوا الإسلام بدون وسيط.

خامساً: الحرية الفردية

إنّ تطور المجتمع الأوروبي ومنحه حريات واسعة لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل، ذلك يمنح الفرد مساحة كبيرة للتفكّر والتثقف والتعرف على ثقافات البشر الغريبة عنه. وتمنحه حرية اعتناق دين جديد بدون أية مساءلة. وذلك سيؤدي إلى موجة اعتناق واسع للدين الإسلامي. فإن القرآن الكريم وآياته وعظمتها كفيلة بجذب المتفكر بها إلى الإيمان بالله الواحد العظيم واعتناق الدين الحنيف. فقد نزلت الآيات لقوم يتفكّرون، لقوم يوقنون، للفرد الذي ينظر ويتبصّر بآيات الله في خلقه، وسيكون المطّلع الغربي على القرآن واحداً من هؤلاء. وستؤدي حرية المجتمع الأوروبي إلى انتشار الإسلام فيه.ولن يكون بوسع أنظمة الغرب وقوانينه كلها الحدّ من تلك الحريات، ولن يكون بمقدور أية إجراءات غربية منع الفرد من اختيار دينه. لأن الحرية الفردية تلك هي أحد أركان المجتمع الغربي وثوابته. وإن جرت محاولات للتدخل فيها فسوف يؤدي ذلك إلى انهيار أركان المجتمع الغربي بكاملها، وبالتالي ستكون فوضى وانهياراً للمجتمع وأسسه وعلاقاته.

سادساً: رغبة الأوروبي بالتحرر من الأكذوبة الغربية الكبيرة

بفضل التطور الإعلامي والأحداث الجارية أدرك المواطن الغربي أنه ظلّ مخدوعاً طوال قرون خلت. وأن تخويفه من الإسلام لم يكن سوى خدعة رهيبة مارسها ضد الغربيين كلّ من السلطات الكنسية والحكومية، وأنّ تلك الخدع والأكاذيب كانت مفروضة على العقل الأوروبي وتمنع تحرره. ومن هنا فالغربي اليوم من حقه أن يتحرر ويصبح حراً مثلنا نحن العرب أو المسلمين. وهذه الحرية التي اكتشف

عناصرها يمكنه تحقيقها واكتسابها بواسطة التعرف على الإسلام أو باعتناق الدين الإسلامي. ونحن المسلمين ندرك أن التعرف على الإسلام هو الطريق الحتمية في أغلب الأحيان التي توصل الفرد إلى اعتناق الدين الإسلامي. ولأن السلطات الغربية (كنيسية وحكومية) كانت تدرك هذه الحقيقة فقد ظلّت طوال قرون تمنع الغربي من التعرّف على الإسلام، بل حتى من ذكر كلمة إسلام.

مصطلح: المستعمرة الإسلامية الأوروبية

هذا مصطلح جديد يطلقه الغرب نفسه ويتبأ بأن تصبح أوروبا كياناً إسلامياً في العقود القادمة. ويذهب كثير من مسلمي ومسيحيي أوروبا إلى التنبؤ بسيطرة الإسلام على أوروبا في العقود القليلة القادمة، وذلك انطلاقاً من مشاهداتهم للمجتمع الأوروبي، ولحالة الغليان الإسلامي فيه. والذي يثمر عن الاعتناق الواسع للدين الإسلامي في كافة أوساط المجتمع. كما يتّجه العديد من مؤرخي وسياسيي الغرب إلى هذا الاستنتاج والذي يرون أنه سيكون حتمياً في آخر المطاف.

وكانت الراحلة "أريانا فالاتشي"قد لاحظت أنه مع مرور الزمن"تتحول أوروبا كل يوم أكثر فأكثر إلى مستعمرة للإسلام". وهي تتصور شكل هذه المستعمرة المقلبة التي تراها ماثلة لامحالة. وتأتي هذه التنبؤات من الكثيرين غيرها نتيجة ملاحظاتهم لإقبال الغربيين على الإسلام. كما نسمع في كل فترة عن أسلمة أحد المشاهير الغربيين وكان آخرهم المغني مايكل جاكسون.

التصاعد السريع للتدين الإسلامي في الغرب

إن غالبية المواطنين العرب المسلمين أثناء إقامتهم في بلدان الغرب يصبحون أكثر تعصباً لدينهم أو لقوميتهم، وأحياناً أكثر تديناً. وهذه ظاهرة صحّية تدل على عظمة الإسلام وعلى قوّة رسوخه في النفوس وفي القلوب . فقد اعتدنا نحن السوريين أن نستقبل حجاج بيت الله الحرام، وقد تغيرسلوكهم العام كأفراد، فأصبحوا

أكثر التزاماً بقواعد الإسلام، وأكثر تديناً. والحقيقة أن الذين يعودون من أوروبا أيضاً، يأتون أكثر تديناً والتزاماً مما كانوا عليه قبل هجرتهم إليها. ويلاحظ أيضاً أن الجيل الثاني والثالث من العرب أو المسلمين حافظ على التزامه بالانتماء اللغوي والإسلامي والعربي.

إنه ثمة أسباباً عديدة تجعل المسلم أكثر تديناً أثناء إقامته في الغرب، ومن هذه الأسباب:

- امتلاكه حرية كافية للاعتقاد والتمذهب والتدين والتعبير عن نفسه، وهذه الحرية ربما لم تكن متاحة له في بلده الأصلي. فقد تظاهر المسلمون واحتجّ الكثير منهم لقضايا منع الحجاب في المدارس العامة في بريطانيا، وقبل ذلك حدثت أزمة كبيرة بسبب قصة حجاب فتاتين مسلمتين في فرنسا. ولو أن هذه القضايا حدثت في بلد إسلامي لما استطاع المسلمون الاحتجاج لأجلها.

- يرى سكان الأحياء والمدن البعيدة عن باريس أن الاقامة في باريس جنون وسرعة وضجر وعقد تتعب الأفراد وتضنيهم. وهذه حقيقة في تلك المدن، وهي غريبة وجديدة على مواطننا المهاجر الجديد. وكردة فعل على ذلك الصخب الكبير يعود المسلم إلى دينه وعبادته التي تمنحه الثقة والراحة والطمأنينة، وبذلك يعود إلى هويته الأصيلة.

- قد يتعرض بعض المسلمين لانتقادات عنصرية من أبناء الغرب، وفي تلك الحال لن يجد المسلم ردة فعل على تلك الانتقادات أفضل من التدين والالتزام بالإسلام وسيكون الإسلام نفسه الهوية التي ينتمي هو إليها في الأصل والهوية التي منحه إياها ذلك الغربي العنصري.

- في حالات قليلة ولأسباب مشابهة لتلك يتطور هذا الانتماء الإسلامي عند البعض ليصبح انتماءً إسلامياً حركياً.

قوة الحق عند المسلمين

الكاتبة الايطالية الشهيرة أوريانا فالاتشي، والتي أصدرت كتاباً بعنوان: قوة المنطق. تعتبر أن أوروبا ستصبح يوماً بعد يوم إقليماً من أقاليم الإسلام، او مستعمرة إسلامية بفضل قوة المنطق عند المسلمين، ولعل هذه الصحافية على حق إذ إن الإسلام أخذ يغزو معقل المسيحية القديم أوروبا بقوة وبسرعة لم تعرفها أوروبا نفسها منذ قرون. وترى أوريانا فالاتشي أنّ هناك قوتين تساهمان في هذا التغيير الذي قد يهزّ العالم وهما تفريغ أوروبا من مسيحيتها ، وتدني نسبة الولادات فيها.

لكنها غفلت أو تغافلت عن حقائق أخرى يسهل علينا تقصيّها في الصفحات التالية من كتابنا هذا. وهي التي تتعلق بجدارة الإسلام نفسه. وإن مصطلح قوة المنطق الذي جعلته عنوان كتابها ليس سوى تعبير وإشارة إلى مصطلح "قوة الحق" في الدين الإسلامي.

قوة الحق عند المسلمين وهي القوة الآتية من قوة الحق في الإسلام هي التي تفشل كافة مشاريع الغرب المعادية للإسلام، ويدرك الغرب هذه القوة وهذا الحق. ولذلك فهو يخشاها. ويكون هذا أحد جوانب الخوف الغربي من المسلمين.

وجه أوروبا يتغير بسرعة مذهلة

إنّ أوروبا هي الآن في مرحلة تغيير كبير لامثيل له على الإطلاق، وهذا التغيير لايعادله إلاّ تغيير واحد عرفه تاريخ العالم من قبل. وهو الذي حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، حيث كانت تتحوّل شعوب وأمم وقوميات بأكملها إلى الديانة الجديدة. ستتغيّر أوروبا بسرعة مذهلة، وتقوم بالتخلي عن معتقداتها السابقة. وانّ عالم الغرب بكلّ أركانه يدرك اليوم هذا التغيير المحتمل.ويعمل بمقتضاه، فالانتخابات الرئاسية الفرنسية ٢٠٠٧ سارت وفق مقتضيات هذا التغيير،

وأولئك الذين تحمسوا لاختيار ساركوزي إنما اختاروه لأجل شعاراته التي تبين منها بأنه سيتصدى بقوة لظاهرة ازدياد المدّ الإسلامي. لكن الأسباب والعوامل التي

تجعل أوروبا تزحف حثيثاً نحو الإسلام تلك لايستطيع لا ساركوزي ولاغيره بأن يوقفها. ومن ملامح هذا التغيير، اعتقاد نسبة كبيرة من أفراد الغرب بعدالة القضية العربية، وبأحقية الدين الإسلامي، وانتشار التحوّل إلى الإسلام. وسينتج عن ذلك كله في المستقبل القريب ضغوط على الحكومات الغربية لاتخاذ مواقف مناصرة للعرب والمسلمين. وعندئذ سيتغير وجه أوروبا بالكامل.

أوروبا أرض خصبة لنمو الإسلام

لقد أتيح للمسلمين من حرية العبادة في أوروبا وممارسة الحياة الكريمة ما لم يتح لهم في عدد من الدول العربية الإسلامية. وقد حصلوا على اعتراف بعض الولايات الألمانية التي قدمت الدعم للمدارس الإسلامية وحصل مثل هذا في بريطانيا بعد معركة طويلة قادها يوسف إسلام. ولذلك فإن ما كتبه الأستاذ عبد الحليم خفاجي بعنوان المستقبل للإسلام في أوروبا وأن أمريكا أرض خصبة لبث الدعوة فيها حتى ظهر سفير أمريكي يعلن أن الإسلام إذا انتشر في منطقة فإنها تصبح متميزة بالروابط الاجتماعية القوية بين أفرادها وتصبح نظيفة من الجريمة والمخدرات والزنا.

تصوّر حرب شوارع في باريس

المحلل الفرنسي "ميشيل غورفينكييل" يراقب تصاعد نفوذ المسلمين في أوروبا ويتنبأ بتحولها إلى الإسلام خلال عقود قليلة وهو يستحضر الأدلّة والشواهد على رأيه هذا ويقول:

"إنّ اسم "محمد" هو الإسم الأكثر انتشارا في بروكسيل بين المواليد الجدد منذ بضع سنوات. وهذا يشير إلى تمسّك المسلمين بالإسلام." وهو يقارن هذه الصورة الحيوية بصورة تراجع الإيمان المسيحي لدى الأوروبيين.

وعن تزايد عدد المسلمين في أوروبا يقول: "قد تصبح "أمستيردام" و"روتيردام" في حدود سنة ٢٠١٥ أكبر مدينتين أوروبيتين ذات أغلبية مسلمة. ويرى "ميشيل

غورفينكييل" أن حرب شوارع لو حدثت الآن في أزقة فرنسا فإنها سوف تشهد مواجهة بين أبناء الفرنسيين الأصليين وأبناء المهاجرين بنفس الأعداد متساوية تقريبا. ويعبّرهنا عن قلق الأوروبيين من ارتفاع الروح المعنوية عند الشباب المسلمين ومن انخفاضها عند الأوروبيين. فقد جرى الحديث كثيراً عن مشكلة تأنيث شباب الغرب وإضعاف رجولتهم وجعلهم يعتمدون في كلّ شيء على خدمات ومساعدات الدولة. وفيما يخصّ الديمغرافيا الإسلامية تقدر التخمينات الحالية أن يتشكل الجيش الروسي من أغلبية مسلمة ابتداءً من ٢٠١٥ وأن تكون أغلبية سكان روسيا عموماً مسلمة ابتداء من ٢٠٥٠.

مصطلح أورعربيا المخيفة

مصطلح أور عربيا يطلقه الغربيون هذه السنوات وهو مشتق من كلمتين أوروبا وعربية.

صورة أورعربيا الإسلامية المخيفة لبعض الأوروبيين كما نسمع باستمرار، ليست في حقيقتها مخيفة على الإطلاق، بل هي تحرر وتحديث فكري للأوروبيين وبالتالي لبلدانهم. وهي إنقاذ حقيقي للأوروبيين من ظلامية التشرد الفكري والديني الذي يعانون منه منذ عقود وقرون. وقد صدر مقال ذو أهمية كبيرة في صحيفة "ذي إيكونوميست "في منتصف سنة ٢٠٠٦ يؤكد على أنه *" في الوقت الراهن فإن رؤية أورعربيا تبدو أمراً مخيفاً ومتشائماً"* .

إنّ صورة أوروبا المسلمة أو العربية كما يرى البعض أصبحت حقيقة ماثلة عند قسم من الأوروبيين. وهم لايجدون شكلاً آخر لصورة أوروبا المقبلة. وهذه الصورة تخيف بعض الأوروبيين وترعبهم منذ الآن. سيّما وأنها باتت حتمية. فلو قام الأوروبيون بإبادة الإسلام وأهله كما يتخيل البعض فإنهم بذلك يبيدون مواطنيهم ليس العرب أو الذين من أصول غير أوروبية فحسب، بل المسلمين الذين هم من أصول غربية عريقة. وهؤلاء لاتقل نسبتهم عن ٣٠ ٪ من مسلمي أوروبا.

وفي كلّ يوم يتصاعد عددهم بكثرة، والخلاصة فإن الخوف الأوروبي من المسلمين لايكترث بالمسلمين المهاجرين بل ينطلق من ظاهرة الجسد الإسلامي الجديد الذي يتشكّل ويكبر وتتسع مساحته مطلع كل يوم. وهذا هو التشكّل الذي تعجز أوروبا كلها اليوم عن إيقافه، ولاتجد نفسها إلاّ في رعب منه في حين أنه هو لايسبّب لها الرعب بل يمنحها الأمل والحرية والعظمة.

مسلمون يناصرون الإرهاب

تظهر كل المجتمعات الإسلامية التي تم مسح الرأي العام بها عن تأييد قوي وثابت لأسامة بن لادن. عند سؤالهم هل يثقون به، ردوا بالإيجاب، وتراوحت النسبة بين ٨٪ (في تركيا) و٧٢٪ (في نيجيريا). وفي الأحياء الشعبية التابعة للعاصمة المغربية، صرّح كثير من الشبّان بوضوح بتأييدهم لحركة القاعدة وأعمالها، وقال بعضهم: نحن نحب بن لادن لأنه يدافع عنا، الحكومة لاتدافع عنا. بالمثل تتمتع التفجيرات الانتحارية بالشعبية، حيث تتراوح نسبة المسلمين الذين يرون أنها مشروعة بين ١٣٪ (في ألمانيا) إلى ٦٩٪ (في نيجيريا). تشير هذه الأرقام المخيفة إلى أن للإرهاب الذي يقوم به المسلمون جذوراً عميقة وأنه سوف يظل خطراً على أمن أوروبا ومسلميها في الأعوام القادمة.

المسلمون البريطانيون والنيجيريون هم الأكثر عدائية، فغير المسلمين يتبنون وبصورة لافتة اتجهات أكثر إيجابية نحو الإسلام والمسلمين بالمقارنة مع أي مكان آخر في البدان الغربية، فمثلا، ٣٢٪ فقط من العينة البريطانية ترى أن المسلمين يتصفون بالعنف، وهي نسبة تقل بدرجة دالة عن النسبة في فرنسا (٤١٪) أو ألمانيا (٥٢٪) أو أسبانيا (٦٠٪). وفي الجدل الذى دار حول الرسومات الكاريكاتورية التي تعرضت لرسول الإسلام، كشف البريطانيون عن قدر أكبر من التعاطف مع وجهة نظر المسلمين بالمقارنة مع باقي الأوروبيين. واللافت للنظر في آراء الأوروبيين من غير المسلمين هو أن نسبة المتعاطفين مع الإسلام والمسلمين تعادل ٥٠ ٪ وهي نسبة ممتازة.

وتشير إلى مستقبل زاهر للإسلام في أوروبا. وإلى أن احتمال التصادم مع المسلمين ضعيف نظراً لتفهم قضيتهم.

إلا أن المسلمين البريطانيين يردون الجميل باتجاهات معادية للغرب هي الأشد افتراءاً وضرراً في أوروبا. فالعديد منهم يرون الغربيين يتصفون بالعنف والجشع واللاأخلاقية والتكبر والتغطرس وبنسبة أكبر من المسلمين في فرنسا وألمانيا وأسبانيا. فضلاً عن ذلك، عند سؤالهم عن مكانة المرأة في المجتمعات الغربية، كانت اتجاهاتهم هي الأكثر تطرفاً وبصورة ملحوظة.

إن الموقف في بريطانيا إنما يعكس ظاهرة "لندنستان" (على وزن باكستان وأفغانستان. حيث البريطانيون يبادرون بالانحناء والتملق بينما المسلمون يستجيبون لهذا الضعف بالتحدي.

وبصفة عامة فالمسلمون النيجيريون هم أصحاب أكثر الاتجاهات عدوانية في مسائل وقضايا مثل حالة العلاقات بين المسلمين والغرب، واتهام الغربيين بالانحلال الأخلاقي والتغطرس والتكبر، وتأييد أسامة بن لادن والإرهاب الانتحاري. لاشك أن هذا التطرف إنما ينشأ عن حالة العنف التي تتصف بها العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا.

مما يثير الدهشة والعجب أن نجد أشد صور عدوانية المسلمين في بلدين واحدة يتمتع فيها المسلمون بأكبر قدر من التوافق والثانية يعاني فيها المسلمون من انخفاض التوافق لأدنى مستوياته، مما يوحي أن المسار المعتدل الوسطي هو الأفضل – حيث المسلمون لا يفوزون أو يتمتعون بمزايا خاصة، كما في بريطانيا، ولا يكونون في حالة متقدمة من العدائية والكراهية، كما هو الحال في نيجيريا.

تنمّ نتائج الدراسة عن رسالة لا يمكن إنكارها أو نفيها تنذر بأزمة تمتد عبر عموم العالم الإسلامي.

تصوّر إمارة إسلامية في ضواحي باريس

في شهر رمضان نجد أن هناك جوًا من التدين يسيطر على الضاحية الفرنسية ككل كما يمنع الشباب من العنف والعصبية، ويمنع المدخنون من إظهار إفطارهم. ولكن ما يجذب الأنظار في نفس الوقت هو عدم وجود تيار حركي من الإخوان المسلمين وكذلك غياب الخطاب السلفي والتبليغ. ولكن الإسلام المعتدل الذي يتناسب مع ثقافة تلك الضواحي هو الذي يظهر بوضوح في هذه المناطق ويساعد على انتشاره أشرطة الكاسيت الذي يأتي بها البعض من مصر وخاصة للداعية عمرو خالد الذي يمثل هذا التيار وتبدأ كثير من الفتيات في ارتداء الحجاب بعد سماعها تلك الأشرطة التي تساعدهم على الطاعة كما تتحول بعضهن إلى داعيات تجتمع مع غيرها من الأخوات لتدعوهن إلى طاعة الله عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.وكل ذلك يتمّ في اجتماعات غير رسمية.

وفي ضاحية مثل مانس يهتم الشباب ببعض الأمور الدينية مثل اللحية وهل حلقها حلال أم حرام ويهتمون خلال شهر رمضان بصلة الأرحام بشكل كبير. ويمكن القول إن عودة الإسلام بمبادئه تكون بطرق متعددة بشكل طبيعي في هذه الأحياء ولكن ليس في صورة ثورية لاستعادة الهوية الإسلامية والأفكار المرتبطة بالإسلاميين.

اقتراحات متطرفة لإعاقة التحول إلى الإسلام

الكاتب الفرنسي جان راسبيل نشر في السبعينات رواية بعنوان "*مخيم القديسين*" تصوّر فيها أوروبا وهي تعج بالمهاجرين القادمين من شبه القارة الهندية. ورأى تحول أوروبا من حضارة إلى أخرى بطريقة سلمية لم يسبق لها مثيل في التاريخ. ويقترح راسبيل ثلاثة إجراءات لإيقاف المدّ الإسلامي داخل أوروبا ويقول: "ما زالت هناك إمكانية لإعاقة هذا التحوّل، لكن التطلعات إلى ذلك قد تتلاشى مع الوقت. ويأتي ببعض الطرق الممكنة لتحقيق ذلك، وهي: تشجيع الإيمان

المسيحي، وزيادة نسبة الولادات، وصهر المهاجرين الجدد." ولنناقش هذه النقاط التي يعرضها جان راسبيل.

أولاً: إعادة الإيمان المسيحي

يعرض راسبيل اقتراحات لتشجيع متغيرات تؤدي إلى عودة الإيمان المسيحي وزيادة نسبة الولادة بين المسيحيين الأوروبيين، ولكنّ هذه المتغيرات لن تحدث في أوروبا على الإطلاق بالطريقة التي يرغبها المسيطرون على مقادير تحريك أوروبا. فإن البنية الشخصية للفرد هي الحكم الرئيسي في هذا الشأن. ولن تتغير بنية الفرد مالم تتغير عقيدته. فالمواطن الغربي عموماً ذكراً وأنثى، يعتقد اليوم كمثال، بالمتعة الجنسية بحرّية .ويرى فيها سعادة ولهواً وعادة طبيعية. وهذه المتعة ترتبط بممارسة تحول بينه وبين كثرة الإنجاب. وإنّ كافة السياسات والإجراءات التي تسعى إلى زيادة الإنجاب والولادات لن تنجح مع الأوروبيين ماداموا غارقين في هذه العقيدة المشتتة التي تبيح كل شيء ولاتحظر أي شيء. بل إنهم لن يقدروا على التخلص من هذه العادات التي تدمّرهم إلاّ عند دخولهم الإسلام. وقد بدأ الغربي يدرك عيوب الحضارة الغربية، وعيوب المجتمع وعيوب التربية، وبدأ يدرك أن الإسلام هو وحده القادر على تصحيح العيوب الكثيرة في مجتمعه وعيوب تلك الحضارة الناقصة. وينشغل ساسة الغرب بمنع حدوث هذا الإدراك، ومنع أبناء الغرب من معرفة طريق النور الإسلامي، لأن تلك المعرفة ستمكّن الفرد من رفض الطرق التربوية السائدة والتي تهدف إلى تغييب دور الفرد وإلى تسطيح المجتمع الغربي. وهذه السياسة الغربية في الداخل لن تستمر لأن المواطن الغربي بدأ في مرحلة تجاوزها بالفعل، وهذا التجاوز سيقضي على شكل التكوين العام الذي يسيّر الحكومات والسياسات الغربية، هذا الشكل الذي بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واستمرّ حتى عصرنا هذا.

لقد شوّه الغرب المسيحية أسوأ تشويه.وتمادوا في خروجهم عن المسيحية المؤمنة الثابتة. فتعددت في الغرب الطوائف والكنائس الجديدة وكان آخرها كنيسة العلمانوية (أو السينتولوجيا) والتي أسّسها مغامر ألماني يسعى لكسب المال. وهذه

التشويهات الكثيرة تعيق إعادة الغربيين إلى المسيحية وتضيّع سعي من يحاول إعادة أوروبا إلى الإيمان المسيحي. لأنّ هذه المحاولات نفسها وأثناء فشلها مع الأفراد ستوصلهم إلى طريق الإيمان الإسلامي الذي يعلن عن نفسه في كل حين وفي كل مكان.

ثانياً: تغير أوضاع المسلمين

الاحتمال الذي يقترحه راسبيل والذي يتمثّل بإحداث تحديث إسلامي كبير، في أوساط المسلمين الأوروبيين لسبب ما، حيث يقول:

"العصرنة تؤدي إلى انخفاض في معدلات الولادة بشكل جذري، وقد تتكوّن الأسباب التي تؤدي إلى تثقيف المرأة المسلمة، أو الإجهاض عند الضرورة. او أنّ مشاغل الإنسان في الحياة العصرية التي تأخذ الكثير من وقته تؤدي بمسلمات الغرب إلى إنقاص عدد الأولاد والإنجاب." وهذا لن يحدث أيضاً بل سيبقى مجرد سعي أوروبي جافّ. كذلك فإن تحديث العالم الإسلامي نفسه من جهة أخرى، (حسب تقدير الأوروبيين) قد يؤدي إلى انخفاض معدل الهجرة من العالم الإسلامي إلى أوروبا. وتعمل أوروبا والولايات المتحدة وفق برامج عديدة تهدف إلى إحداث هذا التغيير في المجتمعات الإسلامية العالمية، ومن ذلك مشروع ماسمي بشرق أوسط جديد، ومشروع الشرق الأوسط الديمقراطي، ومشروع إحلال عملية السلام النهائي في الشرق الأوسط. لكنّ كافة هذه المشاريع وغيرها تحمل مباديء واضحة هدفها تثبيّت سيطرة الغرب وإسرائيل على المنطقة وتفرغ الدول العربية والإسلامية من قوتها، أي هزمها وإخضاعها، وبنفس الوقت تسعى لوقف هجرة المسلمين إلى أوروبا، وهذا مالايقبل به العرب المسلمون شعوباً وحكومات. ولذلك فإن هذه المشاريع الغربية ستفشل وستبقى الحالة على ماهي عليه. وسيستمرالمجتمع الإسلامي على حالته، وقد أثبتت الأحداث أن التحرش بالمسلمين وفق مخططات غربية معادية تزيد من التطرف الإسلامي ومن توليد حركات إسلامية جديدة.

ثالثاً: إشغال المسلمين بالهزائم

يتبنى الغرب مشروعاً يهدف إلى إشغال الشعوب الإسلامية والحركات الإسلامية بصراعات إسلامية إسلامية، تؤدي إلى إضعاف المسلمين جميعاً وانهزامهم، وانتشار الفقر والجوع والموت والأوبئة في أوساطهم الاجتماعية، وخفض عدد المسلمين في العالم. وهذا ماصنعه الغرب في العراق، ثم في الصومال. وحاول نقله إلى لبنان والدول الأخرى، لكنّ مثل هذه الفوضى الطائفية لن تستمر عند المسلمين على الإطلاق، بل إنّ المسلمين قد واجهوها بوعي كبير وصل إلى حدّ التدخل المباشر من الحكومات والحكّام، مثل السعودية وإيران وسورية ولبنان. ولأجل إيقاف هذه الاقتتالات الطائفية انعقدت مئات الحوارات الدولية. الأمر الذي يعكس وعي المسلمين لمصلحتهم ومصالح شعوبهم. وفي ساحة الاقتتال الطائفي المخزي في العراق استمرت أعمال المقاومة ضد القوات الغازية. بل واستمر الفريقان المتقاتلان بالتصدي للغزاة. وفي العراق نفسه، ورغم المآسي الطائفية، فإن الأفراد عموماً استمرّوا في الاعتقاد بمبدأ الوحدة الإسلامية ورفض الصراع المفروض. واستمرت حياتهم اليومية في العيش معاً وإقامة الصلوات المشتركة. ومن هنا فإن محاولة الغرب إلهاء المسلمين في صراعات داخلية لن تنجح على الإطلاق. لقد أعلن في الثامن من أيار ٢٠٠٧ عن تزايد عدد القتلى من الأطفال العراقيين، وبيّنت الإحصائية بأن نسبة كبيرة منهم تموت قبل تجاوز السنة الثالثة من العمر. وكذلك فمن الطبيعي أن تنخفض نسبة الإنجاب إلى أدنى درجاتها عند (النازحين العراقيين)الذين يزيد عددهم عن عشرة ملايين، وهذا ينبئ بانخفاض عدد العراقيين بشكل عام، وباضافة عدد القتلى والمصابين في الحرب العراقية فإننا سنصل في السنوات القادمة إلى نتائج ديمغرافية شديدة الخطورة لم ينتبه إليها الكثيرون حتى الآن. ولم يحدث كلّ ذلك مصادفة بل إنّه مخطط غربي محكم الدقة والتنفيذ.

رابعاً: الحل الديمغرافي الوثني

أن تقوم أوروبا باستقبال مهاجرين من بلدان أخرى مسيحية مثل أميركا اللاتينية ما قد يسمح لأوروبا بالحفاظ على هويتها التاريخية. ويقترح استقبال توافد

الصينيين والهنود الوثنيين والهندوس مثلاً ليخفّف من إمكان سيطرة العناصر الإسلامية حسب رأي الغربيين. وإنّ مثل هذه المشاريع ستبقى دراسات على الأوراق، فإن دول أمريكا اللاتينية بدأت تشهد ازدهاراً حضارياً ومادياً، وتطوراً صناعياً واقتصادياً، كما أن المسافة الشاسعة بينها وبين أوروبا تحول دون الرغبة في هجرة أولئك إلى أوروبا. كما أن هجرة الصينيين إلى أوروبا لن تكون ممكنة في العقود القادمة بفضل التطور الصيني المتسارع في مجالات الاقتصاد والصناعة والحضارة. إضافة لوجود الجدار الصيني الأممي الذي يمنع هجرة الصينيين إلى الخارج. وعلى المدى المنظور فإن المسلمين العرب هم وحدهم المرشحون لملء الفراغ الديمغرافي الأوروبي المنتظر، ويساهم في ذلك عشق العرب لأوروبا، هذه الظاهرة التي يمكن أن نطلق عليها أيضاً تسمية "الانبهار العربي بأوروبا" وتتمثّل بالتطلع العربي الإسلامي الدائم والمستمر نحو أوروبا، ويعود ذلك التطلع إلى تاريخ الوجود العربي في جنوب أوروبا ثم الاندحار عنها في القرن السابع الهجري.

يقول دانيال بايبس: "إن أوروبا ستصبح يوماً بعد يوم إقليماً من أقاليم الإسلام، أو مستعمرة إسلامية."

وأوريانا فلاتشي في كتابها *قوة المنطق* ترى أن عدد المسيحيين الملتزمين يتناقص مقابل تزايد عدد عمّار المساجد، ففي بريطانيا على سبيل المثال عدد الذين يذهبون إلى المساجد أكبر من عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة الإنجيلية. وتضيف فلاتشي أن السبب الآخر هو أن سكان أوروبا الأصليين يتضاءل عددهم يوماً بعد يوم. فالنسبة المطلوبة رسمياً للحفاظ على عدد سكان أوروبا الحالي يتطلب نسبة ولادة تبلغ ٢,١ للمرأة الواحدة، في حين أن النسبة الحالية هي ١,٥ قابلة للنقصان لا للزيادة. ومن ثم فإن الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى ١,٦ مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين والمتقاعدين إضافة إلى إنه يحتاج بالأساس ١٣,٥ مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل من قبل. وتضيف الكاتبة أنه في الوقت الذي يتناقص فيه عدد الأوروبيين بسبب الشيخوخة، يتكاثر المسلمون الذين يتزوجون في أعمار مبكرة حيث ستصل نسبتهم إلى ١٠٪ من مجموع المسلمين الغربيين.

أورابيا المستعمرة الإسلامية الكبيرة

يتغير وجه أوروبا في هذه السنوات، وتتغير ملامحها التي عرفت بها طوال القرون الماضية. والجديد فيها هو ماتكتسبه من صفات إسلامية، ومع كلّ مطلع فجر تكثر فيها هذه الصفات. وبالمقابل تجري محاولات دؤوبة وعلى كافة الأصعدة لوقف امتداد الإسلام فيها. لكن رغم ذلك ورغم تضييق الخناق على المسلمين أنفسهم فإن الإسلام أصبح يتمدد بمفرده، وأصبح الأوروبيون يقدمون عليه ويعتنقه بعضهم بدون أن يدعوهم أحد اليه. ومن هنا يرى كثير من الباحثين الأوروبيين أن أوروبا مقدمة لامحالة على عصر جديد تتغير فيه ملامحها وتصبح إسلامية. منحت المؤرخة بات يي أور لأوروبا صفة المستعمرة الإسلامية القادمة، وأطلقت عليها اسماً هو "أورعربيا، أو أورابيا"، وذلك انطلاقاً من دمج كلمتي اورو- عرب.

استبعاد المواجهة بين المسيحية والإسلام

أجرت BBC استطلاعاً واسعاً للرأي في مختلف دول العالم للتعرف على آراء الشعوب في رغبتها بالتحاور والتفاهم بين الأديان، والتحاور بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية. وجاءت الأغلبية الساحقة تسعى لذلك التحاور وترفض التفرقة. واعتبر القليل منهم أنّ الصراع بين الحضارتين حتميّ. ومن خلال هذا الاستطلاع يمكننا التكهّن بأن غالبية الأوروبيين لن يدخلوا في صراع مع المسلمين بل يرجّحون التحاور معهم، وهذا يعني استبعاد حدوث مجازر وإبادة لمسلمي أوروبا. وننقل هذا الجدول عن BBC

استطلاع للرأي حول العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية

	التفاهم ممكن	الصراع حتمي
فرنسا	69%	23%
المانيا	49%	39%
بريطانيا	77%	15%
الهند	35%	24%
اندونيسيا	40%	51%
ايطاليا	78%	14%
كينيا	46%	35%
لبنان	68%	26%
نيجيريا	53%	37%
روسيا	49%	23%
تركيا	49%	29%
الولايات المتحدة	64%	31%

أوروبا مرغمة على الأسلمة

يتنبأ "والتر لاكور" في كتابه أوروبا العربية بأن: "أوروبا كما نعرفها سوف تكون مرغمة على أن تتغير وعلى أن تصبح مستعمرة إسلامية". ويؤيد هذا الرأي الكثير من الباحثين الغربيين. فبالمقارنة بين ظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام وجعله الحل الفكري الوحيد الذي ينقذ الفرد من الضياع وبين الظاهرة الأخرى التي تتمثّل بمشاريع إعاقة انتشار الإسلام والحدّ من نفوذه في المجتمع الغربي.نكتشف أن

الأولى هي الأقوى وهي التي تفرض نفسها. إذ لاتستطيع ولم تقدر كافة الإجراءات على منع الفرد من اعتناق الفكرة التي يريد اعتناقها.

فهؤلاء الأفراد أصبحوا هم الحكم الفصل في قضية مستقبل أوروبا وأصبحوا هم محورها الرئيس، ولمّا كان الإسلام بيّناً وجذاباً ومرغوباً بالإضافة لكونه هو الحل الفكري الصحيح لمشاكل الضياع الفكري الغربي فإن الإقبال عليه محتوم وانتشاره محتوم وسيطرته باتت محتومة.

وإن مساعي الكنائس الأوروبية كلها والكنيسة البابوية نفسها في إبعاد نور الإسلام عن أوروبا لن ينجح في تحقيق أية خطوات في هذا الاتجاه. فالغربي لم يعد يثق بكنيسته ولا بخطابها الديني. خاصة وإنّ كنيسته الغربية قد تخلّت عنه منذ قرون. لقد افتقد الغربيون الحوار مع كنائسهم. وبات من المستحيل إعادتهم إلى صفوفها.

الفاتيكان تواجه مشروع أسلمة أوروبا

بات مشروع أسلمة أوروبا حقيقة وواقعاً. ومواجهة معلنة. فبعد الصمت المتعمّد والطويل، صدر اعتراف من الفاتيكان بحقيقة وجود هذا المشروع. وبرفض الفاتيكان له، وبسعيها الجادّ لمواجهته. ففي مطلع آب ٢٠٠٧ قال السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان: "إن أوروبا لا ينبغي أن تتجاهل المحاولات الرامية لإدخال القيم الإسلامية إلى الغرب لأن من شأن ذلك تهديد هوية القارة. وينبغي رفض محاولات أسلمة أوروبا"، غير أنه لم يقدم أمثلة عن حالات معينة ولم يدخل في التفاصيل. وإن هذه التصريحات وتوقيتها قد تؤثر سلباً على دعوات الحوار بين الأديان، الذي يتوجب على الفاتيكان تبنيه والعمل فيه.

وإن التدخل الكنيسي الغربي على مستوى الفاتيكان نفسه يدلّ على وجود صراع خفّي مازال مكبوتاً وهو صراع كنسي مسيحي وإسلامي متشدد على امتلاك أوروبا. كما ويشير هذا التدخل إلى قلق الكنيسة الغربية المرتبط بعقدة

الأنـدلس القـديم والخـشية مـن عـودة الماضـي الأندلـسي الإسـلامي. والكنيـسة الفاتيكانية تنذر وتهدد وتشير إلى عدم بقائها محايدة عن التمدد الإسلامي الجديد.

أوروبا مستعمرة إسلامية منذ الآن

كتاب "أمريكا بمفردها" والذي صدر مؤخّراً لمارك شتاين. يتناول باستفاضة ما يُطلق عليه شتاين "القوى الكبرى الناشطة في العالم المتقدم والتي تركت أوروبا ضعيفة جداً" إلى الدرجة التي تعجز فيها عن مقاومة تحولها الذي لا يلين ولا يضعف إلى يورابيا. وهو يعتقد بأن أوروبا ستكون إسلامية لامحالة، وأنها لن تكون في المستقبل إلا مستعمرة للمسلمين. وانطلاقاً من تلك الرؤية فهو يذهب في نصح الأوروبيين والأمريكيين.ويقول: "إن سكان أوروبا القادمين هم بالفعل قد استقروا فوق الأرض الأوروبية " والسؤال الوحيد هو عن درجة دموية وعنف الكيفية التي سوف يكون عليها انتقال ملكية الأرض والثروة إلى المسلمين." وهو يفسر تفجيرات مدريد ولندن واغتيال ثيو فان كوخ في أمستردام بوصفها طلقات تدشين بداية الحرب الأهلية الأوروبية، ويقول: "إن أوروبا مُستعمرة منذ الآن." ويشير عنوان الكتاب "أمريكا بمفردها" إلى توقع أن الولايات المتحدة بخصائصها السكانية سوف تكون الناجي الوحيد من هذه البوتقة ومن هذا الاختبار القاسي.

وإن أوروبا ستموت بينما أمريكا لاتموت لذلك "فالقارة الأوروبية مباحة ومتاحة لكل من يودّ امتلاكها والسيادة عليها وهو الأمر الذي لا ينطبق على الولايات المتحدة.

وإن الجمهور الذي يتوجه إليه شتاين هو في المقام الأول الجمهور الأمريكي، إذ يقول للأمريكيين: انتبهوا، وإلا سوف يقع عليكم نفس الشيء.

اقتراحات شتاين للأوروبيين

يوصي شتاين بإجراءات كثيرة تمنع على حدّ قوله التمدد الإسلامي السريع في أوروبا. سنفصّل توصياته والنتائج المحتملة منها. وسنكتشف أنه هو نفسه يعتبر تلك التوصيات احتمالات مرغم الغرب على العمل بها، وسيكتشف شتاين أن الغرب وبعد العمل بها سيفشل في وقف الامتداد الإسلامي وسيضّطر لأن يقبل الإسلام كدين لمجتمعاته وستنفصل أوروبا عن السياسة الأمريكية وعندئذ تبقى أمريكا وحدها صامدة في وجه الأيديولوجيات الإسلامية.

أميريكا وحدها

يتنبأ شتاين بفشل كل تك الإجراءات الغربية الرامية لمنع أسلمة أوروبا. ويرى أن الفكر الإسلامي سيسيطر على أوروبا ويفصلها عن التبعية للأمريكيين. ويقول: عندها فقط "يستطيع الأمريكيون تجميع الإرادة الكافية لتشكيل جزء واحد على الأقل من العالم الجديد، وسوف تكون معهم صحبة ورفقة كافية للمضي قدماً في عزم وتصميم". ولو فشل الأمريكيون في ذلك فيتوقع شتاين العودة إلى عصور الظلام على حدّ قوله "عصور ظلام جديدة. وكوكب تتم إعادة الجزء الكبير من خارطته إلى العصور البدائية.

اقتراح إيقاف العمل بأنظمة الرعاية

يقترح شتاين التوقف عن "أنظمة الرعاية والمساعدة الاجتماعية التي تضخمت دون مبرر" والإعلان بأنها تمثل تهديداً للأمن القومي، والتقليص من حجم ومسئوليات الدولة، والتأكيد على فضيلة الاعتماد على الذات والإبداع والابتكار الفردي. فقد لمس الغرب استفادة الجالية الإسلامية الغربية من هذه الأنظمة. وهم لايستطيعون الفصل بين مواطنيهم (مسلم ومسيحي) ولايقدر أي قانون أوروبي على تخصيص المساعدات الاجتماعية للمسيحيين ومنعها عن المسلمين. ولذلك يقترح شتاين التوقف عن العمل بها كليّاً، وهذا غير ممكن أيضاً، مما يجعل اقتراحه غير قابل للتنفيذ.

استقلال القرار الأوروبي

يقترح شتاين على الأوروبيين التوقف عن "سياسة الانكماش الإمبريالي أو الاستعماري" والتوقف عن "الاحتماء الأوروبي الذليل خلف أمريكا القوية". وهو يعبّر بذلك عن الرفض الجماهيري الأوروبي لتبعية حكومات بلدانهم للسياسة الأمريكية الإستعمارية.

فهذه التبعية تؤجج حقد المسلمين على السياسات الأوروبية، وتحتم المواجهة وتكثر من أعمال العنف الإرهابي الموجّه ضد أوروبا.

والحقيقة أنّ إيقاف التبعية الأوروبية للأمريكيين يقلل من تلك المواجهة مع الإسلاميين لكنه لايمكن أن يقلل من انتشار الإسلام نفسه في أوروبا بل يمكن أن يزيد من سرعة انتشاره. إذ أنّ المصالحة الجماهيرية بين المسيحيين الأوروبيين والمسلمين عموماً تزيد من تقبّل اعتناق الفكر الإسلامي.

وعندئذ تصبح المساعي التي كان هدفها وقف التمدد الإسلامي عاملاً قوياً في انتشاره، وتؤدي عكس الغرض المراد منها. بل وتظهر تخبّط المنظّرين الأوروبيين وعجزهم عن مواجهة الفكر السريع الانتشار.

الهوية الإسلامية لاتسقط

قد تكون الهوية الإسلامية هي الهوية الوحيدة التي لاتسقط عن الفرد حين يحصل على أية هوية أخرى. وهذه الظاهرة تدل على عظمة الإسلام، وعلى قوة نفوذه عند المسلم نفسه.

ان الظواهر العديدة التي شهدتها المسيحية من نشوء كنائس مسيحية صهيونية، وتحول مسيحيين بأعداد كبيرة إليها، هذه الظاهرة لايمكن أن تحصل عند المسلمين. وإن ظاهرة التخلي عن الهوية الدينية كلها، تلك التي تحدث عند أتباع بعض الديانات لايمكن أن تحدث عند المسلمين أيضاً. فالمسلم يختلف عن غيره من

شعوب العالم كله بأنه محافظ على انتمائه الدائم للإسلام. لكن هذا الانتماء لايعني تطرفه للإسلام. ولايعني بنفس الوقت تطرفه ضد الغرب.

يستخدم الغرب مصطلحات كثيرة تهدف في حقيقتها لتغيير الهوية الإسلامية لمسلميه. ومن هذه المصطلحات قوله " دمج المسلمين ، التعايش السلمي مع المسلمين الغربيين ، تثقيف المسلمين " وهذه المشاريع تحمل أسماء مغايرة لمضمونها ، ولا يخفى سرّها على أحد. ولمّا كان همّ الغرب هو تثقيف المسلمين كما يدّعي نجده لايقدر اليوم على إيقاف موجة الأسلمة في مجتمعاته المسيحية. ويصبح عاجزاً عن تثقيف هؤلاء المسلمين الجدد.

انقراض أوروبا الحالية

"مارك شتاين" في كتابه "أمريكا وحدها: نهاية العالم كما نعرفه" يذهب في تحليلاته أبعد من ذلك ويؤكد أن جزءاً كبيراً من العالم الغربي "لن يتمكن من الاستمرار إلى آخر القرن الواحد والعشرين، وأن جزءاً كبيراً منه بما في ذلك أغلب الدول الأوروبية سوف تنقرض خلال جيلنا الحالي".

وهناك ثلاثة عوامل ستساعد على تعاظم نفوذ الإسلام وهي: الإيمان الإسلامي المميّز، والديموغرافيا البشرية في أوروبا. والتراث الثقافي الأوروبي المهدد بالزوال. وتؤكد هذه العوامل (حسب شتاين) أن أوروبا آخذة في التأسلم لامحالة.وبتأسلمها تكون أوروبا بشكلها الحالي قد انقرضت وسنرى أوروبا أخرى بتقسيماتها وشعوبها وسياستها وثقافتها.

أوروبا في حكم المنتهية

كتب مارك شتاين، كتاباً هاماً بعنوان: "أمريكا تقف بمفردها: نهاية العالم كما نعرفه" ويجمع شتاين بأسلوبه بين العديد من الفضائل والمزايا التي من النادر أن توجد معاً. والتي يطبقها على ما يدّعي البعض بأنها أهم قضايا عصرنا وأكثرها

تأثيراً على المستقبل. ويعتبر الكاتب أنّ أوروبا هي في حكم المنتهية منذ الآن. وأن لاأمل من استعادتها. فأوروبا للمسلمين لامحالة، ولن تفلح أية إجراءات في تخليصها من ذلك المستقبل.

اغتراب المسلمين الأوروبيين

روبرت لايكن، الخبير في شؤون الهجرة والأمن الوطني، وفي مؤلفه "حملة الجهاد الكوني: الهجرة والأمن القومي بعد ١١ أيلول" يقول:

أعمال العنف ضد الغرب "نفّذت بطريقتين من الهجمات الإرهابية: الخلايا النائمة والفرق الضاربة"

الفرق الضارية تتشكل من أجانب يدخلون البلاد وفقاً لمهمة محددة، مثل ما حصل في ١١ أيلول حين جاء الخاطفون (للطائرات) من الخارج. أما الخلايا النائمة فتتشكل من عناصر متمركزة في مجتمعات المهاجرين. ويقول رئيس الاستخبارات الفرنسية بياردي بوسك: إنهم "لا يثيرون الشبهات أو الشكوك لأنهم يزاولون أعمالاً يومية (مثل بقية المواطنين)، ولديهم عائلات وأطفال وعناوين ثابتة ويدفعون ايجارات بيوتهم!! أما عناصر الخلايا النائمة، فإنهم إما يدعمون شبكات إرهابية من خلال "الجمعيات الخيرية والمؤسسات والندوات، والمجموعات الأكاديمية، والجمعيات غير الحكومية، والشركات الخاصة" (مثال على ذلك سامي العريان الأستاذ في جامعة فلوريدا الجنوبية) أو يأمرون بشن عمليات إرهابية (مثل المغاربة الذين قتلوا ١٩١ شخصاً في مدريد من شهر آذار الماضي.

إن حياة المسلمين في أوروبا الغربية تختلف عن حياة إخوانهم في أميركا الشمالية. إذ إن المسلمين الأوروبيين شهدت مجتمعاتهم غربة ثقافية وتهميشاً اجتماعياً وبطالة بين الجيل الثاني من المسلمين أدت إلى تشكيل عصابات وموجات من المعاداة للسامية والعنف المناهض لأمريكا، إضافة إلى الأيديولوجيات المتطرفة الغاضبة والإرهاب

مقابل ذلك، فإن مسلمي أميركا الشمالية لا يعانون من أي غربة وليسوا مهمشين ولا يعانون من أوضاع اقتصادية صعبة. لذلك يقول لايكن إنهم لا يميلون كثيراً إلى السلوك الانعزالي (اجتماعياً) و"العنف الإسلامي". أما هؤلاء الذين يدعمون الإرهاب فإنهم عادة لا ينخرطون فيه شخصياً. لذلك فإن أكثر العنف الجهادي في أميركا الشمالية يتم تنفيذه من قبل الفرق الضاربة التي تأتي من الخارج.

خلافاً للتوقعات، فإن هؤلاء (ممن ينتمون إلى الفرق الضاربة) لا يأتون من بلدان مثل سورية والمملكة العربية السعودية ومصر لسبب بسيط، ذلك أن القادمين من هذه البلدان يخضعون لإجراءات أمنية دقيقة وإضافية. كما أن الإرهابيين المسلمين ليسوا أغبياء، إذ إنهم يلاحظون الرقابة المفروضة على هذه البلدان، لذلك فإنهم يقومون بتجنيد مواطنين من ٢٧ دولة أوروبية يستطيع مواطنوها دخول أميركا والبقاء فيها لمدة ٩٠ يوماً من دون تأشيرة دخول.

برغم ذلك، الفرنسيون، مثلاً، يختلفون أيضاً عن بعضهم البعض. إذ إن هناك زكريا الموسوي، وهو مهاجر جزائري، يجذب الانتباه أكثر بكثير من ميشال كريستيان جانتشارسكي، وهو مهاجر بولندي من أصول ألمانية، وهو ما يجعل معتقاً جديداً للإسلام مثله "جهادي" يتمتع بقدرات أكبر (من موسوي) مثل صعوبة اكتشافه. ويقبع الآن جانتشارسكي في سجن فرنسي لاتهامه بلعب دور رئيس في تفجير كنيس يهودي في تونس في نيسان ٢٠٠٢.

إلى حدّ ما، الأمر عينه ينطبق على إسرائيل، إذ إن حزب الله يبذل جهوداً لتجنيد أوروبيين مثل ستيفن سمايرك، وهو معتنق جديد للإسلام والذي قبض عليه قبل أن يمتشق حزاماً ناسفاً.

وقد جندت حماس كلاً من المواطنين البريطانيين آصف محمد حنيف وعمر خان شريف اللذين قتلا ثلاثة أشخاص في حانة في تل أبيب. كذلك فإن هذا النمط ينطبق على استراليا مثل قضية المعتنق الفرنسي للإسلام والمفترض أنه كان سيصبح جهادياً ويلي بريجيت.

إن رؤية لايكن تؤدي إلى الاستنتاجات الآتية:

إن صهر المجتمعات الإسلامية في الغرب أمر حاسم بالنسبة للأمن القومي الغربي على المدى الطويل. وبنفس الوقت فإنه يعتبر مستحيلاً بالنسبة للمسلمين الغربيين وغير الغربيين، وهؤلاء الأخيرون لهم تأثير ونفوذ كبيران على قرار المسلمين الغربيين.

ويرى المراقبون أن التهديد الإسلامي المتطرف لأمريكا بات يأتي من أوروبا. فيطالب هؤلاء حكومات الغرب باتخاذ إجراءات صارمة لمنع تسلله.

أوروبا تجمّد فكر الأوروبيين

يتحدث شتاين عن مشاريع منع الأوروبيين من الأسلمة ويصفها بأنها تجميد لهم. وتصغير لشأنهم وتحقير لإنسانيتهم فيقول: "*إنّ أوروبا الحالية بحكّامها تقوم بعمل منهجي معاد لتحرر الأوروبيين من الظلامية الفكرية التي تمارس عليهم*." والقسم الأول من هؤلاء الأوروبيين هم المسلمون الذين أصبحوا أبناء الغرب شأنهم في ذلك شأن ملايين الأوروبيين المتعددي الأعراق والأجناس. والقسم الثاني من هؤلاء الذين تمارس ضدهم حملة التجميد هم مجموع الأوروبيين المتعددي الأصول. وتقوم الماكينة الحاكمة في الغرب بمنع وصول الإسلام إلى هؤلاء جميعاً.وتستخدم لأجل ذلك المنع كافة الطرق الممكنة بما فيها الطرق والأساليب القذرة واللاإنسانية.

أوروبا الضعيفة

يعترف شتاين بضعف أوروبا في هذه المرحلة الزمنية ويقول:

" لأن المسلمين قد أتوا إلى أوروبا في وقت تتصف فيه بالضعف السياسي والثقافي لذلك نراهم يغيّرون أوروبا تغييراً عميقاً وكبيراً". ويكتشف شتاين حيوية المسلمين ونشاطهم المفعم. وقدرتهم على التثقف وأداء الأعمال الموكلة إليهم. فيقول: "الإسلام يمتلك الشباب والإرادة بينما أوروبا تمتلك كبار السن والرفاهية والرخاء." والحقيقة فإن أوروبا اليوم ضعيفة في قدرتها على اعتناق المسيحية نفسها والالتزام بتعاليمها.

وضعيفة في إيجاد مناهج فكرية مقنعة تطرحها على أفرادها وتتبناها كأسس بديلة عن الإسلام أو عن أي فكر ديني آخر. فقد جرّب الأوروبي مناهج الاشتراكية والشيوعية والماركسية والوجودية واليهودية. وانتهج الأوروبي أيضاً اللين والتأنث والإباحية والتمرد والرخاء ومارس القتل والإبادة والوحشية والعنف والحقد والعنصرية. وهذه كلها عناصر ضعف لأوروبا والأوروبيين. وفي المرحلة الأخيرة من مسيرة المجتمع الغربي لابدّ له من الاعتراف بأخطائه وهذا مايحدث اليوم بالفعل. إذ يقوم كلّ فرد بتحليل الحالة الغربية بمفرده. ومن ذلك بدأ البعض ينتهج الإسلام كحل أخير لكافة الأزمات.

اختفاء جزء من أوروبا

يتبأ شتاين وبطريقة مباشرة بأن جزءاً كبيراً من العالم الغربي *"سوف يعجز عن البقاء في القرن الحادي والعشرين، وأننا سوف نشهد في سنوات حياتنا انهيار واختفاء جزء كبير منه بالفعل، وسوف يشمل ذلك العديد إن لم يكن معظم البلدان الأوروبية."* ويُضيف وبصورة أكثر درامية ويقول:

"إنها نهاية العالم كما نعرفه." ويقول بأن مايسميه إسلام ماقبل الحداثة سيهزم مايسميه مسيحية مابعد الحداثة.

وإنّ مايعتبره شتاين مسيحية مابعد الحداثة ليس في حقيقته سوى ابتعاد عن المسيحية وعن الطابع الديني المسيحي كله. فالمسيحية الغربية بأشكالها المتعددة ليست سوى مستحدثات وثنية وتدميرية. بل إنها هي التي أوصلت الفرد الأوروبي إلى الطريق المسدود الذي يتعثّر به أبناء الغرب اليوم.

تحييد دور المواطن الأوروبي

اختفاء جزء من أوروبا يعني في الغرب اليوم سيطرة الإسلاميين المقبلة على الجزء الأوروبي الذي سيختفي من الهوية الغربية. فالغرب شديد القلق اليوم من ظاهرة أسلمة الشباب الأوروبي وتعاطف هؤلاء المسلمين الجدد مع القضايا العربية والإسلامية بل وعملهم المعلن ضد القضايا الأوروبية العنصرية. فالأسلمة تعني العدالة ومناصرة المظلوم وتعني قول كلمة الحق وتعني الدفاع عن القضايا الإسلامية ومن هنا يصبح المسلمون الجدد أعداء لسياسة أوروبا ولغزواتها ضد البلدان الإسلامية ولدعمها المعلن لدولة الكيان الصهيوني العنصري. يعرض الباحث شتاين أطروحة جريئة صادمة ويعود لتسلسل التاريخ الأوروبي منذ عصر الأنظمة الشمولية إذ يستهل بالحديث عن إرث نظامين شموليين. فتحت تأثير الصدمة من الجاذبية الانتخابية للفاشية، تم تشييد الدول الأوروبية فيما بعد الحرب العالمية الثانية بطريقة أو أسلوب يبدأ من القمة ثم يتجه إلى القاع، "حتى يتم عزل الطبقة السياسية بصورة كاملة عن الضغوط الشعبية وضغوط العامة." ترتب على ذلك أن المؤسسة السياسية أصبحت تنظر إلى الناخبين بوصفهم أطفالاً وهو بذلك يتجرأ على انتقاد الانتخابات التي تجري في الدول الأوروبية والتي تصنّف بالديمقراطية. فهو يعتبرها منافية للديمقراطية، ثم ينتقد زيف الغرب وخداعه للمواطنين الغربيين طوال عقود مضت، ويدعو المواطن الغربي إلى مايسميه الاستيقاظ من غفوته ومن تضليل السياسيين له.

وإن مثل هذه الانتقادات الجريئة الجديدة بدأت تنتشر في الغرب كله، ولن تتوقف بعد اليوم. فالمواطن الغربي يشعر اليوم بأنه في موقع الخطر فإما أن يخضع لسياسة الحكومات والمضي في طريق التضليل الذي يمارس عليه أو أن ينقذ نفسه من خطر رهيب قادم يتمثل بالصراع مع الأصولية الإسلامية. لقد فتح التطرف الإسلامي وأعمال الهجومية في الغرب فتح أبواب نقاش كثيرة وكبيرة ولن تغلق هذه الأبواب قبل أن يحدث شيء جديد في الغرب.

الرفاهية وتأنيث المواطن الأوروبي

أدت السياسة الغربية المالية إلى الانتصار على الكتلة الشرقية بحلول عام ١٩٩١، لكنها أدت إلى نتيجة جانبية غير مقصودة وأقل نفعاً هي تحرير وضخ الأموال الأوروبية من أجل بناء دولة الرخاء والرفاهية. وكان لدولة الرخاء والرفاهية العديد من النتائج السيئة والضارة. وقامت الدولة المُربية بتدليل الأوروبيين ومعاملتهم كأطفال، وجعلهم ينشغلون بأمور وقضايا كاذبة مثل تغير المناخ، والحذر من انفلونزا الطيور. وثقب الأوزون، وبنفس الوقت كانت الحكومات تعمل على إكساب الذكور خصائص أنثوية. وقامت أيضاً بتحييدهم، حيث قامت بالاستيلاء على "معظم الوظائف الجوهرية الأساسية لمرحلة الرشد،" واستهلت ذلك بغريزة التكاثر. منذ حوالي ١٩٨٠، تهاوت معدلات المواليد بحيث أصبح أساس تأمين معاشات العاملين اليوم غير كاف. ولأنها قائمة على سياسة ونظام الدفع عند الشراء، أصبحت في النهاية تمارس عملية احتيال ونصب تتم عبر الأجيال، حيث يعتمد العاملون اليوم على أطفالهم وأبنائهم للحصول على معاشاتهم، وأدى هذا الانهيار السكاني إلى أن الشعوب أو السكان الأصليين لبلدان مثل روسيا وإيطاليا وأسبانيا هي على حافة هاوية الموت السكاني. وأدت دولة الرفاهية والرخاء إلى انهيار في الثقة الذي بدوره خلق حالة من "الإجهاد الحضاري" الذي ترك الأوروبيين في حالة من عدم الاستعداد للقتال من أجل أنفسهم ومن أجل حضارتهم ومن أجل مصالحهم. ومن أجل الحفاظ على دوران الماكينة الاقتصادية كان الحل هو قبول العمال الأجانب وبدلاً من تنفيذ خطة طويلة المدى تهدف إلى الاستعداد إلى حضور الملايين العديدة من المهاجرين الذين تحتاجهم أوروبا، قامت النخب الأوروبية ورحبت تقريباً بكل طلبات الهجرة المقدّمة إليها، وأرغمت نفسها على تقبل المهاجرين المسلمين الذين يتكاثرون اليوم بكثرة في الغرب ويتزايد عددهم بسرعة وستصبح أعدادهم في العقود القادمة مؤهلة للاستيلاء على القرار الأوروبي على أقل تقدير. ومقارنة مع برامج تأنيث المواطن الأوروبي وإشباع بطنه يصبح المسلمون الغربيون اليوم أجدر في المواجهة داخل الشوارع من مواطنين غربيين ضعفاء.

كما يتم إشغال المواطن الأوروبي عادة بمشاكل نجدها نحن العرب صغيرة جداً. ويقال هناك بأنها مشاكل إنسانية عظيمة وتهم المجتمع والبشرية كلها. كأن تنشغل بريطانيا كلها لعدة أسابيع باختفاء فتاة ما.!.. ونحن بدورنا نعظّم مثل هذه الحوادث ونحزن لاختفاء فتاة أو مقتلها أو لاغتصاب فتاة مثلاً. لكن أمام الأحداث العظيمة والسياسات المروعة التي تستعدي بلداننا وشعوبنا وأمام مشاهد مقتل الأبرياء بالمئات في البلدان الإسلامية يتعين علينا ألاّ نشغل عقولنا على الدوام بمشاكل صغيرة كتلك. ولدى الأوروبي واجبات كبيرة جداً للتعرف على أعمال جنود الغرب خارج الغرب وعلى سياسات حكّام الغرب على حقائقها. ومن هنا يتم إلهاء الغربي وإشغاله بمشاكل صغيرة ليبتعد بواسطتها عن معرفة الكبيرة. وبهذه الخدع يتم تأنيث الغربي وترفيهه وإبعاده عن ساحة مايجري في السياسة. فالأحداث الصغيرة تملأ عادة عناوين الصحف الغربية. ويصبح الخبر المتعلق باختفاء الفتاة أهم مما يقوله بوش وساركوزي وبوتين. والغربي يقرأ مقابلة مع شقيقة الفتاة المختفية ولايقرأ في الصحيفة نفسها لقاء مع سياسي عالمي.

الإسلام هو المورد الأساسي للأوروبيين

بعدماتم تسطيح العقل الغربي وتأنيث الرجل الأوروبي وبالتالي منعه من التعرف على حقائق عالمية وكونية كبيرة، كان لابدّ للغربي من الصحوة الحقيقية. هذه الصحوة بدأت بالفعل في العالم كله. وهي هناك أشد من حالتها هنا. فالغربي كان في نوم عميق طوال قرون. وقد جرى تنويمه وغسل دماغه وإرعابه وتحذيره من الاطلاع على كل جديد. فقد اعتدنا جميعاً أن نسمع من الأوروبي عبارة هذا لايعنيني. فالغربي المهندس لايعرف عادة إلا الهندسة. ولايعرف ولايريد أن يتعرف على شيء في الطب أو المطبخ أو الزراعة أو الفكر على عكس مواطننا الذي يخبر شؤون الحياة والعلوم ويهتم عادة بكل جديد. فبعد نوم الأوروبي اضطر اليوم لأن يصحو ويفكر، وساهم في إنقاذه والحق يقال خطابات الجماعات الإسلامية الموجهة للغربيين وللعالم كله. هذه الخطابات جعلت الغربي يتساءل عن مكانه ومكان

أعدائه ومكان حكومات الغرب وعن السياسات وعن الدعم الغربي للصهيونية وكل ذلك انصبّ في سعيه للتعرف على الإسلام هذا الذي كان محظوراً عليه طوال قرون. فهذا التعرّف على الآخر الإسلامي (أو العدو حسب بعض الأوروبيين) سيعدي الأوروبي نفسه بنعمة الإسلام.

إذا أراد الغربي الخروج من أزماته الدينية والفكرية والاجتماعية والدخول في حل جديد وواسع وشامل يقضي على كافة مشاكله ويدخله عالماً إيمانياً فسيحاً خالياً من العقبات فإنه سيختار الإسلام فحسب. وليس أمامه إلاّ الإسلام. وإنّ أوروبا كلها بكنائسها وسياسييها ومفكريها تدرك هذه الحقيقة. فقد أصبح الإسلام هو المورد الوحيد للأوروبيين. وفي كلّ يوم يتأكد لأبناء أوروبا أهمية هذا المورد الإيماني الوحيد وضرورة الاعتماد عليه.

يكتب شتاين:"إن الإسلام الآن هو المورد الأول والأساسي للأوروبيين الجدد" وذلك بفضل القرب الجغرافي للبلدان الإسلامية من أوروبا وسعي سكان تلك البلدان إلى الخروج من بيئة مثقلة بالأزمات ومتهيئة للمزيد منها."

لقد خاض الأوروبيون تجارب فكرية وفلسفية كثيرة. واعتنقوا مبادىء وقيم وعقائد كثيرة أيضاً. وقد أوصلتهم تلك التجارب إلى الطرق المسدودة والآلام والأمراض والعقد.

وأدركوا حقيقة أنّ الإسلام هو المخلّص الوحيد من تلك المشكلات الكثيرة. وباتوا على علم بأنّ الإسلام يسمو عن التخاريف الكثيرة التي تمت تجربتها. ولم يبق بينهم وبين اعتناق الإسلام إلا اتخاذ القرار الفردي لكل شخص منهم. والحقيقة أن مجتمعنا العربي خاض مثل تلك التجارب الغربية وتوصل إلى نتائج مشابهة. فأين الشيوعية والماركسية العربية التي شاعت في الستينات والسبعينات؟ وأين ظاهرة الهيبز والإغتراب والوجودية والسوريالية العربية؟

الإيمان المسيحي والإيمان الإسلامي

عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله فإنهم لايؤمنون بلا شيء بل يؤمنون بأيّ شيء.

علينا أن نميّز في الحكم على ظاهرة الإيمان المسيحي بين مسيحيي الغرب الذين خلت قلوب أكثرهم من الإيمان، ومسيحيي العرب ومن في حكمهم، فهؤلاء مازالوا محافظين على الإيمان وملتزمين بعقائد وعبادات وتقى وتحريم.

هناك عَلمانية قصوى تهيمن في أوروبا، خصوصاً بين نخبها، لدرجة أن المسيحيين المؤمنين يُعتبرون في نظر المراقبين والأفراد مختلين عقلياً وغير قادرين على الاضطلاع بمسؤوليات الشأن العام. ولقد تم في سنة ٢٠٠٥ منع "روكو بوتيغليون"، وهو سياسي متميز، من تولي منصب عضو في اللجنة الأوروبية عن إيطاليا بسبب آرائه المتحفظة حول المثلية الجنسية. وإن هناك تصاعداً لعَلمانية صارمة معادية للمسيحية بالتوازي مع تزايد فراغ الكنائس: ففي لندن يقدر الباحثون أن المساجد تستقبل يوم الجمعة من المسلمين أكثر مما تستقبل الكنائس من المسيحيين يوم الأحد" على الرغم من كون المدينة تضم من المسيحيين أكثر بسبع مرات مما تضم من المسلمين.

وإنه بقدر ما تبدو المسيحية أكثر شحوبا وامتقاعا" بقدر ما يبدو الإسلام أكثر جاذبية وإقناعاً - ولقد أعطى الأمير شارل مثالاً معبراً عن الجاذبية التي يمارسها الإسلام على العديد من الأوروبيين. ومن المحتمل أن تشهد أوروبا عدداً كبيراً من حالات اعتناق الأوروبيين للإسلام في المستقبل" ذلك لأنه، كما تؤكد هذه المقولة المنسوبة إلى "ج.ك.شيستيرتون":"عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله" فإنهم لا يؤمنون بلاشيء، بل يؤمنون بأي شيء "

الإيمان الأمريكي والعلمانية الغربية

الخطاب الأمريكي الرسمي يطلق على أنه الإيمانية المسيحية عادة. وهو في حقيقته بعيد كلياً عن الإيمانية المسيحية إذ يختلط بالعقائد الصهيونية اليهودية. كما يظهر الخطاب الحكومي الأمريكي صراحة في الكثير من الأحيان جوانب صهيونيته العقيدية.

يعتبر الأمريكيون أن العلمانية الغربية قد تطرّفت كثيراً عن الخطاب الديني المسيحي. ففي التصريحات الأكثر شهرة للرؤساء الأمريكيين تتضمن تقريباً دائماً مقاطع من الإنجيل. ففي فبراير ٢٠٠٣ حين انفجار المكوك الفضائي كولومبيا. فلو أن المكوك كان فرنسياً وليس أمريكياً ، ولو كان على الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" أن يدلي حينها بتصريح في الموضوع لكان ربما لجأ إلى المقارنة مع شعراء البليّاد السبعة . أما الرئيس الأمريكي فعندما تدخل في إطار مراسم ابتدأت وانتهت بمقاطع بالعبرية الإنجيلية ، فقد تصرف بشكل مختلف. لقد فتح كتابه في صفحة عيسى" المقطع ٢٦٤٠ وقرأ نصوصاً دينية. وإن التمسك الظاهر بالدين عند الأمريكيين لايدل بتاتاً على عمق إيمانهم. فإن إيمانهم سياسي أكثر مما هو ديني. وهم بالطبع يخلطون بين المسيحية واليهودية لتصبح يهودية عنصرية متعصبة تتجاوب مع سياسات الولايات المتحدة وغطرستها. ولم يكن في القارة الجديدة دين سماوي عند اكتشافها.وظلّت عقوداً طويلة بدون هوية دينية. وقد تم نقل المسيحية إليها عن طريق أوروبا. فعند قيام الولايات المتحدة أعلن بأن دين الدولة هو المسيحية. وكثرت هجرة اليهود إليها مما مكّنهم من فرض عقائدهم الدينية هناك. فنتجت عن ذلك مسيحية صهيونية. وينتقد بابا الفاتيكان بين الفترة والأخرى قادة وحكام الدول الغربية ويتهمهم بالابتعاد عن المسيحية. كما ويدعوهم للتمسك بقيم المسيحية التي يعتقد هو بها ، وقد طالب البابا أن تظلّ أوروبا مسرحاً للمسيحية وأن لايسمح بإدخال تركيا الإسلامية في الاتحاد الأوروبي الذي يعتبره فضاء مسيحياً. ويأتي هذا الحرص من ضمن الإجراءات الغربية التي تحاول إيقاف المدّ الإسلامي والغليان الإسلامي داخل الساحة الأوروبية المسيحية.

الإنحدار الديمغرافي الأوروبي

تشير العديد من الاحصائيات إلى ظاهرة تسمى موت اليهود، وتدلّ هذه التسمية على التناقص المستمر ليهود العالم ويتنبأ الباحثون الديمغرافيون اليهود وغيرهم بانقراض اليهود في نهاية هذا القرن تقريباً.

وبالنسبة للأوروبيين ككل تشير الدراسات الديمغرافية الأوروبية إلى تناقص مستمر في عدد الأوروبيين المسيحيين وتزايد عدد المسلمين هناك.ويطلق البعض على هذه الظاهرة تسمية الانحدار الديمغرافي الذي يشير بدوره إلى أن أوروبا تتأسلم. فالنسبة العامة للخصوبة تتأرجح حول ١,٢٪ لكل امرأة، بينما الحفاظ على شعب ما يقتضي نسبة تفوق قليلا طفلين لكل زوجين أو ٢,١٪ لكل امرأة. والنسبة الحقيقية لا تمثل حالياً إلا ثلثي هذه النسبة المفترضة. إن ثلثاً ضرورياً لا يولد بكل بساطة في أوروبا. ومقابل ذلك انتبه الغرب إلى ارتفاع نسبة الانجاب عند المسلمين الأوروبيين، فقد قال نيكولا ساركوزي في حملته الانتخابية مهاجماً المسلمين وذوي الأصول العربية: إنّ هؤلاء يكثرون الأولاد كالمفارخ بغية الحصول على التعويضات العائلية.

ومن أجل تفادي انهيار ديمغرافي تام، مع كل الشرور التي يستتبعها ذلك وخصوصاً غياب عاملين لتمويل برامج التقاعد السخية فإن أوروبا في حاجة إلى استقطاب مهاجرين جدد، وإلى عدد كبير جداً من المهاجرين ويجب ألا تقلّ نسبته عن الثلث الذي تفتقده أوروبا بسبب تضاؤل الخصوبة فيها. وهذا الثلث المستورد لن يكون بدون شك إلا من المسلمين في غالبيته، والسبب في ذلك في جزء كبير منه هو أن المسلمين قريبون جداً من أوروبا. وكذلك بسبب أن العلاقات الاستعمارية لا زالت تربط آسيا الجنوبية مع بريطانيا العظمى والدول المغاربية مع فرنسا" كذلك بسبب انتشار العنف والفقر في العالمين العربي والإسلامي الحالي والتي تتسبب في أمواج مهاجرة لا تتوقف.

قدرات العامل الإسلامي

يمتلك الإسلام ديناميكية مؤثرة في السلوك والقيم وبعداً تكوينياً نفسانياً في المجتمعات الإسلامية، وكانت الخصوصية الدينية العامل الأساسي في تحفيز وانطلاق حركات التحرر من الاستعمار الغربي السابق. وقد شهدت السبعينات موجة عودة فكرية وثقافية، وموجة إحياء ديني إسلامي في العالم كله.

وشهدت تراجعاً للأفكار والتنظيمات القومية والاشتراكية، وبدأت مرحلة إعادة صياغة للمجتمعات والعلاقات يمثل الإسلام مكوّناً مهماً فيها، وتطوّر الإسلاميون فأصبحت لهم دولة إسلامية في إيران، وحازوا على مقاعد نيابية وبلدية في مصر والأردن وغيرها. ثم استطاعوا أن يرأسوا الحكومة في تركيا. وقد يستطيعون التوصل إلى رئاسة الجمهورية فيها. وفي فلسطين المحتلة، فازوا بالانتخابات ورئسوا الحكومة. وفي لبنان قاموا بشنّ حرب عظيمة وانتصروا فيها على الصهاينة الغزاة.

وعلى الصعيد الدولي، تم إنشاء منظمات إسلامية كبيرة مثل المؤتمر الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية، واتحاد الإذاعات الإسلامية وغيرها، كما نشط الأفراد في تأسيس أعمال إسلامية عالمية كالبنوك الإسلامية والفضائيات الإسلامية، وانتشرت الأنشودة الإسلامية، والمسرحيات الإسلامية للأطفال.

لقد أثبت المسلمون قدرتهم عبر التاريخ على توظيف كافة القوى البشرية الموجودة في البلد الإسلامي. ولم يتم توظيف القوى الإسلامية فحسب بل القوى والقدرات المسيحية واليهودية المقيمة داخل المجتمع الإسلامي، فلم يعرف اليهود طوال مسيرة تاريخهم الطويل أفضل من المجتمع الإسلامي الذي احتواهم وحافظ على كيانهم واستفاد من تسخير طاقاتهم، فأصبحوا التجار الأثرياء في كافة البلدان الإسلامية التي أقاموا فيها. يستطيع العالم الإسلامي أن يكون قوة عالمية اقتصادية واستراتيجية دون أن يحتاج إلى موارد وشروط إضافية. فالعالم الإسلامي يمتلك كافة شروط النهضة والوحدة والسيادة. وإنّ كلّ مايحتاجه هو التوظيف الصحيح لكافة الموارد والقوى والإمكانيات المتوفرة فيه.

ومن هنا تبرز ضرورة تخلّي الحركات الإسلامية عن العنف الموجّه ضد الغرب. والذي لم يكن الوسيلة الفعالة في تطوير البلدان الإسلامية بل هو الوسيلة المدمرة للاحتمال والنهوض.

ويقدم الإسلام رصيداً معنوياً كبيراً يجمع المسلمين ويوحدهم ويحفزهم ويمدهم بثقافة محركة للعمل والتعليم. وستكون نهضة العالم الإسلامي سريعة لا تحتاج إلى زمن طويل بسبب توافر المؤهلات والشروط اللازمة، ولكن المشكلة ستبقى في الإرادة الفعلية والأداء الحقيقي المفيد، والرغبة في التخلص من الهيمنة الاستعمارية. وفي مشروع النهضة المطلوب تصبح التعددية العرقية والمذهبية والدينية عاملاً ايجابياً في مجتمعاتنا، فالصحوة الإسلامية بحاجة للمسلم الأمريكي والماليزي والهندي والأفريقي، وكذلك وداخل المجتمعات العربية الإسلامية هي بحاجة للمسلم الشيعي والسني وللمنتمين للقوميات غير العربية كالأكراد والشركس والتركمان. ويتعين على مشروع النهضة الإسلامية أن يضم كافة جهود المسيحية العربية إلى صفّه ويسعى لتمييزها عن المسيحية الغربية بطوائفها المتنوعة. وفي هذا السياق النهضوي المرجو تصبح ولاشك كافة الأحزاب العلمانية العاملة داخل المجتمعات الإسلامية جزءاً لايتجزأ من العمل الإسلامي نفسه.

الرابطة الأورومتوسطية

الرابطة الأورومتوسطية هي رابطة قوية وحقيقية وتتحكّم بالعلاقات بين الحكومات الأوروبية من ناحية وحكومات المنطقة العربية الإسلامية من ناحية أخرى كما أنها تشكّل عاملاً في التقريب بين الشعبين وامتزاجهما. وهذه العلاقة تأسست بقوة في فترة الانتداب الأوروبي لبعض الدول العربية، وهي التي تتحكم اليوم بزيادة الهجرة العربية الإسلامية إلى أوروبا، وقد تحدّث عنها جاك شيراك عدة مرات وعمل على توسيع نفوذ هذه العلاقة ورأى أن أوروبا والمنطقة العربية تمتلكان حاجة واحدة مشتركة وهي التفاعل الأورومتوسطي. وأثناء حملته الانتخابية رأى نيكولا ساركوزي في مطلع أيار ٢٠٠٧ أن العلاقة الأوروبية مع تركيا الإسلامية لن

تكون ضمن الاتحاد الأوروبي بل ضمن تطوير العلاقات الأورومتوسطية.وهو بذلك يعترف بحتمية الرابطة الأورومتوسطية ويسعى لإبعاد تركيا الإسلامية عن الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، نظراً لما يمثّله مسلموها من خطر ديمغرافي على أوروبا، ومما سيؤدي إلى تضاعف كبير ومفاجيء لمواطنيه المسلمين. والرابطة الأورومتوسطية تعني مساهمة أوروبا في التفاعل والتنمية والتطوير لدول المتوسط العربية. وترى بأن تطوير هذه الدول وشعوبها يصبّ في صالح أوروبا الجارة الشمالية للعرب المسلمين. ومهما تعددت التسميات فالغرب مضطّر للتحاور الفعّال والبنّاء مع هذه الدول. وهذا التفاعل يعتبر أحد السبل المؤدية إلى أسلمة أوروبا. ويطرح الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بقوة الرابطة الأورومتوسطية كسبيل للتحالف والحوار بين الشمال المسيحي الغني والجنوب الإسلامي الذي يمتلك الطاقة والمال، ولمّا كانت الأورومتوسطية محاولة للالتفاف على المدّ الإسلامي الذي يهدد أوروبا بهويتها التقليدية فإن هذا الالتفاف سينعكس على أوروبا نفسها وسيكون أحد دعامات المدّ الإسلامي نفسه الذي تسعى أوروبا للتحييده.

الرابطة الأورومتوسطية هي محاولة (لإنقاذ أوروبا من الأسلمة) حسب التعبير الغربي. وحسب مجريات الأمور وتطور الأحداث في المستقبل فسوف تكون وبدون شك، أحد الطرق الموصلة إلى الإسلام.

لقد انفتحت الأبواب في الغرب كله لدخول الإسلام إليه. ولم يعد من الممكن إقفال هذه الأبواب ولا إيقاف موجة الأسلمة الواسعة هذه.

تبدد الإنتماء في الغرب

الاغتراب الحضاري الذي يحسّه العديد من الأوروبيين يعتبر الانطباع الذي لديهم بأن ثقافتهم لا تستأهل الدفاع عنها، بل ولا تستحق حتى الحفاظ عليها. والاختلافات بين الأوروبيين في هذا الصدد واضحة. والبلد الأقل تأثراً بهذا الاستلاب هو فرنسا التي لازالت فيها الروح القومية التقليدية حية والناس لايزالون فخورين بهويتهم الوطنية التي تجمعها وتعززها اللغة الفرنسية، خاصة وأنّ الفرنسية تنتشر في ٥٢ دولة

عالمية تجمعها مع فرنسا رابطة الفرانكوفونية.. بينما بريطانيا العظمى هي البلد الأكثر إصابة بمرض المعضلة القومية ، كما يبين ذلك برنامج الحكومة الذي يحاول برعونة أن يعيد الحياة إلى وطنية البريطانيين عن طريق مصالحتهم مع "كنوزهم القومية" مثل "الدب ويني" و"الميني جيب". ولم تعد اللغة الإنكليزية قادرة على تعزيز الإنتماء القومي لدى البريطانيين. إذ أنّ انتشارها العالمي الكبير جعل منها لغة عالمية ملكاً للبشرية كلها ، وسحب منها هوية الخصوصية البريطانية.

وإنّ غياب الثقة هذا كانت له تداعيات مباشرة بالنسبة للمهاجرين كما يفسر ذلك "آتيش تازير" الذي يقول:

وإن الانتماء إلى الثقافة البريطانية مثلاً هو المظهر الأكثر اسميا بالنسبة للعديد من الشباب الباكستانيين-البريطانيين. وبالنسبة للعديد من هؤلاء فإن الثقافة الصحراوية العربية لها جاذبية أقوى من الثقافة البريطانية أو الأوروبية عموماً. فبشعورهم بأنهم منتزعون انتزاعاً من الشعور بامتلاك هوية دائمة ، فإن باكستانيي الجيل الثاني يجدون هوية جاهزة في رؤية العالمية التي يمثلها الإسلام المتطرف على حدّ قول تازير.

إن المسلمين المهاجرين يحتقرون بعمق الحضارة الغربية ، وبالخصوص فيما يخص الانفلات الجنسي (البورنوغرافيا ، الطلاق المنتشر بكثرة ، المثلية الجنسية). والمسلمون لا يجدون أنفسهم ولا يندمجون في أي مكان بأوروبا ، والزيجات بينهم وبين غيرهم من الأوروبيين تبقى نادرة. وقد أفادت دراسة ميدانية إحصائية قامت بها BBC بأن نسبة ٨٠ ٪ من خطباء المساجد في بريطانيا والذين هم من أصول باكستانية وشرق آسيوية لايجيدون اللغة الإنكليزية وأنهم يؤدّون خطب الجمعة بلغاتهم وبالعربية ويعتقدون بتحريم تعلّم الإنكليزية.

ومن كندا عائلة "خَضر" المعروفة على أنها أول عائلة كندية تعاطت الإرهاب، عادت إلى كندا قادمة من أفغانستان في ٢٠٠٤ وصرّحت بأن معسكرات التدريب التي تديرها "القاعدة" هي أفضل مكان تحلم به لأبنائها. وقالت:"هل تريدونني أن أربي أبنائي في كندا ، حتى يجدوا أنفسهم متعاطين للمخدرات أو مثليين جنسيين في

سن الثانية عشرة؟ هل هذا ما ترون أنه أفضل؟" كان الأوروبيون في القرون السابقة يحتقرون المسلمين بسبب تعدد الزوجات لديهم، وكانت ظاهرة "الحريم" لدى أثرياء المسلمين تبدو لهم على أنها تكشف عن هوس جنسي، وكانوا يشعرون بأنهم متفوقون عليهم أخلاقياً في هذه النقطة بالتحديد، وفي هذا العصر تنعكس المفاهيم. وتصبح مشكلة المسلمين مع الغرب هي الانفلات الجنسي.

أوروبا مفتوحة أمام الإسلام

أوروبا مفتوحة مشرعة أبوابها اليوم أمام المدّ الإسلامي أكثر من أي يوم مضى. وهذا مايقلق حكّام الغرب كلهم. فقد أعلن بابا الفاتيكان قبل أيام من طبع هذا الكتاب بأن الفاتيكان لن يقف مكتوف الأيدي أمام مشروع أسلمة أوروبا.

أدلّة كثيرة تبين أن أوروبا سوف تتأسلم، وأنها سوف تخضع أو تعتنق الإسلام بدون مقاومة ذلك لأن الطبق الإسلامي يتوافق بالكامل مع ماتشتهيه أوروبا، وتتكامل الصورة المشوّهة لأوروبا عند أسلمتها: فضعف التدين لدى أوروبا يعوّضه قوة تدين في الإسلام، والضعف في الاعتزاز بالهوية وبالثقافة لدى الأوروبيين، تقابله قوة انتماء وشعور بالرفعة لدى المسلمين. وأوروبا اليوم باب مفتوح يقتحمه المسلمون بكامل الحرية، هذه هي الحقيقة التي يعبّر عنها الكثيرون اليوم، لكن آخرين يرون عكس ذلك، فالمحلل الأمريكي رالف بيتيرس يستبعد هذا الاحتمال ويرى أن المسلمين سيتعرضون للإبادة في أوروبا قريباً. ولن ننتظر سنوات أخرى لنعرف ماسيحدث، لأن الحقائق شديدة الدلالة والتأكيد على أسلمة أوروبا ولأن لامجال لحدوث إبادة للمسلمين فيها كما يتصوّر البعض.

الغليان الإسلامي في العالم

يكثر الإقبال على الإسلام. نشرت مجلة "المسيحية اليوم" دراسة جاء فيها: إن خلاصة دراسة المشاركين تبين أن الإسلام أسرع انتشاراً من المسيحية في دول الغرب

عموماً، فالإسلام ينتشر بنسبة ١،٩٪ سنوياً، بينما تنتشر المسيحية بنسبة ١،٣٪ في السنة. ويخوض الإنجيليون في هذه الأيام سباقاً محموماً مع دين الإسلام الذي يتزايد معتنقوه الغربيون بالآلاف دون نشاط دعوي كبير للمسلمين، إذ يقوم الإنجيليون بإجراء الدراسات والحسابات والمعادلات لوقف هذا الانتشار والظهور الإسلامي الكبير. وحسب الإحصائيات المنشورة فإنه يعتنق الإسلام سنوياً ما بين ٣٠ ألف و٤٠ ألف فرنسي، و٥٠٠ ألف أميركي منذ تفجيرات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١. كما وينتشر الإسلام في أفريقيا بسرعة أكبر بكثير، وقال الشيخ هارون سينجويا من اتحاد مجلس مسلمي شرق ووسط وجنوب أفريقيا "في أوغندا ينتشر الإسلام بسرعة غير منتظرة. وفي كل دقيقة يأتينا أناس يريدون اعتناق دين الإسلام..." كما وينتشر الإسلام في جنوب أفريقيا بين السود حيث أن نسبة ٨٠٪ من السكان البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة نصارى. وهذا مايقلق المنظمات المسيحية العالمية.حتى أن هذا الانتشار الواسع جعل أحد القساوسة الألمان يقدم على الانتحار مخافة من امتداد الإسلام. وفي ألمانيا يتزايد الإقبال على اعتناق الإسلام فحسب الأرقام الرسمية الألمانية، فإن ألف مسيحي ألماني اعتنقوا الإسلام في العام ٢٠٠٥، وارتفعت النسبة كثيراً في العام ٢٠٠٦ فبلغ عددهم ٣٠٠٠ ألماني. أي مايعادل تسعة حالات دخول في الإسلام يومياً في ألمانيا وحدها.ويذكر أن بعضهم تعرّف على الإسلام بدون مساعدة أي مسلم وقسماً آخر استفادوا من حوارات الكترونية مع مسلمين. ومما لاشك فيه أن خوض المسلم في مجال الدعوة للإسلام والتعريف به والتقرب من الغربي المسيحي ومصالحته ومصادقته وكسب ودّه وموقفه. ذلك أفضل بكثير من الخوض في التطرف ونفي الغربي ونفي المسيحي واستعدائه. ففي هذه السنوات تتفتح أمام المسلمين منافذ وآفاق واسعة ومتنوعة، وتوجب عليهم استثمارها.لأنها فرصة تاريخية. وبنفس الوقت فان في الغرب منظمات صهيونية ضاغطة تحارب الإسلام وتحول دون انتشاره. مما يوجب علينا التيقظ والحذر والتصدي لفتنها وأضاليلها.ولن نقدر على القيام بتلك المهام إذا بقينا منشغلين بأتون الطائفية.

أبناء الغرب يهتمون بالإسلام اليوم أكثر منا نحن المسلمين. والأسلمة صارت هناك أشبه (بموضة فكرية) فقد اعتاد الغربي على ظاهرة الموضة التي تتفشى بسرعة كبيرة وتغزو العقول والأفئدة. فمثلما كان الغربي يعتنق السوريالية أو الوجودية ويجعل منها محوراً للفكر والفن والملبس والغناء والسياسة والعقيدة، ومثلما كان يلبس تلك الموضة وتلبسه فإن الإسلام قد أصبح في الغرب اليوم هو الموضة الدارجة والمهمة والحديثة والمعدية إذا صح التعبير.

أسلمة الأوروبي لاتحتاج لجهد كبير

تعريف الأوروبي بالإسلام ودعوته لاعتناقه أمر ليس بالصعب، ولايحتاج لجهد كبير. فالغربي عاقل واع ومناقش بارع، ومفكر حاذق. وهو يعرف مصلحته ويبحث باستمرار عن الحلول الجديدة لمشاكله وآلامه. وعندما يكتشف أنّ الإسلام مفيد له فهو بسهولة يعتنقه ويتبنى قضاياه. والغربي لايخجل من مجتمعه ولا من الأفراد المحيطين به. فهو يمتلك ملء الحرية في اعتناق الفكر الذي يريده لنفسه. وإنّ صفة المجتمع الغربي هذه والتي تمنح الفرد كافة حرياته تسهّل كثيراً انتشار الإسلام في الغرب كله.

ولّما كانت مجتمعاتنا العربية متخلفة ومنغلقة ولّما كان المجتمع الصغير ينشغل طوال أشهر مثلاً بقصة شاب حليق الشعر أو طويل الشعر أو يعتنق مذهباً إسلامياً آخر، فإن عادات مجتمعاتنا تعيق أي تطور فكري عند الفرد. ولهذا السبب تقلّ كثيراً حالات اعتناق مسيحيين للدين الإسلامي في بلداننا. كما تندر حالات انتقال الأفراد المسلمين إلى مذهب إسلامي آخر.

فبرغم أن الدروز مثلاً مسلمون فإنّ داعية مسلماً كبيراً يقدر على دعوة ألف أوروبي مسيحي لاعتناق الإسلام، وبنفس الوقت قد لايقدر على دعوة مسلم درزي واحد للتحول داخل الإسلام إلى المذهب الجعفري أو السنّي مثلاً. وأتينا بهذه المفارقة لنبيّن فحسب مدى سعة قلب الغربي لتقبّل الفكر الجديد. وإنّ كافة الصفات والخصائص التي تميّز الغربي اليوم تجعله جاهزاً ومهيئاً ومؤهلاً لاعتناق الإسلام.

الإسلامية بدأت بمواجهة العلمانية الفرنسية

دخل الإسلام في السنوات الأخيرة في مواجهة حقيقية وجهاً لوجه مع فكر وقيم ومبادىء العلمانية الفرنسية، والتي تعتبر منذ قرون نموذج الفكر السياسي والعلماني اللايكي الذي انتشر من خلال أنظمة الجمهوريات السياسية في دول عالمية كثيرة. فالفرنسيون يقدمون نظامهم الجمهوري العلماني باعتباره النموذج الأمثل في مجال الاجتماع السياسي، لعموم البشرية في مختلف قارات العالم، لما يقوم عليه هذا النظام من أسس حداثية وتنويرية غير مسبوقة على حد اعتقاد مفكريهم. وظلت التجربة الفرنسية وما زالت بالنسبة للكثير من النخب الفكرية والسياسية في العالم كلّه، نموذجاً ملهماً ومثالاً يحتذى.

ورغم ما يطفو اليوم على النموذج الجمهوري اللايكي الفرنسي من أزمات عميقة وأعطاب واسعة فإن الفرنسيين لا يكفّون عن التعلق بالوثوقية والتبشيرية بالحل الجمهوري اللايكي. ومن اللافت للانتباه أن المفكرين الإسلاميين بكل أنواعهم بدأوا في السنوات الأخيرة بحملة انتقادات واسعة تنشر بعدة لغات عالمية لأسس وقيم العلمانية الفرنسية وانطلقت حملة إسلامية تشكك بجدارة وديمقراطية تلك القيم. فمنذ بروز أزمة الحجاب في فرنسا اعتبر الإسلامويون أن خصمهم الحقيقي هو العلمانية الفرنسية التي تسيّر الجمهورية. والحقيقة فإنّ الإسلاميين هم الذين بدأوا بهذه المواجهة الفكرية من جانب واحد.ولم نسمع حتى الآن عن أية ردود فرنسية على تحرشاتهم هذه. وتعتبر هذه المواجهة بحد ذاتها إحدى مراحل وأحد أوجه الصدام المرتقب بين الإسلاميين مع الغرب كله. فالغرب يلمس كلّ يوم اتساع نطاق النقد الذي يوجّهه الإسلاميون له ولقيمه، لكنه غالباً مايصمّ الآذان عن تلقي الانتقادات والرد عليها. وقد جاءت مواجهات الضواحي الفرنسية كأحد أشكال الانتقاد الإسلامي لأسس العلمانية والجمهورية الفرنسية. وكانت تلك أوضح أشكال التمرد والنقد. ومع تعاظم المواجهة الفكرية بين الجانبين خرجت الكنيسة البابوية وأعلنت بوضوح في أول آب ٢٠٠٧ بأن لا مجال للسماح للإسلاميين بتغيير وجه أوروبا المسيحية وبغزوهم الفكري لها.

العلمانية الفرنسية تسلّطية

تتأسس اللايكية الفرنسية على نزعة تدخلية صارمة وثقيلة الوطأة للدولة، وتقوم هذه النزعة التدخلية بدورها على دعامة نظرية مفادها اعتبار الدولة اللايكية ضامنة الوحدة الاجتماعية والسياسية وحارسة الهوية العامة، وذلك بحكم قدرتها "الخارقة" على تجاوز الانقسامات الاجتماعية والقيمية التي تنخر الجسم السياسي، ومن ثم قدرتها الفائقة على التعبير عن المصلحة العامة المتجاوزة للمصالح الجزئية والعينية للأفراد والمجموعات. وتتأسس هذه الفكرة على تقليد أنواري مبكر يشدد على شفافية السياسي وقدرته على بلورة الإرادة الكلية والعامة، أي قدرته على التعبير الوفي عن المصالح الكلية والجامعة التي تشمل مجموع الأفراد والجماعات، وتعود جذور هذه الفكرة إلى القرن الثامن عشر وتحديداً إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو الذي عدّ الدولة بمثابة الإطار المعبر والمجسد للإرادة الكلية للمواطنين. فقد تميزت الحالة الفرنسية بصفة عامة، بما في ذلك زمن الملكية بوجود دولة تدخلية ومركزية، متساندة مع سلطة كنسية شديدة الضبط وبالغة القهر. ومع تراجع دور الكنيسة على ضوء مجمل الصدمات التي تلقتها بعد الثورة، امتصت الدولة الجمهورية اللائكية جل الخصائص الهيكلية والبنيوية للمؤسسة الكنسية الكاثوليكية وافتكت جل الوظائف التي كانت موكولة إليها، بما في ذلك وظيفة فرض الوحدة الاجتماعية والسياسية على مجتمع منقسم على نفسه طائفياً وعرقياً، وإحلال التجانس الثقافي واللغوي. فالدولة عند اللايكيين الفرنسيين ليست مجرد أداة لتنظيم الشأن العام، ولا هي مجرد مؤسسة وظيفية لإدارة حياة الناس وتصريف أحوالهم ومعاشهم، بل هي "صوت الأمة" و"روح" الشعب. وموضع حلول العدالة الكاملة والخير الأعظم، وهذا ما يعطيها مشروعية التدخل على النحو الذي تريد وفي الوقت والموضع الذي تريد لفرض قيمها وتصوراتها الخاصة على الأفراد والجماعات، مفترضاً فيها ان تكون القيم العامة والكلية للمجتمع نفسه، بحيث تتطابق مصالح المجتمع مع مصالح الدولة، وتنصهر الإرادات العينية والجزئية للمواطنين في الإرادة العامة والكلية التي تعبر عنها الدولة اللايكية. ومن الواضح

هنا أن الفكر السياسي الفرنسي يقوم على خيرية الدولة وشفافيتها بما يجعلها جديرة بتجسيد وحماية القيم السياسية النبيلة، وفي مقدمة ذلك قيمتا الحرية والمساواة. وهنا يتساوق الدور التدخلي والإكراهي للدولة الفرنسية على نحو ما تجسد ذلك في تجربتها التاريخية الحية، مع نظرية سياسية متمركزة حول الدولة. وتشتغل اللايكية الفرنسية عبر ذراعين متكاملتين ومتعاضدتين: أولاً عبر آلية الرقابة والضبط العقابي للدولة الجمهورية اللايكية التي تقوم على "حراسة" القيم الجمهورية اللايكية وضبط حدود المباح والممنوع من منظار هذه الدولة. وثانياً عبر أدوات التوجيه الثقافي والأيدولوجي التي تتم بمقتضاها صياغة الشخصية الفردية، وشحن الفضاء العام بالقيم العلمانية. وعلى رأس ذلك مؤسسة المدرسة والترشيد التربوي. ولعل هذا ما يفسر كثرة الضجيج والسجال الذي يثيره الفرنسيون حول دور المدرسة والتعليم بما لا نظير له لدى أمم أخرى في العالم. فاللايكية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة وإنما تراهن على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحل محله "القيم اللايكية الصلبة"، وهنا تحل المدرسة محل الكنيسة في إعادة صياغة الوعي الفردي والجماعي.

وما يجمع هذه الأنماط التسلطية تعلقها المفرط بالدولة والعمل على تغيير شروط الوجود البشري بصورة مثالية وحالمة عن طريق تدخل الفعل السياسي المبرمج والمخطط الذي تحتل فيه الدولة موقع الصدارة والتوجيه. وإن اللايكية الفرنسية ليست مجرد آلية سياسية لمعالجة قضية الانقسام الديني أو الطائفي، بل هي أشبه ما يكون بالعقيدة الشمولية والصارمة التي تراهن على الحلول محل الأديان والعقائد بعد امتصاص الكثير من مظاهرها وتعبيراتها في قالب علماني. ودليل ذلك ما تحاط به اللايكية الفرنسية من تقديس ومحرمات، ما يجعل المرء عرضة للتجريح والإدانة بمجرد الاعتراض على بعض التصورات أو المسلكيات اللايكية، أو مجرد الحديث عن محدودية الحل العلماني. وإن الثقافة السياسية الفرنسية على نحو ما تشكلت في مبدأ اللايكية ومرادفها الجمهورية قامت على نزوعات لا تعرف معاني التوسط والوفاق ومن مظاهر ذلك التعلق بتصورات مثالية للزمن والتاريخ، العمل على صنع

تاريخ ونمط من الاجتماع السياسي مطلق الجدة وفي قطيعة مطلقة مع الماضي، فضلاً عن السعي إلى صنع مفهوم مجرد ومتعال للمواطنة لا علاقة له بالواقع وممكناته الفعلية. وذلك بالإضافة إلى ميل أهل تلك الثورة إلى الحلول الجذرية والقصوى بدل البحث عن الحلول الوفاقية الوسطى. وفعلاً فإن القراءة الثاقبة للتجربة الفرنسية سواء في موطنها الأصلي أو في مختلف البلاد التي امتد إليها نفوذها الاستعماري، تكشف لنا عمّا رافقها من أبعاد تسلطية ثقيلة الوطأة ومن مظاهر التشديد على دور الدولة في إحداث التحولات السياسية والاجتماعية وفي هندسة البنية الاجتماعية السياسية بصورة فوقية ومتعالية عن مشاغل الناس وحاجياتهم. والفرنسي بدأ يحسّ اليوم بهيمنة الحكومة ووطأتها على حريته، ولا يجد سبيلاً لتحرره منها سوى اعتناق أيديولوجية جديدة تتجاوب مع تطلعاته، وكثير من الفرنسيين اكتشفوا في الإسلام المنفذ الوحيد لتحررهم. فالمناخ الفرنسي العام يؤهّل الفرنسيين أيضاً للانضمام إلى قافلة الإسلام.

أسلمة الأوروبي تعني مناصرة العرب والمسلمين

إنّ مايقلق سلطات الغرب من ظاهرة انتشار الأسلمة في مجتمعاتها ليس الإسلام كدين وعقيدة وعبادة وممارسة طقوس فحسب ، بل الإسلام كأيديولوجيا تشمل العدالة والحق ومناصرة الضعيف والمظلوم والدفاع عنه ومعاداة المعتدي. ومن الملاحظ بأنّ الغربي المتأسلم ينقلب ضدّ سياسات الغرب الظالم والمعتدي وحليفته إسرائيل، ويصبح مناصراً للقضية العربية والإسلامية ومدافعاً ضد المظالم التي يرتكبها الغرب القوي بحق الدول الإسلامية التي تمتلك الموارد والمال. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً. فروجيه غارودي الذي اعتنق الإسلام أصبح بعد ذلك معادياً أولاً للصهيونية ولأكاذيبها ولممارساتها. وقد اتجه فكره بالكامل بعد أسلمته للدفاع عن قضايا العرب والمسلمين. فكتب (الأساطير المؤسسة للصهيونية) وكشف فيها عن أكذوبة المحرقة وتلفيقاتها، وعن جرائم الصهيونية الإبادية. ثم كتب ينتقد الغزو الصهيوني للبنان وطالب بتجريم الكيان المعتدي وبتحرير لبنان. ونلاحظ أن الكثير من

الأوروبين الذين يتأسلمون يقيمون فترات زمنية في بلدان إسلامية. وهم بذلك يعلنون عن ولائهم وانتمائهم لهذه البلدان الإسلامية.

والإسلام هو الحق والصدق والعدالة والإنسانية والإخاء والحب والوفاء والأمانة والإسلام هو التوحيد وهو عظمة الكائن البشري بفضل صلته بالله وحده. ومن هنا فإن المسلمين الغربيين الجدد هم اليوم وسيكونون في المستقبل معادين للاستعمار والإبادة والظلم واغتصاب الأرض واغتصاب ثروات الشعوب. وأسلمة الأوروبي ستجعله سياسياً كبيراً معادياً لحكومات بلاده. ومن هنا يأتي معاداة حكّام الغرب لظاهرة الأسلمة الواسعة.

أسلمة الأوروبي تعني قلب المعايير الغربية

لمّا كانت الأسلمة تعني انتماء جديداً للمواطن الغربي إلى القضية العربية والإسلامية، فإنها تعني أيضاً قلب كافة المعايير الغربية السياسية التي تقوم عليها أوروبا اليوم. وإن الخوف الأوروبي من الإسلام لايكمن فقط في ممارسة الدين كعبادة وطقوس، بل هو خوف عميق من انهيار كافة المعايير التي تقوم أوروبا على أسسها. والتي تقوم السياسات الغربية كلها على أسسها.

فالسياسة الغربية كلها قائمة اليوم على أسس متحايلة يمكن تشخيصها بهذه النقاط:

أولاً: إبقاء الصهيونية في قلب العالم العربي كعنصر شغب وتدمير للعرب وعنصر يمنع حدوث أي تطوير عربي. وهذا الكيان لم يكن في الأصل إلاّ نموذجاً غربياً مصغّرا. فأسلحته وميزانيته وثقافته كلها تأتي من دول الغرب.

ثانياً: استمرار سياسة الغرب في كسب كافة طاقات وقدرات الدول العربية والإسلامية. إذ لايخفى على أحد أن كافة الأموال العربية موضوعة في مصارف الغرب، وهذا يعني أنها تغني الغرب نفسه وتفقر العرب وحدهم. ثم إن الفائض الذي يحدث من تلك الأموال تشتري الدول العربية به بل تجبر على شراء أسلحة كثيرة

لاحاجة لها ولا ضرورة لشرائها. وقد تحدّث حسنين هيكل بوضوح عن صفقات الأسلحة الكثيرة تلك وقال بوضوح: " إنّ الدول العربية تشتري الأسلحة وهي تدرك أنها ليست بحاجة لها) كما نلاحظ في كل حين أنّ صفقة الأسلحة التي تباع للعرب ترتبط بقرار سياسي مفيد للغرب وحده. ففي أول آب ٢٠٠٧ وبزيارة وزيرة الخارجية الأمريكية للسعودية أعلن عن شراء السعودية صفقة كبيرة من الأسلحة من الولايات المتحدة.

وفي اليوم التالي وبزيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لليبيا أعلن عن شراء ليبيا كمية كبيرة جداً من الأسلحة من فرنسا.

لقد جاء ساركوزي إلى ليبيا كشحّاد يطلب الصدقات، وهو بحاجة ماسّة في بداية عهد حكمه لدعم مالي للخزينة الفرنسية يعلن بها عن تحقيق إنجاز أولي لفرنسا ويتمكن من البقاء في الحكم وتجديد الولاية. ولذلك جاء الدعم الليبي له بمنحه فائضاً مالياً ليبياً كبيراً يحقق الرخاء للفرنسين وبنفس الوقت يحقق الفقر والعوز لليبيين.

إن انتقال المال العربي إلى الغرب يحقق الرخاء لأبناء الغرب وبالتالي يتعزز تسلّطهم على الدول العربية والإسلامية. وهذه المعايير الاستعمارية التي يقوم الكيان الغربي على أسسها سيفقدها حين تتأسلم أوروبا وحين تصبح مناصرة للقضية العربية. ومن هذا المنطلق أيضاً يتأتّى الخوف الأوروبي من ضمّ تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

الفصل الخامس

التنبؤ بإبادة المسلمين الأوروبيين

الأسلمة أو الحرب الأهلية

يلخص المعلق الأمريكي دينيس براجير رؤيته لمستقبل أوروبا ويقول: من الصعب جداً تصور أي سيناريو آخر بالنسبة لأوروبا الغربية غير الأسلمة أو الحرب الأهلية. وبالفعل فإن هذين البديلين السيئين إلى أقصى حد ويبدو أنهما يحددان الخيارين الوحيدين أمام أوروبا المرتهنة بين قوتين متنازعتين" واحدة يمكن أن توصل المسلمين إلى الحكم والأخرى تدعو إلى طردهم. فإما أن تتحول أوروبا إلى امتداد لإفريقيا الشمالية أو أن تدخل في وضع شبيه بالحرب الأهلية. فأي طريق سوف تسلكه أوروبا؟ يتسائل المحللون الغربيون.

ظاهرة خوف المسلمين الغربيين

ومن الظواهر الجديدة التي رسمت ملامح مسلمي الغرب في السنوات الأخيرة ظاهرة خوف المسلمين هناك. اذ أصبحوا يخشون من قرار حكومي مفاجيء يأمر بطردهم أو ترحيلهم القسري.

كما تنتشر ظاهرة خوفهم من أعمال الإبادة الجماعية والتي يعتقد البعض بأنها قد تحدث بين لحظة وأخرى. وهذه المخاوف تجعلهم يعيشون في قلق دائم. وفي خوف مرعب. والحقيقة أن هذه المخاوف لامبرر لها وأن الغرب لن يرتكب حماقة كهذه بحق شعبه المسلم. ولعلّ من فوائد هذه المخاوف أنها ساهمت في إعادة قسم من المسلمين إلى الالتزام بقواعد الإسلام وقيمه. وإلى ازدياد ظاهرة التدين الإسلامي هناك.

وحشية الأوروبيين

وحشية الأوروبيين كبيرة وقاسية إلى حدّ أن الأوروبيين ظلّوا طوال قرون يخشون من ذكر كلمة إسلام أو مسلم. فالتعصب الكنسي كان يمنع بقوة مرعبة التطرق

للإسلام كله. ويحذر من التعرف عليه. وبناء على تلك التربية الوحشية تربّى الأوروبي طوال قرون على أسس شديدة العداء للإسلام. وهذه الوحشية التي مورست على الأوروبي منذ إزاحة المسلمين عن الأندلس، ظلّت مسيطرة في الغرب حتى عقود قليلة. فاليوم بدأ الغربي يتحرر من تلك الوحشية رغم أنه لم يتحرر منها بالكامل بعد، لكنه اليوم بدأ يسير في طريق هذا التحرر. ولتعزيز تحرر الأوروبي من هذه الوحشية التي تضلّه لابد من تدخل العرب والمسلمين في التأثير على المواطن الأوروبي. ويعتبر تدخل أسامة بن لادن وجماعة القاعدة في هذا الشأن ذا تأثير مفيد للمواطن الغربي نفسه في طريق تحرره الحقيقي الكامل. فغير مرة دعت القاعدة الأفراد الأوروبيين إلى اعتناق الإسلام وفي أيلول ٢٠٠٧ دعا بن لادن بوضوح الشعب الأمريكي لاعتناق الإسلام.

يقول المحلل الأمريكي "رالف بيتيرس" إن سيناريو السيطرة الإسلامية على أوروبا تماماً بعيد عن المستقبل كلّ البعد. وإن احتمال أن يكونوا على موعد مع الاستمتاع بالأمل في الاستحواذ على أوروبا عن طريق إنجاب الأطفال فهذا مستحيل كل الاستحالة، فإن المسلمين يعيشون في هذه القارة آخر أيامهم. فالغرب الذي انتبه إلى خطرهم لن يستمرّ في احتوائهم على الإطلاق. بل إنه بدأ يرفضهم بقوة، وسيزداد هذا الرفض تباعاً. فالتنبؤات بالحصول على السلطة في أوروبا من طرف المسلمين هي تنبؤات تتجاهل التاريخ و الوحشية المتجذرة في أوروبا نفسها".

صحيح أنّ التاريخ الأوروبي حفل بالمجازر الوحشية الكثيرة. فقد أباد الأوروبيون آلفاً من المسلمين بعد هزيمتهم في الأندلس. وأبادت محاكم التفتيش آلافاً من الأبرياء الآخرين.كما أن الحربين العالميتين أبادتا من الأوروبيين حوالي ستين مليوناً. لكنّ العصر قد تغير اليوم، والمفاهيم قد تغيرت. فالمواطن الغربي أصبح مدللاً والذكر أصبح مؤنّثاً كما يعترف بذلك الأوروبيون أنفسهم.

وإن مساحة الحرية الكبيرة التي حصل عليها الفرد تمكّنه من رفض التجنّد في جيوش تمارس الإبادة. كما أن الحداثة والتطور والإعلام وغيره كل هذا يكشف

الحقائق لكل فرد ويبيّن الزيف والخديعة السياسية الغربية. فلم يعد من الممكن أن تقوم حكومة غربية بخدع شعوبها وبجرّهم إلى حرب أهلية إبادية ضدّ أبرياء.

تمثلت وحشية الأوروبيين في منع الإسلام وحظره بالنتائج التربوية التي جعلت الفرد يخشى من ذكر الإسلام أو المسلمين. وبالأعمال والنتاجات الغربية من رواية وقصة وشعر ومسرح ورسوم زيتية كلها كانت تصوّر المسلمين على أنهم سفاحون متعطشون للدماء ومتخلفون وكارهون. وسلم الفكر الفلسفي الغربي تقريباً من العدائية للإسلام، لأن أولئك المفكرين كانوا منطقيين في أحكامهم. وهم الذين استفادوا من نتاجات الإسلام ومن ثقافته وادعوا بأنهم اكتشفوا تلك الأفكار المنطقية. وهؤلاء لزموا الصمت تقريباً تجاه الإسلام.

المسيحية لم تهذّب الأوروبيين

اعتنق الرومان المسيحية وحملوها من الشرق إلى أوروبا وجعلوها ديانة الإمبراطورية الرومانية. فراحت المسيحية تنتشر في أوروبا ومنها انتقلت إلى العالم. وقبل اعتناقه المسيحية كان الغرب متوحشاً ضالاً. وقذراً. وكانت أبرز سماته:

الاستهانة بحياة الإنسان، وممارسة القتل بوحشية، بل والتسلّي والتمتع بمشاهدة القتل والذبح والفتك وإراقة الدماء. ومن ذلك حلقات النزال بين شخصين أو بطلين يشاهدها الملوك والمتفرجون وتنتهي حتماً بموت أحد المتصارعين. وبقي اليوم من تلك العادات التمتع بمصارعة الثيران والتي تنتهي بموت المصارع الشهير أو الثور البهيم. ومن ذلك أيضاً مصارعة الديوك في بعض القرى الغربية.

وكان الغرب يظلم أبناءه ويفتك بهم ويمارس ضدهم استعباداً جائراً وقاسياً. كما كانت حملات الغرب تفتك بالشعوب وتنهب خيراتها.

وباعتناق الغرب للمسيحية لم يتغير العقل الغربي ولم يتهذب الغربي ولم يتحلّ بأخلاق إيمانية جديدة يمكن ذكرها. فالغرب منذ عشرين قرناً مضت ظلّ غارقاً في قذارته واستعباد الإنسان والفتك بالأرواح ونهب الخيرات.

وقد استشعر فلاسفة الغرب ومفكروه تلك المشكلة فذهبوا في مساع كثيرة لتهذيب الغرب ولتحميله قيماً أخلاقية وإنسانية وعقائدية. واضطر الكثير منهم إلى الإستعانة بنتاج الفكر الإسلامي دون الإشارة إلى مصدره، وقاموا بزرع هذا الفكر بين شتات النتاج الفكري الأوروبي. كما واضطر الغرب للبحث عن بدائل سريعة لحل معضلات القيم في مجتمعاته، فكانت الفلسفة الأوروبية الحديثة هي الملجأ الإضطراري له. وانطلقت الفلسفة من إيطاليا موطن الفاتيكان. وعمّت أوروبا وسعت لتهذيب العقل الغربي. واضطرت الفلسفة أيضاً لأن تستعير من الإسلام فكراً ونهجاً وقيماً كثيرة. وهذه كلها مازالت محفوظة في النتاج الفكري الغربي ومازالت تشهد على أهمية الإسلام بالنسبة للغرب. ورغم ذلك لم يتهذب الغرب كما يتوجب.

فبعدما عجز الغرب عن التهذّب اعتماداً على القيم الدينية المسيحية ظهرت الفلسفة كبديل عن المسيحية. ولأن مقصد الفلسفة كان تهذيب الأوروبي فقد اضطر الفلاسفة للاستعانة بالفكر الإسلامي ليصبح التهذيب أكثر انضباطاً. ورغم ذلك كله فقد بقيت الفلسفة بالنسبة للغربي مجرد فلسفة وضعية وفكراً بشرياً قابلاً للتغيير والنقد. ولذلك فلم تتمكن الفلسفة من تهذيب الأوروبي بشكل كامل بل قامت بتحسين أخلاقه وقيمه وتوجهاته وقامت بتهذيب دور الدولة التي اضطرت لمنح الفرد المزيد من الحقوق والقيم والحريات. وإذا قارنّا الغرب المعاصر الذي اعتنق المسيحية منذ ألفي عام والذي استفاد من الفلسفة طوال قرون نجده لم يتغير كثيراً عن الأوروبي المتوحش القديم.

فالأوروبي اليوم مازال يسعى لنهب خيرات الدول الأخرى. وهو يرتكب مذابح في الدول التي يستعمرها. وإسرائيل هي نتاج أوروبي تسعى لإهلاك المنطقة العربية وتقوم بإبادة الفلسطينيين بشكل يومي. وفي أوروبا نفسها نسمع عن سفاح يقتل خمسين امرأة، وآخر يقتل أطفالاً في مدرسة، وجرائم كثيرة مشابهة وكلها تعني أن الأوروبي لم يتهذب بعد، وأنه بعيد عن القيم الدينية والإنسانية. ثمّ، تقول آخر الإحصائيات إنه في الثانية الواحدة تحدث ثلاثة آلاف محاولة انتحار في الغرب وحده. فالمسيحية إذاً لم تهذّب الغرب رغم أنها قادرة على تهذيب النفس الإنسانية. لقد كان

العرب قبل الإسلام مجتمع قيم وعدل وقال فيهم الرسول الكريم: "*إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق*" ولم يكن الغرب كالعرب ولن يصبح بمقامهم إلا إذا اعتنق الإسلام، فالإسلام وحده هو الحلّ الوحيد للمشكلة الغربية التي لم تجد حلاً طوال آلاف السنين.

الفاتيكان الذي يرمز للمسيحية الغربية يقذف بلسان البابا عداوة وعنصرية تجاه الإسلام والمسلمين، وذلك لاترضى به المسيحية على الإطلاق. فاندفعت المسيحية العربية بكل أطيافها إلى استنكار تحرشات البابا بنديكتوس.

ويحكى عن قساوسة ورهبان مثليين وشاذين جنسياً، وعن آخرين تحرشوا بالغلمان والأطفال. ورغم شذوذهم الإجرامي هذا أبقتهم الكنيسة في مناصبهم الدينية.

والكنيسة نفسها لم يحافظ الغرب عليها، إذ يجري بيع مباني وصروح كنائس قديمة، وتباع أحياناً لوحات وأثريات دينية تنتزع من الكنائس لتصبح سلعاً يقبض البعض أثمانها، وفي ألمانيا سيطرت جماعة السينتولوجيا على عدد من الكنائس وجعلتها مكاتب لها. وكلّ هذه الصور لايمكن أن نراها في المسيحية العربية المحافظة. إذ يحافظ في سورية على الكنائس المسيحية وتحاط بأشدّ الرعاية والحفاوة. فالمسيحيون العرب هم من المجتمع العربي الذي وصفه الرسول الكريم حين قال: "*إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق*"

لقد صاغ الغرب المسيحية للتماشى مع ثقافته وطبائعه، ولم يحافظ على العقائد المسيحية، ولذلك فهو ليس أميناً عليها. ولهذا توجب إطلاق دعوة عالمية لوضع الثقة بالمسيحيين العرب وتحميلهم مسؤولية الحفاظ على الديانة المسيحية ورعايتها والتكلم باسمها.

هل اقتربت ساعة الحسم في أوروبا؟

يرى البعض أن مستقبل العلاقة الأوروإسلامية مجهولة، ويرجّح هؤلاء أن الأحداث الحاسمة التي سوف تحدد علاقة أوروبا بالإسلام لا زالت في طور التشكل، مما يجعل أن لا أحد يمكنه أن يُصدر حكماً نهائياً. ولكن ساعة الحسم قد اقتربت. فمن هنا إلى أواسط العقد المقبل تقريبا سوف تكون التذبذبات الحالية قد وصلت إلى نهايتها، بحيث سوف تتضح الأمور، والمعادلة "أوروبا-إسلام" سوف تضيق، والمنحنى الذي سوف يقرر مستقبل القارة سوف يكون عليه أن يظهر بوضوح. وإنه حري أن يكون من الصعب استباق هذا التحول، لا سيما وأنه دون سابقة تاريخية. فليس هناك أي مساحة ترابية بهذه الشساعة سبق أن انزلقت من حضارة إلى حضارة أخرى على إثر انهيار ديمغرافي، أو ديني، أو هوياتي لساكنيها. وليس هناك أي شعب سبق له أن انتصب أو تمرد إلى هذه الدرجة ليدعو إلى تراثه التاريخي. إن المشكل الأوروبي هو غير مسبوق وممتد وواسع لدرجة أنه من الصعب جداً فهمه، ومن المغري جداً تجاهله، ويكاد يكون من المستحيل استشراف أو التنبؤ بتطوراته الممكنة. إن أوروبا تسير بقاطنيها جميعاً في اتجاه المجهول.

لقد اقتربت ساعة الحسم كما تشير الأحداث. ولن تكون دموية كما يدعو بعض الغربيين لجعلها دموية. لقد دعا مسؤول أوروبي كبير (عن قناة الجزيرة ١١ أيلول ٢٠٠٧) دعا الأوروبيين للتظاهر ضد ماأسماه محاولة أسلمة أوروبا. وهذه الدعوة تعني ضمناً المواجهة بين مسلمي أوروبا ومسيحييها وتعني تسريع المواجهة منذ الآن. والقضاء على ظاهرة أسلمة أوروبا. وربما تحمل ضمناً رغبة بالقضاء على مسلمي أوروبا. مما يدل على أن ساعة الحسم باتت قريبة جداً.

التنبؤ بإبادة مسلمي الغرب

يسترسل المحلل الأمريكي في التنبؤ بمستقبل المسلمين الأوروبيين، فيرجّح احتمال ابادتهم التامّة على أيدي الأوروبيين أنفسهم.وفي هذا الصدد يصف أوروبا على

أنها المكان "الذي تم فيه ابتكار وإتقان الإبادة الجماعية والتطهير العرقي"، ويتنبأ بأن المسلمين "سوف يكونون محظوظين إذا لم يتم إلا طردهم فقط، وليس قتلهم وإبادتهم".

وتؤكد"كلير بيرلينسكي" على هذا الرأي في كتابها "تهديد في أوروبا: لماذا أزمة القارة هي نفسها أزمة أمريكا؟

وتؤيده ضمنياً بإشارتها إلى النزاعات القديمة وأساليب التفكير التي تُبتعث ببطءٍ من غيوم التاريخ الأوروبي والتي يمكن بالفعل أن توقظ العنف لدى الأوروبيين.

هذا السيناريو يحتمل أن الأوروبيين الأصليين الذين لا يزالون يمثلون٩٥٪ من ساكنة القارة سيستيقظون يوماً ما ويلجؤون إلى فرض إرادتهم وسوف يقولون: كفى! ويعيدون إقامة نظامهم التاريخي من جديد. هذا هو احتمال الإبادة الذي يتوقعه كثير من المراقبين الغربيين. لكننا رغم إدراكنا لطبيعة المواطن الغربي ولتاريخه الطويل في ممارسة الإبادة فلا نتوقع أن يمارسها مرة أخرى على مسلمي أوروبا.لأن أوربيي القرن الواحد والعشرين ليسوا على الإطلاق مثل أوروبيي القرون الوسطى.

المحلل الأمريكي رالف بيتيرس يرى أن المسلمين سيتعرضون للإبادة في أوروبا قريباً. ويستدلّ على رأيه بالكثير من الأدلّة والشواهد. والحقيقة هي أن بين المواطنين الأوروبيين من يرجّح هذا الاحتمال الخطير. لكنّ ذلك سيبقى حبراً على ورق وليس لتلك النبوءات مكان في التاريخ المستقبلي.

مطالب بالتسلّح الغربي الكامل

يقترح بعض الأوروبيون طرقاً لمواجهة هذا المعسكر الخصم الجديد حسب رأيهم. وهو المدّ الإسلامي. ويقترح البعض هذه الاستعدادات للمواجهة:

إعادة التسلح بمعناه الثلاثي: التسلح العسكري بقوات تدخل مهيأة للتحديات الجديدة. والتسلح القانوني: بقوانين جديدة لمحاربة التهديد الإرهابي الجديد. والتسلح

الأخلاقي بمعنى إعادة التأكيد على قيم التراث المسيحي اليهودي للغرب، وهذه النقطة الأخيرة مهمة لأن المدافعين عن هذه النظرية تعوّدوا غالباً الحديث عن الانحطاط الأوروبي مؤكدين أن أوروبا التي أدارت الظهر للقيم المسيحية اليهودية ودخلت في اختلال سكاني كبير، وهي في الطريق إلى فقدان قدرتها على المنافسة الاقتصادية بل وتفتقر إلى الإيمان الأخلاقي الضروري للدفاع عن نفسها ستكون ضعيفة أمام التهديد الإسلامي. ويصل البعض حد الحديث عن شبح"أورابيا" [EUROABIA] أي: أوروبا الخاضعة للإسلام العربي. إنّ الخوف الأوروبي من شبح أورابيا لا يعبّر عن خوفهم مما قد يفعله الغربيون المسلمون، بل هو ناتج عن الخوف الأوروبي مما سيفعله الغربيون الذين يعتنقون الإسلام بكثرة هذه الأيام ويناصرون القضايا المتعلقة بالإسلام والعروبة. ويستنكرون سياسات الغرب الاستعمارية الظالمة، وهؤلاء الغربيون المسيحيون وغير المسيحيين يزداد اعتناقهم للإسلام في هذه الأيام حتى أصبحوا يشكّلون خطراً حقيقياً على البنية الثقافية الغربية.وهنا يسعناأن نذكر قوله تعإلى: (وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى).

تاريخ الإبادة عند الغربيين

في أثناء الحرب العالمية الثانية مارس الغرب كله أعمال الإبادة الجماعية ضد أبناء الغرب نفسه، فكان الألمان يبيدون مدناً كاملة، بكافة طرق التدمير والقتل، وكان الحلفاء يبيدون بالمقابل مدناً ومعسكرات ألمانية كاملة. ولايتركون منها إلاّ الحطام والرماد.فقد أبيد في تلك الحرب خمسون مليوناً من الأوروبيين والجنود الذين تم استخدامهم. وبعد انتهاء الحرب، قام الحلفاء بابادة ملايين من الألمان بحجة اتهامهم بالانتماء إلى النازية المندحرة.وفي فرنسا وحدها تم قتل أكثر من مليون فرنسي بحجة تلك التهمة نفسها.وقد ساهمت الجماعات والعصابات الصهيونية بأعمال الإبادة تلك. وإن تلك الأحداث المرعبة هي التي جعلت المواطن الأوروبي يخضع ويخنع لسلطة العصابات الصهيونية، والتي مازالت تسيطر عليه وتفرض إسكاته وخنوعه حتى يومنا هذا.كما أن الغرب مارس إبادة مسلمي الأندلس بعد هزيمة

المسلمين فيها. وتحوّل من أراد أن ينجو بنفسه إلى المسيحية. وفي العصور الوسطى مارست السلطة الكنسية إبادة ملايين الأوروبيين المسيحيين فيما سمي بمحاكم التفتيش. كما مارس الأوروبيون الذين استوطنوا في القارة الأمريكية أعمال إبادة للهنود الحمر. وشاركت الجماعات اليهودية بتلك الأعمال.وبررتها على أسس دينية يهودية آنذاك. وفي القارة السمراء أباد الغرب ملايين من الأفريقيين كما هو معروف.

لقد أباد الغرب مسلميه بعدما (دحر المسلمين عن الأندلس) وقد تم سحق مئات الآلاف من المسلمين الغربيين آنذاك. وسكن في قلب الغربي رعب وخوف من ذكر كلمة إسلام.!. واستمر هذا الرعب طوال قرون خلت. لكنّ الزمن تغيّر اليوم ولم يعد بمقدور الغرب أن يبيد أبناءه.

الإبادة من العقيدة اليهودية إلى المسيحية

والإبادة انتشرت في الفكر الغربي وأصبحت عقيدة وممارسة واقعية. وقد ساهمت العقيدة اليهودية في بثّ هذه العقيدة في أذهان الأوروبيين. فاليهودي عندما يمارس طقوس العبادة في المعبد اليهودي يقوم بإبادة الأضحية وحرقها حتى الرماد، وذلك باعتقاده أنه يقدمها للرب كوجبة وتقدمة ومائدة. والرب يطلب ويشترط في نصوص التوراة (المزيفة) هذه الإبادة.وتختلط صورة الإبادة كعقيدة عند اليهود بإبادة البشر واليهود منهم. فقد كانوا يقدّمون أولادهم كأضاح للرب، وتلك الأضاحي كانت تحرق وتباد.ومن هذا المنطلق كان زعم اليهود بأنهم قدّموا أبناء يهودهم للرب كأضاحٍ تم حرقها في الأفران الألمانية.وقد نجح اليهود في نقل هذه العقيدة الإبادية إلى العقيدة المسيحية الأوروبية.فتبنتها أوروبا ومارستها في الحياة اليومية. ومن هذا المنطلق نسمع عن جندي غربي يقوم بقتل مدنيين مكبّلين ومسالمين أو أسرى أو عائلة في العراق.

والحقيقة أنّ هذا الأمر ليس بعيد الوقوع، لكنّ احتمال حدوثه يبقى أقلّ بكثير من احتمال ازدياد النفوذ الإسلامي وسيطرته.فأبناء الغرب مهما أمكن للبعض أن يصفهم بالوحشية فهم مازالوا بشراً وأناساً.وقسم كبير منهم اليوم يرجح المحاكمة

العقلية ويتجاوب مع المعلومة المقنعة، ولعلّ الإسلام من هذه المعلومات التي بدأ الغربي يتفهمها ويتقبلها. وإنّ نسبة كبيرة منهم تتعاطف مع الذهن العربي والإسلامي. وإنّ ازدياد تعاطف حكّام الغرب مع اسرائيل وازدياد معاداتهم للمواقف العربية يزيد من رفض مواطنيهم لهم. وبالتالي يزيد من تعاطف الغربيين مع القضايا العربية والإسلامية.

صراع بين شعوب الغرب وحكامه

في هذه المرة يتحول الصراع ويأخذ شكلاً جديداً. فقد أصبح صراعاً بين السلطة الحاكمة وشعوبها مسلمين وغير مسلمين. إذ تقوم السلطة بمنع تحرر مواطنها من قيوده، وبمنع دخول فكر جديد إلى ذهنه. وبمنعه من إجراء محاكمة عقلية للقضية الفكرية بمجملها، أي أن السلطة الحاكمة تريد إخضاع وخنوع مواطنها لكلّ ماتمليه هي عليه من إرادة. ولعلّ أهم ماتريد إبقاءه في مواطنيها هو المسيحية التي تمّ تفريغها بالكامل من كافة المعاني الدينية.والمسيحية الأخرى التي تم تحميلها عقائد يهودية صهيونية. فأصبحت هذه مسيحية خرافية وأسطورية. بل وتسمى بالمسيحية الصهيونية. وفي هذه المرّة اكتشف المواطن الأوروبي أسرار وأخطار لعبة التضليل التي تمارس عليه. فقد رأينا مظاهرات الاحتجاج في أوروبا وأمريكا ترفض خضوع الحكّام للسياسة الصهيونية. وتطالب بوقف أعمال العداء ضد العراق وأفغانستان. وترفض مرات عديدة جرائم الصهاينة التي تمارس ضد العرب والمسلمين في المنطقة. فالصراع في الغرب إنما هو في حقيقته صراع حكّام الغرب مع شعوبهم، وفي خضمّ هذا الصراع لم يكن أمام الغربي الاّ منفذ واحد للنور الساطع والنور المنقذ الذي يمكنه التعلّق به ويأتي هذا النور من الإسلام نفسه. فشعوب العالم الإسلامي تطلق باستمرار نداء الحرية من الهيمنة الغربية، وهذا النداء التحرري هو نفسه نداء الأوروبي للتحرر من الحاكم المتسلط عليه.وبينما يقوم الأوروبي بالتعرّف على مشكلة الشعوب الإسلامية مع حكام الغرب فإنه يكتشف حقيقة عنصرية السلطة الحاكمة في الغرب. ويتعرف على عقيدة المسلمين وعلى تاريخهم الطويل في

التسامح مع الآخر وفي احتواء الآخر وجعله من ضمن الكيان الإسلامي. وهذا التعرف على الإسلام هو الذي يجعل أبناء الغرب يتعاطفون مع المسلمين ويتمنّعون عن إبادتهم في أي يوم من الأيام، بل ويجعلهم مندفعين ليدخلوا في دين الإسلام أفواجاً.

إن الصراع الذي يجعله حكّام الغرب صراعاً إسلامياً مسيحياً إنما هو في حقيقته خشية حكّام الغرب من تنوير شعوبهم بهدي الإسلام. أي أنه صراع حكّام الغرب مع شعوبهم.

ذريعة: الحرب ضد الإرهاب

يشكل القضاء على الإرهاب الجهادي هدفاً مهماً مشتركاً للبلدان الإسلامية والغربية ورغم أن التعاون بهذا الخصوص ليس سهلاً على الدوام فإنه يبقى مطلوباً جداً. إن أية عمليات جديدة ضد الغرب ستهوي بصورة الإسلام في الغرب وتؤدي زيادة على ذلك إلى موجة خوف من الإسلام تعقد المساعي –التي تبقى مطلوبة - لدمج المسلمين الأوروبيين.

ومن هنا فالموضوع إذن يصعب استشرافه، إذ يعود أكثر إلى مهارة الأمن في إحباط عمليات معينة. ومهما يكن فيمكن التفاؤل – بحذر- لسببين: أولاً، من المؤكد أن تأثيرات العمليات الإرهابية ضد الغرب تتجه إلى أن تصير أخف لأن المحاولات باتت أقل ولأنها تحبط غالباً. ثانياً: يبدو أن تأييد الشعوب للإرهاب الجهادي هو في طور التناقص.

محاولة إدماج المسلمين في المجتمع الغربي

في هذا السيناريو المحتمل، وهو الأكثر مدعاة للابتهاج عند الأوروبيين جميعاً بمن فيهم المسلمين، يتوصل الأوروبيون الأصليون والمهاجرون المسلمون إلى التوافق على طريقة للعيش معاً، ويتعايشون مجتمعين في انسجام ووئام تام.

ويعرض الأوروبيون فكرة الإدماج على أنها الرؤية المتفائلة للمسلمين. وتقول دراسة صدرت سنة ، ١٩٩١ في "فرنسا ، فرصة للإسلام" أنجزها كل من "جان-هيلين" و"بيير باتريك كالتينباش". تقول الدراسة: "لأول مرة في التاريخ، تمنح للإسلام فرصة أن "يستيقظ" في بلد ديمقراطي، غني، لائيكي، ومسالم". وهذا الأمل لازال يجد له دعاة يواصلونه"

لعلّه من الواضح أنّ مايطلق عليه في الغرب مشروع إدماج للمسلمين هو في حقيقته محاولة لجعل المسلمين يتخلون عن شيء اسمه ثقافة وفكر وانتماء. وهذا يعني الإسلام. وهو التخلي الذي لايمكن أن يحدث لأي مسلم عادة. فيصبح الإدماج خديعة للمسلمين تعني إرغامهم على التخلي عن الدين الإسلامي. وضمن هذا السياق لينجح الغرب في محاولة الإدماج كلها. كان على الغرب أن يبدأ بتلك المحاولات منذ عقود وأن يصل في نتيجتها لقناعة بفشل محاولاته. واليوم سبق السيف العذل. وأمام ظاهرة المدّ الإسلامي الكبير في الغرب بات من الواجب أن يتناسى الغرب فكرة الإدماج بكاملها.

أطروحات لدمج المسلمين الأوروبيين

يمكن أن يساهم المسلمون الأوروبيون، الذين ينتمون إلى العالمين في آن واحد ، في مد الجسور بينهما لكن يكمن الخطر في اتجاه أقلية منهم إلى التشدد والعنف وهو ما يعرقل اندماجهم ويوفر محضناً للإرهاب. ولا بد من بذل مجهود يجمع ثلاثة عناصر لتحقيق هذا الدمج المتوازن:

أولاً: الدفاع عن قيم الحرية بما في ذلك التأكيد على حرية النساء المسلمات في أن يقررن بأنفسهن دون أي ضغط ذكوري، وأيضاً حرية الرأي الكاملة التي دافع عنها البعض بقليل من الحماس أثناء أزمة الرسوم الدانماركية.

ثانياً: تحسين وضع المسلمين من حيث العمل والتعليم والوضع المعيشي. وتحسين صورتهم في الإعلام من أجل تجنب أن يتحول الانتماء الديني إلى عائق عن الصعود الاجتماعي.

ثالثاً: المجهود القانوني والأمني من أجل استئصال أي محاولة إرهابية تطال المسلمين.وهذه الاعتداءات قائمة بالفعل، ويمكن تحاشي تصاعدها.

إن الصعوبات الموجودة اليوم في هذه العلاقات تعود في جزء مهم منها إلى مشاعر الاستياء لدى المسلمين الذين يحمّلون في الغالب الغرب المسؤولية عمّا يتعرضون له من مشاكل. ويتوجب أن يكون تشجيع التفاهم والتعاون بين العالمين هماً مشتركاً وحقيقة نافذة.

دراسات حول الإندماج الثقافي

قام مركز "بيو" لأبحاث الشعوب والنشر بمسح كبير للاتجاهات في ربيع ٢٠٠٦، عنوان المسح "الانقسام الكبير: كيف يرى الغربيون والمسلمون بعضهم بعضاً،" وتم فيه مقابلة مسلمين من مجموعتين من البلدان: ستة بلدان أغلبية سكانها منذ زمن بعيد من المسلمين (مصر واندونيسيا والأردن ونيجيريا وباكستان وتركيا)، وأربعة بلدان في أوروبا الغربية يمثل المسلمون فيها أقلية حديثة العهد (فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا).

الفصل السادس

الانبهار العربي بأوروبا

الانبهار بأوروبا مرض حقيقي

انبهار العرب بأوروبا الغربية حالة مرضية حقيقية نلمسها في مجتمعاتنا رغم تنوعها. فالغني والفقير والموظف والوزير والمتدين وغير المتدين كلهم ينبهرون بالغرب.

والمجتمع العربي يمنح ميزات تفوق للفرد الذي زار أوروبا أو عاش فيها أو تزوج من أوروبية. كما يمنح ميزات للشخص الذي يتعامل مع الغربيين. كموظف سفارة أو مترجم لدى شركة غربية. وحالات اغتيال هؤلاء الموظفين والمترجمين في العراق تدل على اعتقاد المتطرفين بتميزهم.

وكلنا نوافق على تمييز خبر عادي فنقول مثلاً: قتل في العراق أوروبي وجرح بريطاني. فهذا الخبر نجعله مهما أكثر من آخر يقول قتل في العراق عشرة مدنيين.

كما اعتاد مجتمعنا على أن يثق بكل ماهو غربي فننقل عن كاتب أو صحفي غربي ونهتم بقوله وبحديثه أكثر من اهتمامنا بحديث لعربي آخر حتى لو كان يفوقه قدرة ومعرفة.

هذا الانبهار بالغرب هو أحد أشكال عقدة تاريخنا في الغرب الذي كان مبهراً بحسب التصوّر الدارج. وهو انبهار مرضي. ونلمس مرضيته في ظاهرة الانتحارية في الوصول إلى الغرب.

مافيات تهجير المسلمين

كثرت مافيا تهجير البشر وأصبحت الرابح الوحيد من مجمل هذه الأوضاع المعقدة، والتي غالباً ما تنتهي مسؤوليتها عن المهاجر في إلقائه عند أقرب شاطئ أوروبي ترسو عليه قواربها المتهالكة إن وصلت.

مافيا لبنانية

أما المافيا اللبنانية فهي تنشط تحديداً طبقاً للتقرير أيضاً في مناطق الجنوب والبقاع والشمال اللبناني، ومعظم زبائنها من الشباب الذين يعانون من البطالة، وغالباً ما تكون محطة اللاجئين الأكراد المركزية هي ألمانيا، بينما يتوجه اللاجئون السريان إلى السويد بسبب تسهيلات تقدمها للكنيسة السريانية.

وتعتبر الحدود التشيكية الألمانية مكاناً مناسباً لعبور المتسللين العرب ليلاً بمساعدة دليل تشيكي أو فيتنامي يعرف جيداً مسالك العبور الجبلي والنهري، لكن كثيراً ما أدت هذه المسالك إلى كوارث راح ضحيتها متسللون لا يجيدون السباحة لاقوا حتفهم أثناء عبور النهر، أو متسللون قضوا بسبب برودة الطقس في فصل الشتاء، والبعض خسر بعض أطرافه بسبب الثلج والجليد.

والخطير في موضوع مافيا التهريب اللبنانية ضياع جوازات سفر اللبنانيين الذين يضطرون إلى تسليمها إلى المافيات الروسية والتشيكية قبل دخول أوروبا.

مافيا روسية

نشرت مجلة "دير شبيجل" الألمانية تقريراً تلقته الحكومة من جهاز مخابراتها يفيد بأنّ طالبي اللجوء باتوا يتسللون إلى ألمانيا عبر دول الاتحّاد الأوروبي، والذين يقومون بإيصالهم إلى ألمانيا هم رجال المافيّا الروسيّة الذين باتوا يتمتّعون بأساليب مبتكرة لتهريب البشر إلى الدول الأوروبية.

ويقدر التقرير أرباح تجارة تهريب البشر إلى أوروبا بخمسة مليارات دولار سنوياً، يذهب نصفها تقريباً لصالح المافيا الفيتاميّة التي برعت هي الأخرى في تهريب البشر حسب التقرير الألماني، وتخصصت هذه المافيا في تهريب الناقمين على الدول الشيوعية والاشتراكية في آسيا، ومنها الصين وغيرها، حيث يجري تهريب الصينيين إلى دول مثل النرويج والسويد والدانمارك وفنلندا وغيرها من الدول.

ويشير تقرير الاستخبارات الألمانية إلى وسائل قاسية ودموية تستخدمها المافيات

الدولية في عمليات تهريب البشر إلى أوروبا، مما يؤدي في أحيان كثيرة إلى خسائر في الأرواح من قبيل غرق السفن التي تستخدم في نقل اللاجئين حيث تقوم المافيات الروسيّة على سبيل المثال بشراء سفن متهالكة تحتاج إلى صيانة وتهرب فيها البشر إلى شواطئ الدانمارك والنرويج، حيث مات المئات في البحار القاسية البرودة قبل وصولهم إلى مواقع اللجوء، وحسب الدوائر الأمنية الأوروبية التي تعمل على ملاحقة مهربي البشر فإنّ المافيا الروسيّة تقوم بتهريب مليون لاجئ إلى دول أوروبا الغربية. ورغم القيود الأمنية الصعبة التى وضعتها الشرطة في العديد من الدول الأوروبية لمنع الهجرة إليها إلا أنّ مافيا التهريب نجحت في اختراق العديد من الخطط الأمنية وتحديداً بعد إلغاء الحدود بين الدول الأوروبيّة

ويملك رجال مافيا التهريب أجهزة حديثة ومتطورة لطبع الجوازات الأوروبية وتزويرها وطباعة التأشيرات، وهم الذين يحددّون الطريق التي يجب أن يسلكها اللاجئون، فإذا كانت الحراسة مشددّة في المطارات لجأوا إلى الحدود البرية واستخدام شاحنات خاصة في تهريب البشر، وإذا كانت الحراسة في الحدود البريّة مكثفة، لجأ المهربون إلى البحر حيث السفن القديمة التي يغرق معظمها، وقد أحصت مفوضيّة شؤون اللاجئين التابعة لجمعية الأمم المتحدة آلاف الضحايا في وسط البحار من بينهم نساء حوامل وأطفال، كما حدث في الدانمارك وإيطاليّا.

مافيا مغربية

الخط الثاني الذي يسلكه المهاجرون المسلمون هو الذي يمرّ عبر شمال إفريقيا والشرق الأوسط عبر مركزين رئيسين هما المغرب ولبنان.

المهربون المغاربة أقاموا قاعدة لهم في المغرب لتهريب البشر إلى إسبانيا وبقية الدول الأوروبية عبر مضيق جبل طارق، ويتم التهريب من المغرب إلى الشواطئ الإسبانية بقوارب متهالكة، وطالبو اللجوء السياسي والاقتصادي عبر هذا الخطّ هم من بلدان شمال وغرب إفريقيا.

وقد مات عبر مضيق جبل طارق مئات الفارّين من بلادهم، كما أنّ الكثير منهم تمّ اعتقالهم من قبل شرطة الشواطئ الإسبانية، ويعمد الواصلون إلى إسبانيا إلى التسلل منها إلى بقية الدول الأوروبية كفرنسا وإيطاليا وألمانيا.ومن المعروف أن الحكومات الأوروبية قد سنّت قوانين تسمح لها بإبادة هؤلاء المحاولين الدخول إلى أوروبا بطريقة غير شرعية. ويتم إغراق مراكبهم في عرض البحر.ثمّ تتكاسل سلطات الطوارىء في البحث عن الناجين. وقد تكررت هذه الأحداث عشرات المرات.

قوارب الموت والإنتحار

كلما تسمع عزيزي القارىء عن غرق مركب يحمل مهاجرين غير شرعيين تأكّد بأنه قد تم تدميره وإبادة من فيه من المسلمين. وتأكّد بأن ذلك القتل المتعمّد يأتي في سياق منع الإسلام من التسلل إلى الغرب بل وفي سياق مشروع إبادة المسلمين، إذ من الجائز أن يغرق مركب من عشرة مراكب ومن غير المحتمل أن تغرق كافة المراكب التي تحاول عبور مضيق جبل طارق ذي المسافة القصيرة. وقد كانت مثل هذه المراكب تنقل بهدوء عشرات العرب والمسلمين إلى الشواطىء الأوروبية دون أن تواجه مصاعب وغرقاً. وهنا نتعرف على واحدة من قصص المهاجرين المسلمين المندفعين نحو أوروبا. والتي تبين مدى عظمة حلم هؤلاء في الوصول إلى أوروبا.كما ونلاحظ تنوع طرق العبور وأساليب المتاجرة بأحلام هؤلاء. فقد جاء إبراهيم وبدرا من السنغال إلى موريتانيا يراودهما حلم بالهجرة إلى ما يعتقدان أنه الفردوس الاوروبي.

فبعد تشديد إجراءات الامن والرقابة على الحدود المغربية وإبرام اتفاقيات التعاون الأمني مع أسبانيا اتجهت أنظار المهاجرين السريين إلى موريتانيا، وإلى مدينة نواذيبو الساحلية في أقصى الشمال الغربي على وجه الدقة، كطريق بديل يخضع لرقابة حدودية أخف نسبياً، لإبحار قواربهم المتهالكة نحو جزر الكناري الأسبانية.

ويتدفق الشباب الافريقي إلى نواذيبو للإقامة في أحياء وتجمعات بعينها، حتى أن هناك حياً يدعى أكرا، وهو اسم عاصمة غانا، ويقطنه عدد كبير من غانا ومالي والسنغال.

هؤلاء لم يأتوا إلى موريتانيا باعتبارها محطة انتقالية نحو أسبانيا فقط، وإنما أيضاً سعياً وراء حياة أفضل وهربا من ظروف معيشية قاسية.

إبراهيم وبادرا، وهما شقيقان يبلغان من العمر ثمانية وعشرين وتسعة وعشرين عاماً، هاجرا إلى موريتانيا قبل سنوات ليعيشا معاً في أحد الأحياء الفقيرة في نواذيبو، حيث يعملان في الصيد في مواسمه وفي ورش إصلاح السيارات، وذلك للانفاق على أسرتهما في السنغال وتوفير المال للهجرة إلى أسبانيا عندما تحين الفرصة.

ويتحدث ابراهيم عن الرغبة بالهجرة ويقول: عندما أتينا إلى هنا لم نجد عملاً لأنه لم يكن هناك أحد يعرفنا أو يثق بنا، فاعتمدنا على المبلغ الذي كان معنا في تدبير السكن والأكل، وعندما نفد المال جاءت أيام لم نجد فيها ما نأكله.

أول ما جئنا لم نكن نفكر كثيراً في الهجرة لأوروبا، لكن بعد أن أقمنا مع مجموعة تحضر للهجرة لاسبانيا أقنعونا بمحاولة توفير المال لدفعه للمهرب، وعندما عملنا لم نستطع توفير شيء بعد دفع إيجار السكن والمصاريف اليومية، ولذا ننتظر فرصة أفضل وقد يستغرق الأمر عشر سنوات لتوفير الاموال المطلوبة لرحلة أوروبا.

فعندما أردنا الذهاب لأوروبا جدي الذي يعيش في الولايات المتحدة أرسل لي المال وأمي أيضاً أرسلت لإبراهيم مبلغاً.

فما هي الأسباب التي دفعت أسرة إبراهيم وبدرا وغيرها من الأسر لذلك رغم المخاطر واحتمال موت أحبائهم غرقاً؟

يقول ابراهيم: "نعم تعلم أسرتنا المخاطر، لكن الظروف المعيشية في بلدنا صعبة للغاية حيث يمكن أن تعمل عملاً شاقاً وتكون المحصلة ضعيفة، لكن ليس أمامك سوى الاستمرار في العمل وإلا نموت من الجوع والبرد، وثانياً نحن نعمل أصلاً في البحر طوال الوقت والموت بيد الله في الطائرة أو السيارة أو البحر.

تضييقات على المهاجرين المسلمين

منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وانتشار "الإسلاموفوبيا" وتصاعد هاجس الأمن لدى أوروبا اتبعت أوروبا سياسات مضادة للمهاجرين لم تكن تتبعها من قبل وأصبحت سياساتها أقرب لليمين في النظرة للقادمين الجدد، ومواقفها أكثر ميلاً للتعامل بعنف معهم. يقول توم جينكينز، كبير مستشاري مؤتمر اتحاد نقابات أوروبا: "*أعتقد أن بعض الحكومات تتصرف كرد فعل لليمين المتطرف في بعض البلدان، وبالتالي تعمد لإظهار نفسها أكثر تشدداً إزاء الهجرة" "غير أن الواقع أن الناس سيهاجرون، ومن الأفضل أن يهاجروا بشكل قانوني حتى يمكن تطبيق معايير مناسبة عليهم*".

ورغم أن معاهدة توسيع الاتحاد الأوروبي أعلنت التزامها بمواثيق حقوق الإنسان فيما يخص التعامل مع اللاجئ إلا أن المعاهدة منحت الأعضاء الحاليين بالاتحاد حق تحرير أسواق العمالة لديهم بالكامل أو فرض ما يرونه من قيود عليها حتى سبع سنوات قادمة، وهي الفترة الكافية لإفراغ أوروبا من غير المرغوب فيهم، خاصة إن كانوا مسلمين، واتّباع إجراءات أشد عنفاً لمنع الهجرة إليها.

هذا الخوف الشديد من الإسلام (الإسلاموفوبيا) جعل دولة مثل اليونان لا تمنح تأشيرة دخول للألبان المسلمين إلا بعد تغيير أسمائهم التي تدلّ على أنهم مسلمين. كاسم محمد ومجموعة الأسماء التي تبدأ بعبد.. ، أما الإيطاليون فيفضّلون هجرة الكاثوليك من دول البلقان إليها بدلاً من المسلمين.

مسلمو أوروبا الفقراء

تشغلنا بشكل أخص الظاهرة – القليلة دون شك – المتمثلة في كون مسلمين مقيمين في أوروبا وأحياناً مولودين فيها ينضمون إلى شبكات الإرهاب الجهادي كما نرى باستمرار. ولابد من البحث عن الدافع إلى التشدد في الشعور بالانتماء للمجتمع الأوروبي. فـ ٣٧٪ من المسلمين الفرنسيين و٢٨٪ من البريطانيين و٢٥٪ من

الأسبان و١٩٪ من الألمان يصرحون، بحسب استبيان مركز (PEW) عام ٢٠٠٦، بأنهم تعرضوا لتجارب شخصية من الاعتداء عليهم بسبب كونهم مسلمين. من جانب آخر فإن أغلبهم يشعرون بكونهم مسلمين قبل أن يكونوا مواطنين لبلدانهم باستثناء حالة فرنسا حيث يشعر ٤٦٪ منهم بأنهم فرنسيون قبل كل شيء مقابل ٤٢٪ يشعرون بأنهم مسلمون قبل كل شيء . وينضاف إلى كل ذلك كون المسلمين الأوروبيين -المنتمين في أغلبهم إلى الموجات المهاجرة والتي لا تحوي خبرات مهمة- يعيشون مستوى اقتصادياً أضعف في المتوسط من المواطنين الآخرين. وبحسب تقرير للمرصد الأوروبي للعنصرية يعيش المسلمون في أحياء ظروف الإسكان فيها سيئة والمستوى الدراسي أخفض كما يتركز المسلمون في المهن الأضعف دخلاً ومن بينهم نسبة بطالة مرتفعة.

حاجة أوروبا للمهاجرين المسلمين

حسب معلومات المنظمة الدولية للهجرة فإن عدد مَن تمكّن من عبور الحدود الأوروبية بطرق غير قانونية يُقدّر بحوالي ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف شخص سنوياً في فترة التسعينيات . وفي عام ٢٠٠٠ وحسب معلومات وكالة الغوث الدولية فقد زاد الرقم إلى ٣٩٠ ألف شخص بطلب لجوء إلى الدول الأوروبية، ومعظم تلك الطلبات كان في بريطانيا ثم ألمانيا. ووفق الإحصاءات الرسمية للاتحاد الأوروبي يبلغ عدد المهاجرين بطرق غير شرعية إلى أوروبا سنويًاً ٤٠٠ ألف أجنبي معظمهم من أوروبا الشرقية، ففي إيطاليا يوجد قرابة ١،٥ مليون مهاجر، منهم ٤٠٠ ألف مسلم من شمال إفريقيا ومسلمي البلقان.

وفي فرنسا قرابة ١٠٠ ألف مهاجر غير شرعي سنوياً، من بينهم ٢٢٣٧٥ طالباً للجوء السياسي.

وفي إسبانيا حوالي ٧٥٠ ألف مهاجر غير شرعي من ٩٠ دولة وفي سويسرا التي تضم ثاني أكبر جالية ألبانية في أوروبا بعد ألمانيا ينتظر ٢٠٠ ألف مهاجر غير شرعي قرارات بقبولهم كلاجئين سياسيين.

ويحتاج الاتحاد الأوروبي إلى ١.٦ مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين والمتقاعدين. أما الآن فإنه يحتاج إلى ١٣.٥ مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل فيه من قبل. وقد كشفت صحيفة (الاتحاد الاشتراكية) المغربية الرسمية أن السلطات احتجزت نحو تسعة آلاف من المهاجرين غير الشرعيين باتجاه إسبانيا ، منهم ٧٦٨٠ مغربياً والباقي من دول مختلفة مثل الجزائر ونيجيريا وأنجولا وليبيريا وموريتانيا وباكستان وبنجلاديش.

وانّ المبدأ الحاكم الذي تقوم عليه المعايير الدولية لحماية اللاجئين هو "حظر الطرد أو الرد" بمقتضى المادة ٣٣ من اتفاقية اللاجئين لعام ١٩٥١ ، التي تنص على أنه "لا يجوز لأية دولة متعاقدة أن تطرد لاجئاً أو ترده بأي صورة من الصور إلى حدود الأقاليم التي تكون حياته أو حريته مهددتين فيها بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو بسبب آرائه السياسية". وينطبق مبدأ "حظر الطرد أو الرد" على الإرجاع القسري المباشر إلى دولة معينة مثلما ينطبق على الإجراءات غير المباشرة التي قد تؤدي في واقع الحال إلى إرجاع اللاجئ إلى دولة قد تتعرض فيها حياته أو حريته للخطر.

الفصل السابع

الإسلام والغرب حوار أم اقتتال

كوميديا اللحم المكشوف في أوستراليا

يكشف هذا التصريح لمسلم غربي عن الرغبة بالاقتتال والمواجهة مع الغرب وثقافته. فمازالت تنطلق تصريحات من المسلمين هنا وهناك تعبّر عن عقد جنسية يحملها البعض، ويعبّر عن عقده بخطاب يسميّه إسلامي. كما تدلّ مثل هذه التصريحات الغبية عن عدم تفهّم المسلمين الغربيين للحضارة الغربية التي اختاروا هم بمحض إرادتهم الانتماء إليها. ففي العام ٢٠٠٦ وفي إحدى خطب الجمعة في مدينة سيدني الأوسترالية تحدث الشيخ تاج الدين الهلالي عن الحجاب الإسلامي وشبّه المرأة التي لاترتدي الحجاب الإسلامي باللحم المكشوف الذي يجذب الكلاب الجائعة. وفسّر المعنيون الأوستراليون تلك التصريحات بأنها تبرر الاعتداء الجنسي على المرأة غير المتحجبة، وتدعو لاحتقارها وإذلالها. فتسببت تلك التصريحات في خلق أزمة كبيرة بين الجالية الإسلامية والسلطات الأوسترالية. فقامت رابطة المسلمين اللبنانيين بطرده من عمله، وعمّمت على الخطباء الالتزام بالقوانين العامة في خطبهم وتصريحاتهم.

ولو كان هذا الخطيب يلقي علومه الحضارية هذه في أية مدينة عربية لما استطاع وصف النساء غير المحجّبات بهذه الأوصاف، وإذا كان خطباء بلداننا أكثر اعتدالاً من أولئك المغتربين فما هي الأسباب التي تدعوهم إلى التمادي بالتطرف والانصراف إلى معاداة العلمانية ؟

الغرب يحاور ويواجه المسلمين

رغم أحداث التصادم بين الغرب والإسلام فإنّ الحوار بين الغرب والإسلام ظلّ قائماً باستمرار ومازال يأتي من كلا الطرفين ويعبّر عن رغبتهما باستمراره ، ففي الأيام التي تلت هجمات الحادى عشر من سبتمبر، وكانت أصعب اللحظات في العلاقة بين الإسلام والغرب، عقد جورج بوش الصغير اجتماعاً مع زعماء الجماعات

الإسلامية في البيت الأبيض. وبرزت يومها إمكانية فتح حوار مفيد لكلا الطرفين. وفي ذلك اليوم قال الشيخ حمزة يوسف:

إن الإسلام هو الذي اغتيل في قصف تلك الأبراج. كما قدّم الرئيس لضيوفه غصناً من الزيتون تعبيراً عن الرغبة بالحوار والسلام. ثم اجتمع الرئيس بوش مع القادة الأمريكيين المسلمين فى أول حفل إفطار يحضره رئيس غربي مع الجالية المسلمة. وتبادلوا كلمات الغزل التي تعبّر عن الرغبة بالحوار والتفاهم. لكنّ ذلك الحوار لم يستمر، فاتّجه الطرفان بعد ذلك إلى تبادل الاتهامات، فيما قامت الولايات المتحدة باحتلال أفغانستان والعراق، وبدأت بتهديد سورية وإيران، وطوال تلك السنوات، ظلّت الشرطة الأمريكية تلاحق وتعتقل المسلمين الأبرياء داخل أراضيها وخارجها.

فالغرب ماض في سياسة مزدوجة فيها الحوار وفيها المواجهة مع المسلمين جميعاً. ومن شخصيات سياسية غربية مرموقة هناك تصدر انتقادات قذرة للإسلام ولأهله، وبنفس الوقت تصدر اعتذارات وتعبير عن الرغبة بالحوار، فالرئيس الأمريكي بوش يعلن ذات يوم بأنها حرب صليبية على المسلمين. ثم يعتذر ويستبدل عبارته. وليس ذلك إلا تحايلاً على المسلمين جميعاً.

مراقبة الثقافة الإسلامية في الغرب

يجري الأمريكيون مراقبة دائمة وتحقيقات عن المناهج والمدارس الإسلامية في الولايات المتحدة كلها. ونشرت نتائج بعض التحقيقات على هذا النحو:

في مدينة نيويورك: كشف تحقيق من قبل نيويورك دايلي نيوز في ٢٠٠٣ عن أن الكتب التي يتم استخدامها في المدارس الإسلامية بالمدينة "تمتلىء بالأخطاء وعدم الدقة، والأحكام المطلقة والشاملة بإدانة اليهود والمسيحيين، وأفكار وتعبيرات تدعو إلى الإيمان بتفوق وسلامة وصحة الإسلام بالمقارنة مع الأديان الأخرى.

وفي لوس أنجلوس: أهدت مؤسسة عمر بن الخطاب ٣٠٠ نسخة تحمل عنوان (معاني القرآن الكريم) إلى إدارة المنطقة التعليمية بالمدينة في عام ٢٠٠١، وخلال بضعة شهور تم جمعها من المكتبات المدرسية بسبب ما جاء فيها من شروح وتفسيرات معادية للسامية. تقول إحدى التفسيرات أو التعليقات الواردة في كتاب معاني القرآن الكريم: "يَدعِي اليهود في تكبر أن قلوبهم انطوت على كل حكمة الله وعلمه. وإن إدعاءهم هذا لا يشهد فقط على كبرهم وغطرستهم وإنما أيضاً على افترائهم وكذبهم على الله. ولأجل هذه العبارة ومثيلاتها تم سحب النسخ بكاملهاوحظر تداول الكتاب.

وفي أجاكس، أونتاريو: معهد التعليم الإسلامي هو الطبعة الكندية لمدارس دوباندي الباكستانية. يهتم المعهد بالأمور الدينية فقط، يُلزم طلابه بحفظ القرآن، ويطالبهم بالانعزال والانفصال الكامل عن الحياة والثقافة الكندية، ويشترط الفصل الكامل بين الجنسين. وقد شكا طلابه السابقون من إخلاص وتفاني المدرّسة لرئيسها، عبدالماجد خان، بطريقة لا تراها إلا في جماعة دينية سرية، على حدّ قولهم. ومدرسة الجالية الإسلامية في بَتومَك، ام دي.، تتهم بأنها تملأ طلابها بشعور من الانفصال والاغتراب عن بلدهم.ويأتينا المراقب بهذه الأمثلة:

قالت ميريام بالصف السابع لمراسل الواشنطن بوست في ٢٠٠١، "كوني أمريكية لا يعني سوى أنني وُلدت في هذه البلد." وصرح إبراهيم في الصف الثامن أن "كوني أمريكياً لا يعني شيئاً بالنسبة لي".

وفي الأكاديمية السعودية الإسلامية بأليجزاندريا، ومنذ عام ٢٠٠٤، يحوي أحد كتب المناهج، وهو من تأليف ونشر وزارة التعليم السعودية، عبارة تقول: "كل الأديان، بخلاف الإسلام، هي أديان محرّفة وضالة، بما فيها دين اليهود ودين المسيحيين." ولهذا السبب تم حظر تدريسه.

مراقبة معهد العلوم الإسلامية

قامت حكومة الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٤ بإلغاء تأشيرات دخول ستة عشر شخصاً ينتسبون لمعهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا ، بفارفاكس، "جاء ذلك عقب توجيه اتهامات للمعهد، الذي هو بمثابة معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ومتصل بها عبر الأقمار الصناعية، مضمون هذه الاتهامات هو أنه يقوم بالدعوة لنوع من الإسلام يرى النقاد أنه إسلام متشدد متعصب لا يتسامح ولا يتعايش مع غيره من صور الإسلام ولا مع المسيحية واليهودية." فضلاً عن ذلك، فقد وضع المعهد تحت التحقيق لشبهة وجود صلات له بالإرهاب.

الجيل الجديد أكثر تشدداً

نذكر هنا النتائج الرئيسية لاستطلاع رأي أجراه معهد بحثي يميني، وهو معهد المبادلات الأمنية في بريطانيا:

استطلع خلاله آراء عينة عشوائية شملت أكثر من ألف مسلم ومسلمة يعيشون في أنحاء مختلفة من بريطانيا وقد أثار الاستطلاع جدلاً ومخاوف في المجتمع البريطاني، إذ كانت من ملامحه الرئيسية زيادة التشدد بين الشباب المسلم الذي يعيش في هذا البلد، وأن الجيل الأحدث أكثر تشددا من آبائهم:

٨٦ ٪ من المسلمين يشعرون أن الدين أهم شيء في حياتهم.

٣٦ ٪ من الشريحة العمرية بين ١٦ - ٢٤ عاماً يعتقدون بأنه ينبغي قتل من يتحول من الإسلام لاعتناق دين آخر، مقارنة بنسبة ١٩٪ بين من تتجاوز أعمارهم ٥٥ عاماً.

٦٢ ٪ من الشريحة ١٦ - ٢٤ عاماً يعتقدون أن المشترك بينهم وبين غير المسلمين مثله مثل ما يجمعهم ببقية المسلمين، مقارنة بقاسم مشترك أكبر في الشريحة العمرية التي تتجاوز ٥٥ عاماً، بلغ ٧١ ٪ .

٣٥ ٪ من المسلمين يفضلون إرسال أبنائهم إلى مدارس إسلامية.

فيما يفضل ٦٠٪ إرسال أبنائهم إلى مدارس الدولة المختلطة.

٣٧ ٪ مـن الـشريحة العمريـة ١٦ - ٢٤ يفـضلون إرسـال أبنـائهم إلى مـدارس إسلامية، مقارنة بنسبة ١٩٪ بالنسبة للشريحة العمرية فوق ٥٥ عاماً.

٢٨ ٪ من المسلمين في بريطانيا يفضلون العيش تحت حكم الشريعة الإسلامية، بينما تفضل نسبة ٥٩٪ العيش تحت القانون البريطاني.

في الـشريحة العمريـة الأصـغر، ١٦ - ٢٤ عامـاً، ترتفـع النـسبة لتـصل إلى ٣٧٪ يفضلون العيش تحت حكم الشريعة، بينمـا النـسبة للـذين تتجـاوز أعمـارهم ٥٥ عامـاً تبلغ ١٧ ٪ .

٧٤ ٪ مـن الـشريحة العمريـة ١٦ - ٢٤ عامـاً يفـضلون أن تختـار المـسلمات ارتـداء الحجـاب، مقارنـة بنـسبة ٢٨٪ فقـط مـن الـشريحة العمريـة الـتي تتجـاوز الخامـسة والخمسين.

٢١ ٪ من المسلمين تناولوا مشروبات كحولية.

٦٥ لا٪ يدفعون الفوائد على قروض الإسكان.

١٩ ٪ قامروا.

٩ ٪ اعترفوا بتعاطي مخدرات.

٧ ٪ معجبون بتنظيمات مثل القاعدة مستعدة لقتال الغرب".

ترتفع النـسبة إلى ١٣٪ في الـشريحة بـين ١٦ - ٢٤ عامـاً مـن الـشباب المسلم الـذين يعيشون في بريطانيا.

٤١ ٪ مـن مجمـل المـسلمين قـالوا إن الـسياسة الخارجيـة قـضية هامـة للمـسلمين ولكـنهم لم يكونـوا بالـضرورة أكثـر اطلاعـاً علـى الـسياسة الخارجيـة أو أكثـر انخراطاً فيها من المجتمع الأشمل.

٥٨ ٪ يعتقدون أن "الكثير من مشكلات العالم اليوم مرجعها التوجهات الغربية المتعجرفة.

٣٧ ٪ يعتقدون أن "أحد فوائد المجتمع الحديث هو حرية انتقاد الآراء الدينية والسياسية للآخرين، حتى إذا أخذ هذا على محمل الإساءة.

٢٨ ٪ من المسلمين يعتقدون أن السلطات في بريطانيا تبالغ في الحرص على ألا يفسر أي شيء على أنه إساءة للمسلمين أو مساس بما يخصهم.

٧٥ ٪ يعتقدون أنه كان من الخطأ أن أحد المجالس البلدية حظر الإعلان عن ترانيم أعياد الميلاد في المنطقة في عام ٢٠٠٣ خشية أن يحدث ذلك توتراً.

٦٤ ٪ يعتقدون أنه كان من الخطأ أن يحظر أحد المجالس البلدية كافة أشكال ورسومات الخنازير من مكاتبه.

نتائج ومعاني التقرير

من الملاحظ أن نتائج التقرير وإن كانت هنا تعتمد الدقة فلايمكن الأخذ بها على أنها مسلّمة نهائية. فقد تتضارب مع استطلاعات وتقارير ودراسات ميدانية أخرى.وهذا مالمسناه بعد مراجعتنا لتقارير واستطلاعات غربية كثيرة.

ينصح التقرير السابق بضرورة التوقف عن التأكيد على الاختلاف وإشراك المسلمين كمواطنين، وليس انطلاقاً من هويتهم الدينية الإسلامية.

إدرك التقرير بأن "الجالية" المسلمة ليست على نمط ونسق واحد، وأن السعي لإعطاء حقوق أو تمثيل لجماعات بعينها لن يخدم إلا في فقد ثقة قطاعات من المجتمع بشكل أكثر.

ضرورة الكف عن معاملة المسلمين على أنهم مجموعة مهددة أو ضعيفة أو عرضة للخطر، وأن تضخيم فكرة الإسلاموفوبيا أو وجود "ظاهرة لمعاداة الإسلام" لا يجعل المسلمين يشعرون بالحماية بل بدلاً من ذلك يعزز أكثر الشعور بأنهم ضحية وبأنهم مغتربون عن بقية المجتمع.

تشجيع نقاش فكري أوسع أفقاً لتحدي الكراهية التبسيطية للغرب ولما هو بريطاني التي تهيمن على الحياة الثقافية والفكرية. ويعني هذا السماح بحرية التعبير والتناظر والبحث، حتى إذا اقتضى الأمر المساس بمشاعر بعض الأقليات.

أخذ الأمور بالمنظور السليم، فـ"هوس" السياسيين والإعلام بتسليط الضوء باستمرار على المسلمين، سواء باعتبارهم ضحايا أو إرهابيين محتملين، يعني أن المسلمين يتم النظر إليهم باعتبارهم غرباء، بدلاً من كونهم جزءاً من المجتمع.

فصل مدرسة بريطانية منقبة

أقالت مدرسة ابتدائية بريطانية مساعدة مدرسية مسلمة كانت قد أوقفت عن العمل لارتدائها النقاب.

وكان قد طلب من عائشة عزمي، خلع نقابها بعد أن قالت المدرسة إن التلاميذ وجدوا من الصعوبة فهم دروسها.

وقالت عزمي إنها مستعدة لكشف وجهها أمام التلاميذ، ولكن ليس في حضور زملائها من الرجال.

من الواضح جداً أن ارتداءها النقاب في إطار الصف المدرسي يعيق قدرتها على مساعدة التلاميذ وتدريسهم.

وقال رئيس الوزراء توني بلير *إن النزاع حول النقاب جزء من جدل لازم حول طريقة اندماج المسلمين في المجتمع البريطاني وإن النقاب "علامة انفصال" تجعل الناس من خلفيات عرقية أخرى يشعرون بعدم الارتياح.*

وقال وزير شؤون مجلس العموم، جاك سترو، *إن ارتداء النقاب يجعل العلاقات بين الجماعات أكثر صعوبة.*

خاتمي: أنتم بريطانيون أولاً

حث الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي المسلمين البريطانيين على إطاعة قوانين البلاد وتقبل واجباتهم كمواطنين .

وقال خاتمي خلال زيارة لبريطانيا إن البلاد محقة في خوفها من التطرف، لكنه اعتبر أيضاً أنها زادت من المشكلة من خلال تورطها في العراق.

وقال إن مهمته هي إزالة الحواجز بين الغرب والشرق.

وفي هذا السياق أكد أن المسلمين البريطانيين يجب أن يعلموا أن لا واجب دينياً عليهم بارتداء النقاب، لكنه لديهم الحق في ذلك.

وقال مخاطباً مسلمي بريطانيا: "*أنتم بريطانيون أولا* ."

الخلط بين الدين وظاهرة التطرف

يخلط الغرب على الدوام بين الفكر الإسلامي الذي هو إيمان وتدين واعتناق دين سماوي، وبين ظاهرة التطرف الجهادي الإسلاموي، وهذا الخلط قد ينتج عن سوء فهم للإسلام أو جهل به عند البعض. وقد يكون متعمداً أحياناً ويهدف إلى استبعاد الظاهرة الإسلامية كدين يغزو عقول الشباب الأوروبي. ولذلك تستخدم ذريعة الإرهاب المتطرف. وفي هذه الحال ينطلق الغرب من عدائيته الموروثة للإسلام والمسلمين. فقد أصدر وزير التعليم العالي في بريطانيا بيل رامل دليلاً عملياً بشأن مواجهة الترويج "للتطرف باسم الإسلام". ويعتقد مسؤولون بوجود تهديد خطير بالرغم من أنه غير منتشر، للتطرف العنيف في الجامعات. وكانت "مديرية التعليم والمواهب" قد قررت أن الدليل ضروري بعد أن أجرت محادثات مع جامعات وطلاب مسلمين وأجهزة أمنية.

ويقول رامل إن التهديد حقيقي وجدي إلا أنه لا يريد أن تقوم المؤسسات التعليمية بالتجسس على الطلاب. "الموضوع جدي وعلينا ان نواجهه ولكن الموضوع يتعلّق ايضاً ببناء لحمة إجتماعية في جامعاتنا. الأمر يتعلّق بالتحدّث إليهم والاستماع إليهم

وإلى مخاوفهم والعمل مع الأغلبية الواسعة من الطلاب المسلمين وغير المسلمين الذين يناهضون التطرّف".

أما خبير الاستخبارات والأمن البروفسور أنطوني غليز الذي نشر تقريراً العام الماضي حذّر فيه من مخاطر تطرّف الطلاب، فاعتبر أنه يجب تشديد التحريات على الطلاب الأجانب. "لا بدّ من مقابلة الطلاب لمعرفة صدقية التزامهم بالتحصيل العلمي".

وقيل إن زرع أفكار متشددة لدى الطلاب من قبَل جماعات إسلامية يشكّل مشكلة متفاقمة في بعض الجامعات. ومن المضحك أنّ إحدى جامعات لندن عيّنت شيخاً إسلامياً معتدلاً لإبعاد عدد من الطلاب عن التطرّف. إلا أن تكتل "جمعيات الطلاب المسلمين" يصرّ على أن التشدّد ليس منتشراً.

ويقول رئيس شؤون الطلاب فيصل هانجارا إنه يعتقد أن هذه الخطوة لن تكون مفيدة بشكل عام لأنها تهدف لتضخيم التهديد وإعطائه حجماً أكبر مما هو عليه. وأعرب عن قلقه من أن تبدأ الإدارات في الجامعات والمدارس بالبحث عن أمور ليست موجودة في الأصل.

واتهم ممثلون عن "اتحاد الجامعات والمدارس الثانوية" الحكومة بأنها تريد من الإدارات التعليمية أن تقوم بملاحقة واضهاد الطلاب المسلمين.

تصريحات طائفية في هولندا

قال هيرت فيلدرز، وهو سياسي ليبرالي سابق يقود حزباً يمينياً، إن المسلمين *"يجب أن يتخلصوا من نصف القرآن إذا أرادوا البقاء في هولندا، وأنه يحوي أشياء فظيعة، وأنه كان سيطارد رسول الإسلام إلى خارج البلاد لو كان حياً الآن"*

وأضاف إن حزبه السياسي يسعى لإغلاق حدود البلاد أمام المهاجرين المسلمين، وأنه لاينبغي أن يتم افتتاح أية مساجد أو مدارس إسلامية في هولندا.

واعتذر متحدث باسم الوزارة وقال إن وزير الخارجية بوت أعرب عن أسفه بشأن آراء فيلدرز، وقال إن حكومة بلاده لا تشارك فيلدرز في توجهاته.

وفي هولندا أيضاً أعلن أحد زعماء الحزب المتطرف المعارض وهو برلماني عن دعوة حزبه لمنع تداول القرآن الكريم في هولاندا كلها. وتأتي هذه التصريحات ضمن سلسلة محاولات غربية لوقف المد الإسلامي في الغرب كله.

تربية الغربي هي السبب في نقده للقرآن

إن تربية المواطن الغربي وإخافته من الإسلام ومن اعتناقه أو التعاطف معه هذه الأسباب جعلت المبدأ المنتشر في الغرب هو معاداة الإسلام والقرآن. وإن الكثير من المسلمين الذين تعاملوا وتحاوروا مع الغربيين يقولون إن المواطن الغربي يصل معه إلى نتيجة يقول فيها: كلامكم يعجبني. وتعريف الإسلام يعجبني والحوار والتسامح والفكر الذي تعرضونه يعجبني بل ماأعظمه لكن.!!. أخشى أن أكون مخدوعاً. وأن يفتك المسلمون بنا. هذه الحالة هي حقيقة في الغرب وتعكس العقدة الغربية القديمة التي مازالت قائمة وهي عقدة الغرب من عودة المسلمين وكذلك عقدة الغربي من الإبادة التي سيتعرّض لها إذا ماهو تحالف مع المسلمين. يقول المفكر الفرنسي هنري دو كاسترو: آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القس أن هذا الكلام وكلام عيسى جاءا من مورد واحد. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب.). ثمّ كيف يعقل أن النبي ألّف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها كانت في تلك الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية، وما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب."

الدين والعلمانية الفرنسية

فرنسا ليست البلد الغربي الوحيد الذي يصر على الفصل بين الكنيسة والدولة - غير أنها تدافع عن هذا الفصل بضراوة تفوق غيرها من الدول.

فالعلمانية في فرنسا هي أقرب مفهوم بديل لدى أذهان الفرنسيين عن "دين الدولة" وقد كانت وظلت من المبادئ الرئيسية للفكر التقدمي للبلاد منذ القرن الثامن عشر وحتى هذا اليوم، فإن أي شيء يشتم منه رائحة اعتراف رسمي من جانب الدولة، بدين ما - مثل السماح بالحجاب في مدارسها - يعد أمراً لا يقبله الكثير من الفرنسيين.

وحتى من يعارضون فرض حظر على الحجاب يعارضون ذلك تحت اسم صورة أكثر حداثة ومرونة من العلمانية الفرنسية.

ويمكن النظر إلى الإرث العلماني في فرنسا على أنه أثر جانبي للكاثوليكية الفرنسية، حيث طالما نظر التقدميون الفرنسيون إلى المنبر الديني على أنه عدو، وليس منبراً بين منابر التعبير، خلافاً للوضع في بعض البلدان البروتستانتية .

ومفكرو التنوير الفرنسيون مثل فولتير وديدرو ومونتيسكيو نظروا إلى الدين على أنه عامل تفريق وإظلام وتعصب.

ثمّ جاءت الثورة الفرنسية لتجلب صداماً مباشراً بين الكنيسة والدولة، فقد صادرت الثورة أوقاف الكنيسة وجعلت رجال الدين يقسمون بالولاء للجمهورية الفرنسية .

وخلال الثورة وخلال فترة الإمبراطورية الفرنسية التي تلتها قاوم الفاتيكان النمط الجمهوري الذي كانت باريس تسعى لفرضه في أنحاء أوروبا.

وكان أن زحف الجيش الفرنسي على روما مرتين، مرة في ١٧٩٨ ومرة في ١٨٠٩ ، حيث اعتقل من رفض الانصياع من البابوات.

وتوصل نابليون بونابرت إلى درجة من التوافق مع الكنيسة، والتي أصبحت خاضعة لسلطة الدولة - وإن تُركت وشأنها طالما اقتصرت على الأمور الروحية.

واستمر هذا النوع من الاتفاق، والذي عرف باسم الكونكوردا، لقرن من الزمان، وفي عام ١٩٠٥ ومع تجدد حركة التحفز ضد رجال الدين، أعلنت الجمهورية الثالثة مرسوماً يقضي بالفصل بين الكنيسة والدولة.

ويعني قانون الفصل الحياد الصارم للدولة فيما يتعلق بالشؤون الدينية، فالدولة الفرنسية لا تسمح بالدعوة لأي دين في الأبنية العامة، وبالتأكيد في مدارسها حيث يجري تدريس مواطني الغد.

وتضرب فكرة الإصرار على خلو المدارس من أي صبغة دينية بجذورها في لب مفهوم المواطنة الفرنسية.

وطالما اعترفت الجمهورية بالأفراد، وليس بجماعات؛ حيث يدين المواطن الفرنسي بولائه للأمة، وليس لديه هوية عرقية أو دينية رسمية أمام الدولة.

ورغم أن هذا الأمر اشتط أحياناً، مثلما كان رعايا المستعمرات في يوم ما يلقنون أن أسلافهم كانوا من الغال - وهم الشعب الأصلي للفرنسيين - إلا أن هذا المنظور للمواطنة جامع مانع وغير تمييزي.

وفي هذا الإطار يتم النظر إلى الحظر على الرموز الدينية في المدارس، إذ يأتي اتفاقاً مع جذور أقدم للعلمانية الفرنسية.

وفي عام ١٩٣٧ أمر وزير التعليم آنئذ مديري المدارس بالإبقاء على كافة الرموز الدينية خارج مؤسسات التعليم.

وفي ذلك اليوم لم يثر هذا الأمر جدلاً، بل واجه معارضة واهنة وسط خضم مجتمع علماني دعم أمر الدولة بهذا الصدد.

وفي الستينات والسبعينات بدأت حركة هجرات ضخمة من مستعمرات فرنسا في شمال أفريقيا مما دفع بتحد جديد.

غير أن هذا لم يؤد إلى التشكيك في العلمانية الفرنسية، فالمهاجرون الأوائل لم يكن لديهم الرغبة في أن يجدوا في فرنسا التي قصدوها رجال الدين الذين خلفوهم وراءهم.

والكثيرون من هؤلاء المهاجرين القدامى يصدمون الآن حينما يجدون أولادهم يتبنون ممارسات إسلامية متحفظة، وهؤلاء تصدروا الدعوات المنادية بحظر الحجاب في المدارس.

غير أن الجيل الثاني والثالث الأصغر من المهاجرين يرون الأمور بشكل مختلف، فقد عاشوا في فرنسا ولم يعهدوا غيرها، وعاشوا في مناطق محرومة داخلها، وبالنسبة للكثيرين فإن التشدد والحجاب يعتبران وسيلة للتعبير عن الغضب ولتأكيد هوية مختلفة .

ولا يعرف على وجه التحديد عدد الفرنسيين المسلمين، ويرجح أن الرقم الذي يتم تداوله كثيراً وهو خمسة ملايين مسلم مبالغ فيه. غير أن الانتخابات الأخيرة لمجالس تمثيلية تشير إلى أن المسلمين المتشددين المعادين للعلمانية يتحدثون بصوت أعلى من زعمائهم الأكبر سناً والأكثر اعتدالاً.

وأمام هذا التحدي غير المسبوق بالنسبة لفرنسا، وجدت المؤسسة الفرنسية نفسها منقسمة، فالتقليديون داخلها شددوا على ضرورة تمسك الجمهورية بالمبادئ العلمانية الآن تماماً كما كان في الماضي بوجه الملوك الذي حكموا بزعم الحق الإلهي في القرون السالفة.

ويقولون إن الحجاب على الأخص لا يمكن القبول به في المدارس لأنه يمثل وسيلة دعاية لصورة غير متسامحة من الإسلام ورمزاً لقمع النساء.

غير أن أنصار الحداثة على الجانب الآخر قالوا إن فرض الحظر لن يكون من شأنه إلا تقوية المتشددين، وأشاروا إلى أن مبادئ العلمانية ليست منقوشة على حجر ويمكن أن تقبل باستثناءات.

فعلى سبيل المثال أبقى إقليما الألزاس واللورين - اللذان كانا ضمن ألمانيا حينما تم فصل الكنيسة عن الدولة في عام ١٩٠٥ - بنظام الكونكوردا الذي يسمح لرجال الدين بتلقي رواتب من الحكومة.

وقد ساد الكثير من التخبط فيما يتعلق بأمر الحجاب في المدارس، بين شد وجذب.

ففي عام ١٩٨٩ ألقت المحكمة الفرنسية العليا بثقلها وراء أنصار الحداثة، حيث حكمت بأن فرض حظر في المدارس على الإشارات الدينية "غير قانوني"، وهو الحكم الذي يظل سارياً حتى صدور مرسوم قانوني بخلاف ذلك.

غير أن المحكمة نفسها أقرّت بإمكان طرد طالب أو طالبة لارتداء علامة دينية تصل إلى حد الدعوة إلى دين معين أو التبشير به.

وفي عام ١٩٩٤ قال وزير التعليم إن الرموز "البارزة التي تحمل علامة التفاخر" يمكن حظرها، وترك الأمر لتفسير مديري المدارس.

وأعرب الرئيس الفرنسي جاك شيراك عن دعمه لقرار بحظر الحجاب والقلنسوة اليهودية والصلبان الكبيرة في المدارس.

حوار أم اقتتال ؟

المجتمعات الغربية التي تمثّل المواطن الغربي كلها قابلة للحوار وترحب به وتسعى له. ويتعين على المسلمين بكافة كياناتهم العمل بكافة الطرق لتمكين الحوار مع الغرب بصفته مجموعة مواطنين.

الأنظمة المزيفة الحاكمة في الغرب والتي تخدع مواطنيها تعيق الحوار مع المسلمين وتفرض مصالحها الخبيثة كنتائج للحوار. هذا مايحدث اليوم، لكن حركة الإسلام داخل أوروبا ستفرض على أنظمة الغرب أن تحاور المسلمين بعقل سليم.

ويأتي نفوذ المسلمين وتطورهم كعامل قوة في الحوار مع الغرب. فإيران الثورية الإسلامية تفرض بقوتها وحكمة سياستها ومنطق قراراتها تفرض على حكّام الغرب قبول القرار الإسلامي. وكذلك تركيا رئاسة وحكومة وشعباً اختارت الإسلام العلماني الواعي والمحاور القوي. والتي تتسم بالديمقراطية تركيا الجديدة تعتبر عاملاً رئيسياً ومهماً في فرض المحاورة السليمة والعادلة المنطقية مع الغرب وبنفس الوقت فهي عامل أساسي في مشروع أسلمة أوروبا.

يتعين على المسلمين أن يحدثوا شرخاً بين الغرب والصهيونية من جهة وبين الغرب والمسيحية من جهة أخرى. وهذا الشرخ موجود في حدّ ذاته على الصعيد الاجتماعي وهو يزداد باستمرار، لكنّ الذراع الصهيونية تستمرّ في فرض سيطرتها على الكيان الغربي وتحاول باستمرار ايجاد مبررات ومسوغات جديدة تحمل أساليب وطرقاً اقناعية تتجدد باستمرار وفق تجدد الحدث وتطوره. وليبحث المسلمون أيضاً عن فضاءات جديدة ويؤكدوا وجودهم فيها كدول الصين واليابان وروسيا وأفريقيا.

التجمّع المكاني الطائفي للمسلمين الفرنسيين

انتبهت السلطات الفرنسية إلى خطر التجمّع المكاني للمسلمين الفرنسيين، وانتهجت سياسة جديدة ومشاريع تهدف لدمجهم الاجتماعي مع غير المسلمين. لكنّ كافة هذه المحاولات لم تنجح حتى الآن، بل وتواجه برفض شديد من عامة المسلمين الفرنسيين وغير الفرنسيين. وهؤلاء يعتبرون الدمج منافياً للأخلاق والقيم الإسلامية. وقد فجرت احتجاجات أبناء الضواحي الفرنسية في مطلع ٢٠٠٧ أزمة تهدد النموذج المثالي الذي سعت فرنسا لتحقيقه والذي يهدف إلى تجميع مهاجرين من اصول وأعراق مختلفة من زنوج ومهاجرين من شمال أفريقيا ومزجهم في المجتمع الفرنسي، والمؤسسات المسئولة عن عملية الدمج عديدة وتأتي المدرسة في المقام الأول.

في ظل الحفاظ على النموذج التجميعي لجميع الأعراق في فرنسا اهتمت الحكومة الفرنسية فيما مضى بانحصار هؤلاء المهاجرين في أحياء خاصة بهم. مما أدى إلى تكوين أحياء يمثل ٩٠٪ منها مواطنون من أصول مغربية وجزائرية وهذا بالطبع أدى بدوره إلى جعلهم جماعة مهمشة وغير معترف بها، وفي السنوات الأخيرة أعلنت مشاريع دمج اجتماعي لهؤلاء المسلمين.

ولعله من الضروري أن يندمج مسلمو الغرب في المجتمعات الغربية وأن لايجتمعوا في أحياء خاصة بهم. فذلك التجمع المكاني يعيق تحاورهم مع الغرب المسيحي الذي يعيشون ضمنه ويلغي تماماً ميزة أنهم غربيين.

انكماش الفئات الإسلامية في الغرب

من الملاحظ أن الفئات الإسلامية في الغرب على اختلاف أنواعها تنكمش على نفسها وتعيش غربة عن المجتمع الغربي الذي هي جزء منه وغربة عن الحضارة التي هي تنتمي اليها. وتتعدد مظاهر هذا الانكماش، اذ نجد انكماشاً إسلامياً عاماً تجاه الغرب كله ، وانكماشاً سنياً جزئياً داخل الكيان الإسلامي المنكمش على بعضه أصلاً. وكذلك انكماشاً شيعياً وآخر اسماعيلياً وآخر إسلامياً كردياً ، وبهذه الانكماشات والتقوقعات تعود إلى ذاكرتنا صراعات الممالك الإسلامية القديمة في أوروبا من ناحية ، والانكماشات المذهبية والعرقية القائمة في البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى.

يشعر المسلمون في الغرب بالقلق والخوف من المجتمع الغربي الذي هو كيانهم. أي أنهم مازالوا يفصلون أنفسهم عنه رغم مرور السنين. ورغم ذلك فهم يشعرون بأن وجودهم مؤقت في تلك البلاد. ولامبرر لهذا الخوف ولالهذا القلق، لأنهم مواطنون كلّ المواطنة. إنهم لايستطيعون الاندماج في تلك المجتمعات رغم أنهم هم الذين اختاروا الانضمام إليها. انهم لايقدرون على التعايش والتفاعل مع تلك المجتمعات رغم مرور السنين.

ويلاحظ أيضاً أن العرب المقيمين في الغرب يحافظون على انتمائهم الأصلي بكل معانيه. فالسوري الفرنسي يعتقد بأن رئيسه هو السيد بشار الأسد وليس جاك شيراك، والأشخاص الذين تزوجوا من أوروبيات يلجؤون في آخر المطاف إلى تطليقهم والتزوج من عربيات.

أزمة المسلمين في التعبير عن الهوية

بعد إقامة عمرها ربع قرن ومتابعة للتحصيل العلمي العالي رزق عربي بمولود جديد ، فأطلق عليه اسم درويش. وعندما سألته عن السبب في اختيار هذا الاسم قال: " *أرسلت لأبي أخبره بالمولود الجديد فأمرني بتسميته درويش على اسم أبو جده* " .

ومن هذا المثال نلاحظ الارتباط المتين بين الفرنسيين العرب وموطنهم الأصلي بل وعاداتهم وثقافاتهم التقليدية. وكثيرة جداً الأمثلة المشابهة التي تدلّنا على تعلّق المغترب العربي بثقافته الاجتماعية وعلى إصراره على نقل هذه الثقافة بعيوبها إلى موطنه الجديد. واللافت أيضاً أنّ اسم درويش من حيث المعنى واللفظ والتقبل الإجتماعي العربي له يعتبر موجة قديمة باطلة، ومن النادر أن يسمى المواليد به في سورية. فكيف يصبح مقبولاً عند فرنسي من أصل عربي تثقف ربع قرن في أوروبا؟ أليسوا هناك يعيشون أزمة التعبير عن الهوية فيذهبون للتمسك بما يعتقدون بأنه الجذور العربية ؟. ألا يبالغون في التعبير عن تمسكهم بالجذور العربية؟. فيصبحون أكثر قدماً منا ؟.

نقلوا إلى الغرب المجتمع والعادات والموروث

رغم أن المجتمع العربي بخصوصياته ومشكلاته وفتنه الطائفية لايمثل الإسلام فإن العرب الأوروبيين يقومون باستيراد قوالب جاهزة من هذه المجتمعات العربية ويقيمونها كأسس لحيواتهم اليومية وكمناهج لمواقفهم العامة المتعددة. إذ تم نقل التكتلات المذهبية والطائفية والعرقية، فنجد هناك تكتلاً كردياً وآخر سنّياً وآخر إخوانياً وآخر شيعياً وتكتلاً للأثرياء وآخر للفقراء وتكتلاً لرجال السفارات الذين يمثّلون السلطات في بلدانهم. ويتم نقل عظائم الأمور وصغائرها، فصورة المسلم الذاهب إلى المسجد والذي يحرص على شكليات تافهة كالثوب الأبيض وحمل السبّحة والتسوك بالمسواك، هذه الصورة التي نراها في دمشق والقاهرة تم نقلها إلى باريس ولندن رغم تفاهتها. وبفضل هذا النقل الدائم والمستمر أصبحت التجمعات الإسلامية في أوروبا نسخاً مصغّرة عن المجتمعات العربية، وهذا مايعيق اندماجها في المجتمعات الغربية. ويعيق فهم المسلمين للغرب نفسه وبنفس الوقت يعيق فهم الغرب للإسلام وللمسلمين الأوروبيين. ويصبح التمازج الاجتماعي حلماً بعيد المنال.كما وأصبحت مشكلات المسلم اليومية هي نفسها مشكلات المسلم العربي، إذ لم يسع المسلم الغربي ولم يتمكن من ابتداع أفق إسلامي أوروبي جديد، ذلك الأفق الذي

كـان يتوجـب عليـه أن يوجـده منـذ عقـود.ولم يـستطع أيـضاً أن يـتخلص مـن عيـوب المجتمعات العربية. ولمّا كان الغرب يجري دراسات وأبحاثاً للتعرف على الإسلام ومن خلالها يريد التوصل لطريقة فهم المسلمين الأوروبيين، وبسبب عملية النقل الدائم من البلدان العربية إلى الغرب توجب على إدارات تلك الدول أن تجري دراسات لانهاية لها عن مشكلات المجتمع العربي.

الفضاء الإسلامي في أوروبا

انّ عجز مسلمي أوروبا عن التمازج مع مجتمعاتهم الغربية وتخلفهم عنها جعلهم يجتهدون في تشكيل فضاء إسلامي خاص بهم. ومن بين أشكال ذلك الفضاء سعيهم لتأسيس مدارس خاصة بالجالية الإسلامية، بحيث تقوم بتدريس العربية والدين الإسلامي وتحافظ على الانتماء العروبي وللإسلامي للأبناء. ولعلّ من أهم ميزاتها أنها تسمح بارتداء الا عجاب الإسلامي للفتيات المسلمات. ورغم أن تلك المدارس تحقق هذه الإيجابيات الثلاث للمسلمين لكنها في الوقت نفسه ستعزلهم عن محاورة الأفراد الغربيين والتعايش معهم وتبادل التأثير فيما بينهم. وستكون عقبة في تطور أولئك التلاميذ وفي مجاراتهم للمجتمع الغربي ولخصائصه. ونعتقد أن ظاهرة المدارس العربية هذه تخالف المنطق الحضاري نفسه والذي لأجله اختار أولئك المسلمين الإقامة في دول الغرب. فهنا في دمشق نجد صورة عكسية لتلك، إذ يرسل أبناء الأحياء البعيدة عن المدينة أولادهم إلى مدارس في المدينة ليتمازجوا مع أفراد متحضرين ومعلمين مميزين، ومن أشهر المدارس الدمشقية العريقة تلك التي قام الفرنسيون بتأسيسها أيام الانتداب الفرنسي لسورية. ففي هذه المدارس يختلط التلاميذ مع مواطنيهم المسيحيين ومعلميهم الذين من بينهم رهبان وراهبات. ولايجد المسلمون المتدينون حرجاً في ذلك أبداً. وأعتقد جازماً بأننا لو قمنا بنقل عائلة إسلامية تحرص في فرنسا على تسجيل أبنائها في مدارس عربية، لو قمنا بنقلها إلى دمشق لسعت بكل قوة لتسجيل أبنائها في المدارس الفرنسية الأصل في دمشق. وهنا صورة التناقض في تلك الشخصيات الإسلامية الفرنسية.!!.إنهم هناك يبنون وجودهم

على أساس التميز الإسلامي. ويتمثّل هذا التميز في التصدي للثقافات العقلانية والعلمانية الجديدة سواء أكانت صادرة عن الغرب نفسه أو عن المسلمين المتنورين.

ألمانيا ساحة إسلامية حقيقية

ألمانيا اليوم هي ساحة إسلامية حقيقية وفضاء إسلامي حقيقي، لقد جاء اليوم الذي نستطيع فيه أن نقول إن دولة غربية أصبحت فضاءً إسلامياً.

فقد هاجر العرب والمسلمون بكثافة كبيرة إلى الألمانيتين بدءاً من النصف الثاني من القرن الماضي. وكانت الألمانيتين ترحّبان بهجرتهم ويعود ذلك إلى أسباب سياسية وتاريخية كثيرة ترتبط بتاريخ ألمانيا الهتلرية المعادي للغرب. فقد تحالفت ألمانيا الشرقية مع الدول المعادية للصهيونية ولكيانها، وقامت بتصدير بعض الأسلحة إليها، واستقطبت المهاجرين الفلسطينيين والأكراد والسوريين وغيرهم. وفي زمن عبد الناصر المصري أمدّت ألمانيا الغربية الجيش المصري بالأسلحة والخبرات لمواجهة الصهاينة. ونتج عن ذلك كله كثرة المسلمين الألمان الذين يتواجدون وأبناءهم أو أحفادهم الألمان اليوم. ولهذا يكثر الجدل حول أسلمة ألمانيا في الدولة كلها. فتشاهده في الشوارع وفي المقاهي وتستطلعه بكثافة على صفحات الأنترنيت. فهناك جناحان قويان بنسبة متساوية تقريباً. وهما المسلمون المتواجدون بقوة والذين يجرؤون على فرض قيمهم وعقائدهم والذين يقولون كلمتهم فتصل إلى السلطات وتأخذ بها أحياناً مضطرة أو متعاطفة. وهناك المسيحيون المتطرفون الذين يعملون بقوة على وقف التمدد الإسلامي في ألمانيا. وأمام ذلك المشهد يقف مسلمو العالم متفرجين وينتظرون ماستؤول إليه تلك المعركة الثقافية الهادئة.

ولأنّ ألمانيا تختلف عن الغرب كصفة عامة لها، فالألمان يبدون اليوم أكثر إقبالاً على اعتناق الإسلام من أبناء الدول الغربية الأخرى.

المسلمون الألمان

ينتشر الإسلام في ألمانيا أكبر منه في معظم دول أوروبا. وفي أيلول ٢٠٠٧ أعلن عن القبض على متطرفين إسلاميين هم من أصل ألماني مسيحي. وهذا ماأشغل ألمانيا كلها. فلم يعد التطرف الإسلامي يأتي من الخارج، بل أصبح نتاجاً أوروبياً. وما يعنينا من ذلك الحدث هو أسلمة الغربي.

تضطلع هيئة حماية الدستور برصد أنشطة المتطرفين، بما فيهم الجماعات الإسلامية. وتشرح كلاوديا شميد، التي تدير فرع الهيئة في برلين، سبب اعتبار الإسلاميين الذين لا ينتهجون العنف مبعث تهديد. وتقول "بإمكان هذه الجماعات أن تزاول أنشطتها وتروّج لأفكارها، ولكن لا ينبغي عليها أن تتوقع أن تتلقى أموالا من الدولة إذا كانت تسعى لتدمير اللبنات الأساسية والأصلية لدستورنا. وتراقب هيئة حماية الدستور الألماني - التابعة لوزارة الداخلية الألمانية - عن كثب الجماعات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين ونظيرتها التركية المعروفة باسم ملي غوروش. والانتماء إلى تلك الجماعات أو الاتصال بها قد يعرّض الشخص لعدم الحصول على الجنسية الألمانية وعدم الحصول على الدعم الحكومي. فالمواطنة المسلمة التي تعمل في أوقات فراغها كمتطوعة مع مجموعة شبابية إسلامية. ولأن تلك المجموعة تعمل مع جماعات عربية وتركية للإسلاميين، فقد تم حرمانها من التمويل الحكومي.

توتّر العلاقة بين الكنيسة البروتستانتية والجالية المسلمة في ألمانيا

لا توجد جالية دينية في ألمانيا تتنصل بكل صراحة ووضوح من العنف الناتج عن بواعث دينية مثل الجالية الإسلامية. وبالرغم من ذلك لا يزال رئيس الكنيسة في ألمانيا الأسقف فولفغانغ هوبر يطالب المسلمين بالتنصل من العنف، وكان آخر ذلك في ختام مؤتمر الكنائس البروتستانتية في تشرين الثاني٢٠٠٧.

وفي المؤتمر الصحفي الختامي قال رئيس الكنيسة إن التسامح لا يؤتي ثماره لأن الفروق الحقيقية لن تظهر في الحوار كما هو الحال في قصة الخواتم الثلاثة

المتطابقة في الشكل في قصة "ناتان الحكيم" للكاتب ليسنغ. وشدد الأسقف هوبر بالطلب على أن تظهر الكنيسة "بصورة خاصة" تميزها بوضوح عن الديانات الأخرى، وهو يقصد بذلك الإسلام.

ويتسائل الأسقف هوبر: هل يفتقر الحوار الإسلامي المسيحي إلى الموضوعات أم أنه في مأزق لا مخرج منه؟

في الحقيقة هناك توتر في الحوار الإسلامي البروتستانتي، وصارت القوى المعتدلة من الجانبين دون أهمية في الوقت الحاضر.

وهذا الوضع لا يساعد على خلق ثقة متبادلة. وهذه الثقة ضرورية لمناقشة المسائل الحرجة بالفعل. أضف إلى ذلك أن المسلمين غالباً ما يُظهرون فقط الجانب الحسن للديانة الإسلامية أثناء حوارهم مع المسيحيين.

قال رئيس الفيدرالية البروتستانتية في فرنسا جون أرنولد دى كليرمون أثناء إحدى المؤتمرات الإسلامية المسيحية في باريس إنه إذا ما أردنا مستقبلاً إسلامياً مسيحياً فلا بد من مواصلة الحوار الأوروبي بين المسلمين والمسيحيين. وأثناء هذا المؤتمر الألماني الفرنسي أيد نائب رئيس الكنيسة البروتستانتية في منطقة راين لاند، القس كريستيان، هذا الرأي دون أية تحفظات.

ولكن إلى أي اتجاه ينبغي أن تسير الجهود من أجل الحوار في المستقبل؟ هل نبقى على نفس المنهاج؟ إنه حقاً لن يكون من الحكمة بمكان.

جماعة "ميللي غوروش" الإسلامية في ألمانيا

ينتمي إلى الجمعية أكثر من ستة وعشرين ألف عضو أغلبهم من أصول تركية، وبذلك تُعتبر ثاني أكبر منظمة إسلامية في ألمانيا. ولها تأثير لا يُستهان به على عدة مساجد من خلال أعمالها الشبابية. وقد أسسها نجم الدين أربكان السياسي التركي المعروف بحكمته. وتم تصنيف "ميللي غوروش" من قبل سلطات

الأمن الألمانية على أنها جمعية متشددة، بيد أنها تعتبر نفسها ذات اتجاه وسطي تمارس الحوار.

تحدثت دائرة حماية الدستور الألماني عن الجمعية ووجّهت إليها اتهامات عديدة فقد ورد في التقرير الأخير لها:

إنّ مجموعات مثل "جمعية ميللي غوروش الإسلامية" تطالب بـ "إقامة وتوسيع الأوساط الإسلامية في ألمانيا"،

بالنسبة لحركة "ميللي غوروش" فإن الإسلام يفهم كنظام سياسي واجتماعي شامل يلغي التصورات الأخرى، صحيح أن الجمعية تؤيد علناً اندماج المسلمين في ألمانيا، ولكنها تُعثر جهود الدولة في هذا المجال من خلال دمغه على أنه ذوباناً وليس اندماجاً.

وتنفي الجمعية عن نفسها تصنيف السلطات الألمانية لها على أنها منظمة "إسلاموية". ويتساءل الأمين العام للجمعية، أوغوز أوجونجو: "ما الذي نقوم به من نشاطات مختلفة وينتمي إلى بنيتنا التحتية ويتعارض مع النظام الدستوري الألماني؟" فالتصاريح الرسمية للجمعية ليست سياسية متطرفة. وتعترف الجمعية علناً وليس فقط بشكل صريح بالنظام الأساسي الديمقراطي الحر في ألمانيا، وتمدحه كمثل أعلى للدول الإسلامية. وتعمل "ميللي غوروش" جاهدة لتفعيل الحوار مع الجمعيات المسيحية واليهودية. وتندد بشكل دوري بالهجمات الإرهابية التي تقوم بها جماعات إسلامية متطرفة. كما أنها تحث أعضاءها إلى تعلم اللغة الألمانية والاندماج في المجتمع والحصول على الجنسية الألمانية. وهي بلا شك أكثر انفتاحاً على الغرب من الجمعيات الإسلامية التي تشمل أصولاً عربية.

وقد اتهمت الجمعية بمعاداة السامية بسبب مقال ورد في صحيفتها الدورية ميللي غازيته، وكانت الصحيفة قد رأت في عام ٢٠٠٣ أن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول تشكل جزءاً من مؤامرة صهيونية عالمية. وفي عام ٢٠٠٥ وصف رئيس منظمة الشبيبة التابعة للجمعية ديمقراطية الغرب "بالحضارة المزيفة ."

وثمة اتهام آخر موجه لجمعية "ميللي غوروش"، هو أن الجمعية لا تضع مسافة كافية بينها وبين "الأب الروحي"، ورئيس الحكومة التركية السابق، نجم الدين إربكان. وتطالب الحكومة الألمانية أن تنفصل الجمعية عن أربكان انفصالاً تاماً.

وبالإجمال فانّ جمعية ميللي غورش تعمل بوعي وبحكمة. وهي تتطور باستمرار داخل ألمانيا وتقوم برعاية مصالح المسلمين فيها. ورغم ذلك فقد قاطعت الجماعة مؤتمراً للحوار بين الأديان انعقد في ألمانيا بتاريخ ١٣ تموز ٢٠٠٧ وفي كلمتها للمؤتمر انتقدت رئيسة وزراء ألمانيا جماعة ميلي غورش واعتبرتها متطرفة، وبدأت مواجهة جديدة بين الجمعية والحكومة الألمانية.

مسلمو البوب في ألمانيا

فئة من المسلمين الألمان أطلقت على نفسها اسم (مسلمي البوب) وتقول فتاة من هؤلاء: "أنا مسلمة وهذا قمة العصرية"، هذه هي فحوى الرسالة التي يقولها مسلمو البوب في ألمانيا. يبدو وكأنّ اعتدادًا إسلاميًا جديدًا بالنفس في طور النشوء. يريد النشء المسلم تغيير صورة الإسلام في ألمانيا نحو الأفضل بعد أنْ أصابها عطب شديد بسبب الإرهاب. لذا ينشط هؤلاء لصالح المجتمع، فيقدمون دروسًا إضافيةً لمساعدة التلاميذ في حل واجباتهم المدرسية على سبيل المثال، أو يوزعون شطائر الطعام على مدمني المخدرات وعلى المشردين. إلا أنهم ليسوا ليبراليين على الرغم من إطلالتهم الواثقة غالبًا، فمسلمو البوب يضعون الإسلام فوق كل شيء، بما في ذلك الحكومة والدستور، ولا يريدون لأولادهم أنْ يشاركوا في دروس السباحة، ويعتبرون أنّ للرحلات المدرسية مردودًا سلبيًا على تلاميذ المدارس. يبدو أن هناك ثقافة نشء إسلامية جديدة في طريقها للتطور، حيث لا تناقض فيها بين أنْ يكون المرء مؤمنًا متدينًا ومواطنًا صالحًا في آن. مسلمو البوب ينشطون لصالح المجتمع ويريدون المشاركة في صياغته، لكن من وجهةٍ إسلاميةٍ، ويلخّص موقفهم بعبارة نعم للاندماج ولا للانصهار. إنّ مسلمي البوب يضعون الله فوق الحكومة والقانون وإنّ لحركة البوب الإسلامية فهماً إسلامياً أقرب للمحافظة.

اختبارات خاصة بالمسلمين

يتم اختبار المسلمين في أغلب دول الغرب قبل منحهم الجنسية الغربية. ويرتبط هذا الاختبار عادة بمستوى خضوع المواطن لعقلية الغرب ولمستوى ابتعاده عن التطرف الإسلامي بل والإلتزام بأخلاق الإسلام عموماً، ومن هنا فهذا الاختبار عنصري وظالم وترفضه جماعات حقوق الإنسان ومنظمات مكافحة العنصرية. ففي ألمانيا تم استحداث اختبار في ولاية بادن- فورتتبورغ بات يطلق عليه "اختبار المسلمين وإن أحد الأسئلة الحساسة تتعلق بحقوق المثليين.

يقول أحد الأسئلة "اكتشفت أن ابنك مثلي، ويأتي إليك ذات يوم ويقول: يا بابا، أود الزواج برجل ألماني مثلي. كيف سيكون رد فعلك؟

ويقول الصحفي أريكان "هل تتوقعون مني أن أضرب ابني، أو أقوم بما يطلق عليه "جريمة شرف"؟ هذا أمر سخيف حقاً.

ومن الأسئلة الأخرى التي يشملها الاختبار كيف تنظر إلى الرأي القائل إن على المرأة طاعة زوجها، ويمكنه ضربها إذا لم تفعل ذلك؟

- لو علمت أن أشخاصاً في الحي الذي تقطن فيه أو من أصدقائك أو معارفك نفذوا أو يخططون لتنفيذ عملية إرهابية، ماذا تفعل؟

- بعض الناس يحمّلون اليهود مسؤولية كل شرور العالم، ويدّعون حتى أنهم كانوا وراء أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر عام ٢٠٠١ في نيويورك. ما هي نظرتك إلى هذا الرأي؟

وفي أوستراليا تم استحداث اختبار جديد للحصول على الجنسية، ويتضمن الاختبار أسئلة صعبة كالسؤال عن تاريخ أوستراليا، وعن أول من اكتشف القارة الجديدة وعن القوانين المحلية هذا إضافة إلى الأسئلة المتعلقة بالتطرف وبالانفتاح على المجتمع الأوسترالي.

لماذا تفشل مشاريع الإندماج في الغرب؟

تفشل مشاريع اندماج المسلمين في الغرب وبنفس الوقت مشاريع اندماج المتطرفين في مجتمعهم الإسلامي الصغير في الغرب، ومشاريع اندماج هؤلاء المتطرفين في المجتمع العام الغربي كله.

يحمل أي المسلم مقيم في دولة غربية مشروعاً ثابتاً في ذهنه، فهو في أحسن الحالات يتقبل الحوار لكن لايتقبل الانصياع لمباديء جديدة ولايتقبل الانحلال في المجتمع الغربي. ومن عناصر المشروع الثابت في ذهن المسلم:

اعتقاده الثابت بأنه قرر الإقامة في المجتمع الغربي ليحقق فوائد لم يستطع تحقيقها في موطنه السابق، وستكون هذه الرغبات مالية أو علمية أو العيش في الحرية أو تمتعه بميزات الحضارة الغربية الكثيرة والمتنوعة.أو انفلاته من تخلف وفقر المجتمعات العربية.

إن مشروع المواطنة الجديد بالنسبة له هو مشروع مكمل وتابع لمواطنته الأصلية في بلده الأصلي، ولذلك فهو لن ينسلخ عن مجتمعه الأصلي السابق بل سيبقى على تواصل معه، أي أنه لن ينسلخ عن أخلاقيات وعادات وعقائد (وتطرف عند البعض) مجتمعه الأصلي. ورأينا أن المسيحيين العرب الذين توطّنوا في أمريكا وكندا لم ينتموا إلى المسيحية الغربية بل حافظوا على مسيحيتهم الشرقية وأقاموا كنائس خاصة بهم.وظل الجيل الثاني والثالث منهم ينتمي إلى هذه الكنائس الشرقية. وبنفس الوقت فقد حافظوا على طبائع شرقية تميزهم عن المجتمعات الغربية.

ظلّت مشاركات العرب المغتربين قائمة وثابتة في بناء وتطوير وتثقيف المجتمع العربي الإسلامي. فمنذ الهجرات الأولى أتحفنا الشعراء بالقصائد العربية المميزة، وحتى اليوم مازال المفكرون والباحثون العرب المغتربون ينشغلون بأمور مجتمعاتنا.ويبحثون لنا عن الحلول. وبمتابعة وسائل الاعلام العربية نجدهم يشاركون في برامجها واستطلاعاتها باستمرار. وبرغم الهجرة والمواطنة فإنهم يعيشون هناك أجساداً لكن عقولهم وقلوبهم تتجه إلى مواطنهم الأصلية. وهذه الحال لاتنطبق بالضرورة على كافة الشعوب الأخرى التي توطنت في الغرب.

إن العربي المسلم المقيم في الغرب ينتمي في وقت واحد لمجتمعين وهما مجتمعه الشرقي المسلم الأصلي الثابت بالنسبة له ومجتمعه الغربي الجديد وسيبقى يحاول التوفيق بين هذين الانتمائين. وإن محاولاته التوفيقية تلك ستزيد من غربته ونكره للمجتمع الغربي. وفي كل أداء يفعله سيقيس أداءه وفق معيارين كبيرين هما معياره الأصلي ومعيار المجتمع الغربي الجديد، فإن سمح له المجتمع الجديد بالقيام بعمل أو أداء ما فإنه يجد قوة ضاغطة تجعله يقيس هذا الأداء بمعيار انتمائه الأصلي. وإن حالة الانتماء الدائم إلى مجتمعين تحمّل الفرد عبئاً ثقيلاً إذ إنه يعيش مع نقيضين اثنين، بينما المواطن الغربي الأصل الذي يتعامل معه يعيش مرتاح البال من هذه الناحية لأنه لايحمل هذين النقيضين. وعندما يصبح الفرد مشتتاً بين انتمائين وعندما يصبح في حالة اضطراب حتمية بين شد أمامي وشدّ خلفي معاكس يتوجب على هذا الفرد اتخاذ قرار يحل مشكلته. وهنا وفي أغلب الأحيان يعود إلى الالتزام بروابطه الأصلية ويقوم بتعميق هذا الالتزام فيصبح البعض أكثر تديناً مما كانوا عليه في موطنهم الأصلي، ويصبح آخرون أقرب إلى التطرف ويصبح قسم منهم متطرفاً حقيقياً.

لأن الغرب بديمقراطيته يبيح للفرد حالة التطرف الديني السلمي هذا التطرف الذي تلحظه وتميزه أجهزة الأمن والحكومة العربية وتمنعه في بلدانها، يلجأ إليه المسلم المواطن في الدولة الغربية ويعتبره شكلاً لممارسة الحرية التي حرم منها في بلده.

إنّ توطّن مواطنين هنود ويابان وأفارقة في المجتمع الغربي أسهل من توطن المسلمين فيه لأن أولئك لايحافظون مثلنا على انتمائهم الأصلي. ولأن ذلك الانتماء لايحوي روابط وميزات المجتمع العربي المسلم. ففي مطلع العام ٢٠٠٦ تظاهر الفرنسيون من أصل جزائري وأحرقوا حوالي خمسة آلاف عربة وحافلة، وقد مضى على إقامتهم في فرنسا نصف قرن من الزمن، ورغم ذلك فإنهم مازالوا يعيشون في أحياء تعزلهم عن المجتمع العام كله، ولم يقدروا على الامتزاج مع ذلك المجتمع.

خوف البعض من نتائج التحديث

يخشى جيل الشباب المسلمين في الغرب من النتائج التي قد تحدث لهم في حال رضاهم وموافقتهم على تحديث المفاهيم الفكرية لديهم. إذ تضع الحداثة الكثير من القيم والتقاليد موضع مساءلة. فمثلاً الحرية الشخصية على الطريقة الغربية ينظر إليها من طرف كثيرين لا فقط كأمر متناقض مع المبادئ الدينية بل كأمر متناقض مع أسس الحياة الاجتماعية. وينظر بشكل أخص إلى تحرر المرأة بالكثير من الارتياب انطلاقاً من تقليد شرقي يتأسس على الأبوية المطلقة. وبمقدار ما يصبح بالإمكان أن تحسب كل هذه المستجدات على الغرب يسهل الحكم عليها بالرفض. ومن هنا نلمس الانتشار الأكثر للتطرف الديني بأنواعه ودرجاته عند مسلمي الغرب وتضاؤله عند مسلمي البلدان الإسلامية. وهذا الخوف من نتائج التحديث في الفكر الإسلامي موجود عند المسلمين عموماً. ونلمس نتائجه المؤلمة التي أدّت إلى تخلف الفكر ثم المجتمعات الإسلامية.

اتّساع المجتمعات الغربية

بالاطلاع على التنوع الكبير لانتماءات الأفراد داخل المجتمعات الغربية نكتشف أن مجتمعاتنا تكاد تكون ذات نمط انتمائي واحد. اذ تعتبر الولايات المتحدة هي البلد الأكثر تنوعاً للمواطنين في العالم: فهي تحوي كافة الجنسيات والأعراق والقوميات والديانات والمذاهب والحركات العديدة التي تتبع كافة المناهج التي عرفها العالم. إضافة إلى الأحزاب الامريكية والعالمية، واذا قمنا بتقسيم الانتماءات داخل المجتمع الأمريكي فستكون الأرقام كبيرة جداً. ومن المفيد أن نتعلم من الأمريكيين الذين استطاعوا ضبط كل تلك الانتماءات لتؤدي في النتيجة أدواراً تصب في صالح الدولة،

ففي الولايات المتحدة مثلاً زنجي أفريقي وبوذي هندي وكوري ويهودي وأوروبي ودرزي لبناني وشيعي عراقي وعلوي سوري واسماعيلي باكستاني وإخوان مسلمون

وألماني متعصب قومي وياباني.. الخ وتلك كما نرى انتماءات متباعدة كثيراً ولانجد فيها اقتتالات. بينما مجتمعنا يضيق بنا ويضمنا ويحوينا فيجعلنا حزمة واحدة ونحن في الحقيقة كذلك. فالفلسطينيون الذين تقاتلوا في غزة خلال شباط ٢٠٠٧ هؤلاء إخوة بالفعل. فمقاتل فتح تناول الطعام مع مقاتل من حماس قبل أيام، وهم في بعض الحالات إخوة أو أبناء عم . وقبل أسبوع واحد كانوا يتصدّون معاً للعدو الصهيوني.

وهنا نستطيع أن نطرح هذا السؤال:

- لماذا لاتشكل عوامل التنوع الانتمائي الكبير في الغرب اقتتالات داخلية، وبنفس الوقت فهي تتسبب في مجتمعاتنا باقتتالات كثيرة؟؟

ان الوضع العام في بلداننا غير مستقر وحتى يومنا هذا مازالت بلداننا في مرحلة البناء والتطوير، إننا في حالة قلق دائم،وهذا القلق ينعكس على الأفراد ويظهر بطرق التعبير عن الانتماء الصغير. مواطننا مازال يسعى للحصول على لقمة الخبز، فهو في حالة صراع كامن ودائم مع المجتمع العام كله.

الغرب يتدخل بوضوح كبير وهو يعلن عن تدخلاته وأعماله الخبيثة التي تهدف إلى قيام النزاعات الطائفية والعرقية وغيرها. وإن كل متابع للأحداث يلمس وضوح ذلك التدخل ووقاحته. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

أزمات المسلمين الأوروبيين

- في الغرب أفراد وجماعات وأحزاب لاتريد التحاور مع المسلمين الأوروبيين، وتسعى للحد من هذه الظاهرة، وأوروبيون آخرون يسعون لتضييق الخناق على المسلمين هناك. الأمر الذي يقلق المسلمين باستمرار ويهدد راحتهم وأمنهم.

- حمل المسلمون معهم من بلدانهم الأصلية تخلفهم في فهم الإسلام وحافظوا عليه هناك، وتعاملوا مع المجتمع الجديد وفق هذا المفهوم الخاطيء عن الإسلام. فكانت نتيجة ذلك إشكالية في علاقتهم بالمجتمع الغربي، وإشكالية مواطنتهم وحقوقهم المتنوعة. فالمسلم الغربي يماثل المسلم العربي في معرفته عن الإسلام، وهو

يعاني من مشاكل الربط بين الإسلام كعقيدة والحياة اليومية التي يعيشها. كان يتوجب على المسلمين الأوروبيين أن يتطوروا في فهم الإسلام، ويتخلّصوا قبل ذلك من مشاكلنا نحن، ويأتونا بنظريات جديدة في فهم الإسلام. لكنّ هذا لم يحصل. بل إنّ ماحدث هو العكس فهم مازالوا يعتمدون على فكرنا الإسلامي السائد (وهو الفكر الناقص والمشوه للإسلام) وهو الفكر الدارج في البلدان العربية ويحرصون على استيراده باستمرار، ويقومون بتقليده. ولأسباب عديدة فهم يتعصبون له أكثر من تعصبنا نحن لهذا الفكر.

- فيما نحن نعتقد بأن تطوير الفكر والبحث الإسلامي، وتطوير فهم الإسلام وتعايشه مع الحضارة العالمية الجديدة، نعتقد بأن ذلك سيأتينا من المسلمين الغربيين، لأنهم أكثر اطّلاعاً على مكونات الحضارة الغربية الحديثة وعلى علوم الغرب، في الوقت نفسه فإن المسلمين الغربيين يعتقدون بأن مصدر الفكر والفهم الإسلامي ينحصر في نتاج المسلمين العرب، وفي الفقه الموروث، ويعتقدون بأن أيّ تحديث في الإسلام الموروث والدارج في بلداننا إنما هو نوع من الابتعاد عن الإسلام نفسه.

- يقوم المسلمون بمحاولة فهم كافة مظاهر الحضارة الغربية والتعبير عنها وفق مفاهيمهم الدينية الإسلامية السائدة، بما في ذلك العلمانية الغربية وكافة العلوم الحضارية.ولأن مفاهيمهم الإسلامية ناقصة، فإنهم لن يتوصلوا لإدراك الأبعاد العقلانية لتلك الحضارة.ولن يقدروا على التحاور معها.

- لقد تخلّف المسلمون الأوروبيون كثيراً عن فهم الغرب واللحاق بركبه، وتأخروا زمنياً عنه، فهم مازالوا يطرحون مشكلات وقضايا كان يتوجب عليهم أن يتوصلوا إلى حلول لها منذ عشرات السنين. فهم مثلاً مازالوا يتساءلون عن قدرة الإسلام على التعايش مع الغرب ومؤسساته. ويعظّمون مشكلات تافهة وصغيرة. فمشكلة حجاب تلميذتين مسلمتين في فرنسا شغلت المسلمين عقداً كاملاً من الزمن، واجتهد في تحليلها آلاف الإسلاميين، بل وصدرت عنها مؤلفات وكتب. ومن

المؤكد أن مشكلة مشابهة لو حدثت في دولة عربية فلن تشغل المسلمين أنفسهم الذين انشغلوا بتلك القضية الفرنسية.

• إنّ خيار المواطنة في أوروبا يعتبر بالنسبة لجميع المسلمين المهاجرين قفزة كبيرة ومشروعاً فريداً ونجاحاً لم يتحقق للكثير من العرب الآخرين. وإنّ البلدان العربية مفتوحة لمواطنة أي واحد منهم، ورغم ذلك فلن يعودوا إلى أي بلد عربي. أي أنهم يصرّون بعناد على خيار المواطنة في أوروبا. وبنفس الوقت فهم يصرّون على عدم تقبل المجتمع الأوروبي وعلى رفض الحضارة الغربية، وعلى معاداة الكيان الغربي كله. وبهذا فهم يعيشون في تناقض كبير مع أنفسهم.

• في الغرب يصبح الفرد مجبراً على أن يكون سفير الإسلام وممثلاً له ومتحدثاً باسمه. فهناك يسأله الجميع عن الإسلام وأحكامه وشعائره وفقهه. وهذه الأسئلة الكثيرة والتي لاتنتهي تجبره على أن يكون ناطقاً باسم الإسلام، وبالتالي عارفاً بعلوم الإسلام الكثيرة، ثم تجبره على أن يكون صوروة حية وحقيقية عن الإسلام. ومن هنا يأتي أحد العوامل التي تجعل المسلم متعلقاً بدينه الإسلامي، فيقوم عندئذ باستيراد الصور والتجسيدات الإسلامية الجاهزة في البلدان العربية، لكن هذه الصور قد تكون مشوية وخاطئة.

• لقد حمل المسلم معه إلى الغرب صورة العداء القديم معه، واحتفظ بصورة المستعمر الغربي الذي مارس القتل والتدمير والاستغلال، وإن كثيراً من هؤلاء يرى في نفسه شخصية عمر المختار وسلطان باشا الأطرش وغيرهما من مناهضي الاستعمار، وبنفس الصورة يرى أن محاوره ومواطنه الغربي هو الجنرال غراسياني وألنبي وغيرهما من جنود الانتداب القديم. ومادامت تلك الصورة قائمة في الذهن الإسلامي الغربي فلن يتمازج المسلمون مع مواطنيهم الأوروبيين الآخرين.!! ومقابل هذه الصور التاريخية مازال الأوروبي يرى في كل مسلم صورة طارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهما ممن زحفوا باتجاه أوروبا ليقيموا فيها طوال سبعة قرون من الزمن. ومع استمرار تلك المشاعر يصعب التحاور بين مسلمي الغرب ومواطنيهم وحكوماتهم. وإنّ إيجاد حلّ لهذه المعضلة يقع على كاهل المسلمين أنفسهم بالدرجة

الأولى. وهم بسلوكهم وأعمالهم المسؤولون عن استمرار تلك المعضلة.فللتخلص منها لابد من انتزاع الصور القديمة عن الغرب والبدء معه بمحاورة جديدة وفق أسس عصرية قائمة.

تشكيل صورة الإسلام عند الغربيين

يحاول الغرب جاهداً كأفراد ومؤسسات تشكيل صورة واضحة عن الإسلام نفسه، تلك التي من خلالها يريد التعرف على المسلمين، أولئك الذين يتمثلون بحركة القاعدة ويهددون استقرار الغرب، وهؤلاء الذين هم أبناء الغرب نفسه ومواطنيه المؤثرين فيه. لكنّ الغرب لن يتعرف على الإسلام بهذه السهولة، ولن يستطيع أن يفهم المسلمين من خلال كافة صور الإسلام التي تتشكل عنده.لأن المسلمين أنفسهم لايمثّلون صورة عن الإسلام. كيف تتشكّل صورة الإسلام عند الأوروبيين غير المسلمين ؟ ولماذا يخطئ الدارسون للظاهرة الإسلامية أو المتحدثون عنها في فهم الإسلام ووصفه والتعامل معه ؟. إنهم يقيمون ذلك الفهم على ثلاثة ركائز أساسية وهي:

تجارب الغرب القديمة مع الإسلام وتشمل تاريخ الحضور الإسلامي المزدهر في الأندلس، والذي تلته الحروب الصليبية ثم الانتداب الغربي للبلدان العربية والإسلامية. وبالنسبة للحضور الإسلامي الأندلسي، فان الفكرة الشائعة في المجتمع الغربي عموماً تعتبر أن ذلك كان احتلالاً ظالماً. ويستقون منه دروساً تجعلهم يقللون من نفوذ المسلمين في الغرب. ورغم أن تلك النظرة خاطئة ولايمكن البناء عليها والتعامل مع المسلمين من خلال نافذتها الضيقة فإن الغرب يعتبرها أساساً مهماً في معرفة الإسلام والمسلمين وفي التعامل معهم.وستبقى تلك واحدة من عقبات الحوار الإسلامي مع الغرب إلى أن تتكاثف الجهود المشتركة وتستطيع حلّ ألغازها.!. ونحن المسلمين علينا أن نعترف في الوقت نفسه بأن عيوننا مازالت تنظر إلى ذلك المجد الغابر في الأندلس وتتحسّر على زواله. ونتمنى لو يعود، وقد أنشد الشاعر الباكستاني محمد إقبال يقول:

الصين لنا والعرب لنا

والهند لنا والكل لنا

أضحى الإسلام لنا دينا

وجميع الكون لنا وطنا

وهذه الأبيات تتغزّل بالمجد الإسلامي الغابر. والذي أضاعه المسلمون. وتؤكّد على اعتقاد المسلمين بضرورة استعادته وامتلاكه.

وتتشكّل صورة الإسلام عند الغربيين أيضاً من خلال رؤيتهم للمسلمين أنفسهم ولأعمالهم ونشاطاتهم، ومن ذلك أفواج المهاجرين غير الشرعيين والفقراء الجائعين الذين يعبرون البحار والحدود ويعرّضون أنفسهم للأخطار، وصور المتحجبات المسلمات في شوارع أوروبا، ذلك الحجاب الغريب بالنسبة للأوروبي. وصور صفوف المصلّين الراكعين والساجدين في مساجد أوروبا، وصور المشايخ بلحاهم الطويلة وثيابهم الطويلة الفضفاضة وعماماتهم التقليدية.

وتتكون الصورة الإسلامية عند الأوروبي أيضاً من أعمال المسلمين ونشاطاتهم ونتاجاتهم الصحفية والفكرية والدينية وغيرها. ومن تلك الأعمال بالطبع أعمال رجال القاعدة التي استهدفت وهددت عدة مرات مناطق ومواقع غربية.وتصريحات القاعدة التي لاتتوقف عن تهديد الغرب كله والمسيحية كلها. ويضاف إلى ذلك تمرد المسلمين في ضواحي باريس واحراقهم لآلاف السيارات والأملاك العامة.ولعلّ تلك الأعمال تؤدي إلى المقاطعة بين الإسلام والغرب ولن تعزز الحوار والتفاهم بينهما.أما نتاجات المسلمين الكثيرة والمتنوعة فقد نجحت واشتهرت في المجال الأدبي بالدرجة الأولى. حيث وصلت الرواية والقصة الإبداعية، التي أنتجها مسلمون، إلى كل بيت أوروبي تقريباً، لكن فيما يخص الأبحاث الإسلامية الحضارية والفكرية ودراسات تطوير الفكر الإسلامي والتعريف به، فلم يجرؤ المسلمون الغربيون عموماً على الخوض فيها، وبنفس الوقت فلم ينجحوا بذلك، إذ لم نسمع عن أي بحث أو كتاب فكري إسلامي حقق نجاحاً وانتشاراً واسعاً في أي دولة أوروبية.رغم أن الأوروبيين بحاجة ماسّة لمثل تلك الأبحاث.

والغربي يسعى للتعرف على الإسلام من المسلمين أنفسهم، لكن المسلمين عموماً مازالوا يخلطون بين عدة أشكال من الإسلام المعاصر، وتتمثل هذه الأشكال :

الإسلام بصفته ديناً وعقيدة، وهنا تكثر تحليلات الفقهاء وتناقضاتها أحياناً. كما وتتوزع المعرفة الإسلامية على مذاهب متباينة في الفهم للإسلام ولأحكامه.

الإسلام بصفته تاريخاً وأشخاصاً وأحداثاً. حيث كان للأحداث التاريخية وللأشخاص أهمية ودور كبير في التعرف على الإسلام أو الارتياب في معرفته أحياناً. فلا أحد ينكر تأثير أشخاص مثل ابن تيمية وابن عربي ومحمد بن عبد الوهاب وسيد قطب في اعطاء صور متعددة عن الإسلام.

الإسلام كسياق اجتماعي وموروث ثقافي، وهنا تختلط عادات وخصائص الشعوب مع العقائد والمفاهيم الإسلامية.

ومن كلّ ماتقدّم نكتشف ضرورة أن يكون كل فرد مسلم صورة صحيحة عن الإسلام. فهو إن رغب أو لم يرغب يعتبر في نظر الغرب صورة واقعية ترمز للإسلام وتعبّر عنه.

مصدر التطرف الديني

في سورية كمثال على الإستعمار قام الانتداب الفرنسي بكافة أشكال تفتيت المجتمع وضرب كياناته بعضها ببعض، وقبل الخوض في الحديث عنها يتوخى الحذر عند القارىء واعتبار الأحداث التي سنذكرها من صنع الاستعمار، وبناء عليه فلايمكن أن نجرّم أية فئة تعاملت معه آنذاك، وبالتالي فلايمكن ربط الماضي بالحاضر:

تم تقسيم سورية إلى دويلات صغيرة تقوم على أسس عرقية ومذهبية وطبقية.

استقدم الفرنسيون جنوداً مغاربة كانوا يقاتلون الثوار السوريين وهم أبناء دينهم وعروبتهم. وهذا ماولّد آنذاك عداءً شعبياً للمغاربة.

كما وقام الاستعمار البريطاني بالتدخل المباشر في شؤون الدين الإسلامي نفسه، وفي عقائد أهله، فبغية التأثير على المسلمين أنفسهم، ولكي يصبح الأفراد أداة ليّنة وطيّعة في يده، قام البريطانيون بابتداع مذاهب إسلامية جديدة في مناطق نفوذهم السابقة في الهند وباكستان وغيرها. مما أدى إلى انشقاق أفراد من المسلمين عن المذاهب الرئيسية واللحاق بتلك المذاهب الاستعمارية الجديدة أنذاك. ومن بين تلك المذاهب الأحمدية والبهائية. وتلك مشاريع تخريب للداخل الإسلامي قام بها الغرب منذ عقود، ومازال يحاول العمل بها في هذا العصر فنسمع عن بدعة سلمان رشدي ودعم البريطانيين له. ونشاهد فضائية ذات صبغة إسلامية ظاهرياً تبثّ من لندن بالعربية وتمارس تشويه الفكر الإسلامي بكليته.

فتن الغرب الجديدة

لقد وجد الأمريكيون والبريطانيون أنفسهم محاطين بشعب ثائر وعظيم ورافض للاحتلال، وكانت أهم مقاومة للغزو الأمريكي تتمثل في المقاومة السنية. فقامت الدولة الغازية بنشر الفتنة الطائفية في العراق نفسه وفي الوطن العربي وفي العالم الإسلامي كله. وانشغلت بنشر الطائفية حملات إعلامية كبيرة تم توظيفها وتمويلها لتوصل رسالة الطائفية إلى كل مسلم أينما كان:

فقد انقسم الإعلام العربي غير الحكومي إلى قسمين، قسم يروّج لنصرة السنة ويكيل الاتهامات على الشيعة العراقيين. وقسم يروج للشيعة العراقيين ويتهم السنة. وقد تجاوبت الأحداث في العراق مع تلك الفتنة، ولاشكّ في أن الأمريكيين أنفسهم كانوا وراء أحداث وتفجيرات تحمل صفة طائفية.

وأمام هذه الأحداث يصبح نوعاً من الجهل والانسياق في المشروع الاستعماري أن يخرج صوت محلي من بيننا ويتهم بعضنا بصناعة الطائفية ويحمّله مسؤولية الاقتتال الأهلي.

وإن كل شخص يلجأ إلى اتهام نوع من الإسلام بأنه يمارس الاقتتال الطائفي ويحمّله المسؤولية عنها إنما يكون هو نفسه الذي يمارس الاعتداء الطائفي والشحن الطائفي والعمل على توليد صراعات طائفية وتأجيجها. ويواجه المسلمون تحديات استعمارية دائمة، اسرائيل التي لاتتوقف عن مشروعها الإبادي، ودول الغرب التي غزت العراق ومازالت تمارس فيه الإبادة ومشاريع التشويه الكامل للعراق ولتاريخه ولشعبه. وعلاوة على ذلك فهي تهدد الدول الإسلامية الأخرى وتهدد بغزوها. بل إن حكّام الغرب نفسه تحدثوا مرات كثيرة عن حرب صليبية جديدة وحرب شاملة على الإسلام.!!

لقد أصبح الاستعمار عقدة كل مسلم وكل عربي تقريباً. فهذا الانشغال الاستعماري الدائم بالمسلمين يضطر بعضهم لاتخاذ مواقف عدائية متطرفة من الغرب عموماً ومن المسيحية الغربية كلها أحياناً. وتظهر هذه العدائية في أعمال منظمة القاعدة، وفي كتابات حديثة عديدة لمفكرين ورجال دين إسلاميين، وفي مواقف شعبية كثيرة في الشارع الإسلامي.

إن انغماسنا في كره الممارسات الاستعمارية الكبيرة ضد المسلمين يجب أن تكون نوعية وغير شاملة.ويجب ألاّ تغشي أبصارنا عن حقائق أخرى شديدة الأهمية.ومن ضمن هذه الحقائق:

الغرب الذي يغزو بلداننا ويهدد الأخرى ويتحالف مع الصهيونية لايمثّل شعوب الدول الغربية. بل إنه يمثّل طبقة الحكّام والسياسيين، وهؤلاء أقلة في بلادهم، ولم يرض عنهم المجتمع العام كله. وهم حكّام مستبدون اغتصبوا السلطة، ولم يكترثوا بآراء شعوبهم. ولعلّ اتفاقهم مع اسرائيل على مشاريع معادية للمسلمين يجعلهم عصابة صهيونية عالمية تمارس العدائية على المسلمين وعلى شعوب الغرب أنفسهم. فعندما زار جورج بوش دول أمريكا الجنوبية قابلته الشعوب بالرفض والاستنكار والطرد. وفي بلدانهم يواجه حكّام الغرب المعتدون على بلداننا استنكاراً شديداً.

في المجتمع الغربي اليوم رفض لسياسة الحكام، وهذا مانلاحظه في طبقات سياسية ضغطت على توني بلير وعلى جورج بوش وعلى غيرهما في إيطاليا وأسبانيا وهولندا وأستراليا.

في المجتمع الغربي اليوم إقبال كبير على الإسلام ويتخذ هذا الإقبال عدة أشكال، فمنها دراسة اللغة العربية والتعرف على الإسلام، ومنها دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والتخصص به في المراحل الجامعية والعليا، ومنها اعتناق الإسلام والإيمان به. إذ تقبل أفواج كبيرة على اعتناق الإسلام كقرار فردي توصل إليه الشخص دون أن يقوم أي مسلم بتعريفه على الإسلام أو بدعوته.

إننا نتفق مع المسيحية عموماً والمسيحية الغربية أيضاً في نقاط تفاهم مشتركة عديدة، وعلى هذا فمن الحكمة أن نتحالف معها. وفي هذه السنوات خصوصاً نحن في مواجهة كبيرة وتحد ديني مع المسيحية الصهيونية التي تشتغل ليل نهار بهدف إيقاف موجات الأسلمة في المجتمعات المسيحية كلّها.

إن مواجهتنا للمشاريع الاستعمارية الكبيرة يجب أن لاتجعلنا ننغمس في معاداة الغرب كله، بل إن الطرق الواسعة المفتوحة أمامنا والتي لايستطيع حكّام الغرب إغلاقها دوننا تتمثل في تحالفنا مع أبناء الغرب والتحاور معهم وكسب مواقفهم، وسيكون ذلك تحولاً في معركة مواجهتنا مع الغرب. وستكون مكاسبنا فيها أكبر وأكثر.

طبقة حكّام الغرب

الغرب الذي يغزو بلداننا ويهدد الأخرى ويتحالف مع الصهيونية لايمثّل شعوب الدول الغربية. بل إنه يمثّل طبقة الحكّام والسياسيين، وهؤلاء أقلة في بلادهم، ولم يرض عنهم المجتمع العام كله. وهم حكّام مستبدون اغتصبوا السلطة، ولم يكترثوا بآراء شعوبهم. ولعلّ اتفاقهم مع اسرائيل على مشاريع معادية للمسلمين يجعلهم عصابة صهيونية عالمية تمارس العدائية على المسلمين وعلى شعوب الغرب

أنفسهم. فعندما زار جورج بوش دول أمريكا الجنوبية قابلته الشعوب بالرفض والاستنكار والطرد. وفي بلدانهم يواجه حكّام الغرب المعتدون على بلداننا استنكاراً شديداً.

في المجتمع الغربي اليوم رفض لسياسة الحكام، وهذا مانلاحظه في طبقات سياسية ضغطت على توني بلير وعلى جورج بوش وعلى غيرهما في إيطاليا وأسبانيا وهولندا وأستراليا.

الفكر التقليدي

آن الأوان لأن نلتزم بالإسلام ونرفض الفكر الشعبي التقليدي الذي يدعونا لكراهية الغرب كله ويحتّم المواجهة معه. والذي يعتمد في أسسه على تاريخ الحروب الصليبية. اذ من الجور أن نحكم على المواطن الغربي المعاصر بناء على حكم أسلافنا على أسلافه. وكان مشروع سيد قطب أول مشروع إسلامي مواجه للغرب كله في العصر الحديث، إذ قام بتكفير الغرب وفصله عن المسيحية (التوحيدية) وجهّله وحتّم المواجهة معه. وتتالت هذه الدعوات الفكرية المتعصبة بعد سيد قطب، ويمكن أن نرصد في المكتبات العربية مئات الكتب الإسلامية التي تحتّم المواجهة مع الغرب. وكان حديثاً كتاب الدكتور محمد عمارة المعنون (الإسلام والمسلمون في عيون غربية) ويورد الكاتب عشرات الأقوال التي قام بالبحث عنها خصيصاً وانتقاها بدقة ليبرهن لنا على أنّ الغرب يكرهنا كرهاً أعمى وأنه مصمم على مواجهتنا. ويخرج قارىء الكتاب بموقف عدائي كبير للغرب وللمسيحية الغربية. ويصل إلى (حكمة محمد عمارة) التي تتمثل بعدم إمكانية التحاور مع الغرب والمسيحية. وبذلك يعيدنا الدكتور عمارة إلى الوراء قرناً من الزمن، ويمنعنا من رؤية حقائق المجتمع الغربي. وإن مثل هذا الكتاب يقوم بزراعة بذور التطرف والعدائية، وبنفس الوقت وعندما يعيدنا بموقفه الفكري إلى الوراء فإنه يجعلنا رجعيين بعيدين عن أحداث العالم المعاصر. وكان بإمكان محمد عمارة أيضاً أن يجمع في كتابه مئات الأقوال الغربية التي تدل على ضرورة التحالف مع المسلمين

وتمتدح المسلمين لأن تلك الأقوال موجودة حقاً ويمكن جمعها.! لكنه هو نفسه كان يحمل مشروعاً عدائياً للغرب وعمل على إحضار الأدلة على مشروعه. إننا حينما ننتقد مفكراً إسلامياً سنّياً بديمقراطية تهدف إلى تطوير البحث والفكر عند المسلمين، لانقوم باستعدائه، بل نطالبه بتطوير أبحاثه التي تؤثر على فكر الشارع الإسلامي، ورغم أنني كباحث أستطيع أن أجمع مئات الأقوال والأدلة التي تشير إلى عدائية الغرب للعرب والمسلمين فلايمكنني أن أستنتج منها قاعدة نهائية تحرّض على ترسيخ هذه العدئية. ذلك أسلوب قديم وتلك ثقافة بائدة يجب علينا أن نطوي فصولها وعناصرها، ونبدأ من جديد.

في البحث عن كينونة إسلامية في الغرب

يبحث المسلمون في الغرب عن إيجاد كينونة إسلامية واضحة خاصة بهم ويرجع ذلك إلى سببين:

أحدهما: الحاجة لإيجاد ملجأ بعيد عن العداوة المتزايدة داخل المجتمع الغربي تجاه المسلمين. وإن هذا الاتجاه السلبى قد تزايد بصورة كبيرة منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر، إذ تظهر الدراسات هذه الزيادة فى العداوة وقد أوضحتها جامعة كورنيل الأمريكية فى ديسمبر عام2004 ، والتى كشفت أن ٤٤٪ من الأمريكين الذين دخلوا ضمن هذه الدراسة يعتقدون أن الحكومة الأمريكية تقيد الحريات المدنية للمسلمين الأمريكين.

والسبب الثانى هو في أن يكونوا جزءاً من البعث الإسلامى المنتشر فى جميع أنحاء العالم .وبالنسبة للكثيرين من مسلمي الغرب ، لكى تكون مسلماً ظاهراً للجميع فلابد من القيام بالاعتراض على الحركات العالمية التى تدين الإسلام. وإن جيل الشباب منهم يشعرون أن عليهم الاختيار بين أن تصبح جزءاً متكاملاً فى المجتمع الغربي والذى يتطلب الموافقة على الأعراف الاجتماعية التى يجدونها شيئاً بغيضاً عن عقيدتهم، أو عليهم الانضمام إلى حملات البعث الإسلامى فى جميع أنحاء العالم، والكثير منهم يفضلون الاختيار الثانى. إن الدراسات الحديثة توضح

هـذه الاتجاهـات. وإحـدى الدراسـات التـى أجريت في جامعـة كنتـاكـى، أظهـرت أن هناك تزايداً كبيراً فى عدد المساجد بسبب زيادة عدد المقبلين على الصلاة فى هذه المساجد.

وتبين أنه فى المتوسط فإن الشخص الذى يشارك فى المساجد يبلغ من العمر ٣٤ عاماً، وهو مهاجر منذ فترة طويلة متزوج ولديه أطفال ودرس فى الجامعة وإلى حد ما ميسور الحـال. وحـوالى الخمـس هـم مـن الجيـل الثـانى مـن المهـاجرين. وعلـى عكـس المسلمين فى العالم الإسلامى الذين ينظرون إلى المساجد أساساً على إنها دور للعبادة فقد اكتشف الباحث باجبى أنه على الرغم من أن ٥٨٪ من هؤلاء الذين أجريت عليهم الدراسة لايرون ذلك فإن ٤٢٪ ينظرون إلى المسجد على أنه مركز للتعليم والأنشطة .وإن معظم الذين قاموا بعملية المسح عليهم، يعتقدون أن الهدف الرئيسى من المسجد هو إمداد الشباب بالمعرفة الإسلامية. لقد تغير دور المسجد كثيراً في الغـرب ، فأصبح مكانـاً للاختـلاط بـالمؤمنين الآخـرين ومكانـاً للتجمـع التعليمـى والاجتماعى.

إنّ هـذه المحاولـة للتجمـع الإسـلامي وخلـق كينونـة خاصـة بأتبـاع الـدين الحنيف داخل مجتمع كبير وواسع هي محاولة تقوقع وانكفاء على الذات وهي في حقيقتها تقوقع ونوع من التطرف الإسلامي. ورغم أننا نتفهم ملابسات الظروف التي تحيط بالمسلمين فلعلّه من الأفضل عدم اللجوء إلى هذا التقوقع.

وعند سؤال المسلمين. كيف يمارسون طريقة عبادتهم فإن هؤلاء الذين طبقت عليهم دراسة المسح قد انقسموا بين ٣٨ ٪يفضلون طريقة مرنة لتفسير النصوص المقدسة، ولصياغة هوية إسلامية جديدة، فقد رجع الشباب الأمريكي إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وذلك من خلال دراسة القرآن والسنة، وهما أهم مصدرين للشريعة. وهذا مايجعلهم يلتقون مع السلفية.وأظهرت دراسات أخرى تصاعد العدائية ضد المسلمسن.

لقد قاموا بتخريب المساجد وكان الأطفال هم هدف التعليقات العنصرية فى المدارس العامة .لقد عانى المسلمون التفرقة فى المعاملة فى أعمالهم، مما يؤدي إلى

تصاعد الشعور بالاغتراب والقلق والخوف في صفوف المسلمسن. وللتخفيف من تلك الأزمة قام العديد من الجامعات بافتتاح فروع جديدة لتدريس الإسلام والتاريخ الإسلامي، ونرى ذلك في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. فقد تبين أن جهل السكان بالإسلام كان أحد أسباب ظاهرة العدائية للمسلمين. وتقوم تلك الكليات إضافة إلى مؤسسات أخرى بندوات ولقاءات وحوارات للتعريف بالإسلام.ويميل قسم من المتعصبين المسلمين إلى معاداة حكومات بلدانهم الغربية . ففي أمريكا تيار يعتبر المساعدات الأمريكية المقدمة إلى منظمات أو حكومات إسلامية حراماً ويتوجب رفضها، ويبنى هذا الرأي على اعتبارها أموالاً قذرة. وكنتيجة لتلك الأوضاع الساخنة في الغرب يلاحظ تنامي تيار إسلامي جديد متشدد ويخشى أن يصطدم هذا مع الحكومات الغربية في المستقبل. وفي ألمانيا كانت الحكومة الألمانية والمؤسسات العديدة فيها تجد صعوبة في مخاطبة الكيان الإسلامي نظراً لتعدد المؤسسات والجماعات الإسلامية هناك وتعدد اتجاهاتها ومواقفها. وفي نيسان ٢٠٠٧ اجتمع بضعة آلاف من زعماء الجماعات الإسلامية المتعددة في ألمانيا واتفقوا على توحيد مؤسساتهم كلها ضمن مؤسسة واحدة وادارة واحدة وتحمل رأياً واحداً، ويعتبر هذا الاتحاد الإسلامي في ألمانيا هو الأول من نوعه على الصعيد العالمي كله. إذ بين تلك الجماعات التي اتحدت اختلافات منهجية تقليدية. فمنها الجماعات السلفية التي تتناقض مع الصوفية ومنها الشيعية والإخوانية.

محاولة تجنيد مسلمي أمريكا لمواجهة التطرف الإسلامي

عرض بداية عام ٢٠٠٧. كتاب من تأليف باول باريت بعنوان الإسلام الأمريكي: النضال من أجل روح ودين. وهو كتاب معتدل ويقدّم فكرة شاملة عن أوضاع المسلمين في الولايات المتحدة. ويدافع الكاتب عن قضايا المسلمين. بل انه يبدو قد تفهّم كلّ المشاكل التي يعاني منها مسلمو الغرب. وإنّ مثل هذه المواقف التي تصدر عن أبناء الغرب من غير المسلمين تبشّر بمستقبل زاهر للإسلام في ذلك العالم.

ينطلق المؤلف في تناوله لموضوع الإسلام الأمريكي من حقيقة أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة يزيد على ٦ ملايين أمريكي، وأن الإسلام أصبح الدين الثاني في الولايات المتحدة بعد المسيحية. ذلك في الوقت الذي يجهل فيه الكثير من الأمريكيين المعلومات الأساسية عن الإسلام والمسلمين تاركين الفرصة لمجموعات مؤدلجة من اليمينيين لتشويه صورة الإسلام وأتباعه والتشكيك في ولائهم للثقافة والمجتمع الأمريكي.

يسعى باول باريت في هذا الكتاب إلى تغيير سوء الإدراك السائد لدى معظم الأمريكيين عن الإسلام الأمريكي من خلال تناول الحياة الشخصية والعامة وصراع الهوية والتفاعل المختلط بين الأيدلوجية والثقافة لسبعة نماذج من المسلمين الأمريكيين من ويست فرجينيا إلى أيدهو، ومن ميشيغان إلى نيويورك. هذه القصص التي سطرها المؤلف على صفحات كتابه تعكس مدى التنوع الكامن بين ملايين المسلمين الذين نشأوا في الولايات المتحدة.

وكان السؤال الذي يدور في ذهن الكاتب قبل أن يجري تحقيقاته هو: كيف يعرّف المسلمون الأمريكيون أنفسهم في الواقع الديني الممزق بين التطرف والاعتدال، خاصة في ظل التنوع الكبير لأعضاء المجتمع المسلم من حيث العرق، والخلفية الثقافية التي يتفاوت تأثيرها من جيل المهاجرين والجيل الذي ولد وترعرع في الثقافة الأمريكية. وقد أجاب الكاتب على هذه الأسئلة وغيرها بين ثنايا قصص النماذج السبعة التي اختارها.

أخذ المؤلف القراء في جولة داخل المجتمع المسلم، داخل البيوت والمساجد والتجمعات الخاصة في بيئات ومجتمعات متنوعة من خلال قصص سبعة من المسلمين يعبّرون عن واقع المسلمين الأمريكيين بكل تفاصيله وتعقيداته. في الفصل الأول يتكلم عن أسامة سابلاني الناشر ذي الأصل العربي الذي يعيش في حاضرة العرب الأمريكيين في ولاية ميشيغان، والذي يختزل أزمة المسلمين الأمريكيين بعد ١١ سبتمبر في التشابه بين اسمه واسم أسامة بن لادن.

ويتناول شخصية الباحث خالد أبو الفضل أستاذ القانون الإسلامي بجامعة كاليفورنيا والتي تسبب رسالته المعتدلة للإسلام جدلاً واختلافاً في أوساطهم.

ويتناول شخصية الإمام الذي ينحدر من أصول أفريقية في أحد مساجد بروكلين، والذي كان يوماً عضواً في جماعة أمة الإسلام موضحاً خصوصية الإسلام بين الأمريكيين السود، وتطور العلاقة بين المسلمين السود وغيرهم من مسلمي الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية.

ويتناول شخصية الناشطة في مجال الحركة النسوية *اسرا نعماني* ابنة المهاجر الهندي التي تدعو إلى حرية المرأة المسلمة وتنادي بالمساواة بينها وبين الرجل، و قامت بفتح أبواب مسجد والدها أمام النساء دون تمييز بينهن وبين الرجال بنزعها للحاجز بين النساء والرجال في المسجد. ثم يتناول حياة وشخصية متصوّف مسلم، يرى الله في كل مكان على حد تعبير الكاتب.

وعلى الرغم من ازدياد ظاهرة الإسلامفوبيا في المجتمع الأمريكي خلال السنوات الخمس الأخيرة، وفي الوقت الذي تشهد فيه مناطق مختلفة من العالم مشاعر مناهضة للولايات المتحدة، فإن المؤلف باول باريت يرى أن أكبر وأهم وسيلة في مستودع الولايات المتحدة في حربها على الإرهاب هي مسلموها في حال قدرتها على استيعاب هذه الجالية الإسلامية المتنامية.

ورغم الصورة المتوازنة الإيجابية التي يصورها الكاتب للجالية المسلمة في أمريكا، فإن سرده لقصة معاناة طالب الدراسات العليا في جامعة أيدهو، واعتقاله لفترة طويلة لاتهامه بالإرهاب وانتهاك قوانين الأمن الداخلي، وعودة أسرته إلى السعودية، وترحيله هو شخصياً حتى بعض تبرئته من التهم الموجهة إليه بزعم مخالفته لقوانين تأشيرات السفر، فإن هذه الحادثة وغيرها من الحوادث التي تعرض لها المسلمون في الولايات المتحدة، يزيد من الشعور داخل أوساطها بأن أمريكا تعاملهم على أساس أنهم جزء من مشكلة الإرهاب وأنهم يتحملون جزءاً من المسؤولية عن وقوع هجمات سبتمبر.

وفيما يتعلق بالانتقادات الموجهة إلى المسلمين الأمريكيين والقائلة بعدم سماع أصواتهم في شجب صريح للأعمال الإرهابية، ذكر الكاتب إن بعض المنظمات الإسلامية العاملة في الولايات المتحدة قد أصدرت أكثر من مرة تصريحات واضحة تشجب وتستنكر الإرهاب خاصة بعد تفجيرات لندن، وبرّر المؤلف تردد بعض المؤسسات الإسلامية في انتقاد أعمال العنف والإرهاب التي يقوم بها مسلمون في مناطق مختلفة من العالم من خشيتهم أن يطول ذلك عمليات حماس وحزب الله.

وتوقع الكاتب في حديثه عن المسلمين من السود الأمريكيين أن تتراجع شعبية أمة الإسلام في أوساط السود لصالح التيار الإسلامي التقليدي. وقال إن هناك توتراً بين بعض المسلمين السود وغيرهم من المسلمين السلفيين الذين ينظرون إلى إسلام السود خاصة من منهم في أمة الإسلام على أنه بدعة. كما تطرق إلى الاختلافات في الجالية المسلمة بين السنة والشيعة وإلى الخلافات بين المعتدلين والمتطرفين قائلاً إن واقع المسلمين في أمريكا في هذا السياق لا يختلف كثيرا عن واقعهم في بلاد ومناطق أخرى من العالم ، حيث إن المهاجرين جاؤوا إلى الولايات المتحدة ومعهم خلافاتهم وأيدلوجياتهم المتباينة.

وخلص الكاتب إلى أن المسلمين يواجهون خيارات صعبة في إطار نضالهم من أجل جوهر وحقيقة إيمانهم وعقيدتهم في الولايات المتحدة، خاصة وأنهم ليسوا شيئاً واحداً، وبالتالي فمن الصعب التنبؤ بمن ينتصر في النهاية من أصحاب الأفكار والاتجاهات المختلفة. فذلك لا يعتمد على قناعات وخيارات المسلمين فحسب، وإنما يرتبط أيضاً بتطور الأحداث في الولايات المتحدة والعالم. ولذلك أوصى الكاتب بمجموعة من التوصيات التي ينبغي على الحكومة والمجتمع الأمريكي القيام بها من أجل مساعدة قوى الاعتدال بين الجالية المسلمة. وفي مقدمة هذه الجهود، إدراك من لا يدرك من الشعب الأمريكي بحقيقة وواقع الضغوط التي يتعرض لها المسلمون منذ هجمات ١١ سبتمبر على المستوى النفسي والأمني والحقوق المدنية. كما ينبغي أن ننتقل من مجرد الكلمات الخطابية عن احترام الإسلام إلى التحاور مع الإسلام نفسه. ويرى أن هناك فرقاً بين الإسلام والإرهاب على مستوى السلوك والممارسات

التي يجب أن تتغير. فضلاً عن ذلك يرى المؤلف أنه ينبغي على الرئيس بوش والساسة الأمريكيين أن ينتقدوا صراحة حملات الكراهية ومناهضة الإسلام التي تتبناها شخصيات ومؤسسات مسيحية أصولية في الولايات المتحدة. كما دعا الكاتب إلى تغيير السياسة الخارجية الأمريكية السائدة في الشرق الأوسط خصوصاً في إدارة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، والضغط على إسرائيل من أجل الانسحاب من المزيد من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. وأخيراً أعتبر الكاتب أن التأكد من عدم انتهاك قوانين الأمن الداخلي ومحاربة الإرهاب وإساءة استخدامها يمكن أن يزيد من ثقة المسلمين بحياد المؤسسات الأمنية مما يساعد على تقوية الأفكار والأشخاص المعتدلين داخل مجتمع مسلمي الولايات المتحدة.

ظهور المفكرين الإسلاميين الجدد

هؤلاء هم "المثقفون المسلمون الجدد". ويضاف إليهم مفكرون غربيون كثر يحاولون جاهدين إجراء دراسات حول الإسلام ونهجه وتطوراته ومستقبله، فمنهم مغالون في أحكامهم ومتحيزون في استنتاجاتهم، ومنهم الواقعيون الذين يمكن الإستفادة من نتاجاتهم وهؤلاء سيكون لهم دور كبير في المرحلة القادمة في تطوير أوضاع المسلمين في الغرب. وفي تعاظم دور الإسلام هناك.فهم أكثر نشاطاً من رجال الدين التقليديين وأكثر خبرة وأوسع علماً وثقافة.

فالاجتماع الذى تم فى ليدن بهولندا فى ابريل عام ٢٠٠٠، وكان موضوعه يدور حول"المفكرين المسلمين والتحديات المعاصرة".. اجتماع نظمه المركز الدولي لدراسة الإسلام فى العالم الحديث، وشارك فيه ١٤ مفكراً جاءوا من ٩ بلدان مختلفة هى الهند وباكستان وماليزيا ومصر وتونس وإيران، والملحوظ هنا انه لا أحد منهم يمكن تصنيفه فى موطنه أو فى سياقه الأصلى تحت بند "المفكرين الجدد فى الإسلام"، إذ أن هؤلاء المفكرين لا يحملون هذا اللقب إلا فى إطار من أشخاص ومؤسسات غربية. وفي كثير من المؤتمرات الغربية المشابهة والمتخصصة

بالأبحاث الدينية تتم دعوة مفكرين حقيقيين وشديدي الأهمية والقدرات، وبنفس الوقت فهم في بلدانهم لايعتبرون من المفكرين.

إن هؤلاء المفكرين يختلفون مع علماء الدين المذهبيين ومع المفكرين الطائفيين في كثير من النقاط، فمعظم هؤلاء المفكرين الجدد لا ينتمون إلى طوائف بعينها، إضافة إلى أنهم يتناولون مسائل لا يفكر العلماء التقليديون، مجرد التفكير فى طرحها ، ولا يرغب المفكرون العلمانيون فى الإجابة عنها.

إن الحاجة التى أدت إلى ظهور هؤلاء المفكرين المسلمين الجدد تتدرج فى إطار عملية ديالكتيكية محددة، فظهورهم كان يستجيب من ناحية ما لتطور الصور والأشكال المحلية الحديثة ، التى تسعى للإجابة عن سؤال:"كيف يمكن ان تكون مسلماً ؟" وهو سؤال يطرح نفسه فى المجتمعات الإسلامية التى تدور فى إطار عام من "إعادة صياغة الإسلام" يشمل العالم كله ..فتتأثر به او تتقسم بسببه بشكل أو بآخر..وبدرجات مختلفة.

ومن ناحية أخرى، فإن الحاجة التى أدت إلى ظهور هؤلاء المفكرين الجدد تأتى فى إطار البحث عن نوع جديد من "الإسلامية العالمية" لمواجهة إرهاصات التحديث وما يطلق عليه أحيانا "الاختراقات" العالمية للحضارة الغربية. ولا يمكن فصل ظهور هؤلاء المفكرين عن تطور وسائل المواصلات والاتصالات العالمية "العولمة"، وهو التطور الذى أدى إلى تغييرات جذرية بدأت منذ جيل كامل فى العلاقات بين المفكرين والقوى القائمة فى المجتمعات الإسلامية من جهة، وعلى الظروف التى تتم فيها التفاعلات فى قلب هذه المجتمعات من جهة أخرى. ولابد من إعادة ترتيب وضع هؤلاء المفكرين وتصنيفهم ضمن دورات النهضة والإصلاح، والتركيز على فكرة وضع مسالة الهوية الثقافية فى قلب الجدل الدائر حول أهداف التعايش.

جهاد الدفاع عن الإسلام

تكثر على صفحات الأنترنيت مواقع معادية للإسلام وتقوم هذه بنشر انتقادات كثيرة للمسلمين وللإسلام، ويطّلع عليها الملايين من الزائرين الغربيين. كما وتنتشر في الغرب كتب ودراسات وتصريحات معادية للإسلام والمسلمين وتلقى هذه الفتن والافتراءات آذاناً صاغية تسعى لمعرفة كل جديد.

وهنا يتعين على المسلمين مواجهة تلك الافتراءات بدراسات جديّة وقوية وتتناسب مع طبيعة العقل الغربي الذي نريد مخاطبته. ومن بين أولئك المعتدين: برنارد لويس الكاتب البريطاني المقيم في الولايات المتحدة الأميركية والناطق الأدبي والأكاديمي باسم اليمين الديني الأميركي المنحاز للصهيونية، وقد وضع برنارد لويس كتابين معادين للإسلام وهما "ما الذي وقع" و"أزمة الإسلام"، ويمكن تلخيص الأفكار الأساسية لهما في أن المسلمين يكرهون الغرب وحضارته وديمقراطيته وعلمانيته لمجرد أنهم مسلمون، فدينهم وقرآنهم هو السبب في كل هذا، وليس الاستعمار الغربي ولا الاحتلال الأميركي لأفغانستان والعراق، ولا العدوان الصهيوني الأميركي على فلسطين ولبنان.ويعتبر الرد على هذا الصهيوني وعلى افتراءاته عملاً جهادياً إسلامياً، ويعتبر التمكّن من الوصول إلى القاريء الأمريكي وإيضاح الصورة الإسلامية في ذهنه ودحض كلّ الافتراءات الصهيونية نصراً لايقلّ أهمية عن النصر في معركة عسكرية مع الصهاينة.

ولعل أيسر جهاد ممكن أن يقوم به كل واحد منا هو دخوله إلى المواقع الألكترونية المعادية والمساهمة بكتابة نصوص تعرّف بالإسلام وتدافع عن حقيقته، ويستطيع الزائر الضعيف باللغات الغربية الإستعانة بالمترجم الألكتروني وبترجمة كافة النصوص. فتلك لعبة مسلية ومفيدة وبنفس الوقت تؤدي غرضاً جهادياً كبيراً وهو واجباً دينياً إسلامياً.

حوار الإسلام مع الثقافات والحضارات

يقول الله سبحانه في سورة الحجرات:

(يا أيُّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير ١٦)

ان التعارف الذي تدعو إليه الآية الكريمة يقتضي السعي المتبادل لاكتشاف ما عند الآخر من ميزات وخصائص يستفيد منها، وذلك يستلزم ابتداءً التسليم بأن الآخر له ما يُعطي ويقدم للبشرية. ويجري الحوار وفق نقاط الالتقاء والاتفاق، إذ يحذرنا القرآن الكريم من الحوار غير المجدي، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت:

(ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالّتي هي أحسنُ إلاّ الّذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالّذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ٤٦)

ويحوي القرآن الكريم كمية كبيرة من الآيات الموجهة للمسيحيين أو التي تتحدث عنهم وعن تاريخ وقصص ديانتهم. مما يعكس اهتمام الإسلام بالمسيحية وبمحاورتها بل وبجعلها عند الإسلام جانباً من الدعوة الإسلامية كلها. فقد خصص القرآن سورة باسم مريم وذكرها بالاسم مرات عديدة وبنفس الوقت فلم يذكر اسم أم الرسول محمد عليه السلام.

مفكرون عالميون جدد

هناك عولمة في داخل الجدل الدائر حول طرق وأساليب التحديث الفكرى والسياسى للمجتمعات المسلمة، وهو الجدل الذى انتهى إلى تقديم "عالم مسلم"، يتكون من"مركز" عربى و"فروع" فى آسيا الوسطى أو فى إفريقيا او جنوب شرق آسيا. أيضا انتشرت اللغة الإنجليزية كلغة "العمل" بالنسبة للمفكرين المسلمين الجدد، على الأقل هى اللغة التى يستخدمونها فى مناقشة أفكارهم. هم يتخذون من "الغرب" موقعاً لهم: ففى الغرب وحده يمكن لكل واحد منهم أن يتخذ موقعه ليتحدث عن ضرورة إعادة هيكلة للفكر المسلم.. لكن عدداً كبيراً

منهم كان مجبراً على اللجوء للغرب، لفترة مؤقتة أو دائمة، فى لحظة ما من مشوارهم، هربا من الضغوط التى تتم ممارستها عليهم فى مجتمعاتهم الأصلية. و أسس هؤلاء المفكرون المركز الدولي لدراسة الإسلام فى العالم الحديث، ومركز الدراسات الإسلامية فى جامعة"يونجستاون"، والمعهد الدولى للفكر الإسلامي الذى يقع مقره فى "هرندون" بالولايات المتحدة الأمريكية..كذلك جمعية علماء الاجتماع المسلمين التى تقع أيضاً فى هندرتون، ومركز دراسة الإسلام والديمقراطية الذى يقع فى العاصمة واشنطن، ومركز العلاقات الأمريكية الإسلامية.

إساءات متكررة للإسلام

قال اللواء ويليام بويكين وهو يتحدث فى اجتماع الكنائس: "إنّ المسلمين يعبدون الهاً مزيفاً." وهذه تصريحات خطيرة تسيء للمسلمين ولدينهم. وتتّسم بالعدوانية والوقاحة والطائفية. ويدلّ هذا التصريح أيضاً على وضاعة قائله وعلى جهله وسوء تصرفه. فلم يعد يغرينا اسم شهير أو وظيفة بويكين هذا أو هويته الأمريكية فقوله يدل على سخف وحماقة لاتصدر عن رجال عاقلين.

وفي الرابع من آب ٢٠٠٧ صرّح عضو متطرف في الكونغريس الأمريكي بأن الولايات المتحدة إذا ماهوجمت بأسلحة نووية من قبل متطرفين إسلاميين فإنها ستدمر الأماكن المقدسة لدى المسلمين. وهذا تصريح وقح ويتصف بالحقد والكراهية.

وعندما نسمع مثل هذه الاتهامات علينا أن نحاسب أنفسنا على سبب انطلاقها من الآخر وذلك قبل أن نحاسب الآخر ونتهمه. فقبل عقد من الزمن لم تكن مثل هذه الاتهامات والانتقادات توجّه إلى المسلمين ودينهم، حين لم يكن المسلمون يعلنون عن برامج معاداتهم للغرب.

وعكست تلك التصريحات وماتلاها صورة العدائية المتبادلة بين الفريقين.فقد ركزت حكومة بوش اهتمامها على كسب قلوب وعقول المسلمين الأمريكيين. وبنفس الوقت بدأت حملة مراقبة ومداهمة واعتقال لكثير من المسلمين الأبرياء في الولايات المتحدة، وحملة عدائية واسعة على مسلمي العالم كله. ومنذ بداية تلك الأحداث بدأت حياة المسلمين الأمريكيين تتعسّر. وأصبحوا يعيشون في غربة مقيتة وفي خوف وقلق دائمين.

ثمّ بدأ المسلمون ينظّمون كيانهم وأرسلوا طلبات لإقامة قاعات للصلاة في المدارس العامة تخصص لأبنائهم خلال فترات الاستراحة. وحول هذا الطلب يمكن طرح السؤال، هل تتوفر مثل هذه القاعات المخصصة للصلاة في كافة مدارس الدول العربية الإسلامية؟ ثم لنفترض بأننا قمنا بنقل هؤلاء الأمريكيين المسلمين إلى إحدى الدول العربية فهل سيطالبون سلطات حكومتها باقامة تلك القاعات المخصصة للصلاة في المدارس ؟ وهل سيقاضونها إن لم تخضع لمطالبهم؟. بالطبع فإن ذلك لن يحصل على الإطلاق، لأنهم في بلدانهم الإسلامية سيتخلّون بعض الشيء عن مشاعر التميز والطائفية الدينية. وهذا يعني أنهم يمارسونها هناك بفضل الغربة وعدم التمازج مع الآخر.

لقد اتهم الإسلام في الغرب بأنه دين يحمل العنف في منهجه، وبأنه يقهر المرأة، ويسلبها حريتها. وتم تحميله مسؤولية كافة المشاكل التي تعاني منها الدول الإسلامية. وأمام تلك الأخطار الجديدة يفترض أن يقوم كل مسلم بالتعريف بالإسلام وبإعطاء الصورة الصحيحة عنه. والأهم من ذلك كله أن يكون هو مثالاً صحيحاً ونموذجاً إسلامياً حقيقياً. فلا تصدر منه تصريحات انفعالية تتسم بالعرقية أو الطائفية.

لكن مقابل ذلك رأينا المسلمين في الغرب كله يكرّسون التميّز والانعزال عن المجتمعات التي هم جزء منها. ويفصلون أنفسهم طوعاً عن الآخرين وينكمش التكتّل الإسلامي في كل منطقة ومدينة غربية.وداخل هذا التكتل ومما لاشك فيه

أنهم سيزدادون عزلة وغربة. وسيزداد تبادل الكراهية بينهم وبين مواطنيهم المتعددي الانتماء.

إن كافة الإساءات الصادرة من الغرب تعبّر عن مرضه الاجتماعي وعن قلقه المرضي من الإسلام وعن عجزه على رؤية الوقائع على حقيقتها، فهو لايقدر إلا أن يراها مشوهة. وهذه الإساءات هي من ناحية أخرى تحرش طائفي غربي مقابل صمت عن التحرش الطائفي بالغرب من جهة المسلمين فيصبح المسلمون أكثر وعياً وحكمة وتعقّلاً من الغربيين. يجب ألا ننظر إلى الغرب على أنه أكثر وعياً وحكمة منّا فالغرب يسقط في متاهات ننجو نحن منها بفضل ثقافتنا التي تفوق ثقافته.

تحدٍّ فلسفي للمسلمين نظرية نهاية التاريخ

في كتابه الجديد الذي يحمل اسم (اذبح اقتل دمر) الذي صدر في العام ٢٠٠٧ يعادي فرانسيس فوكوياما صراحة المسلمين ويدعو للقضاء عليهم. ويعتبر أن المشكلة العالمية القائمة اليوم هي في مواجهة المسلمين. وأنهم وحدهم العقبة في العولمة الأمريكية الكبيرة. وفي كتابه السابق الذي صدر منذ خمس سنوات تقريباً يعرض الأمريكي فوكوياما نظرية جديدة ورؤية عالمية جديدة تسود فيها الهيمنة الأمريكية ويواجه فيها المسلمون باعتبارهم الأعداء الوحيدين.

تحدثت نظرية نهاية التاريخ عن انتصار الليبرالية الرأسمالية على الاشتراكية واعتبرها الأمريكيون الأيديولوجية التي يتوقف معها جدل الإنسان والتاريخ. وإن هذه النظرية تعيد صياغة نظريات صهيونية أو ذات مفاهيم يهودية تعود للقرن الـ١٩ وماقبله، عبّر عنها هيغل وماركس ونيتشية وغيرهم وتتحدث عن أن مسار التاريخ هو مسار خطي متصاعد. وقد جاءت نظرية نهاية التاريخ الجديدة التي أطلقها الباحث الأمريكي من أصل ياباني (فوكوياما) كصيغة جديدة للفلسفة الصهيونية التي اعتقدت بأن المحرقة النازية هي نهاية التاريخ، وبأن تاريخ ماقبل المحرقة قد توقف عندها. وعموماً فأطروحات "نظرية النهاية "هي ظاهرة من ظواهر العالم الغربي

المتأثر بالصهيونية. وتكتسي ثوبا وجمالية عصرية، وثبت أنها غير علمية على الإطلاق. وأنها تتحيز لرؤية تاريخ الجنس البشري من المنظور الصهيوني الذي تم منحه صفة الغربي وتتجاهل المساهمات الحضارية الأخرى، وهي وسيلة دفاعية للنسخة الحداثية الخاصة بالحضارة الغربية ضد التحديات التي تواجهها والتي يعتبرها الغرب تشكل تهديداً لسلامة وأمن الجنس البشري. ومن السمات الصهيونية لنظرية النهاية أنها تحاول نفي الدين وإعلان نهايته بينما الواقع البشري يشير إلى عكس ذلك، فالعامل الديني يتصاعد عند المسلمين والمسيحيين واليهود، في العقود الأخيرة. وبات من الواضح أنه كلما حاولت الصهيونية ترويج أفكار ونظريات تسعى لتحييد الفكر الديني الإسلامي والمسيحي فإنها في نفس الوقت تقوم بتعميق الانتماء الديني اليهودي. ونظرية نهاية التاريخ هذه تسعى لتسطيح الفكر الديني عند المسلمين والمسيحيين انطلاقاً من عقائد دينية يهودية، أي اعتماداً على تعميق العقيدة اليهودية وسعياً لبث عقائدها وسيطرة نفوذها كبديل (لاسمح الله) عن الديانتين السماويتين.

ونتج عن النظريات الصهيونية محاولات تجديد للمسيحية بطريقة تخدم الصهيونية، إذ نكتشف بسهولة أن دعوات تجديد المسيحية في الولايات المتحدة تعني ترجيح المسيحية الصهيونية على كافة الكنائس المسيحية الأخرى. وتحت ذريعة العلمانية الحديثة يجري استقطاب المسيحية العربية. ويحمل تجديد المسيحية مبادىء التغلب على الفصل الثنائي بين الإله والطبيعة والعقل والوحي والأخلاق والنظم الاجتماعية. وحدث تقارب بين منظّري العلمانية والمرجعيات الدينية بحيث يدعم العلمانيون المناشط الدينية ويتبنى رجال الدين "لاهوتاً" أكثر مرونة، وهذا اللاهوت المرن، ليس سوى محاولة لتسطيح المسيحية الدينية، لتفسح المجال لسيطرة الصهيونية اليهودية. وهناك توجه جارف لبناء ما يسمى "لاهوت ما بعد الحداثة" الذي لا يعادي العقل أو العلم أو المذاهب الأخرى الدينية نظرياً، بل يعزل دورها ونفوذها في حقيقته. وإنّ لاهوت مابعد الحداثة ليس سوى نسخة أخيرة عن "لاهوت مابعد أشويتز" الذي ابتدعته الصهيونية اليهودية فيما سبق. وتجري في السنوات الأخيرة محاولات

لنقل هذا المركز المزعوم وهذه الفلسفة العنصرية من الولايات المتحدة إلى أوروبا عن طريق الضغط على الاتحاد الأوروبي. ثم وفي ٢٠٠٧ أصدر فوكوياما كتابه الجديد بعنوان اذبح اقتل افتك.! وفيه يحتّم المواجهة النهائية بين الغرب والمسلمين ويدعو للتحضير لتلك المواجهة التي يتوجب فيها (حسب عنصريته) إهلاك المسلمين تماماً.

تطرف الإعلام الغربي

الحديث عن الإعلام الغربي وتقييمه لابد أن يشمل بعض أنواع الإعلام المسمى بالعربي والذي قامت إدارات الغرب بتأسيسه وبمنحه صفة العروبة واستمرت بتوجيهه. ويمكن أن نكتشف المؤسسة الإعلامية التابعة للغرب بعد تقييم نتاجها لمدة طويلة، وبعد تقييم نتائج ثقافتها، والفكر الذي استطاعت أن تبثه لمتابعها. ويجب الانتباه إلى الفضائيات الخاصة الكثيرة الناطقة بالعربية والمتوعة البرامج فإن القسم الأكبر منها موجه ومدعوم من الصهيونية والسياسة الأمريكية. فقد أعلن بوش الصغير بوضوح منذ الهجوم على مركز التجارة العالمي عزمه على الاهتمام بتوجيه الإعلام الأمريكي (المفسد) للعقل العربي.

بي بي سي العربية إذاعة الطائفية

منذ تأسيسها تؤدي إذاعة ب ب س العربية دوراً إعلامياً مفيداً للمواطن العربي، وبرغم تعدد الإذاعات وانتشار الفضائيات فلايمكن الاستغناء عنها نظراً لتنوع برامجها ولتخصصها بالتحليلات الإخبارية وبإتاحة فرص كبيرة للمستمعين العرب بالنقاشات المفتوحة والمفيدة.

لكن ومنذ دخول الجيش الأمريكي والبريطاني إلى العراق توضّح انحياز الإذاعة البريطانية لسياسة الأمريكيين والبريطانيين.

ومع هذا الانحياز الشديد الوضوح، لوحظ تخصص الإذاعة البريطانية بنقاشات التطرف الإسلامي مع الانحياز الواضح فيها لخلق نعرات طائفية وعرقية، وافتعال

خلافات داخل كل مذهب إسلامي. كما لوحظ فيها توجيه الأنظار إلى آراء وانتقادات متنوعة حول أصحاب المذاهب الإسلامية الضعيفة الانتشار كاليزيدية والبهائية والأحمدية والصابئة.

وتقوم BBC بالبحث عن أخبار وأحداث صغيرة تحمل سمة الطائفية لم ينتبه إليها أحد أحياناً، وتقوم بتعظيمها وتسخيرها لتعميق الخلافات والاقتتالات بين المسلمين. فتعدّ برامج طويلة عن هذه الأحداث الصغيرة التي لم تعرها الوكالات الأخرى أية أهمية، وتجري حوارات تستفز بها المتحاورين والمستمعين. (ومن تلك الأخبار مثلاً قولها: تقدم مواطن يزيدي بشكوى إلى الحكومة العراقية..).

ومن خلال التتبع الطويل والمستمر لنتاجها أمكننا تحديد هذه النقاط:

مع بداية الغزو الغربي للعراق صاغت ال BBC دورة برامجية جديدة تخدم موقف الغزاة بوضوح، فأصبحت الإذاعة بنتاجها إذاعة حرب عسكرية.

اتخذت الإذاعة قواعد جديدة صارمة نلاحظها في برامج الحوارات الكثيرة والطويلة، ومنها : منع المحاور من ذكر آية قرآنية أو حديث نبوي كشاهد على رأيه. وفي هذه الحال يلجأ المذيع دوماً إلى اسكات المحاور أو تحييده عن ذكر النص القرآني أو إخراجه من الحوار نهائياً. ومن ناحية أخرى نلاحظ أن المذيع يحاول إسكات المحاور الذي يدافع عن مبدأ وحدة إسلامية ، وإسلام واحد ، ووحدة عربية، وتحاور حضاري بين المسلمين أنفسهم. وتحاور حضاري بين الإسلام والمسيحية أو بين الإسلام والغرب. وبنفس الوقت يقوم المذيع بتشجيع المحاور الذي يتحدث عن وجود طائفية ومذهبية وعن اتساع الخلاف بين الشرق والغرب، وعن انتقاد لأي نوع من البنى الإسلامية والعربية. وهذا المحاور المنتقد سيعطى وقتاً طويلاً في الحوار.كما لوحظ أن المذيع يحاول الإيقاع بالمحاور وسحب بعض العبارات والمواقف منه تلك التي لايريد هو قولها. لكن أسلوب المذيع وضغوطاته تفرض على المحاور أن يتأوّل مالايريد قوله، اذ يقول المذيع كثيراً للمحاور: "... أنت تضع اللوم اذاً على الدين!؟؟ فماهو الحل برأيك؟؟ .." أو يقول المذيع للمحاور : ". أنت ترى أن المشكلة في الإسلام نفسه اذاً.." ومن طريقة الرد والجواب يتبين لنا أن المذيع أراد

إيقاعه في ورطة. فالمذيع خبير في فنون قيادة الحوار وإيقاع المحاور. وما إذاعة BBC إلا نموذج من الإعلام المضاد والكثيف الذي يوجّه ضد المسلمين في العالم كله.

راديو سوا إذاعة القيامة

من أهم الأعمال الإعلامية التي ابتدعتها عبقرية جورج بوش الفذة لمحاربة العرب والمسلمين، كانت فضائية الحرّة وراديو سوا. ومن شدة عبقرية بوش أنه أوقف إذاعة أمريكية قديمة كانت تسمى صوت أمريكا، وكانت تحوي برامج حضارية ومفيدة، وكانت قادرة على جذب المستمعين ومنحهم فكراً وثقافة وأخباراً وفوائد عديدة. وبحلول راديو سوا محل صوت أمريكا نفهم أن جورج بوش لايريد أن يمنح المستمع العربي أية معلومة مفيدة. بل يريد أن يضع مستمعين جدداً في فوهة بركان دائم. وهذا مايفعله راديو سوا. إنه إذاعة موجهة لأشخاص غير موجودين على الإطلاق في الوطن العربي كلّه. إنه إذاعة معركة تدور رحاها طوال ٢٤ ساعة، وتلك المعركة الإعلامية لامبرر لها عند أحد من المستمعين العرب. إنه إذاعة تدمير وإحباط وفوضى دائمة وضجيج وهلوسة، والمستمع العربي ظلّ دوماً أكبر من تلك المحاولات التضليلية السخيفة. إنه إذاعة تدمير لكافة القيم العربية والإسلامية والوطنية، وإنّه الإذاعة الوحيدة التي لم تلق أذناً واحدة صاغية من المحيط إلى الخليج. هذا هو المشروع الإعلامي الذي اعتبروه قنبلة العصر، والذي تحدث عنه جورج بوش عدة مرات، والذي جاء نتيجة لدراسات وأبحاث ومخططات سياسية وإعلامية أمريكية. وتبين من ذلك المشروع أن واضعيه الحكماء لايعرفون شيئاً عن شعوبنا. ونعتقد بأن هذا الإعلام الوطيء سيختفي بعد رحيل جورج بوش.

الإتجاه السلبي في العلاقة مع الغرب

انّ مايحدث بين الإسلام والغرب في السنوات الأخيرة يمكن تسميته بأدلجة متبادلة للعلاقات سلباً.وهذه الأدلجة مستمرة بين الطرفين وهي تتصاعد كل يوم،

ويتم تغذيتها باستمرار وبكثافة بحيث لايظهر أيّ تأثير يذكر لمحاولات البعض القليل برتق التمزقات وبمحاولات التقريب بين الجانبين. وإن الجهود والمحاولات التوفيقية بين الجانبين تنطلق من الجانب الغربي بقدر ماتنطلق من جانب المسلمين، وهذا يعكس الرغبة الغربية الحقيقية في التوفيق بين المسلمين والغرب كله. ورغم تبادل هذه المحاولات التوفيقية الضعيفة فإن موقف العدائية والاتهامات، وهو السائد، يكبر ويتعاظم وتتم تغذيته في أوساط الطرفين.

وماهذه إلاّ ثقافة تسميم متبادلة تتسم بالإنكار والتشكيك. إذ يقوم كل جانب بنكران الآخر تماماً وبالتشكيك به.وفي الوقت الذي يتهم المسلمون الغرب بأنه يمتلك معايير ازدواجية ويتعامل بها مع العرب والمسلمين فإن المسلمين أنفسهم يمتلكون تلك المعايير ويتعاملون بها مع الغرب.حتى أصبحت هذه المعايير مشتركة عند الفريقين ومتبادلة.فالمسلمون عموماً يسكتون عن إدانة أعمال العنف التي تستهدف الغرب، (ونقصد بها تفجيرات لندن ومدريد) ورغم صدور بعض التصريحات عن المؤسسات الرسمية من هنا وهناك فإن الرأي السائد في الشارع الإسلامي وهو الأكثر أهمية وهو الذي يدلّ على الحقيقة السائدة، وهو السند المعبّر عن فكر الأمة الإسلامية هذا الرأي يسكت عن تلك الاعتداءات ويبررها ضمناً على أنها إحدى مستلزمات معركة الإسلام مع الغرب.

فنون تعكس الوحدة الثقافية الدينية

صورة للمسيح تتماهى مع صورة لأسامة بن لادن

عرضت في إحدى صالات سيدني الفنية لوحات جديدة من نوعها وأحدثت ضجة كبيرة وغضباً في الأوساط المسيحية. ولم يعلّق عليها المسلمون هناك. وقد أثارت مسابقة للفن الديني انتقادات بسبب بعض الأعمال الفنية التي تضمنتها وأظهرت صورة للمسيح تتماهى مع صورة لأسامة بن لادن. ويعكس هذا الفن الجديد مفهوم الغربيين تجاه أسامة بن لادن وتجاه المسلمين عموماً. ونحن كمسلمين وانطلاقاً من حبنا الكبير وتعظيمنا للسيد المسيح فإننا لانتقبّل مثل هذه الرسوم التي تشبّه المسيح

برجل عادي من بيننا. فللمسيح مكانة عليا وسط الأنبياء وهذه المكانة تجعله أسمى من هذه التشبيهات. ومما لاشك فيه أن كافة مشايخ المسلمين يؤيدون هذا الرأي.

تمثال للعذراء يرتدي البرقع الأفغاني

كما كان في نفس المعرض السابق وبين الأعمال التي أثارت استهجان البعض تمثال للسيدة العذراء يرتدي البرقع الأفغاني.

وفي هذه الأعمال الفنية تقارب ديني ما. وتفاعل بين الإسلام والمسيحية. هذا التفاعل كان حاضراً في أذهان الفنانين الذين ابتدعوا تلك الأعمال. ويذكر أن كافة الأعمال الفنية التي تصوّر العذراء تجعلها ترتدي حجاباً يغطي رأسها. وغالباً مايكون هذا الحجاب أبيض اللون. ويعتقد فنانو ومؤرخو الغرب بأن هذا الحجاب هو من أصل سوري. ويطلقون عليه اسم (فولارد سيريان) ولمّا كانت كافة الصور تلبس السيدة العذراء فولارا – حجاباً إسلامياً حسب مفهومنا - فليس جديداً كل الجدة أن تلبسها صورة حديثة برقعاً أفغانياً أزرق اللون. ولأنّ العالم المسيحي اعتاد أن يصوّر العذراء برسوم وتماثيل متنوعة فنحن نذكّر بأن إسلامنا الذي يمنح العذراء مكانة سامية بين نساء البشرية يمنعنا من تشبيهها بأي صورة متخيّلة يبتدعها فنّان.

اتهام هيفاء وهبي بالإساءة للمسيحية

اتهمت هيفا في لبنان بالإساءة إلى الكنيسة والمسيحيين، بسبب ظهور صليب ضخم على الحائط، في خلفية مشهد استعراضي راقص نفذّته مع مجموعة فتيات في فيديو كليب وغضب المطران جورج رحمة من الموضوع، وأشار رحمة إلى أن الاتصالات الهاتفية انهالت عليه، منتقدة العمل "الذي يمسّ مباشرة مشاعر المسيحيين". لكنه يستدرك ويقول إن *الكنيسة لا تملك سلطة إلا على أبنائها، ولا نستطيع فرض أي حكم على هيفا، لكونها مسلمة* كما يقول. واعتبر رحمة أن مسؤولية المؤسسة الدينية تكمن في منع كل ما يمسّ القيم الروحية والأعراف والتقاليد، مذكراً بحادثة سابقة، حين تدخّلت الكنيسة منذ ٨ سنوات، ومنعت

فرقة موسيقية غربية من إحياء حفلة غنائية في لبنان، بسبب كلمات أغانيها المهينة للمسيح والديانة المسيحية. ويدلّ الاحتجاج الكنسي اللبناني على أمرين مهمين: فالكنيسة اللبنانية العربية محافظة على قيمها الدينية وهي تتميّز بهذا عن كنائس الغرب التي تسمح بأعمال كثيرة تسيء للمسيحية وللمسيح نفسه أحياناً. فالكنيسة اللبنانية ملتزمة بالقيم الدينية وهي بذلك توازي المدارس الإسلامية الملتزمة بأحكام الدين. ثم إن المنطق الديني الإسلامي يحتج على أعمال تسيء للمسيحية ويحتج على التعري والخلاعة داخل كنيسة يقوم المؤمنون بالعبادة فيها. وإن الإحتجاج على ماصوّرته هيفا لايرتبط بكونها مسلمة شيعية فهي بأدائها الفني تتصرف وفق الثقافة العامة الدارجة في لبنان والوطن العربي وهذه الثقافة هي مزيج وبنفس الوقت فهي نتاج ثقافي اجتماعي عام هو بنفس الوقت موجود عند المسيحيين والمسلمين. وهذا المزيج الثقافي هو المسؤول عن تصرف هيفا، وهو من ناحية أخرى دليل على الوحدة الثقافية بين المسلمين والمسيحيين العرب. فقبل أن أطّلع على هذا الخبر كنت لا أستطيع أن أقرر بأن هيفا مسلمة أم مسيحية ذلك لأن الثقافة العربية واحدة.

الغرب وتحدي الأصولية الإسلامية

لقد وقع الغرب في متاهة وورطة بصدامه مع الأصولية الإسلامية. ولن يستطع أن ينقذ نفسه من تلك الورطة. خاصة وأن تلك الأصولية أصبحت من أصل غربي وأوروبي ومسيحي. ولن يقدر الغرب على مواجهة الأصولية الإسلامية كما هو واضح. فقد ثبت أن الدول الإسلامية هي الأقدر على مواجهة هذه الأصولية. وثمة عدة أسباب لذلك. فلبنان الذي يوصف بالضعف السياسي والبنيوي والأمني استطاع أن يقضي على معقل كبير للأصولية في مخيم نهر البارد. بينما الغرب يبدو اليوم متورطاً في معركته مع الأصوليين الإسلاميين ولن يقدر على وضع حدّ لهذه الظاهرة بل إنها تتزايد وتنمو باستمرار في الغرب كله وتصبح كل يوم أكثر خطراً على الغرب كله. ذلك لأن الغرب ليس مسلماً بشكل عام وهنا يكمن السبب في عجزه المستمر.

يفسر الغرب الأصولية الإسلامية انطلاقا من أطروحات متباينة وهو ما يؤدي إلى خلاصات سياسية متعارضة. ومما لاشك فيه أنّ الغرب متوتّر ومرتاب في شأن مواجهة الأصولية الإسلامية. فهو يقوم بأعمال تجريبية كثيرة ويخطيء في الكثير منها. وخيارات الغرب في هذا محدودة، لأنه أضعف من مواجهة تلك الأصولية رغم صغر حجمها.

وتتخبط تصريحات الغرب وتتناقض كثيراً مما يدل على عجزه عن المواجهة. وسيظلّ الغرب يتخبط في مشاريع المواجهة لأنّ حسابات الأرقام والحاسوبية التي يعتمد عليها في مواجهاته لايمكن أن تفيده في فهم ومواجهة التطرف الإسلامي. فقد وقع الغرب فعلاً في ورطة مواجهة الأصولية ولن يخرج من هذه الورطة أبداً إلا بواسطة الحوار الحقيقي والمتوازن معها.

أطروحة الصدام الحتمي بين الحضارات

من الأطروحات الأكثر شيوعاً اليوم تلك التي تشير إلى الصدام الحتمي بين الشرق المسلم والغرب المركّب العقائد. والتي تفسر الأصولية كرد فعل على الإمبريالية الغربية وتربطها بحركات أخرى منتمية إلى العالم الثالث. وعلى العكس تدافع عن أطروحة "صراعات التحديث" التي لا ترى الأزمة الحالية صراعاً بين الغرب والإسلام بمقدار ما هي نتيجة لصراعات داخلية تنبع من مسار التحديث في العالم الإسلامي.

فكرة أن العلاقات بين الغرب والإسلام لا تسير على ما يرام فكرة راسخة لدى مواطني العالمين كما يظهر ذلك استبيان مركز أبحاث (Pew) فغالبية من تم استجوابهم في البلدان الغربية كما في البلدان الإسلامية اعتبروا أنها سيئة. على سبيل المثال كان ذلك رأي ٦١٪ من الأسبان، لكن ما يلفت الانتباه هو أنه من بين كل العينات المستجوبة في ١٣ بلداً ظهر مسلمو أسبانيا الأكثر تفاؤلا فقد اعتبر أكثر من نصفهم أنها علاقات جيدة. أبرز ما يأخذه المسلمون على الغربيين، حسب نفس المركز، هو كونهم أنانيين وعنيفين ومنحطين أخلاقياً، وفي المقابل يرى الغربيون في المسلمين أشخاصاً انفعاليين وعنيفين.

أما عن سوء الفهم المتبادل على أسس دينية صرفة فيظهر استبيان أجراه نفس المركز عام ٢٠٠٥ أن ٦٣٪ من الأتراك و٥٨٪ من المغاربة و٥٧٪ من الإندونيسيين صرحوا بأن لديهم صورة سلبية عن المسيحيين والغالبية في كل البلدان الإسلامية لديها صورة سلبية عن اليهود. رأي الغربيين عن المسلمين ليس بهذا السوء لكن ٥١٪ من الهولنديين و٤١٪ من الألمان و٣٤٪ من الأسبان يصرحون حسب الاستبيان المشار إليه بأن لديهم صورة سيئة عن المسلمين وتنخفض هذه النسبة بشكل معتبر في المملكة المتحدة والولايات المتحدة.

وبالتأكيد فإن وضع القيم والتصورات السائدة في البلدان الإسلامية والغربية في مواجهة يعتبر تبسيطا إذ لا شك أن هناك قيما مشتركة، وفي بعض المجالات هناك اختلاف كبير بين البلدان الغربية نفسها كما يبدو ذلك الاختلاف أكبر بين العديد من البلدان الإسلامية. الديمقراطية مثلا تمثل قيمة متقاسمة وبالرغم من أن بلدانا إسلامية قليلة تنعم بها فإن أغلب المواطنين فيها يقاسمون الغربيين التوق إليها. وبحسب استبيان فإن نسبة من يؤيدون الديمقراطية تتراوح ما بين ٨٥٪ و٩٨٪ في العالم الإسلامي كما في العالم الغربي. على المستوى الديني الفروق كبيرة، وإذا كان المسلمون يتميزون بتدينهم فإن ما يستحق الملاحظة هو الفرق بين الأوروبيين والأمريكيين، ففي الرد على سؤال (ما أهمية الله في حياتك؟) في استبيان وضع الرقم ١٠ كحد أعلى والرقم ١ كحد أدنى جاءت النتيجة في أكثر من نصف البلدان الإسلامية فوق الـ ٩، لكن نفس الأمر حصل في المكسيك وشيلي. الأرجنتين والولايات المتحدة جاءت فوق الـ ٨ بينما جاءت أسبانيا تحت الـ ٦ وهبطت في كل من بريطانيا وفرنسا والسويد تحت الـ ٣,٥ . ولإثبات الفرق بين الدول الإسلامية نفسها فلا شيء أفضل من إلقاء نظرة على معدل الأبناء لكل سيدة: في أفغانستان واليمن أكثر من ٦ وفي فلسطين أكثر من ٥. أكثر من ٤ أطفال لكل سيدة في العراق وباكستان والسعودية، لكن أيضا طفلان فقط لكل سيدة في إيران وتونس. ويصل المعدل إلى فوق الاثنين بقليل في إندونيسيا والجزائر والمغرب. وللمقارنة نذكر أن نفس المعدل في الولايات المتحدة هو ٢ وفي فرنسا ١,٩ وفي ألمانيا

وإيطاليا وأسبانيا ١,٣ وإذن إلى حد بعيد تتقاطع قيم الحياة الخاصة فالأمريكيون والفرنسيون والإيرانيون يتقاسمون إلى حد ما نفس العقلية.

لكن وبالرغم من كل الدلائل التي تؤكد الاختلاف الداخلي في كلا العالمين فإنه لا بد من الاعتراف بأن سوء التفاهم الحالي بين الغرب والإسلام يمثل مشكلة خطيرة لأن العلاقة بين هذين الطرفين مفصلية بالنسبة لمستقبلنا. من خلال النظرة الأوروبية تحديداً لدى العلاقة مع الإسلام أهمية أساسية وذلك على الأقل لأربعة أسباب: قابلية التوتر في العالم الإسلامي، والعوز الأوروبي في مجال الطاقة وموجات الهجرة والذي أدى من بينها جميعاً إلى أن تتحول قضية العلاقة بين الغرب والإسلام إلى قضية بمنتهى الأهمية هو تدويل الإرهاب الجهادي الذي ترجم في عمليات لا تميز أحداً تستهدف المدنيين الغربيين. هذا العامل يطغى على العوامل الثلاثة الأخرى المشار إليها فالسباق نحو الإرهاب جعل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي أكثر دموية وكذا الأزمة اللبنانية والجزائرية، وفي هذه الأيام يحصل الشيء نفسه في العراق،.

وإنّ مشاركة مسلمين أوروبيين في عمليات ارتكبت في أوروبا وانطلقت منها يعتبر العنصر الأكثر إثارة للقلق في العلاقة مع الجاليات المسلمة في أوروبا. الإرهاب الذي يدعي أنه استجابة لنداء إلهي بالدفاع عن الإسلام يشكل المظهر الأكثر عنفاً لحركة أوسع تسمى عادة بطرق مختلفة: الإسلاموية، الأصولية الإسلامية، والإسلام المتشدد، هدفها هو إخضاع المجتمعات المسلمة لحرفية النصوص الأولى للإسلام، وهذا الاتجاه للعودة إلى الأصول يصاحب رفضاً صارماً لغالبية القيم الأساسية للحداثة التي يقدمها الإسلاميون الأصوليون على أنها بدع قادمة من الغرب لا تتواءم مع الإسلام.

ولمعرفة حجم التهديد على الغرب الذي يشكله الإسلام الأصولي وتحديداً الإرهاب الجهادي لا بد من تحديد الجذور التي تشرح الظاهرة بشكل أفضل. وإذا بسطنا الأمر قليلاً فيمكن القول إنه تم اقتراح ثلاث أطروحات وهي صدام الحضارات، وردة فعل العالم الثالث، وصراعات التحديث.

إنّ الطرح الغربي المنحاز يفسّر الإرهاب الجهادي كتواصل، بأساليب جديدة، للتمدد الإسلامي الذي بدأ في زمن محمد [صلى الله عليه وسلم]. ويعتبر أن القاعدة تستأنف ضد الغرب الصراع الذي خاضه الأمويون والمرابطون والموحدون والعثمانيون. ويزعم هذا الطرح أن أيديولوجيا بن لادن تجد لنفسها جذوراً في القرآن نفسه الذي يحوي نداء لقتال غير المؤمنين. ومن يتبنون هذه النظرية يعتبرون أن كل الإسلاميين لديهم نفس الهدف كما يرون في مسلمي أوروبا طابوراً خامساً كامناً. وعليه فيعتبر الغرب نفسه في صدام مع الإسلام كالصراع الذي خاضه الغرب ضد المعسكر السوفييتي.

لا شك أن الإسلاميين المتشددين وحتى الإرهابيين الجهاديين يؤسسون فكرهم على نصوص إسلامية مقدسة والنداءات الواردة فيها للجهاد ضد غير المؤمنين. من جانب آخر فإن التعاطف لدى قطاعات واسعة من المسلمين مع الأصولية الإسلامية وحتى مع "الإرهاب" الموجه ضد الغرب يفسر جزئياً بالشعور بالظلم تجاه الغرب وهو شعور ليس آتياً من فراغ.

رؤية أخرى للأزمة

هذا طرح آخر للمشكلة يعكس اتجاهاً شائعاً بين قطاعات مهمة من المثقفين الغربيين مؤداه تحميل الغرب كل شرور العالم. وعلى هذا الرأي فالإسلاموية حسب هذا الطرح ليست ظاهرة دينية ولا هي تواصلاً للمد الإسلامي بأساليب جديدة بل إنها رد فعل على الإمبريالية الغربية. فالخطيئة الأولى كانت الاستعمار الأوروبي وتفاقمت المشكلة بإنشاء دولة إسرائيل الغربية وتبعتها التدخلات الغربية في العالم الإسلامي وبالدعم الغربي سواء لإسرائيل أو لأنظمة عربية. وفي الجملة تمثل الإسلاموية، فضلاً عن خطابها الديني، مظهراً جديداً للحرب ضد الإمبريالية، وهي في النهاية رد على ظلم النظام الدولي الذي أقامه الغرب. ومع كون هذا الطرح يتقاطع مع النسبية الثقافية فهو يقدم دوماً مصحوباً بنقد للادعاء بأن القيم الكونية التي يدافع عنها الغرب هي أرقى من القيم الإسلامية.

إنّ المقاربة المؤسسة على صدام الحضارات ستحول مجرد الصعوبات في العلاقات البينية إلى مواجهة لا يمكن حلها. وعلى أرض الواقع لا يوجد صدام كوني فالأزمات التي يعاني منها العالم الإسلامي ليست في أغلبها نتيجة صدام بين الإسلام والغرب بمقدار ما هي أزمات أهلية داخل المجتمعات الإسلامية. الصراع في العراق على سبيل المثال، وإن بدأ بسبب القرار غير الخاطئ الذي اتخذه بوش وحلفاؤه بالتدخل في العراق، فإنه في جوهره صراع طائفي بين الشيعة والسنة، وتكفي نظرة على ضحايا التفجيرات لفهمه. كذلك فإن الأقليات المسلمة في أوروبا لا تشكل طابوراً خامساً معادياً وإن كانت تظهر فيها نزعات فردية إلى التشدد. لكن الأهم هو أنه لمحاربة الإرهاب الجهادي فليس من الحكمة إعطاؤه الحجة ليثبت أن الإسلام والغرب غير قابلين للاتفاق. بل على العكس سيكون التعاون الأمني مع الحكومات الإسلامية ذا جدوى كبيرة.

التعاون الأمني مع الحكومات الإسلامية يؤدي دون شك إلى الصدامي الذي لا ينبغي اتباعه لمن يتبنون نظرية "رد فعل العالم الثالث" المعضلة أنه بالموافقة على هذا الطرح فلن يكون تقريباً بإمكان الحكومات الغربية عمل أي شيء: تعزيز العلاقات التجارية مع العالم الإسلامي سيعتبر تشجيعاً لعولمة ينظر إليها بسلبية، والتدخل في مهمات سلام في بؤر النزاعات كأفغانستان مثلا سيعتبر نمطاً من الإمبريالية، ودعم الحكومات الإسلامية القائمة سيعتبر تواطؤاً معها، وانتقاد الأصولية الإسلامية سيكون إظهاراً للعنصرية والمركزية الغربية. ومن هنا فهذا الطرح ينتمي إلى عالم النقد الثقافي أكثر مما ينتمي إلى العمل الحكومي، غير أنه بمجرد أن يحظى بحضور إعلامي وثقافي قد يمكنه نزع الشرعية عن السياسات المتبعة.

أسباب تطرف الشباب

كثيرة هي الأسباب التي قدمها الدارسون لتفسير تصاعد أوج الأصولية وليس من السهل تقييم الأهمية النسبية لكل منها. فمن العوامل المهمة دون شك الشعور بالهزيمة وأشواق الماضي المشرف والمعاناة من بعض نتائج التحديث، ورد فعل الهوية

ضد النفوذ الغربي، والحاجة إلى آفاق للأجيال الشابة، واستخدام التقنيات المعلوماتية. وفي حالة مسلمي أوروبا: الشعور بالتهميش في المجتمع الذي يعيشون فيه.

لدى العالم الإسلامي والعالم العربي بشكل خاص، باستثناء الثروة البترولية، القليل من الأسباب للشعور بالرضا عن إنجازاته في العقود الأخيرة. فمستوى حياة الشعوب متردٍّ ومن ثم فوحدها مجموعة صغيرة من البلدان الإسلامية الغنية بالبترول هي التي توفرت على معدلات نمو مرتفعة. ورغم ثراء منابع تلك الدول فإننا نجد فقراء معدمين في مجتمعاتها. كيف لنا أن نقبل بأن الدولة التي تصدر أكبر منتوج من النفط عالمياً هي نفسها نجد في مجتمعاتها آلاف الشحاذين المنتشرين في الطرقات والأزقّة.؟

يتمتع العالم الإسلامي بموارد لها أهميتها على الصعيد الدولي بينما يغيب له أي حضور مهم في مجالات العلم والتقنيات والثقافة والرياضة. ويتعزز الشعور بالهزيمة، وخاصة في العالم العربي، بسبب التوسع الذي تمارسه إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، وهي الدولة الصغيرة المكونة من أقلية دينية طالما عاشت متفرقة بين المجتمعات العربية. كل هذا يخلق شعوراً متقاسماً بالخيبة وخاصة لدى أمة تشعر بأنها تملك زمام الحقيقة الدينية الكونية وتتذكر ماضياً مليئاً بالأمجاد.

الهوية الإسلامية رد فعل على الخطر الغربي

يرى الكثير من المسلمين في الغرب تهديداً مزدوجاً. في قوته الاقتصادية والعسكرية وخاصة في حالة الولايات المتحدة ومن جانب آخر في نفوذه الثقافي الذي ينظر إليه كمصدر للانحلال الأخلاقي، الذي يخشى المسلمون أن يمسّ أبناءهم. وإن ٦٠٪ من الأردنيين والمصريين والإندونيسيين والأتراك والمسلمين البريطانيين يرون في الغربيين – حسب استبيان مركز (PEW) أناساً منحطين أخلاقياً.

لكن هذه النسبة تنخفض إلى الـ ٣٠٪ في حالة المسلمين الأسبان والفرنسيين والألمان(٧).ومقابل مايراه المسلمون الغربيون من أخطار غربية على ثقافتهم ودينهم ومجتمعاتهم يطفو على السطح تمسكهم بالدين وقيمه.

بل ويذهب البعض أكثر من ذلك فيتمسكون بالموروث الثقافي الدخيل على الإسلام. وآخرون يصبحون متطرفين أو حركيين. وينطبق رد الفعل هذا على المسلمين في العالم كله.

انعدام الآفاق للأجيال الشابة

تزداد جاذبية الأصولية وحتى الإرهاب الجهادي بسبب انعدام آفاق تستوعب الأجيال الجديدة التي تلاقي مصاعب جمة في الحصول على فرص عمل تناسب تطلعاتها، وهذا الأمر هو نتيجة الركود الاقتصادي إضافة إلى التحولات السكانية وهي أمور حصلت في البلدان الإسلامية وفي العالم الثالث عامة بشكل أسوأ مما حصل قديماً في الغرب.

لقد انخفضت نسبة الوفيات بسرعة وبالرغم من أن نسب الخصوبة بدأت في الانخفاض فإن الوضع الحالي هو الزيادة الكبيرة في نسبة الشباب، وبعبارة أخرى فإن من يدخلون سنوياً إلى سوق العمل هم أكثر بكثير قياساً إلى قدرة النظام الاقتصادي على توفير فرص شغل لهم.

هذا الأمر يتقاطع مع ما أبرزته دراسة أجريت على مستوى العالم من أن الزيادة في نسبة الشباب تعتبر مؤشراً ذا علاقة إحصائية قوية جداً بظهور النزاعات المسلحة.

صراعات التحديث الإسلامي

لابد من الرجوع إلى الطرح القائل بأن الأصولية الإسلامية والإرهاب الجهادي ينبعان من احتقانات داخل المجتمعات المسلمة لكن يمكن فهمها في إطار المسار الكوني للحداثة. ففي القرون الثلاثة الماضية عرفت البشرية تغيراً جذرياً في البنى

التي تحكم حياتها سيؤدي بها بالضرورة إلى أقلمة نظمها القيمية والقواعد التي تمليها عقلياتها التقليدية، وهذه الأزمة يمكنها في نفس الوقت تسهيل صعود أيديولوجيات شمولية تتبنى استعادة القيم التقليدية أو فرض قيم أخرى عن طريق اللجوء إلى العنف والتسلط. ففي أسبانيا مثلت "الفرانكوية" محاولة لفرض قيم أسبانيا الإمبراطورية وقيم الكاثوليكية المتزمتة على مجتمع متعدد، وفي أوروبا في القرن العشرين قادت المحاولات المثالية لإقامة عالم جديد على قطيعة مع التقاليد الإنسانية للغرب إلى الانحرافات الستالينية والنازية. ولم يكن طريق التحديث لا في أوروبا ولا في آسيا الشرقية سلمياً ولا معبّداً بل صاحبته طيلة القرن العشرين أزمات على درجة عالية من العنف. ومن هذا المنظور التاريخي لن يكون مفاجئاً أنه في الكثير أيضاً من البلاد الإسلامية تعبر مسيرة التحديث التي بدأت في القرن العشرين مصحوبة بانتشار للأزمات وازدهار للأيديولوجيات المتطرفة. ومن المؤكد أن الأصولية الإسلامية – وعلى خلاف النازية والستالينية والماوية – تتأسس على مبادئ دينية تقليدية ومثلها الأعلى ليس في المستقبل بل في ماض مثالي، لكن يجدر التذكير بأنه في أسبانيا كانت الحروب الدينية التي أدمت كل القارة خلال القرنين الـ ١٦- والـ ١٧ تحضيراً لأوج العلمنة التي بدأت في القرن الثامن عشر، ومثلت تجربة "خينريا دكالبينو" خصوصا تجربة حكم لا هوتي وهي من حيث مراقبتها للحياة الخاصة للمواطنين لا تبتعد تماماً عما تسعى إليه الأصولية الإسلامية.

الصراعات والحروب

تساهم الصراعات والحروب بين الشرق والغرب في تعميق الخلاف بين الطرفين. حكومات وشعوباً. ومن جديد أصبحت هذه الصراعات علامات استفهام كبيرة تدعو شعوب الشرق والغرب للتفكّر بالأسباب والبحث عن الحلول. وأصبحت هذه الصراعات والتي هي عدوانية غربية للمسلمين. أصبحت علامة استفهام كبيرة للغربي اكتشف من خلالها زيف أنظمة حكوماته ونفاقها وأكاذيبها. وبالتالي أصبحت عاملاً إيجابياً في أسلمة أوروبا ومناصرة الغربيين للقضايا الإسلامية.

الحل السلمي للصراعات يعتبر بالتأكيد عاملاً مهماً للتقدم وهو أيضا أساسي لتخفيض شعور المسلمين العدائي تجاه الغرب. ومن الصعب طبعاً التفاؤل على المدى القريب، إذ تبقى المخاوف قائمة من أن يتواصل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ومن أن يتأخر الوصول إلى تفاهم ينهي حالة الحرب الأهلية في العراق، ومن أن يؤدي البرنامج النووي الإيراني إلى ضغوطات خطيرة.

وكل هذا قد يفرض على القوى الغربية الاستبدادية اتخاذ قرارات صعبة وغير مضمونة النتائج. وقد يوقع المنطقة في أتون حرب ضروس مدمرة.

إنه ليس أمام العرب والمسلمين سوى التفاوض مع الشعوب الغربية واستمالتهم والتحاور معهم وضمّ أصواتهم إلى صوت الحق وعزل قرارهم عن قرار النظام الحاكم المستبد في الغرب. ونقصد بالشعوب الغربية هنا قطاعات الجماهير والمجتمعات المدنية والدينية والهيئات الأخرى ورجال الثقافة والفكر والصحافة وغيرهم.

النظام العالمي القائم

تعاقبت على مدار القرون الخمسة الفائتة مجموعة من الدول الكبرى في الهيمنة على العالم. مثل (الدولة العثمانية)، ثم إسبانيا والبرتغال، وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت الهيمنة على العالم للاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة.

ومنذ عام ١٩٩١ بدأت الولايات المتحدة تمدّ سيطرتها على العالم وتعمل على إقامة نظام عالمي جديد.

وبدأت الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي بالبحث عن طاقة جديدة تكون البديل عن البترول الإسلامي في حال قام المسلمون بقطعه عن الغرب. بل إن الدول القوية قد تقوم بتدميره حين لاتعود بحاجة له وتحرم دول النفط من الاستفادة منه أو تسخير عوائده ضد الغرب.

عرف المفكر الاستراتيجي الأميركي جوزيف ناي "القوة" بأنها: "القدرة على التأثير في الأهداف المطلوبة، وتغيير سلوك الآخرين عند الضرورة بالقوة أو بالثقافة أو بالضغوط الاقتصادية".

وترتبط القوة بالموارد، فتكون المحصلة التطبيقية لفهم القوة ومصادرها بالنسبة للدولة هي امتلاك عناصر معينة امتلاكاً متفوقاً أو مؤثراً، مثل السكان، والإقليم الجغرافي، والموارد الاقتصادية الطبيعية والتجارية، السياسي. وتضاف اليها الصناعات.

والعدد الكبير للسكان يشكل مورداً كبيراً للدولة يعطيها زخماً اقتصادياً وصناعياً، واقتصاداً قوياً. ولعلّ أهم سبب في انهيار الاتحاد السوفيتي كان في ضعف انتاجه واقتصاده.فالاقتصاد هو القوة الرئيسية لبناء الدول والأمم.فبرغم قوة الولايات المتحدة وهيمنتها غير المسبوقة على العالم، فإنّ قوى شعوبية أخرى تهدد هذه الهيمنة، فكثير من الدول بدأت تلتفت إلى تقوية اقتصادها كاليابان وروسيا والصين والاتحاد الأوروبي. الأمر الذي يمكّن هذه القوى في النهاية من تهديد الهيمنة الأمريكية الحالية على العالم.

وقد بدأ الاتحاد الأوروبي يفرض نفسه كقوة مؤثرة اقتصادياً وسكانياً وعسكرياً. وبات على وشك منافسة الولايات المتحدة وتحييدها. وفي معركة الهيمنة هذه يدرك الغرب امتلاك العرب المسلمين لكافة عناصر القوة التي تمكّنهم في أي وقت من التوحّد وبسط السيطرة على العالم. كما أن الإدارة الأمريكية والدول الغربية عموماً تخطط وتبني استراتيجيتها ومشاريعها على اعتبار أنّ العالم الإسلامي كتلة جغرافية وحضارية واحدة. فللردّ على أعمال القاعدة اتخذت الدول الغربية إجراءات تستهدف كافة الشعوب الإسلامية من الشرق إلى الغرب، بل وأضافت عليهم المسلمين الأوروبيين. وبهذا كانت توحّد بين المسلمين جميعاً. ومن هنا فالأجدى بالمسلمين أنفسهم أن يشعروا بهذه الوحدة ويتعاملوا على أساس وجودها.

فرغم أن العالم الإسلامي متشرذم وتسود بين دوله الخلافات أحياناً ويضاف إلى ذلك التناقضات بين الحركات الإسلامية والحكومات، ورغم تبعية بعض

الحكومات الإسلامية للسياسة الأمريكية فإن أمريكا والغرب قلقون من الإسلام كله وليس من الحركات الإسلامية فحسب، وهم لايفرّقون بينهم، وتعتمد سياسات الغرب على هذه الرؤية التي يوحدّون من خلالها المسلمين كافة. ومن هنا كان تهديد باكستان، وغزو العراق، وتهديد إيران وسورية،رغم أنّ هؤلاء جميعاً لايمثّلون تنظيم القاعدة بشكل من الأشكال. بل يختلف أغلبهم معه،وتقوم الحكومات الإسلامية بقمعه.

النهضة الإسلامية ممكنة

النهضة الإسلامية لاتعني كما يتصور البعض عداء الإسلاميين للحكومات أو السلطات. ولاتعني أيضاً التحزب ضمن حركات إسلامية والعمل بداخلها ووفق أنظمتها، والنهضة لاتعني معاداة الغرب ولاتعني محاربته. فتلك هي موروثات خاطئة عن فهم النهضة الإسلامية. ومن الطبيعي أن تكون نهضة فكرية وثقافية وتطويرية داخل المجتمع الإسلامي، وأن يكون هدفها بناء المجتمع الإسلامي وتطوير علاقاته مع الآخر. وأن تسعى هذه النهضة للتعريف الصحيح بالإسلام والدعوة لاعتناق هذا الدين السماوي الحنيف.

يتعين على المسلمين الانتباه إلى تحقيق مشروع نهضوي إسلامي حقيقي، والذي يمكن تحقيقه بالفعل، ويتطلب ذلك الاستعلاء الكبير عن كل أنواع الفكر والفعل الذي يعيق هذه النهضة. وإذا كان لدى المسلمين مشروع أكثر إلحاحاً وضرورة لإنجازه فإنه هذا المشروع النهضوي. وبإمكان مسلم أن يساهم بمفرده في هذا المشروع، حين يلتزم بمقومات النهضة ويقوم بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به، وحين يكون نموذجاً وصورة إيجابية تعبّر عن دينه. والنهضة الإسلامية ليس من الضرورة ربطها بالحركات الإسلامية. إذ من الملاحظ أن أغلب الحركات الإسلامية تنشغل بما هو غير نهضوي، وتحيد عن طريق النهضة الذي هو أهم جانب مفيد للإسلام والمسلمين. والنهضة توكيد للقيم المثالية التي تعد أفقاً يتحرك تاريخ الوعي والفعل البشريين نحوهما. إنها توكيد لإنسانية الكائن الإنساني وكرامته،

بوصفه كائناً واعياً وحراً وأخلاقياً. والنهوض حركة وعي بالذات، وتوكيد على القيم المميزة للكائن الإنساني، ككائن واع وحر وأخلاقي.ولابد من إدراك الشخصية الحضارية ومقوماتها، والعمل على تعميق الإحساس بالهوية، والاحتراس من الوقوع في محاذير الانغلاق والانكماش. وإنه لا نهضة للعالم الإسلامي خارج شرط وعيه بذاته، أي خارج مقوماته الحضارية الذاتية. وإنه ليس بإمكاننا أن نخطو الخطوة الأولى بهذه النهضة مادمنا مشرذمين طائفياً وعرقياً وفكرياً.

أهمية الوحدة الثقافية

تتوجه الأمم والشعوب في مختلف القارات نحو التقارب والتضامن والاتحاد، انطلاقاً من الضروريات الحياتية العديدة لهذه الأمم، فالولايات المتحدة هي اتحاد بين كيانات وشعوب تمتلك فيما بينها كافة أنواع الفروقات والخلافات التي عرفتها البشرية، فهناك ياباني قام الأمريكيون منذ نصف قرن بإلقاء القنبلة النووية في بلاده، ورغم ذلك فقد نسي الماضي القريب وانضم إلى الأسرة الأمريكية الكبيرة.بينما نحن نعتمد باتهامنا للمسلم الآخر على نص غير مؤكد وغير موثوق كتبه البغدادي في مخطوط (الفرق بين الفرق) أو عثرنا عليه في كتاب الملل والنحل.

ويشمل الاتحاد الأوروبي شعوباً كانت تتقاتل منذ نصف قرن تقريباً، وقد قتل في الحربين العالميتين أكثر من خمسين مليوناً من الأوروبيين، أي أن الأوروبي الذي سعى للوحدة الأوروبية ربما شهد هو الحرب والقتل وربما فقد أحد أفراد أسرته. ورغم ذلك غفر لتلك المظالم والجرائم ونسي الماضي القريب وسعى للاتحاد مع الجميع.

وحدة المسلمين رغم تعدد مذاهبهم

هذه الأمة التي اختارها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس يجب أن تكون أمة واحدة لقوله سبحانه في سورة "المؤمنون":

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ٥٢).

ووجوب وحدة هذه الأمة يرجع إلى أن إلهها واحد وأصلها واحد ونبيها .وقد تأسست هذه الأمة على مبدأ الوحدة مع التسليم بوجود التعددية فيها. وأول تمثل للتعددية في الإسلام كان في تعدد الأعراق والألوان واللغات والعادات والثقافات، ولم تمثل تلك التعددية أي مشكلة في وحدة الأمة آنذاك.بل كانت رادفاً لعناصر الوحدة الإسلامية.وهذا يعني أنها ممكن أن تكون اليوم رادفاً للوحدة الإسلامية المنشودة.فاليوم لاحاجة لتوحيد المذاهب الإسلامية كما قد يتصور البعض. لأن توحيد المذاهب لن يتم بهذه السهولة. ومن الجائز أنّ التاريخ الإسلامي القادم كله لن يشهده على الإطلاق.

بل إنّ الحاجة تدعو لتحقيق الوحدة في هذه الأمة. مع الإبقاء على تعدديتها. وذلك يقتضي تضافر أفكار وجهود المخلصين من أبنائها من علماء وسياسيين وتربويين ومثقفين وإعلاميين وأفراد عاديين. يقول الله سبحانه في سورة الحجرات:

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. ١٣".

ويقول عز وجل في سورة النور مؤكداً أن هذا الاختلاف آية من آياته في الكون:

(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم٢٣)

وقال عزّ وجلّ في سورة هود:

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ١١٨)

ويقول الله سبحانه مؤكداً تأكيداً صريحاً لالبس فيه على وحدة الأمة الإسلامية:

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

وقال سبحانه في سورة آل عمران:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ١٠٢)

وفي هذه الآية أمر إلهي صريح على إقامة الوحدة الإسلامية. فالوحدة الإسلامية يعمّ خيرها على المسلمين جميعاً وعلى الشعوب الأخرى. وهي التي تمكّن المسلمين من الصمود في وجه المخططات الغربية التي تضعف المسلمين وتحتل جزءاً من بلدانهم وتقتل أبناءهم. والوحدة الإسلامية هي التي تمكّن المسلمين الغربيين من الصمود أمام العدائية التي تستهدفهم. والوحدة الإسلامية التي هي آتية لامحالة، ستكون سنداً في تمكين مسلمي الغرب من بسط سيطرتهم على جزء من أوروبا في العقود القادمة.

الفصل الثامن

تركيا البوابة الثانية للإسلام الأوروبي

عادت تركيا إلى الفضاء الإسلامي

بعد غيابها طوال قرن من الزمن عن الفضاء الإسلامي، عادت تركيا إليه بقوة وبعزيمة ثورية. فقد حاز الإسلاميون الأتراك على رئاسة الحكومة والجمهورية، وباتوا قادرين على تسييس تركيا بما يتماشى مع المصلحة الإسلامية، والتي هي مصلحة العرب والمسلمين عموماً. وعلى الفور بدأ الغرب يختلق المشكلات والمجابهة مع الأتراك الجدد، ووجدت تركيا الجديدة نفسها تنحاز بقوة لجبهة الدفاع عن الحقوق العربية والإسلامية وتتحالف مع سورية وإيران ومن في فلكهم. وتركيا بصفتها الأوروبية وبنفوذها الواسع داخل أوروبا يمكن اعتبارها أحد الأبواب الرئيسة في المشروع القائم بحدّ ذاته وهو مشروع أسلمة أوروبا.

الحركات الإسلامية العلمانية

الحركات الإسلامية التركية عموماً قامت كردة فعل على النظام القائم الذي حاول خلق شعب معاصر وتقدمي بناء على اعتبارات علمانية لا على أساس هوية إسلامية، وقد استطاعت أن تصمد رغم الصعوبات الكبيرة التي واجهتها، بل وتسلمت رئاسة الحكومة بقوة ومن المتوقع أن تتسلم رئاسة الجمهورية التركية. ورغم هويتها الإسلامية فقد أعلن رئيس الوزراء التركي مراراً أن حركته الإسلامية علمانية وماضية في علمانية تركيا.

مراحل تطور الحركات الإسلامية في تركيا

عرفت مرحلة حكم أتارتورك ١٩٢٠- ١٩٣٨ وماتلاها حتى ١٩٥٠ بروز مجموعة من الأحزاب، وبمواجهة الحركات الإسلامية والتيارات القومية. وعرفت الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٦٠ العودة بالأذان إلى اللغة العربية وإعادة الاعتبار للتعليم الديني، وخلال مرحلة ١٩٦٥- ١٩٨٠ ظهر حزب النظام الوطني (نجم الدين أربكان) وهو خليط من الإسلاميين المتأثرين بحركة الإخوان وجماعة النور

وجماعة النقشبندية. أما مرحلة ١٩٨٣-١٩٩٣ التي عرفت بفترة توركت أوزال الذهبية، فقد شهدت تأسيس حزب الوطن الأم الذي حصل على أغلبية مقاعد البرلمان وأسهم بشكل كبير في إعادة الاعتبار إلى التعليم الديني. وخلال هذه الفترة تنبهت الحركة لأهمية الاقتصاد وتحولت إلى قوة اقتصادية، حيث ظهرت شركات مهمة تابعة للإسلاميين، مما منحهم طابع الاستقرار. وقد استفاد حزب العدالة والتنمية (الذي لا يصنف في تركيا كحزب إسلامي) من المراحل التي مرت بها الحركة الإسلامية تاريخياً ومن أخطاء حكومة حزب الرفاه ومن الأجواء الديموقراطية المتاحة في تركيا، مما سمح له بالنمو والتطور. راكم إسلاميو تركيا حصيلة مهمة على مستوى المشاركة في المؤسسات السياسية، وتنطوي هذه التجارب على أهمية كبرى، وذلك بالنظر إلى اشتغال الحركات الإسلامية التركية في ظروف وشروط صعبة يفرضها النظام العلماني داخلياً والمحيط الإقليمي(أوربا) الذي يتطير من كل حركة إسلامية. وإن الهامش المتاح للأحزاب السياسية في مجال صناعة القرار السياسي داخل الدولة ضعيف جداً؛ وذلك بالمقارنة مع مؤسسات سياسية ودستورية أخرى.

ولم يسبق للحركة التي حصلت على نسبة مهمة من مقاعد البرلمان في انتخابات سنة ١٩٩٧ أن ادعت بأنها حزب سياسي ولم تطالب قط بقيام دولة إسلامية، كما أنها تبنت هوية إسلامية محافظة. وعلى امتداد أكثر من ثلاثين سنة على ظهور هذه الحركة، وعلى الرغم من انتقاداتها المتواصلة للنظام التركي، إلا أنها لم تستعمل أي شكل من أشكال العنف في مواجهته من أجل الوصول إلى السلطة، كما أنها لم ترفض النظام العلماني ولم تقترح دستورا جديداً للبلاد.

ومن خلال رصد تطور مسارها التاريخي، يتبين أنها تعتمد على الخطاب والمظاهر أكثر منهما على العمل، فخطابها السياسي الداخلي يوحي برغبتها في إعادة بناء الدولة على أساس الفكر الوطني، غير أن الواقع يبرز بأنها يوتوبيا وغير علمية، كما لم تبد حماساً تجاه فعاليات المجتمع المدني، ولم تلتفت لأهمية وسائل

الإعلام.. وعلى مستوى آخر، لم تتمكن الحركة من تحليل الأوضاع المجتمعية سياسياً ودستورياً، وكذا بالنسبة للقضايا الخارجية الحيوية، ولم تدرك أهمية إعادة النظر في مرجعياتها وتجديد فكرها، فهي ظلت في منأى عن الانفتاح على مختلف الدراسات التي تجسد الفكر الإسلامي المعاصر.

وعلى مستوى تدبير الشؤون الداخلية للحركة، يلاحظ غياب الشورى والممارسة الديموقراطية، أما نظرتها للمرأة فيغلب عليها طابع الاستعلاء، بحيث لا تتاح لها إمكانية تقلد منصب في الحزب أو الحكم.

وبخصوص الموقف من القضية الفلسطينية، فيبدو أن هناك نوعاً من التناقض والاضطراب، فما تحمله شعاراتها بصدد دعم القضية الفلسطينية؛ يقابله في نفس الوقت تأييد للسياسة الأمريكية بخصوص مشروع الشرق الأوسط الكبير.. والإقبال على نسج علاقات في مختلف المجالات والميادين مع الكيان الصهيوني.ولعلّها ومن المرجّح أنها في ذلك تمارس لعبة سياسية خادعة للنظام العلماني التركي.

ونظراً لوجود حالات من التوتر في علاقتها مع السلطة التي مارست ضغوطاً كبرى في مواجهتها، فإن الحركة لا تزال في موضع الشك والارتياب من حيث ولائها للنظام والمؤسسات. لقد كانت تجربة الحركة بزعامة أربكان ناجحة على المستوى الاقتصادي وفي مجال محاربة الرشوة مقارنة مع فترة أردوغان. ومع تجربة حزب السعادة تبين أن هناك مجموعة من الانحرافات على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والديني، بالشكل الذي أسهم في تراجع الحركة، وفي المقابل حققت هذه الأخيرة نجاحاً كبيراً على مستوى تسيير الجماعات المحلية. أما فيما يخص علاقة هذه الحركات بالنظام العلماني، فلم يكن للثورة الكمالية عداء نحو التدين بقدر ما كان عداؤها ينصب على ربط الدين بالسياسة، وأكثر من ذلك، فقد كان لهذا النظام الفضل الكبير في تهيئة الأجواء الديموقراطية التي تسمح لهذه الحركات بالعمل شريطة عدم تهديد بنيان نظام الدولة. وفي المقابل، لم تدع هذه الحركات إلى تطبيق الشريعة الإسلامية واكتفت بالدعوة إلى أسلمة المجتمع.

أما مشاركة هذه الحركات في المؤسسات السياسية فلم تتخذ الطابع المباشر دائماً، بل كانت هناك أحزاب تتفاوض مع الطرق والحركات لدعمها، الأمر الذي سمح بوجود أفراد من هذه الحركات منذ سنوات الخمسينيات من القرن المنصرم بالبرلمان، هذا بالإضافة إلى ترشيح أعضاء بصفة مستقلة. إن مجمل هذه الخصوصيات تنطوي على أهمية كبرى، لأنها تساعد على فهم تركيبة الإسلاميين في تركيا.

الرؤية العربية للحركات الإسلامية التركية

في حين يتوجب على العرب والمسلمين الاستفادة الكبيرة من التجربة الإسلامية التركية، وتصويب العمل الإسلامي بكل أنواعه، وتطوير الفكر الإسلامي بعد التعمق الكبير في التجربة التركية العظيمة. رأينا الثقافة العربية تتجه على الفور نحو ماتراه أخطاء ونواقص في العمل الإسلامي التركي. فلحظة فوز الإسلاميين بالانتخابات التركية انطلق في الإعلام العربي مصطلح العثمانيون الجدد. وعرضت الجزيرة برنامجاً يحمل هذا العنوان. ورأى بعض العرب أن الإسلاميين الأتراك يحملون الحلم العثماني بتوسيع نفوذ تركيا نحو البلدان العربية وغيرها. ونفس الاتهام وجهه العرب لإيران الإسلامية منذ انتصار الثورة، ثم مازال يطلق هنا وهناك كلما تطور التصنيع النووي الإيراني، الذي اعتبره العرب موجّهاً ضد الدول والشعوب العربية والإسلامية. بل ونسمع في كل حين عن صفقات ضخمة من الأسلحة تشتريها دول البيترول العربية لمواجهة اعتداءات إيرانية لاوجود لها.

الإسلام والحداثة السياسية في التجربة التركية

إنّ حزب(العدالة والتنمية) يشكل نموذجاً يستحق التأمل في العالمين العربي والإسلامي. فهذا النموذج يقدم مثالاً حياً حول إمكانية الجمع بين الإسلام والحداثة، ويرد على كل من يرفض أو ينكر هذه الإمكانية وبقدرتها على تدبير

الشؤون الداخلية أو الخارجية. إن نقطة الضعف في تجربة هذا الحزب كانت هي المؤسسة العسكرية، فكيف نفسر صعود نجم هذا الحزب رغم الإكراهات التي كانت تفرضها هذه المؤسسة؟

إن أسباب هذا الصعود متعددة وتتنوع بين عوامل مباشرة وأخرى غير مباشرة: فقد وصل الشعب التركي إلى مرحلة كشف فيها "ضلال" النخبة العلمانية، وتزامن صعود حزب العدالة والتنمية مع تنامي توحش العولمة وانخراط الشعب التركي في البحث عن ثقافته وهويته التي يشكل الإسلام جزءاً مهماً منها، وبخاصة وأن العلمنة التركية ومنذ سنة ١٩٢٣ لم تأت في سياق جدل داخلي ولكنها عبارة عن "قشرة" ألصقت بالمجتمع التركي بعدما مورس العنف لفرضها. ومن جانبه استطاع حزب العدالة والتنمية أن يوظف مختلف التحولات السياسية والاجتماعية في تصوراته وبرامجه، فهناك انتقاد ذاتي داخل الحركة، ونزوح عن الكارزمية والزعامات، والإيمان بالعمل الجماعي، مع الاهتمام بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية والابتعاد عن المماحكات(كتلك المرتبطة بمشكل الحجاب..) والتأكيد على عدم تهديد النظام العلماني والقبول بإمكانية الانضمام للاتحاد الأوربي.

العلمانية المؤمنة مصطلح جديد

العلمانية المؤمنة مصطلح جديد دخل القاموس اللغوي الإسلامي، وقد تأخّر دخوله واعتماده بسبب الخوف من الحديث عن إمكانية وجود الإيمان والعلمانية في وقت واحد وبترافق حقيقي. رغم أن الإسلام علمي وعلماني ولايتناقض مع العقل العلمي بشيء. فالمسيحية التي ارتكبت جريمة إعدام غاليلية أخطأت بينما الإسلام لم يرتكب مثل تلك الأخطاء طوال مسيرته.

داخل هذه التحولات عبّر حزب (العدالة والتنمية) الذي لا يدعو إلى تبني دستور إسلامي؛ على أن هويته علمانية مؤمنة، تتمحور بالأساس حول احترام حرية كل شخص. إن أهم الدروس التي يمكن استخلاصها من هذه التجربة في الفضاء التركي تتلخص في كون النظام الديموقراطي السلمي هو القادر وحده على إحداث

التغيير، فيما يظل الاعتقاد بامتلاك الحقيقة أمراً سلبياً وعائقاً ضد كل حراك ديموقراطي. ولعل هذه التجربة الناجحة تقدم للعرب درساً قوامه: ضرورة توفير فضاء ديموقراطي كفيل بخلق مناخ سياسي يتيح تنافساً سلمياً بين مختلف الفاعلين بتوجهاتهم المتباينة. بالإضافة إلى حقيقة الازدواجية في خطاب الحركات الإسلامية (أي الظاهر منها والخفي)، والتكتيك والاستراتيجية في خطاباتها وممارساتها، وإشكالية الوضوح النظري والفكري لديها من قضايا مهمة: الديموقراطية، المواطنة، المشاركة، المحيط الدولي، الاقتصاد.

ضرورة تبيئة هذه الحركات وتهيئتها للدخول في غمار تجربة ديموقراطية كباقي الفاعلين، مع الإشارة إلى ضرورة تخلي بعضها عن أسلوب التكفير والإلغاء والإقصاء في مواجهة مخالفيها في الرأي، واعتماد تجديد الفكر الإسلامي، وبخاصة وأن الفقه الإسلامي هو جد ضعيف مقارنة مع حجم المشاركة السياسية، وكذا الانفتاح على كتابات بعض الإصلاحيين التاريخيين. وعموماً، يمكن القول أنه وعلى الرغم من وجود نوع من الإيمان والإقرار بالأسس الديموقراطية من قبل بعض القوى الإسلامية، يظل استيعاب تحديات المحيط الدولي وبلورة تصور واضح ومحدد حول الإسلام، أحد أكبر المشاكل التي تواجه هذه الحركات.

الفصل التاسع

الإسلام والعلمانية

الإسلام والعلمانية

إن مايعرف بالعلمانية العربية ليست في حقيقتها سوى أنواع حديثة من العمل الفكري الهادف لبناء المجتمعات العربية الإسلامية. ومهما يكن الإيمان الداخلي في قلب صدّام حسين فإنه في الظاهر كان يعير الأسلمة جانباً كبيراً. فقام برسم عبارة (الله أكبر) على العلم العراقي، وكان يطلق أسماء إسلامية على المعارك التي يخوضها العراقيون. ثم وبعد دخول جنود الغرب إلى الأراضي العراقية أصبح البعثيون العراقيون السابقون كياناً مقاتلاً يطلق على نفسه اسم الجماعة الإسلامية، ويرفع شعارات إسلامية.

والحقيقة فإن الأخطاء والهفوات التي يقع فيها الإسلاميون، نكتشف أنّ العلمانيين العرب ينتبهون إليها ويمتلكون وعياً ونضجاً يجعلانهم لايقعون فيها. فمن عيوب الإسلاميين أنهم يناقشون قضايا عظيمة بواسطة وسائل شديدة البساطة والسذاجة. ومثالنا الشارح لهذا الرأي هو حدث في السويد: إذ كان من ضمن مشاريع التقريب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين في إحدى المدن أن نظمت الكنيسة المسيحية بالاتفاق مع أئمة المساجد أسبوع حوار وتقريب يتضمن لقاءات وندوات وزيارات ومباراة رياضية، وقبل أن تبدأ المباراة بكرة القدم انسحب فريق المسلمين واحتجّ على مشاركة راهبات مسيحيات في تلك المباراة، وتحدث أحد أئمة المشايخ عن سبب توقف مشروع التقريب كله وقال: قد تحدث في المباراة ملامسة بين اللاعبين وتتسبب في تأجيج مشاعر لاعبينا، ويقصد بتلك العبارة خشيته من أن يثار اللاعبون من ملامسة النساء أثناء اللعب. وفي تلك الحادثة أثبت أولئك المسلمون تخلفهم وعدم قدرتهم على إجراء المحاورة الحضارية الناضجة.

إنّ الأحزاب العلمانية العربية هي أكثر تطوراً ونضجاً من الجماعات الإسلامية، وأقدر منها على العمل والحركة والحوار.

فالأحزاب الشيوعية العربية التي كثرت في العقود الماضية لايمكن أن نفصلها عن الجسد الإسلامي، فأغلب أعضائها كانوا من المسلمين وقسم منهم متدينون أو مؤمنون، وإن شعارات كافة هذه الأحزاب ظلّت على الدوام تسعى للتطوير والتقدم

ومناهضة الاستعمار والقوى المعتدية وتعمل على إقامة نوع من الوحدة، وعلى التحرر وبث الديمقراطية. وإن كافة هذه المبادئ والأهداف تتحصر في بناء وتطوير المجتمع العربي والذي هو إسلامي بالطبع.

الجماعات الفلسطينية التي كانت توصف بالعلمانية (فتح والشعبية والديمقراطية) لم تتجاوز يوماً متطلبات النهج السياسي الإسلامي. بل كان خطابها يتفق مع الإسلام وكان خطاب ياسر عرفات إسلامياً متشدداً.

وفي تركيا كان الإسلاميون أكثر وعياً من نظرائهم العرب، فقد سار حزب الرفاه بمنطق الوعي الحضاري والعلماني. واضطرّ لتبديل اسم الحزب ثلاث مرات. وإلى تغيير زعيم الحزب عدة مرات أيضاً وسارت القافلة الإسلامية بتطور وأمان، وهذا ماكان يسعى إليه زعماء الحزب الإسلامي هناك. فلم يكن الهدف شخصياً بل كان الهدف تطوير الأمة الإسلامية، ونتيجة لفكرهم السليم فإن المؤيدين لهم في تركيا اليوم يعادلون نسبة ٧٠ ٪ من الأتراك.

العلمانية الغربية

تعلن العلمانية البريطانية عن نفسها بأنها متصالحة مع الدين وحافظة لكافة الحريات التي يتطلبها أصحاب كل دين. وفي فرنسا تنصّ كافة القوانين والمواثيق الدولية التي وقّعت عليها فرنسا على حرية الاعتقاد والفكر وحرية إظهار الدين عن طريق العبادة والتعليم والممارسة.

يتوهم الكثير من المسلمين من كلمة العلمانية، ويربطونها بالمعنى الإلحادي أو التجرد من القيم، وماذلك إلا وهم ورؤية ضعيفة لها.فالعلمانية الأوروبية تضمن استقلالية الدين عن الدولة وتمنحه فرصة الحركة بحرية وتضمن له بقوانينها حماية واستقلالية. ويتوجب على المسلم الغربي ألا يفصل نفسه عن العلمانية، بل يرتبط ويوثق علاقته بها.من خلال مؤسساتها العديدة. والعلمانية بصفتها الحالية في دول الغرب تعدّ فرصة سانحة للمسلمين لنشر ديانتهم في أوساط الغرب المتعددة الأديان.

وكما نشهد في السنوات الأخيرة فإن بعض القوانين والمبادىء الغربية يتم تغييرها أو تعديلها للحيلولة دون انتشار الإسلام، وقد جاء ذلك نتيجة لعدم تصالح المسلمين مع العلمانية الغربية. وعمل الغرب على تضييق الخناق على النشاط الإسلامي ولمنع بروزه كحلّ فكري وفلسفي، وقد تصل بنا تلك الحال إلى مرحلة يمنع فيها أي نشاط فكري إسلامي منعاً تاماً، كما هي الحال في الصين مثلاً. ومن هنا تبرز ضرورة المصالحة مع الغرب ومع علمانيته، والتوقف عن مواجهتها.ولاينحصر ذلك الدور بالحركات الإسلامية فحسب بل بالأفراد المسلمين عموماً.

لم يعرف الإسلام طوال مسيرته التاريخية أية مصادمة مع العلمانية، مثلما تصادمت المسيحية مع العلماء في العصور الوسطى. بل إن الإسلام أنتج العلوم والعلماء وأغنى نظريات الفكر والفلسفة والاجتماع وغيرها.والعلمانية الغربية التي تحكم وفقها الأنظمة ليست سوى القوانين المسيّرة للمجتمعات والضابطة لحقوق الأفراد.

وبالنظر الدقيق وبالمحاكمة العقلية نكتشف أن كثيراً من القضايا التي تطرحها العلمانية الغربية هي لصالح المسلمين أنفسهم، فقوانين منع الحجاب في بعض المدارس الأوروبية إنما هو يحمي المسلمين أنفسهم من أخطار قد يواجهونها مثل عدائية وعنصرية الآخر.فقد جاءت قوانين حظر الحجاب ضمن مبادىء عامة يتم بموجبها حظر الرموز الدينية التي تسبب العنصرية والطائفية والإثنية، والتي تقسّم المجتمع العام إلى فئات، ففي فرنسا وضمن هذا القانون يمنع في المدارس ارتداء الرموز الدينية الكثيرة ومنها الصليب والقبعة اليهودية ورموز أخرى بوذية ووثنية.

فهذا القانون يتعامل مع المسيحية بنفس طريقة تعامله مع الإسلامية. وفي هذا عدل قانوني. ويذكر أن الخطوط الجوية الفرنسية تحظر على موظفيها حمل الرموز الدينية أيضاً.فقد وافق جميع الفرنسيين على تلك القوانين ووقف المسلمون وحدهم معارضين لها، ومنشغلين بها، حتى أن الرئيس الليبي تدخل في قضية طالبتين فرنسيتين، وفي كل يوم مازال المسلمون ينشغلون بمعالجة هذا الموضوع الثانوي. والحرية في المنظور الإسلامي هي تعبير عن نضج روحي يكمن في داخل الإنسان. ويتحكم في أنانيته. وهي ترتبط بموضوع الوعي بالذات ومعرفة النفس. وهي

موضوعات تزيد من قوة الإيمان. وتتبدى الحرية عند المسلمين كلما ازداد إدراكهم للإسلام نفسه وكلما تعمقت معرفتهم بدينهم. فتصبح هذه المعرفة ضرورة لتحقيق أمن المسلم وحريته. وهذه المعرفة ممكنة لكافة مسلمي العالم، وممكنة أيضاً داخل الدول الغربية العلمانية، ومن هنا فالحرية لاتتطلب من المسلمين مطلقاً أن يقفوا في مواجهة الأنظمة العلمانية بحجة تحقيق الحرية الذاتية. لأن المواجهة ستقلل من حريتهم المتاحة والمتوفرة.

تحالف اليسار الغربي مع الجهاد الإسلامي

تعزّز في السنوات الأخيرة عقد التحالفات ما بين الإسلامويين واليسار الغربي، استناداً على رفضهما المشترك للرأسمالية والإمبريالية الغربية. وليست هذه التحالفات إلاّ وهمية ومبنية على المصالح المشتركة. وهي بنفس الوقت ماكانت لتحدث لولا قناعة أتباع الفريقين بالتقارب الأيديولوجي والفكري في بعض نقاطه بين ثقافتيهما.

وقد جرى الحديث منذ قرون عن الحوارات بين العلمانية والإسلاموية. وإنّ الاعتداءات التي قامت بها جماعات إسلاموية ضدّ جنود أمريكيين وحلفائهم في جميع أنحاء العالم عادت على الجماعات الإسلاموية بالمزيد من تعاطف الجماهير العلمانية. ووجدت كذلك قبولاً لدى ناقدين من معسكرات إيديولوجية مختلفة لا تزال مصرّة على رفض السمات السلطوية الموسومة بطابع الشرطة العالمية لهذه الجيوش. لكن مما يلفت النظر أيضا أنّ هناك تقارباً في أماكن كثيرة ما بين قوى إسلاموية ومجموعات سياسية يسارية عديدة، وتعكس هذه التقاربات مرونة خاصة عند المتطرفين لم نكن لنتوقعها.

جبهة جديدة ضد الإمبريالية

يبدو أنّ المجموعات السياسة اليسارية تعتقد بأنّ القاعدة والإخوان المسلمين وحزب الله وحماس يشكّلون كلّهم جبهة جديدة معادية للإمبريالية، قامت الآن

لتكمل المشروع التاريخي لليساريين الغربيين. فعلى الرغم من أنّ هذه الحركة المركبة من خلال أفراد تعاني في نظر الأوساط اليسارية والاتجاهات الثقافية من "وعي خطأ"، إلاّ أنّها تعتبرها مع ذلك جديرةً بالدعم نظراً لدورها في محاربة الأمبريالية الأمريكية. وفجأة أصبح الكثير من أعضاء المجموعات اليسارية الانقسامية الذين كانوا يتظاهرون ضدّ الحرب على العراق أصبحوا اليوم حلفاء لهذه المنظّمات الإسلامية.

الإسلام والإشتراكية

حتّى وإن لم يكن السوفييت يعتبرون الإسلام طيلة عقود من الزمن تقدّميًا في جوهره، فقد كانوا ينظرون إليه على أنّه قابل لتأويل اشتراكي. وإنّ بعض الكتب التعليمية، التي كانت تستخدم في جامعات ومدارس عالية في اليمن وغيرها. وذكر فيها أنّ القرامطة مارسوا اشتراكية في جمع المحاصيل والعوائد الحكومية وأنّ توزيعها كان يتمّ بالتساوي على الأفراد المسلمين آنذاك.وهذا الطرح الفكري هو تماس حقيقي بين الإسلام والاشتراكية. فكانت هذه الكتب تعرض الإسلام كشكل قديم من أشكال الاشتراكية. وقد حدث تماس مشابه ما بين التراث الإسلامي واشتراكية الدولة الحديثة في الجمهوريات المسلمة الست التي كانت موجودة في الاتحاد السوفييتي.

صراع الإسلامية مع الشيوعية

الأحوال تغيّرت تمامًا، كما يبدو، في النصف الثاني من القرن الـ٢٠. إذ أصبحت الجماعات الإسلاموية تشكّل جبهة صريحة مشتركة ضدّ الشيوعية والاشتراكية والليبرالية وكذلك ضدّ تصوّراتهم للقيم، وأخيرًا وليس آخرًا ضدّ حقوق المرأة.

وفي فترة تأسيس جماعة الإخوان المسلمين ١٩٢٨ تمّ تصنيف الاشتراكية بكلّ أشكالها كرأس من الرؤوس الكثيرة لأفعى الهيدرا الغربية-العلمانية.

فقد قام في الحرب الأهلية الإسبانية فرانشيسكو فرانكو باستخدام عشرة آلاف من الجنود المرتزقة المغاربة، من أجل محاربة الجمهورية الإسبانية، وكانت حجّته أنّ الشيوعية هي عدوّ مشترك للكاثوليكية وللإسلام.

وعلى تلك الحال استمرّت الأوضاع حتّى عام ١٩٤٥. حيث نشب بين الحركات الشيوعية والإسلاموية في مصر بعض المعارك الدموية التي استمرّت حتّى ثورة ١٩٥٢. لقد أدّت كراهية السعودية لمصر بزعامة جمال عبد الناصر وللنفوذ السوفييتي في الشرق الأدنى إلى دفع الساسة السعوديين في ذلك الزمن إلى تقديم الدعم لمنظّمة المؤتمر الإسلامي كحلف معادٍ للاشتراكية.

وفي التسعينيّات توّج هذا الاتجاه العام بحملة دعائية هدفها إسكات الأصوات اليسارية والليبرالية المستقلة. فقد تمّ في عام ١٩٩٢ اغتيال الكاتب والسياسي فرج فودة.

وفي عام ١٩٩٤ تعرّض الكاتب المصري نجيب محفوظ لحادث اعتداء بسكّين - وكان الدافع من وراء ذلك الحادث هو على ما يبدو موقف نجيب محفوظ المنفتح والمتسامح من الدين الذي نجده في مجموعته الروائية "الثلاثية". أمّا الكاتب والفيلسوف نصر حامد أبو زيد الذي أقدم بجرأة على تطبيق الأساليب التاريخية والفلسفية لتحليل النصوص على القرآن ونصوص أخرى من الحديث المأثور، فقد تلقّى العديد من التهديدات بالقتل إلى أن انتقل في آخر المطاف إلى المهجر في عام ١٩٩٥.

وتمت في العام ١٩٦٥ في إندونيسيا إبادة اليسار بشكل لا سابق له، تقريبًا من دون ملاحظة أو على الأقل من دون أن يسجّل ذلك في سجل التاريخ الخاص بالحركة الإسلاموية. ولا بدّ الآن من إتمام هذه النبذة التاريخية المحزنة من خلال تسليط الضوء على أحداث الساعة التي تقع في بلدان أو أجزاء من دول يتزايد فيها انتشار نفوذ الإسلامويين. من الممكن من دون شكّ أن يطلق اسم الرجعية على المواقف التي

يتّخذها الإسلاميون في يومنا هذا من حقوق المرأة وحقّ التعبير الحرّ عن الرأي والحقوق الخاصة بأقليّات أخرى.

وتمثل الصدام الرئيسي مع الشيوعية في الحرب الجهادية التي أطلق الإسلاميون عليها اسم حرب تحرير أفغانستان من الهيمنة الروسية الاشتراكية. واستقطب المجاهدون آنذاك عشرات الآلاف من المجاهدين الإسلاميين الذين أتوا من بقاع العالم المختلفة. وقامت بدعم تلك الحرب رسمياً الإدارة الأمريكية وبعض الدول الإسلامية، وبالفعل فقد أنهك الجهاديون القوات الروسية وأجبروهم على الانسحاب من أفغانستان. وكانت تلك أول خطوة خلفية يتراجع فيها السوفييت ومعسكرهم الاشتراكي.

الطروحات النهضوية

الجدل الحضاري مع الغرب أوجد في واقعنا الثقافي تيارات مقلدة له، ومتمذهبة ببعض مذاهبه الفلسفية والسياسية، كما أن التيار الإسلامي القائم على فكرة التأصيل والعودة إلى الذات الثقافية، لم ينتج قراءة واحدة لتراثه الفكري بل أنتج قراءات تختلف في انتقاء المقومات التراثية الكفيلة بتحقيق النهضة.

ورغم تعدد الإجابات وتنوع الأطروحات النهضوية فإن الوضع العربي اليوم ما زال سواء من الناحية الثقافية أو من الناحية المجتمعية– مختلاً مأزوماً، ومن ثم ما زال سؤال النهوض يعبر عن مطلب لا عن واقعية.

هل يرجع الفشل إلى خلل في الإجابات؟ أم أن سؤال النهضة لا يتطلب أجوبة نظرية فقط، بل أيضاً أفعالاً منظورة وممارسة تغييرية واقعية؟

وهنا نكرر ذلك السؤال الذي مازال يطرح منذ مطلع القرن العشرين، وهو: "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟"،فقد بدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر، كمشروع إصلاح فكري وانقلاب تحديثي، وسمّي ذلك العهد باسم النهضة.

والنهضة يجب أن تشمل الاصلاح في المجتمعات الإسلامية فلايمكن استخدام مصطلح النهضة بدون العمل ببرامج إصلاح، إذ لابد للمؤسسة الدينية من قبول العمل بهذا الإصلاح.

إن الاختلال يكمن في المقاربة المذهبية الجاهزة لسؤال النهوض، إذ تنزع التيارات الفكرية السائدة في واقعنا الثقافي إلى اتخاذ مرجعياتها المذهبية الجاهزة أفقاً وسقفاً لمطلب النهوض.

فالتيار الليبرالي مثلاً يرى أن النهضة لا تتحقق إلا بتطبيق الليبرالية، والتيار اليساري الاشتراكي يرى أن لا نهضة إلا بالاشتراكية، والتيار الفكري الإسلامي في نموذجه السلفي مثلاً يرى أن لا نهضة إلا بإعادة إنتاج نفس مواصفات الاجتماع الإسلامي الذي تجسد في لحظة تاريخية ماضية (اللحظتين النبوية والراشدية).

إن النهوض في عالمنا العربي الإسلامي لن يتحقق خارج إطار ذاتيتنا الثقافية الإسلامية هذه. ولايبرر تقليد لحظة من لحظاتنا الماضية وإعادة إنتاجها، كما تنزع إلى ذلك بعض توجهات الفكر السلفي عندما تدعو إلى استنساخ، ليس أفكار ومبادئ العصر الإسلامي الأول، بل استنساخ حتى ديكور الحياة وشكلها في اللباس وطرائق المعاش وحتى كلمات الحوار نفسها.

إن اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) والاسترشاد بهدي القرآن الكريم لا يكون إلا باتباع المبادئ والمحددات الفكرية العامة، وليس باستنساخ صورة الحياة حتى في شكلها المادي، كما يرى هذا التيار السلفي الذي وسع من مفهوم البدعة المذمومة ليشمل كل مستحدث ومستجد. ولابدّ من التذكير بأن السلفية كانت قد حرّمت على الملك السعودي استخدام التلغراف والهاتف وغيرها من التقنيات التي اعتبرتها آنذاك شيطانية تخالف الإسلام.وهذا يدل على استمرار السلفية بالتخلف عن الحاضر الذي تعيشه، إذ هي ستوافق في المستقبل على تحليل ماتحرّمه اليوم.

كما أن النهوض لن يتحقق باستنساخ نموذج ثقافي ومجتمعي غربي، لأن ذلك يخالف محددات هويتنا، ويفترض بنفس الوقت الاستفادة من النموذج الغربي وتسخير منجزاته لتحقيق النهضة الإسلامية.

إن التفكير في النهضة من مدخل مذهبي جاهز يعتبر عائقاً أمام حركة النهوض، وليس حافزاً لها. بل إن الخلل الأكبر في فهم ماهية النهضة يكمن في هذه النظرة المذهبية التي سقطت في فخها كل مشاريع النهوض، إسلامية كانت أو متغربة، فأنتجت رؤى وثوقية تكبل فعل النهضة ولا تحفزه. فالنهضة تتم حسب الحاجات لاحسب أطر ثقافية جاهزة، فالدولة المحتلة تتمثل نهضتها بمكافحة الاحتلال، والدولة الفقيرة تتمثل نهضتها بتحسين الاقتصاد، فالنهضة ليس مشروعاً جاهزاً نعتنقه بل هو مشروع جديد نقوم بتوليده وفق الضرورات.وبنفس الوقت فلن تتحقق نهضة العالم الإسلامي الحقيقية مازال فيه أزمات شديدة تمنع النهضة الرئيسية فيه ومن تلك الأزمات انتشار الفقر والبطالة والاحتلال الغربي في بعض مناطقه.والحقيقة فإن الغرب ظل على الدوام منتبهاً إلى هذه الحقيقة، وبموجبها يقوم بأعمال كثيرة تعيق هذه النهضة الإسلامية.وبانتظار زوال تلك الأزمات الكبيرة وعملاً على التخلص منها تتصدر واجبات المسلمين اليوم القيام بالنهضة الثقافية والفكرية والعلمية، والتي ترتبط بنهضة فكرية إسلامية حقيقية. كما أن النهضة من حيث التقييم المعياري تدل على حالة ارتقاء بالمجتمع الإنساني. ومن ثم نرى أن فعل الارتقاء هذا يستلزم تعميق القيم المميزة للإنسان،ولن تتحقق النهضة بدون المعرفة، إذ هي محدد من محددات الإنسانية، وكلما انخفضت المعرفة انخفضت درجة ارتقاء الكائن البشري نحو إنسانيته.ولن تتحقق النهضة بوجود احتلال أو استبداد موضوعه الفرد. ولمّا كان الإنسان كائناً أخلاقياً تأتي قيمة الفعل الإنساني، بوصفه فعلاً مسؤولاً أخلاقياً، وقابلاً للمعايرة والحكم عليه قيمياً. فالمحدد الأخلاقي يميز الفعل والوجود الإنساني عن الفعل الحيواني الخاضع لمنطق الضرورة الطبيعية. وأخيراً نرى أن لا نهضة إلا بتعميق هذا البعد الأخلاقي عند الأفراد المسلمين. والالتزام بتأكيد الإسلام على الأخلاق الفردية والعمل بقول الرسول الكريم: " إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق".

الفصل العاشر

المسيحية لنا

الحوار الإسلامي المسيحي

ابتدأ الإسلام حواره مع المسيحية منذ بداية الرسالة المحمدية، فقد أمر محمد عليه السلام نفراً من أتباعه بأن يلجأوا إلى راهب مسيحي هو النجاشي، حاكم الحبشة آنذاك. وبالفعل فقد التجأ إليه نفر من المسلمين وقرؤوا له سورة مريم وعرّفوه برسالة الإسلام. فأعجب بالدين الجديد، وقال لهم مقولته الشهيرة: "والله ليس بين ديننا ودينكم من اختلاف سوى هذا الخيط الرفيع" والحقيقة فإنّ اقتناع الرسول بعدالة النجاشي وبإيمانه يعكس أداءً محمدياً حقيقياً للحوار الإسلامي مع المسيحية.

المسيحية العربية

في حفلات تلفزيونية تعرضها فضائية ال بي سي اللبنانية نشاهد مرحاً ورقصاً وثقافة وعادات اجتماعية متنورة تعكس ثقافة وعادات المجتمع المسيحي العربي في أقصى درجات التنور والتغريب والعصرنة التي استطاع العرب أن يصلوا اليها. وهي تعكس حالة مجتمع المسيحيين اللبنانيين وهؤلاء بالضبط هم الأكثر تغرباً بين المسيحيين العرب. وفي هذه الحفلات نلمس بوضوح أن أداء التغريب هو ضرب من التمثيل والتقليد ، وهو محاولة لبس ثوب غربي وعادات وثقافة غربية عند هؤلاء المواطنين المسيحيين.ونراهم يؤدون أدوارهم بتثاقل وتصنّع. ويتضح فيهم أنهم لم ولن يكونوا غربيين.

ونحن هنا لانتقد مواطنينا المسيحيين بل نستدل من خلال أدائهم الاجتماعي العام على أنهم يتّصفون بالشخصية العربية والشرقية والإسلامية التي نتصف بها نحن المسلمين. وفي هذه الحفلات نفسها لانستطيع أن نميّز بين الحاضرين من منهم مسلم ومن هو المسيحي، لأن الثقافة واحدة عند العرب جميعاً.

في الحرب الأخيرة ٢٠٠٦ قصفت الطائرات الاسرائيلية مناطق مسيحية، وفي كل الحروب العربية الإسرائيلية كان المواطنون المسيحيون يشاركون كأخوانهم

السنة ويذهب منهم شهداء وجرحى. وكانوا يدافعون عن هذه البلاد التي يطلق عليها العالم كله تسمية البلاد الإسلامية. وفي العام ٢٠٠١ واثر تدمير برجي التجارة العالمي سجلت اعتداءات على كنائس شرقية أقامها لبنانيون مسيحيون، واتهموا بأنهم مسلمون..!! وطوال العصور يساهم المسيحيون العرب باستمرار وبجدية في تطوير هذه البلدان التي ينتمون إليها. وإن مقولة الرسول الكريم " إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق" تطبق على المسيحيين العرب بمقدار تطبيقها على غيرهم.

المسيحيون العرب مسلمون

المسيحيون العرب مسلمون بمقاييس كثيرة. فهم عاشوا وتوالدوا وتثقفوا في بيئة إسلامية. وإنّ نتاجاتهم وأهدافهم ونشاطاتهم كلها تخدم المجتمع العربي الذي هو مسلم عموماً وتدافع عنه وتحافظ عليه وعلى هويته.فهم مقاتلون في الجيوش العربية التي هي تدافع عن بلد إسلامي. وهم الذين اختلطوا بأفراد المجتمع المسلم وتزاوجوا وتوالدوا أبناء مسلمين ومسيحيين. والمسيحية العربية كعقيدة وعبادة وأخلاق تأثرت بالإسلام عبر السنين وتفاعلت مع عقائده. فحافظت على عقائد وشرائع دينية ثابتة، ويأتي ثباتها من ثبات الإسلام نفسه ومن مجاراتها للإسلام وللمسلمين. فلم نرَ مسيحية عربية صهيونية ولم نرَ مسيحية علمانوية بل نرى باستمرار مسيحية ثابتة محافظة تتميز عن كافة المدارس المسيحية الغربية التي انشقت عنها. كما حافظت الكنيسة العربية وحافظ رجال الدين المسيحيون العرب على قيم المسيحية بقوة وعناد طوال القرون الماضية وهذه المحافظة والأصالة تأتي من ملاصقتهم للإسلام.

كما شهد التاريخ انتقالات كثيرة بين المسيحية والإسلام، وهذه الانتقالات خلطت بين العقائد الدينية عند بعض المسلمين والمسيحيين. فرأينا أخوة في أسرة واحدة بينهم إسلام ومسيحيون. ورأينا مذاهب إسلامية تحمل عقائد مسيحية. ومن هذه المقاييس نرى بأنّ المسيحية العربية والتركية جزء من الكيان الإسلامي العام.

إن الخصائص والدوافع التي ميزت المسيحية العربية عن المسيحية الغربية هي بلا شك تلك العوامل نفسها التي كسبتها المسيحية من هويتها العربية ومن الإسلام.

خطوات التحاور والتقارب بين الديانتين

في العام ٢٠٠١ قام البابا يوحنا بولوس الثاني بالحجيج إلى الأماكن التي مرّت بها المسيحية، فزار الجامع الأموي بدمشق، وفي هذه الزيارة أصبح الجامع الأموي مكان عبادة مشتركاً للمسيحيين والمسلمين، حيث أدى البابا وتلامذته الصلوات المسيحية، وأدى المسلمون الصلاة الإسلامية. واستمع البابا إلى تلاوات من آيات القرآن الكريم، حيث قرأت سورة مريم. ولربما كانت تلك أول صلوات مشتركة يحضرها ويقيمها مسلمون ومسيحيون على هذا المستوى العالمي. والحقيقة أن كل ذلك الحدث كان كبيراً وله وقع عالمي كبير. ويعبّر عن سعي الطرفين الإسلامي والمسيحي للحوار والتفاهم والتعاون. وقد حضر تلك الصلوات الرئيس السوري بشار الأسد، وكان له فضل كبير في تحقيق ذلك اللقاء، إذ ليس من السهل أن يجرؤ حاكم دولة إسلامية أخرى على جمع مسلمين ومسيحيين في مسجد كبير وعلى إقامة صلوات مشتركة وأداء تسابيح وترانيم دينية إسلامية ومسيحية. وقام رئيس سوريا بشار الأسد بدعوة البابا لزيارة ضريح صلاح الدين، لكن البابا رفض زيارة الضريح. ورغم الإيجابيات الكبيرة التي عبّرت عنها تلك الزيارة البابوية للجامع الأموي ، فان بعض المنتقدين من المسلمين نظروا إلى الجانب السلبي فيها وهو رفض البابا لزيارة ضريح صلاح الدين. فقد اعتبر الدكتور محمد عمارة ذلك بأنه رفض البابا من الاعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية كلها وعن البدء في مرحلة تفاهم جديد بين المسلمين والمسيحيين. أي أن هؤلاء المنتقدين ومن بينهم محمد عمارة كانوا يريدون أن يتخلّى البابا عن كلّ هويته بلحظة واحدة وأن يمنح المسلمين مالم يستطع الغرب منحهم إياه طوال قرون طويلة. وأن يتحقق التفاهم الإسلامي المسيحي الكامل في تلك اللحظة، لقد كانت تلك الزيارة خطوة كبيرة في طريق التفاهم والتصالح لكنها لم تكن مشروعاً تصالحياً كاملاً.

وبتاريخ ١٤ \ ١٢ \ ٢٠٠١ دعا البابا يوحنا بولوس الثاني مسيحيي العالم لصيام اليوم الأخير من شهر رمضان الإسلامي، بهدف التعبير عن التحالف مع المسلمين.وكانت تلك الدعوة خطوة إيجابية في طريق المصالحة الإسلامية المسيحية.

وفي لبنان وقف جبران تويني، (وللدلالة فقط فهو المسيحي الماروني) وقف في حشد كبير من المسلمين والمسيحيين وقال عدة مرات: (نقسم بالله العظيم مسلمين ومسيحيين بأن نبقى موحدين..) وكان ذلك القول سياسياً وقسماً حقيقياً وعهدا أمام الجميع وأمام العالم كله.

وفي مدينة القدس المحتلة، وبتاريخ ٣ آذار ٢٠٠٧ أعلن عن قيام الجبهة الإسلامية المسيحية لحماية الأماكن المقدسة. وجاء ذلك رداً على أعمال الحفريات الصهيونية تحت جدار المسجد الأقصى.وكانت المبادرة من مطران القدس الشريف، ولم نسمع عن مبادرات أخرى مهمة قام بها مسلمون في العالم كله لحماية الأماكن المقدسة في الأراضي المحتلة.

المسيحيون العراقيون

مرة أخرى يثبت المسيحيون العرب أنهم مواطنون مسالمون متعاونون مع المجتمع العربي بكافة انتماءاته ، وأنهم واعون لخطر الفتن الطائفية ويعيدون عنها كل البعد، ففي العراق ورغم كل مطاحن الطائفية التي حلّت به، اتخذ المسيحيون موقف المسالم والمحب للعراق وأهله، والساعي للسلام الدائم فيه. ورغم أن جنود الاحتلال هم مسيحيون ويمثلون المسيحية الغربية القوية عسكرياً. فلم يتحالف المسيحيون العراقيون معها.

وإنهم على الدوام يوافقون على كلّ الحلول التي تؤدي إلى السلام الاجتماعي والوطني. ومن هنا يتوجب علينا أن نثبّت هذ الصفات التي يتحلى بها المسيحيون العرب. فهم أبناء هذه البلاد ويسعون على الدوام لسلامها وأمنها.

في الأيام الأولى لدخول القوات الأمريكية أرض العراق، تحدثت إحدى المواطنات المسيحيات مع إذاعة مونت كارلو وشكت من اعتداءات إسلامية على حرية المسيحيين. وقالت : أجبرونا على لبس الحجاب عند خروجنا من البيت.

فسألها المذيع قائلاً: وأنتم ماهو موقفكم ؟ هل ستوافقون على لبسه ؟

أجابته السيدة: ليس في ارتدائه مشكلة لنا فنحن نوافق على ارتدائه، لكننا نخشى من أية اعتداءات طائفية.

ونتيجة لعنف الحرب وانتشار الطائفية فقد غادر العراق حوالي ٥٠ ٪ من مسيحييه كما تفيد احصائيات أيار ٢٠٠٧ . وإن استمرار هذه الهجرة يعني جعل العراق خالياً من المسيحية (لاسمح الله)، ويعني انقراض الديانة المسيحية في العراق.

منظمات يهودية تحرّض المسيحية ضد المسلمين

إثر تزايد اعتناق المسيحيين الغربيين للديانة الإسلامية، تقوم منظمات صهيونية بالدرجة الأولى بمنع اتساع هذه الظاهرة .وبنفس الوقت فهي تقوم بنشر إشاعات كاذبة في الغرب تدّعي فيها بمعاناة المسيحيين العرب من الاضطهاد في مجتمعاتهم. ففي كانون الثاني ١٩٩٦ انضم هوروفيتز إلى نيناشيا اليهودية المتعصبة رئيسة برنامج حقوق الإنسان في منظمة "بيت الحرية" ومؤلفة كتاب "عرين الأسد" الذي زعمت فيه أن مصر والسودان وإيران والسعودية وباكستان هي الدول الأكثر اضطهاداً للمسيحيين، واعتبرت أن الإسلام مثله مثل الشيوعية في اضطهاد المسيحيين. ونظم هوروفيتز ونيناشيا مؤتمراً عقد في واشنطن تحت عنوان "أثر الأسلمة على العلاقات الدولية وحقوق الإنسان" شارك فيه ستيف أمرسون التلفزيوني الأميركي المتعصب، صاحب الفيلم التسجيلي الشهير المعادي للإسلام "الجهاد في أميركا". وعبّر المؤتمر عن الخشية من تزايد دخول المسيحيين في الإسلام، وطالب بوضع برامج للقضاء على هذه الظاهرة.

وفي يناير/كانون الثاني ١٩٩٧ نظم هوروفيتز وبيت الحرية مؤتمراً آخر تحت عنوان "اليوم العالمي للتضامن مع الكنيسة المضطهدة" حضره ممثلو أربعين ألف كنيسة في الولايات المتحدة تضامناً مع المسيحيين في الدول الإسلامية.

واتهم المؤتمر كلاً من الكنائس الأميركية والإدارة الأميركية بالتقصير في إنقاذ المسيحيين العرب، ودعا إلى إنقاذ مسيحيي الشرق من "براثن الإسلام".

المسيحية لنا

قال البابا يوحنا بولس الثاني في حديثه عن التعددية الدينية والمذهبية في لبنان: ".. هذه التعددية الطائفية في لبنان هي رسالة إنسانية للبنانين.."

المسيحية لنا نحن المسلمين والمسيحيين العرب، وهي ديانة سماوية انطلقت من أرضنا العربية التي يعتبرها المسلمون والمسيحيون أرضاً مقدسة، ومن هنا انتشرت إلى بلدان العالم كله. وعندما تعددت مدارسها ومذاهبها في الغرب بقيت المسيحية العربية محافظة على أصالتها وأصالة عقيدتها.

تطوير الحوار الإسلامي المسيحي

انه لمن الضروري أن يسعى المسلمون لدفع الحوار الإسلامي المسيحي نحو الأمام وتطويره ودعمه والقيام بخطوات كبيرة وجريئة، كتطوير العلاقات الاجتماعية والتزواج، ومشاركة كبيرة ورسمية في الاحتفالات الدينية عند المسلمين والمسيحيين. فمن الممكن أن تقوم وفود إسلامية رسمية بحضور المناسبات الدينية المسيحية وبالمثل تقوم وفود مسيحية رسمية بحضور مناسبات دينية إسلامية. وندعو الأفراد مسيحيين ومسلمين بأن يقوموا بالتواصل والحوار فيما بينهم، وأن يكونوا هم الأداة المنفذة لهذا الحوار في ظل غياب الحوار أوتعطله على مستوى رجال الدين. يزور الجامع الأموي بدمشق سياح ومواطنون عديدون ومثل ذلك ندعو المسيحيين السوريين لزيارته، لا ليصبحوا مسلمين بالطبع بل ليعبّروا عن مشاعر الحوار الديني وليزيدوا من التلاحم الاجتماعي في البلاد. وبنفس الوقت ليتعرفوا على الأجواء الإسلامية التي يعيشها أخوانهم المسلمون.

العقيدة المسيحية

العقيدة المسيحية هي الرسالة التي أُنزلت على عيسى بن مريم مكمِّلة لرسالة موسى عليهما السلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، وداعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح، ولكنها جابهت مقاومة واضطهاداً شديدين، فابتعدت كثيراً عن أصولها الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات عديدة. وقد مرّت النصرانية بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة.

المسيحية دين سماوي

المسيحية دين سماوي حمل رسالته السيد المسيح عيسى بن مريم الذي ولد وتوفي في فلسطين عن عمر يناهز الثلاثين، وتابع رسله وتلامذته نشر رسالته في فلسطين أولاً ثم في سورية وفي العالم، ولقد تحمل المسيحيون اضطهاد الرومان الوثنيين عندما حاول بطرس الرسول وبولس نشر المسيحية في روما فأحرق نيرون الإمبراطور الروماني المجنون روما وقضى على المسيحيين. ولكن المسيحية استمرت تمارس من بعض المؤمنين بها بالخفاء وفي دياميس تحت الأرض، وكثيراً ما عطف عليهم بعض الأباطرة وبخاصة الإمبراطور السوري "كارا كالا"، وهكذا تزايد عددهم وظهرت كنائسهم في عصر "ديوقلسيان" حتى جاء قسطنطين فأعلن المسيحية دين الدولة في القسطنطينية ثم أعلنت كذلك في روما بعد أربعين سنة.

لقد اتبع قسم كبير من السوريين العقيدة المسيحية، وتشهد الآثار في المدن المنسية في سلسلة جبال بيلوس على ازدهار الدين المسيحي وذلك من خلال الأديرة والكنائس التي أنشئت خلال الحقبة من القرن الرابع إلى القرن السابع، كما تتجلى في مدينة الرصافة سرجيو بوليس وفي قلعة سمعان العمودي، وفي كنائس حوران ودمشق وحمص وأديرة وكنائس القلمون والبادية. ومع ذلك فإن سكان سورية حافظوا على لغتهم السورية السريانية وهي آرامية الجذور. وكانت إنطاكية عاصمة المنطقة الشمالية كما كانت أفاميا عاصمة المنطقة الجنوبية.

مسيحية المرحلة الأولى

وهي العقيدة المُنزَّلة من عند الله التي جاء بها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ويعتقد المسلمون بأنها ديانة الإسلام التي أنزلها الله على آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام.وهذا الاعتقاد الإسلامي لاينقص من (الاعتقاد المسيحي) شيئاً بل يزيده بعداً وشمولية، ويجعل المسيحية جزءاً من المشروع الإلهي الكبير المخصص للبشرية.

تيودورا

وفي عصر "جوستيان" ٥٢٧-٥٦٥م انتشر مذهب اليعاقبة مذهب الراهب يعقوب البرادعي وكانت تيودورا السورية المولودة في منبج زعيمة هذا المذهب الذي انتشر بين السوريين والغساسنة على عكس المذهب الأرثذوكسي وهو مذهب القسطنطينية.

ومنذ عام ٣٩٢م كانت سورية جغرافياً تدخل في نطاق الإمبراطورية البيزنطية، ولكن تعدد المذاهب المسيحية فيها أدى إلى كثير من المنازعات. ومن جهة أخرى فإن الحروب التي كانت تجري بين بيزنطة والساسانيين، كانت سورية أحياناً مسرحاً لها، وكان الغساسنة يشاركون بيزنطة بعد أن كانوا حلفاء روما بينما كان المناذرة في الحيرة يشاركون الفرس. مما دفع جوستيان إلى عقد الصلح مع الفرس سنة ٥٣٢م.

بداية الإنشقاق المسيحي

فيما بين عام ٥١ – ٥٥م عقد أول مجمع يجمع بين الحواريين تحت رئاسة يعقوب ابن يوسف النجار، وفيه تقرر: استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة على أنها خطوة أولى يُلزم بعدها بشريعة التوراة. كما تقرر فيه تحريم الزنا، وأكل المنخنقة، والدم، وما ذُبح للأوثان، بينما أبيحت فيه الخمر ولحم الخنزير والربا.

وعاد بولس بصحبة برنابا إلى أنطاكية مرة أخرى، وبعد صحبة غير قصيرة انفصلا وحدث بينهما مشادة عظيمة نتيجة لإعلان بولس نسخ أحكام التوراة وقوله إنها:

"كانت لعنة تخلّصنا منها إلى الأبد" و"إن المسيح جاء ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد".

وحدثت خلافات حول فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، أو ابن الإله، أو الروح القدس، وحول عقيدة الصلب والفداء، وقيامة المسيح وصعوده إلى السماء؛ ليجلس على يمين الرب . وهكذا كرر بولس نفس الأمر مع بطرس الذي هاجمه وانفصل عنه مما أثار الناس ضده، لذا كتب بولس رسالة إلى أهل ملاطية ضمنها عقيدته ومبادئه، ومن ثم واصل جولاته بصحبة تلاميذه إلى أوروبا وآسيا الصغرى ليلقى حتفه في روما في عهد نيرون سنة ٦٥م. وقد استمرت المقاومة الشديدة لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى: ففي القرن الثاني الميلادي تصدى هيولتس، وإيبيي فايتس، وأوريجين لها، وأنكروا أن بولس كان رسولاً، وظهر بولوس الشمشاطي في القرن الثالث، وتبعه فرقته البولوسية.

المسيحية الديرية

في خلال هذه المرحلة ظهرت الرهبنة في النصرانية في مصر أولاً على يد القديس بولس الطبي ٢٤١ – ٣٥٦م والقديس أنطوان المعاصر له، إلا أن الديرية – حركة بناء الأديرة – نشأت أيضاً في صعيد مصر عام ٣١٥ – ٣٢٠م على يد القديس باخوم، ومنها انتشرت في الشام وآسيا الصغرى. وفي نفس الوقت دخلت غرب أوروبا على يد القديس كاسليان ٣٧٠ – ٤٢٥م ومارتن التوري ٣١٦ – ٣٨٧م، كما ظهر مجموعة من الآباء المتأثرين بمدرسة الإسكندرية الفلسفية (الأفلاطونية الحديثة) وبالفلسفة الغنوصية، مثل كليمنت الإسكندري ١٥٠ – ٢١٥م أوريجانوس ١٨٥-٢٤٥م وغيرهما.

ثبات المسيحية العربية وتلاشي مسيحية الغرب

من الملاحظ أنه عبر تاريخ المسيحية الطويل ظلّت المسيحية العربية محافظة على عقائدها مثبتة لها، ولم تسمح بإحداث أي خرق لها طوال تلك القرون الطويلة. كما ظلّت المسيحية العربية تمنع كافة الخروقات بقوة. وهذا الثبات له صلة أكيدة بجوار المسيحية العربية للإسلام ولأهله الذين حافظوا على ثبات الإسلام. وهذا أحد جوانب التأثر المسيحي بالإسلام. ونعتقد بحتمية استمرار هذا الثبات عند المسيحية العربية و مما سيؤدي بالمستقبل إلى مواجهتها الحتمية مع المسيحية الغربية تلك التي شهدت الكثير من التحوّلات والانشقاقات.

انفصال الكنيسة القبطية مذهبياً

لم يعترف أسقف روما ليو الأول بقرارات مجمع أفسس الثاني ٤٤٩م وسعى الإمبراطور مركيانوس لعقد مجمع آخر للنظر في قرارات ذلك المجمع، فوافق على عقد المجمع في القسطنطينية، ثم في كلدونية ٤٥١م لمناقشة مقالة بابا الإسكندرية ديسقورس: من أن للمسيح طبيعتين في طبيعة واحدة (المذهب الطبيعي – المونوفيزقية)، ليتقرر لعن ديسقورس وكل من شايعه ونفيه، وتقرير أن للمسيح طبيعتين منفصلتين. فكان ذلك دافعاً أن لا تعترف الكنيسة المصرية بهذا المجمع ولا بالذي يليه من المجامع. ومنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية – الكنيسة الأرثوذكسية – أو القبطية تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها، ليبدأ الانفصال المذهبي عن الكنيسة الغربية.

الكنيسة الأرثوذكسية المصرية

يعتقد أصحابها أن مؤسسها هو مرقس الرسول عام ٤٥م. وظهرت بوادر الانفصال المذهبي للكنيسة المصرية، منذ أن جعل الإمبراطور ثيودوسيوس كنيسة القسطنطينية هي الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقية عام ٣٨١م وأن كنيسة الإسكندرية تليها في المرتبة، مما دفع بطريرك الإسكندرية كيرلس عام ٤١٢م إلى تولي زعامة الشعب ضد الإمبراطور وعماله في مصر. ثم زادت هوّة الخلاف بين الكنيستين على إثر إعلان نسطور – أسقف القسطنطينية – مقالته التي تصدى لها كيرلس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٣١م الذي استطاع استصدار حكماً ضد نسطور باللعن والطرد.

بعث فلافيانوس بطريرك القسطنطينية مقالة نسطور مرة أخرى فتصدى لها ديسقورس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٤٩م والذي لم يعترف به أسقف روما، فعقد لذلك مجمع كلدونية عام ٤٥١م ليقرر لعن ديسقورس ونفيه، بل وتعيين بطريرك ملكاني خلفاً له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصرية لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كلدونية عام ٤٥١م ولا بقراراته، مما سبَّب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصرية على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينية والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية.

هكذا عاشت الكنيسة المصرية سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام ٤٨٢م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقي عن كنيسة القسطنطينية.

الأقباط رحّبوا بالإسلام

ما أن ظهرت بشائر الفتح الإسلامي منطلقة من الجزيرة العربية حتى رحبت بها الكنيسة المصرية، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم مسيحيي الإمبراطورية البيزنطية.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامي أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، حتى أُعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصرية إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد إصلاح البعض الآخر.

تأثر الكثير من النصارى المصريين بعدالة الإسلام، وسماحة مبادئه، حيث ترك لهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة العبادة والشعائر الخاصة بهم، كما سمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة الإسلامية، مما فتح قلوبهم لقبول الحق، والدخول في دين الإسلام أفواجاً، وبذلك صارت اللغة العربية لغتهم ولغة البلاد، وأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد.

وفي سنة ١٢١٩م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع وحاولت إخضاع الكنيسة المصرية الأرثوذكسية لمذهب الكنيسة الغربية الكاثوليكية. وقد تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط وفرض بطريرك كاثوليكي من الآباء الفرنسيسكان عليها، ليمثل أول وجود كاثوليكي في مصر، فما أن هب المسلمون لصد العدوان حتى انهزمت الحملة وأُسر قائدها. وفي سنة ١٧٦٩م أعادت الكنيسة الغربية الكَرَّة، ولكن هذه المرة عن طريق المفاوضات والمصالحة، وعرض انضمام الكنيسة المصرية إليها، ليقابلها بطريرك الكنيسة المصرية يؤانس الثامن عشر بالرفض التام.

بدأت بوادر حركة إصلاح وتطوير الكنيسة المصرية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في عهد البطريرك كيرلس الرابع ١٨٥٤ – ١٨٦٢م .التي زاد نشاطها واستطاعت تأسيس مراكز للدعوة إلى مذهبهم في صعيد مصر بوجه خاص. وكانت استجابة بعض الأرثوذكس لهم دافعاً للقيام بهذه الإصلاحات وافتتاح مدارس للبنين والبنات، وإنشاء المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى إدخال أول مطبعة إلى مصر.

ثم تصدى البطريرك ديمتريوس الثاني ١٨٦٢- ١٨٧٤م للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي في مصر، بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط.

وازدادت حملة الكنيسة المصرية ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البطريرك كيرلس الخامس ١٨٧٤ – ١٩٢٧م حيث أغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تَعتبر هذه الكنائس وإرسالياتها وتابعيها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين، ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي وليم تاير والمنصِّر جون هوم في إقناع البطريرك من أن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس.

يُعد حبيب جرجس ١٨٦٧-١٩٥١م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصرية، حيث أنشأ مدارس الأحد والمدرسة الإكليريكية، ودعم وساهم في العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية، فظهرت المجلات والجرائد الدينية المسيحية، كما أنشأ العديد من المدارس والمكتبات ودور النشر التي تهتم بنشر التعاليم المسيحية بين المسلمين. وازدادت تبعاً لذلك عدد المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، كل هذا بغية التصدي للإرساليات التبشيرية الغربية. ومما لاشك فيه أنّ تلك الأنشطة الثقافية والفكرية كانت قد ساهمت في تحريك الفكر الإسلامي نفسه، وفي تطوير الطباعة ودور النشر في مصر كلها.

وفي عهد الخديوي إسماعيل دخل عدد كبير من الأورثوذكس القضاء والمجالس النيابية وكلّف الأقباط بالخدمة العسكرية، وازدهرت المسيحية القبطية آنذاك وبرز فيها أشخاص عديدون ومنذ ذلك العهد دخلت القبطية مرحلة جديدة في تاريخها.

تطور الكنيسة القبطية في عهد كيريلوس

خطا البطريرك كيرليوس السادس ١٩٥٩ – ١٩٦٩م خطوات جديدة نحو تطوير الكنيسة؛ حيث أنشأ العديد من الأسقفيات، منها أسقفيات الخدمات

ومهمتها العلاقات الخارجية والاتصال بالكنائس الأخرى، سواء كانت الكنائس الغربية ومؤسساتها أو بالكنائس القبطية خارج مصر، وأسقفية للخدمات والشئون المالية وإصدار طبعات جديدة للكتاب المقدس، ووضع دائرة معارف قبطية، كما أنشأ أسقفية للتربية الكنسية مهمتها الإشراف على كليات اللاهوت ومدارس الأحد وجميع شؤون التعليم والتربية الكنسية. واستغلالاً للثقل الدولي للكنيسة بعد انضمامها إلى مجلس الكنائس العالمي، ومجلس الكنائس العالمية العاملة في أفريقيا، وتعاونها مع مجلس كنائس أمريكا زاد الضغط على الحكومة لإلغاء النظام الهيوماني .وأنشئت العديد من الكنائس.

وفي عام ١٩٧١م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصرية واسمه نظير جيد، فقد تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة، والتحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط، ثم عمل صحفياً وكاتباً وشاعراً، وتسمى باسم شنودة الثالث. وفي عهده زاد التوجه السياسي للكنيسة المصرية وتقديم مفهوم جديد للنصرانية على أنها دين ودولة، مستخدماً في ذلك سياسة الانتشار الدولي، والتقارب مع الكنائس الغربية ومؤسساتها لدعم السياسات الداخلية للكنيسة وتحقيق أغراضها، كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة، ودعا إلى تطوير الكلية الأكليريكية وإعادة الكنيسة إلى مكانتها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في الخارج وعيّن لها الأساقفة،وتحت رئاسة وإشراف البابا شنودة تعددت الاجتماعات ذات الصبغة الدينية والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسية في مصر دوراً فاعلاً في السياسة، وأن يكون لها نصيبها من المناصب الوزارية.والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط على غرار جامعة الأزهر. وزادت في عهده أيضاً وبشكل ملحوظ النشرات والكتب، وحملات التنصير، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والنصارى فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية (الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر) الأمر الذي دعا الرئيس السادات إلى عزله ونفيه في دير وادي النطرون، وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس مبارك.

التصوف الإسلامي عند الأقباط

في العصور الوسطى كان التصوف هو الأقرب إلى طبيعة التدين المصرى، لذا انتشر فيها وساد منذ القرن الخامس الهجرى . فقد احتوى التصوف كل العقائد المصرية القديمة وصاغها فى أشكال تحمل رموزاً إسلامية. واشترك المصريون جميعاً من أقباط ومسلمين فى تأدية نفس الطقوس وفى نفس المناسبات، كالموالد والقبور المقدسة والاعتقاد فى الأولياء والقديسين، وقد فصلنا الحديث فى ذلك فى كتابنا "شخصية مصر بعد الفتح الإسلامى"(٣) وفى هذا الإطار كان التسامح مع الآخر، و"التسليم بحالته وطريقته" هو دستور التعامل فى مصر، بينما كان "تغيير المنكر"بالقوة هو الدستور الآخر خارج مصر، حيث كان تغيير المنكر يتحول إلى ثورات عارمة فيما بين إيران والشام. والخلاصة: أن مصر كانت متفردة فى العصور الوسطى بتدينها السمح وصبرها على جور الحكام، والغريب أن يدخل العالم إلى العصر الحديث ويخفت التعصب الدينى وتنتهى الحروب الدينية وتنحسر مفاهيم العصور الوسطى ولكنها تعود إلى مصر فى القرن العشرين الميلادى وهى تحمل معها نفس الملامح التى كانت رائجة خارج مصر فى القرون الوسطى.

وإن استمرار التصوف الإسلامي عند الأقباط حتى يومنا هذا لهو دليل على الوحدة الثقافية عند المصريين، وعلى تفاعل وتأثّر الأقباط بالإسلام.

أمريكا تحاول تسييس الأقباط

في مطلع أيلول ٢٠٠٧ صدر في الولايات المتحدة تقرير جاء فيه أن الأقباط يعانون من تمييز عنصري وطائفي في مصر. ورداً على ذلك التقرير التقى البابا شنودة في الثامن عشر من الشهر مع وزيرة الخارجية المصرية وأخبرها بأنه لايوافق على التدخل الأمريكي في شؤون الأقباط. وأنه ينتقد التقرير الأمريكي ويعتبره لايتوافق مع الواقع المصري. وهذه المرة أيضاً يعبّر الأقباط عن انتمائهم الصحيح للمجتمع العربي المصري.

الخلاف الحكومي المصري مع الأقباط ونتائجه

بالعودة إلى العقود الماضية نلاحظ استمرار الخلاف الحكومي المصري مع الأقباط. فقد اصطدم معهم عبد الناصر. وتلاه في الصدام أنور السادات الذي اعتقل البابا شنودة وتلاه أيضاً حسني مبارك الذي زج الكثير منهم في السجون.

هذا الصدام الحكومي مع الأقباط انعكس على المجتمع المصري ككل. وبرر للمصريون حمل المشاعر الطائفية تجاه الأقباط. وهو الصدام الذي صنع هذه المشاعر والتي اختلطت بالمواجهات وأعمال القتل والحرق وغير ذلك. في حين نرى أن الدول العربية التي تحمي مسيحييها تقلّ فيها أو تنعدم المشاعر الطائفية.

ومما تقدم تصبح الحكومات المصرية المتعاقبة هي المسبب في الأحداث الطائفية في مصر.

المسيحيون الكلدان

الكلدان من الأقوام السامية الذين يتحدثون باللغة الآرامية يعيشون في شمال العراق و جنوب شرقي تركيا و شمال غربي إيران. عاش الكلدان منذ القدم بالقرب من عاصمة الأشوريين، نينوى التي تقع في العراق و تسمى بالوقت الحاضر بمدينة الموصل.

الاسم "كلدي"، ظهر في وثائق التاريخ حوالي ٩٠٠ قبل الميلاد. في البداية نجد الكلدان كقبائل آرامية في بابل. وفي عام ٦٢٥ قبل الميلاد فتحوا بابل وأسسوا إمبراطورية بابلية كلدانية عظيمة استمرت لغاية عام ٥٣٩ قبل الميلاد حيث سقطت على يدّ كورش الفارسي. يذكرون في سفر أيوب (١:١٧) من العهد القديم. في عام ٦٢٧ قبل الميلاد أصبح نابوبالاسار، بمساعدة القبائل الكلدانية ، ملكاً على بابل عندما أصبح نبوخذنصر الكلداني (٦٠٤-٥٦٢) ملكاً على بابل وصلت بلاد ما بين النهرين إلى ذروة العظمة والمجد وأصبحت العاصمة بابل حسب الكتاب المقدس "بهاء الممالك وزينة فخرالكلدانيين" (إشعيا ١٣:١٩)، "بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر

كل الارض. من خمرها شربت الشعوب من أجل ذلك جنت الشعوب" (ارميا ٥١:٧). وكانوا من اوائل من اعتنقوا المسيحية حيث كانو حتى سنة ١٥٥٢ جزءاً من الكنيسة الشرقية الآشورية إلى أن انفصلوا و قاموا بتاسيس الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية. يقدر نفوس الكلدان بحوالي ٢.٥ مليون نسمة في مختلف بقاع العالم حيث يعيش حوالي ١٠٠٠٠٠ في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في مدينة ديترويت في ولاية ميشيغان. وفي العراق يحكى اليوم عن الخوف من اختفاء الكلدان بالكامل بسبب حروب الإبادة والتصفية والتهجير التي يتعرضون لها.

المسيحية المارونية

المارونية، طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا إن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون ويعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزاً لهم.

وتنتسب هذه الطائفة إلى القديس مارون الذي عزل نفسه في الجبال والوديان مما جذب الناس إليه مشكّلين طائفة عرفت باسمه، وكانت حياته في أواخر القرن الرابع الميلادي فيما كان موته حوالي سنة ٤١٠م بين أنطاكية وقورس.

وقع خلاف شديد بين أتباع مارون وبين كنيسة الروم الأرثوذكس مما اضطرهم إلى الرحيل عن أنطاكية إلى قلعة المضيق قرب أفاميا على نهر العاصي مشيدين هناك ديراً يحمل اسم القديس مارون.وقع كذلك خلاف آخر في المكان الجديد بينهم وبين اليعاقبة الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة عام ٥١٧م مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلاً عن مقتل ٣٥٠ راهباً من رهبانهم.

وخلال فترة الرحيل نالهم عطف الإمبراطور مرقيانوس الذي وسّع لهم الدير عام ٤٥٢م. وعطف الإمبراطور يوستغيان الكبير ٥٢٧-٥٦٥م الذي أعاد بناء ديرهم بعد تهديم اليعاقبة له. وكذلك عطف الإمبراطور هرقل الذي زارهم سنة ٦٢٨م بعد انتصاره على الفرس.

احتكم الموارنة واليعاقبة عام ٦٥٩م إلى معاوية بن أبي سفيان لإنهاء الخلاف بينهم، لكن الخصومة استمرت، إذ حدثت حروب انتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان وهو المكان الذي أصبح موطناً لهم فيما بعد.

ظهر في موطنهم الجديد بلبنان القديس يوحنا مارون الذي يعتبر صاحب المارونية الحديثة.

ولد يوحنا مارون في سروم قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القسطنطينية.وعيّن أسقفاً على البترون على الساحل الشمالي من لبنان.

يعتقد الموارنة بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.ولم تقبل الكنائس النصرانية الأخرى هذا الرأي، فدعوا إلى مجمع القسطنطينية الثالث الذي عقد سنة ٦٨٠م وقد حضره ٢٨٦ أسقفاً وقرروا فيه رفض هذه العقيدة وحرمان أصحابها ولعنهم وطردهم وتكفير كل من يذهب مذهبهم. وتصدى يوحنا مارون بجيش من الموارنة لجيش قاده يوستغيان الثاني الذي أراد هدم معابدهم واستئصالهم إلا أن الموارنة هزموه في أميون مما أظهر أمرهم كأمة جبلية أصيلة ذات شخصية مستقلة. ثم تحايلت كنيسة روما بعد ذلك عليهم في سبيل تقريبهم منها حيث قام البطريرك الماروني أرميا العمشيتي بزيارة لروما حوالي سنة ١١١٣م وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القداس وطقوس العبادة وسيامة الكهنة. ولقد زاد التقارب بينهما حتى بلغ في عام ١١٨٢م إعلان طاعتهم للكنيسة البابوية، أما في عام ١٧٣٦م فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها فأصبحت الكنيسة المارونية بذلك من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما. وكان لويس التاسع أول صديق فرنسي لهم، إذ تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا وفدٌ مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا، وقد سلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في ٢١/٥/١٢٥٠م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم فقد جاء فيها: "ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية". ومن هنا نشأت واستمرت العلاقة التاريخية الحميمة مع الفرنسيين. واستمر هذا التعاطف من الغرب مع الموارنة في الأجيال التالية وذلك عندما أرسل

نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الانتداب الفرنسي. ومن مشاهير المارونيين العرب: تيوفيل (تيوفيلوس) بن توما من شمال سوريا، ماروني، كان يعمل منجِّماً في قصر الخليفة العباسي المهدي ٧٧٥-٧٨٥م كما قام بترجمة إلياذة هوميروس. والمؤرخ اسطفانوس الدويهي المشهور، الذي توفي سنة ١٧٠٤م. والبطريرك جرجس عميرة، الذي ألّف أول غراماطيق سرياني واضعاً قواعده باللاتينية تسهيلاً على المستشرقين دراسة هذه اللغة. ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج والبطريرك إلياس الحويك. ومن الأساقفة المطران جرمانوس فرحان ويوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس. ومن بيوتاتهم المعروفة آل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرام والظاهر والبستاني والشدياق والنقاش والباز.. ومن زعاماتهم المعاصرة: آل جميِّل، وشمعون، وفرنجية، وإده، وغيرهم، ويذكر أن المطربة العربية الكبيرة فيروز مارونية أصيلة غنّت لمكة وللقدس ولدمشق ولبيروت. وقد اتسمت كل عطاءاتها بتعزيز التلاحم بين المسيحية والعروبة والإسلام.

ومن تنظيماتهم السياسية الحزبية العسكرية حالياً: حزب الكتائب وحزب الأحرار. وهم بشكل عام يحافظون على أصالتهم وعروبتهم وعلى العلاقة الحميمية الطبيعية التي تربطهم بالمسلمين كافة. ومنذ عام ١٩٤٣م حتى اليوم استقر الأمر بأن يكون رئيس الجمهورية اللبنانية من الطائفة المارونية وذلك بموجب الميثاق الوطني الذي تم فيه الاتفاق شفوياً بين المسلمين والنصارى حول توزيع المناصب الرئيسية للدولة اللبنانية على مختلف الطوائف الدينية فيها.

المعتقدات المارونية

أهم نقطة تميزهم عن بقية الطوائف النصرانية هو معتقدهم بأن للمسيح طبيعتين وله مشيئة واحدة وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. وعقيدة المشيئة الواحدة التي قال بها بطريرك الإمبراطور هرقل أيضاً ٦٣٨م ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يشكلون الأكثرية من رعاياه النصارى في سوريا

وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية للكنيسة البيزنطية، ويعتقدون أن خدمة القداس عندهم مأخوذة عن تلك الخدمة التي ينسبونها إلى القديس يعقوب، كما يعتقدون أن هذه الخدمة إنما هي أقدم خدمة في الكنيسة المسيحية إذ إن أصولها ترجع إلى العشاء الرباني الأخير.

وما تزال الكنيسة المارونية تحتفظ باللغة السريانية في القداس إلى يومنا هذا وتعبّر بذلك عن أصالتها المسيحية الشرقية.

منذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح دير قنُّوبين شمالي لبنان فوق طرابلس المبني في صخر من صخور وادي قاديشا (أي المقدس) مقراً للبطريركية المارونية، كما أصبحت بكركي المبنية فوق جونية المقر الشتوي حتى يومنا هذا، إذ لا يزال سيد بكركي. يلقب ببطريرك أنطاكية وسائر الشرق؛ ذلك لأنه مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين،

إعادة تكوين الكنيسة

بعدما خرج المسلمون من الأندلس مندحرين خاسرين. التفتت الكنيسة الأوروبية إلى ترميم وإعادة بناء الذات والهوية. خاصة وكان اتباع العقيدة الإسلامية قد انتشر في أوساط المجتمع الاسباني وغيره. وإن المفاهيم الإسلامية قد تغلغلت في داخل الكنيسة وضمن العقائد المسيحية نفسها. وظهرت في أوروبا بوادر النهضة العلمية والفكرية المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس.ففي عهدهم تمت ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلمية وبخاصة في الجغرافيا والفلك، فتصدت لهم الكنيسة استناداً على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا:

"إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق".

وتحت ذريعة اعادة تكوين الكنيسة وتنقية الفكر المسيحي من الفكر الجديد الذي يهدده، أبادت الكنيسة مئات الآلاف من السكان الذين يعتنقون الإسلام، واضطر قسم كبير منهم إلى اعتناق المسيحية ليحافظ على حياته.

واستخدمت ضد العلماء رقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكية، واتسع تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٨١-١٤٩٩م على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وأمرت الكنيسة بحرق كتبهم وابادة فكرهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة. وكان القسم الأكبر منها إسلامياً.

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلاسفة من سوء سلوك رجال الكنيسة، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسُّعهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالغتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلاسفة من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجّهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، والخير والشر. وقد تأثر كلّ من روسو وفولتير بالفكر الإسلامي، فكانت نتاجات جان جاك روسو كلها تدعو إلى تطوير الفكر المسيحي، ومنح حريات متعددة للمواطنين: وكانت أول عبارة في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) تقول: ولد الإنسان حراً فلماذا نستعبده. وكتب فولتير (رسائل فلسفية) وفيه انتقادات عنيفة للكنيسة المتعصبة ورسم أفكار وصور نبيلة للمجتمع والسلطة والعقيدة، وكانت كل هذه الصور تتفق مع الإسلام ومفاهيمه. كما وكتب رواية (كانديد المتفائل) وبدا أن معظم أبطال الرواية مسلمون، وأسماؤهم إسلامية، وأغلب أماكن الحدث هي بلدان إسلامية، وأهم ما في الرواية أن كافة الدروس التي استخلصها فولتير في الإيمان والاعتقاد والحب والسعادة وإصلاح السلطة، كلها كانت تتفق مع العقيدة الإسلامية بل وكانت

متأثرة بها بوضوح. ومن أواخر أعمال فولتير مسرحية بعنوان (محمد) وقد صوّر فيها شخصيات الصف الأول من عهد الإسلام بما فيهم شخصية الرسول محمد وشخصية عمر وفاطمة إضافة إلى شخصيات أعداء الإسلام الجاهليين. وقد عرضت مسرحيته لمدة ثلاثة أيام ومنعت بعدها من العرض. إذ وجّهت إليه اتهامات بترويج الفكر الإسلامي وبمهاجمة الكنيسة، وعندما توفي الفيلسوف الكبير فولتير رفضت الكنيسة دفنه في مقابر العظماء، بحجة اتهامه بالأسلمة. ونحن اليوم لانمتلك دليلاً قاطعاً على أن الرجل قد أعلن إسلامه، وبنفس الوقت نمتلك أدلة كثيرة على أنه اعتنق أفكاراً ومباديء وعقائد إسلامية كثيرة، بل وقد سعى لترويجها وإصلاح المجتمع من خلالها. لكن المعارضة الكنسية ومعارضة السلطة لأولئك المفكرين لم تحل دون وصول نتاجاتهم إلى أذهان المجتمعات الغربية. بل إن الكنيسة نفسها تأثرت فيما بعد بذلك النتاج الفكري المتأثر بالإسلام. وهذا يعني أن الكنيسة قد اعتنقت عقائد إسلامية تمت اضافتها إلى العقائد المسيحية على أنها شروح وإيضاحات للعقيدة المسيحية.وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر بعد سقوط الأندلس ذبحوا وأحرقوا ما يزيد على ٣١ ألفاً من المسلمين (حسب بعض التقديرات) ولم يتركوا مسلماً على قيد الحياة. وبعد استقلال اليونان عن الدولة العثمانية أباد النصارى شعب موريا المسلم عن آخره، بل ودمروا المساجد، ويذكر التاريخ ما فعله الأسقف مكاريوس بمسلمي قبرص، والمتعصب جوليوس نيريري بمسلمي زنجبار .
إن النصرانية التي يتبناها الفاتيكان اليوم هي النصرانية السياسية التي يتحكم بها حكام الغرب وسياسيوه. وهنا تظهر لنا أهمية المسيحية العربية بالنسبة لنا وضرورة الحفاظ على هويتها وكيانها، وأهمية الحفاظ عليها داخل المجتمع الإسلامي العام. لتكون داعماً لنا في مواجهة الاعتداءات السياسية الغربية.

رئيس الكنيسة الأنجليكانية يناصر الإسلام

يعتبر الدكتور روان ويليامز رئيس أساقفة كانتربيري، أرفع منصب في الكنيسة الأنجليكانية في العالم. والتي ينتمي اليها سبعون مليوناً منتشرين في أنحاء العالم. ويعرف عنه أنه يناصر المسلمين في حالات كثيرة، ويهتم بالحوار معهم. فقد انتقد الغزو الأمريكي للعراق، وانتقد مراراً عديدة إقامة معتقل غوانتانامو، وانتقد حظر الحكومة الفرنسية للحجاب الإسلامي في المدارس العامة. وأسند ذلك إلى سياسة الخوف من تصاعد أعمال العنف المتطرفة الإسلامية. وقال: " إن مشروع القانون الفرنسي يوضح أن هناك حالة من العصبية تجاه من يحاولون إظهار التزامهم الديني علناً".

كما انتقد ويليامز في خطبته من يقومون بأعمال إرهابية باسم الدين، قائلاً "إن التهديد بالقيام باعمال إرهابية باسم الدين يزيد من عدم التسامح بين الأديان حتى لو انتقده القادة الدينيون على اختلاف مستوياتهم ".

الأشورية

تمتاز الطائفة الأشورية بعراقة التاريخ لتمسكها بالتعاليم المسيحية الأصلية. يتهمون بالنسطورية ودفعوا عن ذلك أثماناً كبيرة. وقعوا فريسة مشاريع دولية.

الفكر الآشوري

للتعرف على الفكر المسيحي الآشوري ننقل نصاً لقسيس آشوري تتضح فيه خصوصيتهم وخلافاتهم مع المسيحية الغربية، واعتزازهم بالتمسك بديانتهم المسيحية.

الصيانة اللازمة لكنيسة المشرق

من المؤثرات السياسية الخارجية نرى أن كنيسة المشرق الآشورية خضعت وتأثرت تأثراً كبيراً ومباشراً بسياسة الدول الأخرى وعجزت عن مقاومتها وبالتالي تعرضت لتأثير سياسيات الدول التي خضعت إليها، ابتداءً من الدول الفارسية ثم البيزنطية والإسلامية فالعثمانية والأوربية بما فيها بريطانيا وفرنسا. وطبقاً لهذه السياسات، التي فرضت بالحديد والنار على رؤساء الكنيسة ورعيتها أو استغلت ظروفهم المأساوية لفرضها عليهم، تحددت طبيعة علاقتها مع الكنائس الأخرى التي خضعت هي الأخرى إلى سياسات الدول، وخاصة الدول التي كانت في عداء وحروب مستمرين كالإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ثم البيزنطية كما كان في السابق، والامبراطورية العثمانية والدول الغربية كما كان في القرون القليلة الماضية، فانعكست هذه الصراعات، بكل ما تحمله من طابع سياسي وفكري وحضاري، في طبيعة علاقات كنيسة المشرق الآشورية مع الكنائس الأخرى، فأصابها الكثير من الجفاء والقطيعة والعزلة، خاصة بعد منتصف القرن الميلادي الرابع فكانت تلك الفترة البداية الأولى في بناء السدود بين كنيستنا والكنائس الغربية الأخرى والتي استمرت قروناً طويلة وحتى إلى وقت قريب من عصرنا.

وبقدر تعلق الأمر بمبادئ الوفاق والوئام من الناحية الروحية في طبيعة علاقة كنيستنا مع الكنيسة الغربية الكاثوليكية ومدى تأثرها بالسياسات المكيافيلية منذ القرن السادس عشر الميلادي، وهو القرن الذي بدأت الدول الغربية وكنائسها الاهتمام بالعالم الشرق الأوسطي وبمسيحييه وكنائسه، ومدى قدرة هذه السياسات في تحويل هذه الطبيعة الروحية للعلاقة بينهما إلى نوع من الجفاء والخصام نلاحظ بأنه مرة أخرى انعكاس تأثيرات مملكة الأرض المتمثلة في الأطماع الاستعمارية للدولتين البريطانية والفرنسية وحتى الروسية وصراعهما على ممتلكات الرجل المريض، أي الدولة العثمانية، على طبيعة العلاقة بين كنيسة المشرق الآشورية والكنيسة الغربية الكاثوليكية، وبالأخص الكلدانية منها، وطغت على المبادئ

الروحية الصميمية في الوفاق والوئام التي تجمعهم ككنيسة واحدة ذات طقس ولغة وشعب واحد . وتجلت مكيافيلية هذه السياسات وبكل وضوح في ادعاء هذه الدول في حماية الأقليات المسيحية ومساعدتهم للتخلص والتحرر من ظلم واستبداد الأتراك في القرن الماضي كأسلوب لتنفيذ مآربهم السياسية عن طريق استغلال الدين. فهكذا استطاعت الدولة الفرنسية ، سواء عن طريق مبشريها أو قناصلها أو مفكريها ، أن تزرع في نفوس وعقول أبناء الطائفة الكلدانية الكاثوليكية مفاهيم تقوم على اعتبار أبناء كنيسة المشرق الآشورية مجرد نساطرة وكفرة وملحدين وغيرها من الشتائم التي زادت من الشقاق والخصام بين الكنيستين. وعلى الجانب الاخر ، وأقصد كنيسة المشرق الآشورية ، كان تأثير السياسة المكيافيلية الإنكليزية أكثر قوة وعمقاً وذلك لسببين : أولهما كون بريطانيا هي الدولة الأكثر نفوذاً ومصلحة في المنطقة وخاصة في العراق. وثانيهما عدم وجود لبريطانيا طائفة قوية في الدولة العثمانية ثم في العراق من اتباع الكنيسة الإنكليكانية للاعتماد عليها في تنفيذ سياستها فوجدت في استقلالية كنيسة المشرق الآشورية وفي عدم وجود من يستجيب لاستغاثتها وهي غارقة في المذابح والفواجع والتشرد ، فرصة ذهبية لاستغلالها من دون أي وازع أخلاقي وديني وإنساني لتحقيق مآربها الاستعمارية. فنجحت فعلاً في تحقيق الكثير من أهدافها ومنها الهدف المتعلق بموضوعنا في زرعها لبعض المفاهيم السيئة في نفوس وعقول أبناء كنيستنا عن أخوتنا أبناء الطائفة الكلدانية وفي اعتبارهم مجرد (قليبايه) ، والذي يعني باللغة الاشورية السريانية بـ " المتحول من مذهب إلى مذهب أخر " أي الذين باعوا أنفسهم للغرب مقابل بعض الفرنكات... وهكذا غيرها من الشتائم التي تناقلها الطرفين وحتى أيامنا هذه ولا يزال يتناقلها البعض الغارقون في النزعات الطائفية والنائمون في ظلام الماضي الأليم. ألقي هذا الموضوع في المؤتمر الثاني للجبهة الثقافية السريانية المنعقدة في بيروت في ١٩٩٨/٥/١.

جهاد الحوار مع المسيحية

إن خير جهاد يقوم به الفرد المسلم في هذا العصر هو التحاور والتعايش والتحالف مع الآخر. المسلم الذي ينتمي لمذهب آخر والمسيحي العربي والغربي.ونقصد بالتحالف هنا إقامة علاقة صداقة متينة وتحاور وتفاهم ومن خلالها سيتعرف الآخر على الشخصية الإسلامية والأخلاق الإسلامية ويتعرف على مواقف المسلمين من الأحداث العامة.والمظالم التي يتعرضون لها. وعندئذ لن يكون كلّ منهما قاتلاً للصديق ولقومه في معارك طائفية أو حروب أخرى، بل سيصبح مدافعاً عن القضية الإسلامية العامة. وسوف يتظاهر الغربي في وطنه مطالباً بنصرتنا وبإخراج جنود بلاده من العراق وأفغانستان كما يحصل في لندن وواشنطن. وقد يصبح هذا المحاور المتفهم ذا نفوذ وسلطة في بلاده فيمنع الاعتداء على المسلمين.ويمكن للمتطرف نفسه أن يعمل في هذا الاتجاه الجهادي العظيم، والذي هو أكثر صعوبة من جهاد القتل والتدمير. ففي دول الغرب لاتستطيع الحكومات اليوم أن تطرد الإسلام والمسلمين من أراضيها، لأن الإسلام أصبح جزءاً منها، ولأن المسلمين أصبحوا مواطنيها الأصليين. وتلك الحالة لم تحدث عبثاً بل كانت نتيجة لجهاد سلمي إسلامي حقيقي قام به مسلمون جبّارون قبلنا. وبتعزيز هذا الجهاد المدني الفردي سيكون للمسلمين نفوذ كبير في بلدان الغرب. ولن يحصل المجاهد المسالم على نتائج فورية وسريعة وهذا مؤشر على صعوبة هذا النوع من الجهاد. وعلى تطلّبه للمقدرة العالية عند المجاهد نفسه ولن تتحقق تلك المقدرة إلا بقوة الإيمان بالإسلام، وهنا يكتشف صدق إيمان الفرد من زيفه وقوة إيمانه من ضعفها. فالقادر على الصبر والتحمل والعناد زمناً طويلاً في جهاده سيكون إيمانه أقوى من المسلم الذي يريد أن ينهي جهاده كله بعمل واحد يموت فيه ويقتل الآخر.

المساحة العقائدية المشتركة

تشكيك المسلمين بنوايا المسيحية وعدم قدرة المسيحيين على الاعتراف بنبوة محمد: هاتان المشكلتان وقفتا أمام تقدم الحوار على الدوام. في الحقيقة نحن ندعو إلى أن يسكت كل طرف أمام الخطوط الحمراء التي تفصله عن الطرف الآخر.

ولابد أن يتعرّف المسلم أولاً بصدق الإنسان المسيحي في الحوار، عندئذ يمكن أن يتعامل معه تعامل الند للند ولا ينبغي في هذه الحالة أن يطلب من المسيحي ابتداءً أن يعترف بقرآنه، وإنما يحاول أن يدخل معه لمعرفة المساحات العقائدية المشتركة.

ليس من الضروري للمسلم أن يتحاور مع المسيحي بهدف أسلمة المسيحي وتركه لديانته. بل الأهم من ذلك في هذه الفترة إنشاء قنوات تواصل وحوار وتفاهم مع المسيحية الغربية. وبالنسبة للمسيحيين العرب فلاضرورة لدعوتهم إلى الإسلام بسبب قلة عددهم، فبقاؤهم في الفضاء المسيحي ضرورة ملحّة للمسلمين وبرهان أكيد على التعددية والتنوع والتعايش المشترك.

يجب أن لا نبقي الحوار مع المسيحية في قمقم اللاهوت. النقص الذي كان من قبل هو حصر الحوار في إطار اللاهوت، في المجال العقائدي. وإن ثمة مجالاً آخر واسعاً، هو المجال العملي والمجال الحضاري.

ويمكن الخوض في مواضيع دينية عامة كأن يتحاور المسيحي والمسلم حول قضية العلاقة بين العدالة والإسلام، أيهما نقدم إذا جرى نزاع بين الأمرين، أو العلاقة بين العدالة الاجتماعية والإنتاج، أيهما نقدم إذا تعارض نموّ الإنتاج مع العدالة الاجتماعية؟ فهل ننمّي الإنتاج، أو نوقف نموّه لتحقق العدالة. هذه مسألة إنسانية. وفي مسألة حقوق الإنسان، ومسألة دور العائلة في البناء الاجتماعي، وفي بعض المسائل المهمة كالإجهاض.

فالمسيحية أشدّ تصلبا في منع الإجهاض حتى من فقهاء المسلمين. هم يرفضون أي تصور للإجهاض، بينما عندنا بعض الحالات الخاصة في الجواز قبل تعلق الروح في النطفة وحالات تضرر الأم تضرراً شديداً.

وهناك مجالات الدفاع عن القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية. هذه مجالات مشتركة . لماذا نترك المجالات التي يمكن أن نتفق فيها وندخل مجالات عقيمة.

لا يمكن أن نسدّ باب الحوار العقائدي، بل من الممكن أن نمشي مع الحوار العقائدي إلى حيث يمكن أن يصل.

وهناك باب آخر يمكن أن نتعاون فيه هو باب الحوار العملي والحوار الحضاري.

إذا أمكن أن نتحاور حضارياً فكيف لا يمكن أن نتحاور دينياً وأصولنا المشتركة الدينية أقرب من أصول الاشتراك الحضاري.

وإن تركيز المسلمين على هذه الأصول المشتركة التي تجمع بين الديانتين أمر يقوّي الحوار ويدفعه كثيراً نحو اكتساب النتائج المرضية للطرفين.

السينتولوجيا أخطر انحدار للكنيسة الغربية

العلمولوجيا أو السنتولوجيا كنيسة أوروبية جديدة نشأت في ألمانيا وامتدت إلى أوروبا وأمريكا.وأشعلت جدلاً واسعاً في العالم كله. وصفها الأطباء والعلماء بأنها عالم كاذب. ووصفها السياسيون ورجال الدين المسيحيون على أنها مؤسسة تجارية متهورة. كما تصنفها بعض الحكومات تحت المؤسسات أو التيارات المناهضة للدستور.نتعرف على كنيسة السينتولوجيا لنكتشف المفارقة الكبيرة والانحدار الديني والفكري الذي وصل إليه بعض مسيحيي الغرب: يقولون إن الجانب الديني في السينتولوجيا قد أقحم فيها لكي تلقى تجاوباً من ذوي العقول البسيطة ولكي تظهر في مظهر تيار حامل لقيم إنسانية. وأن الفكر السينتولوجي هو امتداد للتيار الذي يرى أن علم الاجتماع والنفس يخضع أو يجب أن يخضع لنفس مقاييس العلوم الهندسية. وهنا تنشأ تعارضات مع بعض تشريعات الدول الديمقراطية التي ترى أن هذا التيار والفكرة تسلب الفرد حريته وتجعل إمكانية قيام نظام دكتاتوري أكثر احتمالاً. ولتلك الأسباب تعتبر العلمولوجيا طائفة دينية سرية وغير قانونية. تتمثل هذه الفلسفة رسمياً عن طريق الكنيسة العلمولوجية Church of

Scientology ، التي تصف نفسها بأنها منظمة غير نفعية تسعى لإصلاح وإعادة تأهيل الروح الإنسانية ، و هي تطرح نفسها كبديل عن مدرسة التحليل النفسي.

مؤسس الديانة الكنسية الجديدة هو رون هوبارد ، قام بتأسيسها إثر نقاش مع صديق له على حافة حمام سباحة في الخمسينات حول أقصر الطرق للحصول على مليون دولار. هوبارد قال إنه يمكنه بناء ثروة شخصية قدرها مليون دولار عن طريق إنشاء دين جديد خاص به. النقاش تطور إلى رهان. ثم ما لبث هوبارد أن أنشأ الدين الجديد. وهذه الكنيسة تشجع أتباعها على قطع كل صلاتهم بأهلهم غير المعتنقين للديانة الجديدة. وتورطت في عدة قضايا في الولايات المتحدة وأوربا لابتزاز أعضائها للحصول على أموالهم. تتلخص فكرتهم أو هدفهم في مكننة الإنسان و العلاقات الإنسانية على جميع المستويات بدءاً بالفرد و نهاية عند الدول ذلك لأن الخاصيات الإنسانية متغير غير قابل للحساب أو التنبؤ به في المعاملات يؤدي إلى أخطاء فادحة عند اتخاذ القرارات إلى حد اتخاذ قرارت غير منطقية (لكن أخلاقية في بعض الأحيان) فوجب إذن تخليص الإنسان من هذه الخصائص الإنسانية التي يرون أنها موطن ضعفه و الرقي به (حسب الساينتولوجي) إلى درجة إتقان عمل الماكنات. وتوجد العديد من القواعد و التمارين ضمن الحركة هدفها محو الإرادة الشخصية و تطويع الفرد في خدمة المؤسسة (الساينتولوجية) أو النظام عامة كضرب من ضروب الهندسة الاجتماعية كواجب الطاعة العمياء لمن فوقك في هرم المؤسسة و عدم حق النقد و عدة تمارين تتعلق بمكننة الحياة اليومية كتمارين على المشي والضحك والصراخ إلخ. وهدفها التخلص من التلقائية والمشاعر. وإنّ تحريف الكنيسة في كلّ مرة إلى اتجاه يروق لأمزجة هؤلاء الدجالين يدلّ على أنّ الغرب شديد البعد عن استيعاب سماوية الديانة المسيحية ، وهذا مايزيد من اتسّاع الهوّة بين المسيحية العربية والمسيحية الغربية ، ويمنح دوراً عالمياً مهماً للمسيحيين العرب في إعادة نشر المسيحية الصحيحة. أثناء زيارته لألمانيا قام رئيس وزراء الصهاينة (إيهود أولمرت) بزيارة لمركز السينتولوجيا الرئيسي في برلين برفقة رئيسة وزراء ألمانيا ، مما يدلّ على الدعم الصهيوني الكبير لكنيسة السينتولوجيا.

مارتن لوثر

ولد مارتن لوثر في مقاطعة ساكس الألمانية سنة ١٤٨٣ وحصل على الدكتوراه في اللاهوت. وزار في العام ١٥١٠ روما ، وكانت الكنيسة آنذاك تبيع صكوك غفران الذنوب وصكوك التوبة ، ويمنحون صكوك الغفران التي تعتق وتسمح بالمرور إلى الجنة! فتأثر بتخلف الكنيسة وقرر إصلاحها وتقويض سلطة البابا.

فقام بتعليق احتجاج صارخ على باب كنيسة مدينة فيتنبرج في ٣١ تشرين الأول ١٥١٧ تضمن ٩٥ نقطة طالب فيه بإلغاء النظام البابوي لأنه يمنح قدسية كبيرة للبشر قد يسيؤون استعمالها تماماً كما كان شائعاً في الكنيسة الكاثوليكية آنذاك. كما رفض لوثر أن يبقى القسيس بلا زواج مدى الحياة، فأقدم هو على الزواج من الراهبة كاترينا فون بورا.

وكانت من بين مطالب لوثر أيضاً المساواة بين الإكليروس "رجال اللاهوت المسيحي" والمسيحيين العاديين. غير أن ما سيؤثر على مستقبل الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام كان دعوة مارتن لوثر إلى جعل الكتاب المقدس اليهودي المصدر الوحيد للإيمان، ودعا إلى إلغاء الوساطة بين المؤمنين والرب بمعنى إقامة علاقة مباشرة بين العبد والمعبود دون المرور عبر البابا أو أي شخص آخر ويذكر أن بعض دعواته تتفق مع العقيدة الإسلامية.

ضمّ اليهود إلى المجتمع المسيحي

وكان أخطر ما حملته مطالب لوثر دعوته للعودة إلى كتاب التوراة العبرانية القديمة وإعادة قراءته بطريقة جديدة بالإضافة إلى اعتماد الطقوس العبرية في الصلاة عوضاً عن الطقوس الكاثوليكية. وأرسل رسالة إلى البابا ليو العاشر في روما سنة ١٥٢٠ اتهمه فيها باستعمال الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق مصالح

شخصية له وللحاشية التي تحيط به، مؤكداً أنه لن يتخلى عن نضاله لتقويض تلك الكنيسة مادام حياً.

فجاء رد فعل الكنيسة الكاثوليكية قاسياً حيث اعتبرت لوثر من الخارجين عن الكنيسة وطردته من الديانة المسيحية واتهمته بالهرطقة، وهي تهمة كانت عقوبتها آنذاك الحرق على الملأ. فلجأ لوثر بعد ذلك إلى العمل السري وعمل على استمالة بعض اليهود الذين كان لهم نفوذ كبير في المجتمع عن طريق التأكيد على أن مذهبه الجديد يعيد الاعتبار لليهود الذين كانوا يعانون من ازدراء الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر كتابه "عيسى ولد يهودياً" سنة ١٥٢٣ وقال فيه إن اليهود هم أبناء الله وإن المسيحيين هم الغرباء الذين عليهم أن يرضوا بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل ما يسقط من فتات من مائدة الأسياد. وكانت هذه الفترة تعد الولادة الحقيقية والفعلية للمسيحية اليهودية.

نشأة المسيحية اليهودية

وتقوم المسيحية اليهودية على تفضيل الطقوس العبرية في العبادة على الطقوس الكاثوليكية بالإضافة إلى دراسة اللغة العبرية على أساس أنها كلام الله. ووصلت محاولة استمالة لوثر لليهود من أجل الدخول في مذهبه حداً قال فيه يوماً أمام عدد من اليهود الذين كانوا يناقشونه:

"إن البابوات والقسيسين وعلماء الدين ذوي القلوب الفظة، تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحياً مخلصاً يتحول إلى يهودي متطرف وأنا لو كنت يهوديا ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون المسيحية فسأختار على البديهة أن أكون خنزيراً بدلاً من أن أكون مسيحياً".

وإن رغبة مارتن لوثر الجامحة في إعادة الاعتبار لليهود و"تمسيحهم" كانت تعود لإيمانه العميق بضرورة وجودهم في هذا العالم تمهيداً لعودة المسيح.

واعتبرت دعواته تلك انقلاباً على موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تنظر لليهود على أنهم حملة لدم المسيح عيسى بعدما صلبوه. حيث دأبت الكنيسة الكاثوليكية على تحميل اليهود المسؤولية الكاملة عن مقتل المسيح. وكان بعض المسيحيين في أوروبا يحتفلون بمقتل المسيح عن طريق إحياء طقوس عملية الصلب، بل وكان سكان مدينة تولوز الفرنسية يحرصون على إحضار يهودي إلى الكنيسة أثناء الاحتفال ليتم صفعه من قبل أحد النبلاء بشكل علني إحياء لطقس الضرب الذي تعرض له المسيح من قبل اليهود.

كما أن هناك نصاً في إنجيل متى يحمل اليهود مسؤولية مباشرة عن مقتل المسيح ويذكر بالتفصيل كيف غسل بيلاطس الحاكم الروماني للقدس آنذاك يديه بالماء معلناً براءته من دم المسيح الذي كان اليهود على وشك صلبه قبل أن يصيح فيه اليهود قائلين "ليكن دمه علينا وعلى أولادنا". وهذه العبارة الأخيرة تطبع الاعتقاد المسيحي الكاثوليكي بشكل مرير ظهر جلياً في الشعبية الكبيرة التي نالها فيلم "آلام المسيح" للمخرج المسيحي ميل غبسون الذي حصد مئات الملايين من الدولارات عدا حالات الإغماء الكثيرة التي شهدتها قاعات السينما التي عرضت الفيلم في الولايات المتحدة لرجال ونساء مسيحيين لم يستطيعوا تحمل التفاصيل المليئة بالألم التي حفل بها الفيلم.

وفي أواخر حياته عدّل لوثر رأيه عن استمالة اليهود وكتب كتاب "اليهود وأكاذيبهم" أعرب فيه عن خيبة أمله من اليهود وأقر بالفشل في استقطابهم لعقيدته الجديدة. كما أقر في شبه استسلام تلقفه اليهود قبل غيرهم بأن دخول اليهود في الدين المسيحي لن يتم إلا عبر عودتهم لأرض فلسطين وعودة المسيح الذي سيسجدون له ويعلنون دخولهم في الدين المسيحي حتى يعم السلام العالم. وكانت دعوة لوثر تلك أول اشارة إلى عقيدة عودة اليهود إلى أرض فلسطين. وتلك الإشارة التي وظّفتها الصهيونية سياسياً وجعلتها مشروعاً حقيقياً تمثل في تهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين ثم إقامة دولة اسرائيل على حساب أصحاب الأرض الفعليين وهم العرب الفلسطينيون.

البروتستانتية والصهيونية المسيحية

الصهيونية المسيحية هي الدعم المسيحي للفكرة الصهيونية، وهي حركة مسيحية قومية تقول عن نفسها إنها تعمل من أجل عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين وسيادة اليهود على الأرض المقدسة. ويعتبر الصهيونيون المسيحيون أنفسهم مدافعين عن الشعب اليهودي خاصة دولة إسرائيل، ويتضمن هذا الدعم معارضة وفضح كل من ينتقد أو يعادي الدولة العبرية.

تقوم فلسفة الصهيونية المسيحية على نظرية الهلاك الحتمي لليهود. وهناك الكثير من الدراسات اللاهوتية في هذا المجال خلاصتها أن هلاك يهود الأرض قدر محتوم وضرورة للخلاص من "إرث الدم" الذي حمله اليهود على أكتافهم بعدما صلبوا المسيح وهم سيتحولون إلى المسيحية بعد عودته ولن يبقى شيء اسمه اليهودية.

ومارتن لوثر عمل على تهويد المسيحية عندما أصر على اعتماد التوراة العبرانية بدلاً من كتاب "العهد الجديد". وقد قام عدد من رجال الدين البروتستانت مثل القس الإنكليزي جون نلسون داربي بإعادة قراءة العقائد المسيحية المتعلقة باليهود، ومنحهم مكانة متميزة حتى أصبحت الكنيسة البروتستانتية هي حاملة لواء الصهيونية المسيحية أينما حلت.

وقد حصل انشقاق داخل الكنيسة البروتستانتية نفسها بسبب اليهود. فبينما أعرب بعض البروتستانت الإنجليز عن اعتقادهم بأن اليهود سيعتنقون المسيحية قبل أن تقوم دولتهم في فلسطين، ذهب بعض البروتستانت الأميركيين إلى أن اليهود لن يدخلوا في المسيحية حتى لو قامت إسرائيل وأن عودة المسيح هي الشرط النهائي لخلاصهم وتوبتهم ودخولهم في الدين الذي جاء فيهم أصلاً. وقد تزعم القس نلسون داربي هذا الفريق وينظر إليه على أنه الأب الروحي للمسيحية الصهيونية قبل أن يعمل العشرات من القساوسة على نشر نظريته تلك. ونشر وليم باكستون الذي كان من أشد المتحمسين الأميركيين لأطروحة داربي كتاب "المسيح آت" سنة ١٨٨٧ وترجم الكتاب إلى عشرات اللغات وركز فيه على حق اليهود التوراتي في فلسطين. وبلاكستون كان وراء جمع ٤١٣ توقيعاً من شخصيات مرموقة مسيحية ويهودية

طالبت بمنح فلسطين لليهود وتم تسليم عريضة التوقيعات للرئيس الأميركي آنذاك بنيامين هاريسون. أما القس سايروس سكوفيلد فيعتبر من أكثر المسيحيين الصهيونيين تشدداً وقام بوضع إنجيل سماه "إنجيل سكوفيلد المرجعي" نشره سنة ١٩١٧ وينظر إليه اليوم على أنه الحجر الأساس في فكر المسيحية الأصولية المعاصرة.

صهينة المسيحية الغربية

كان لليهود المهاجرين من أسبانيا إلى أوربا وبخاصة فرنسا وهولندا أثرهم البالغ في تسرب الأفكار اليهودية إلى النصرانية من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، وكذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة. وفي عام ١٥٢٣م أصدر مارتن لوثر كتاب عيسى وُلِد يهوديًّا متأثراً فيه بالأفكار الصهيونية.وفي عام ١٥٤٤م انتبه مارتن لوثر إلى الخطر اليهودي وأصدر كتاباً ينتقد فيه التدخل اليهودي في الكنيسة والمسيحية ويحذر من أكاذيبهم. وكانت هزيمة القوات الكاثوليكية وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية عام ١٦٠٩م بمثابة انطلاقة للحركة الصهيونية المسيحية في أوربا، مما ساعد على ظهور جمعيات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميعاً على مساعدة اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. ومن أبرز هذه الحركات: الحركة البيوريتانية التطهيرية التي تأسست على المبادئ الكالفينية بزعامة السياسي البريطاني أوليفر كرومويل ١٦٤٩-١٦٥٩م وفي عام ١٨٠٧م أُنشئت في إنجلترا جمعية لندن لتعزيز اليهودية بين النصارى.

وقد أطلق أنطوني إشلي أحد كبار زعمائها شعار: "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن" وانتقلت الصهيونية المسيحية إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية.ويعتبر سايسروس سكلوفليد ١٨٤٣م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا.وفي العصر الحديث تعتبر الطائفة التدبيرية التي يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليون نسمة تقريباً والمعروفة باسم الأنجلو ساكسون،

البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونية، وفي التأثير على السياسة الأمريكية في العصر الحاضر. ومن أشهر رجالها اللاهوتيين: بيل جراهام، وجيري فولويل، جيمي سويجارت. ومن أبرز رجالها السياسيين الرئيس الأمريكي رونالد ريجان.والرئيس جورج بوش.

ومن داخل الكنيسة الإنجيلية في أمريكا وقف لهم بالمرصاد المجلس الوطني للكنائس المسيحية،

ومن داخل المسيحية الصهيونية اشتهر أخيراً القس جون هاجي وصعد نجمه بسرعة كبيرة، بفضل أفكاره التدميرية الهستيرية التي أعلنها، فقد أصدر في كانون الثاني ٢٠٠٦ كتاباً خطيراً جديداً بعنوان: العد التنازلي لأورشليم: تحذير للعالم.. الفرصة الأخيرة للسلام"، وبسرعة مذهلة أصبح في ثلاثة أشهر فقط، أكثر الكتب تداولاً وبيعاً في الأسواق الكبرى بالولايات المتحدة الأميركية. ويرى الكتاب أن حكام إيران متزمتون يسعون إلى محو إسرائيل من الخريطة بإلقاء قنبلة نووية على القدس. وبعد اجتياح إسرائيل على يد المسلمين والروس، ستقوم حرب ثانية للسيطرة على إسرائيل، وستشتعل بين الولايات المتحدة من جهة، والصين والاتحاد الأوروبي من جهة ثانية.

وفي هذه اللحظة سيظهر المسيح الدجال في شخص رئيس الاتحاد الأوروبي. وفي النهاية ستضع الحرب النووية الرهيبة حداً للنزال، وستدور المعركة الحاسمة في ميجيدو (هارمجدون). وسيصبح بإمكان المسيح المبجل أن ينزل إلى الأرض ليجزي الذين آمنوا به وانتظروا رجوعه. ومن حسن حظه أن الجيش الإسرائيلي والبنتاغون يمكنهما ترجيح الكفة لصالحه بتدخل وقائي، بما فيه استعمال قنابل نووية جديدة وتكتيكية. ولهذا يجب خوض الحرب من الآن دون انتظار.

المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل

منذ العام ٢٠٠٥ عقدت الصهيونية العالمية مع البنتاغون اتفاقاً على تأسيس حركة "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل". وتهدف هذه الحركة إلى تعبئة الرأي العام الأميركي لمساندة إسرائيل والأمريكيين في حربهما ضد العرب والمسلمين. بل وجعل تلك الحرب مقدسة وواجباً دينياً مسيحياً.

وهذا يزيد في تأجيج النار في اليمين الديني الأميركي، الذي كان من ضمن مشروعه محاولته مسابقة الإسلام واحتكار المسيحية والدفاع عن "الحرية الدينية"، وتنصيب رؤساء موالين له في كل قارات الكرة الأرضية. وكسب السند الشعبي العام للولايات المتحدة الأميركية في الحرب ضد لبنان، ثم سوريا وإيران، فقد أسس البنتاغون الأميركي والجيش الإسرائيلي بنية للتأطير والتكوين، منذ نهاية سنة ٢٠٠٥، لتعبئة خمسين مليوناً من الإنجيليين الأميركيين. وتركز المحور العام لهذه العملية على إدماج زعماء الإنجيليين في مؤسسة إيديولوجية وحيدة: "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل". ولا ترمي هذه المنظمة الجديدة إلى أن تكون بديلاً للمنظمة الشهيرة "إيباك" العاملة كجماعة ضغط سياسية (لوبي) في الأوساط الحاكمة، لكن مهمتها هي ترويج العقيدة الصهيونية في الكنائس الإنجيلية وخارجها حتى يصير دعم العمليات العسكرية العدوانية الإسرائيلية في نظر أغلبية الأميركيين بمثابة الواجب الديني المسيحي.وبهذه الطرق القذرة تقوم الصهيونية بتحويل الإنجيلية المسيحية إلى حركة صهيونية تحمل عقائد يهودية وتدافع عن اليهودية الصهيونية. وإن هذا الاّ استخفاف بالديانة المسيحية نفسها وتسخيرها في خدمة اليهودية.ومن هنا تبرز أهمية المسيحية العربية وصمودها في وجه تلك الأخطار وبقائها شاهداً عالمياً على أفك الصهيونية.

الإبادة عقيدة دينية عند اليهود

الابادة عقيدة يهودية توراتية تتمثل بإبادة القربان وحرقه حرقاً تاماً لتقديمه للرب كأضحية يهودية. وقد قام اليهود بتعميم هذه العقيدة والاستفادة منها كمبدأ ومنهج صهيوني لإبادة الشعوب الأخرى. لقد انطلقت فكرة الإبادة كشعار تهديد وفعل من قبل اليهود أنفسهم مع بداية الحرب العالمية الثانية. وظلّت تلك الفكرة تتفاعل وتنمو في الذهن اليهودي حتى أصبحت نتاجاً فكرياً وفلسفياً تم نشره في الأوساط الغربية.

ولم تكن الإبادة بدعة نازية كما يعتقد البعض. بل كانت أداء غربياً عاماً تورط فيه اليهود أنفسهم ونظّروا له من قبل أن تقع الحرب العالمية.وهو مارأيناه في فكر الحلفاء ومن خلفهم المنظمات الصهيونية الضاغطة. ولم تحدث أية أعمال إبادة لليهود في ألمانيا، بل أبيد حوالي خمسين مليون من الأوروبيين في تلك الحرب. وقد ابتدع اليهود تلك الأكذوبة لأنها تتفق مع عقيدتهم، ولأنهم يعتقدون بأن يوم الميعاد اليهودي الذي يأذن به الرب لشعبه اليهودي بالعودة إلى أرض الميعاد، ذلك اليوم يتطلب تقديم أضاحٍ يهودية. فكذب اليهود على الرب وزعموا بأنهم قدّموا أضاحي من شعبه المختار وأحرقت الأضاحي في الأفران طبقاً لرغبة رب اليهود.(راجع كتاب الهولوكوست المحرّم)

تصدير الأساطير الصهيونية

منذ نشوء الحركة الصهيونية وهي تعتمد على الفكر الأسطوري وتحاول بثّه في المجتمعات العالمية. فالزعم بضرورة عودة اليهود إلى أرض فلسطين كان يقوم على مبدأ أسطوري يقول بأن عودة اليهود ومن ثم إبادتهم بالكامل سيمهد الطريق لعودة ظهور المسيح. ورغم زعم الغرب بإيمانه بالعلمانية المطلقة فقد تجاوب مع الأساطير الصهيونية آنذاك. ومنذ قيام دولة إسرائيل وهي تقوم بنشر الفكر الأسطوري في المجتمع الغربي. ونلاحظ ذلك على كافة المستويات.

تسميم العقل الغربي بعقيدة الإبادة

إن الابادة كعقيدة ومفهوم وواقع ديني وعقيدي كانت ماثلة في الذهن اليهودي منذ بداية القرن التاسع عشر على الأقل.

وإن نشر عقيدة الإبادة كمبدأ كان همّ الصهيونية. الأمر الذي اعتقدوا بأنه القادر على انتشالهم من حوثلتهم. ومن المقام الركامي الذي ظلّوا فيه طوال أربعة آلاف سنة.

وعندما ظهر هتلر ساهم اليهود في توليد النزعة العرقية الألمانية، وتلك النزعة جعلته يخطط لتطهير العالم من الفساد، فكانت الحرب الجحيم.

فقد ظهرت في أوروبا نزعة إبادية عامة على أيدي مفكرين وفلاسفة يهود. وكانت تلك النزعة تحمل عقائد تدميرية إبادية تتفق مع تصور اليهود للكون والمجتمعات وتختلف مع التصور المسيحي المتسامح. وقد ساهمت الظروف العامة في نشر تلك الأفكار والتصورات وشيوعها في الغرب كله.

فلسفة الإبادة خدعة صفعت المجتمع الغربي

الإبادة كمبدأ وفكر فلسفي وممارسة واقعية ليست جديدة على الغرب. بل إنها قديمة فيه. فقد مارس الغرب الإبادة في زمن الرومان واليونان، وفي العصور الوسطى، وفي الحربين العالميتين، واليوم هو يمارسها في العراق وأفغانستان وفلسطين.

ومما لاشك فيه هو أنّ أول فكر إبادي عرفه التاريخ المنقول هو فكر العقائد اليهودية الذي يتمثل بإبادة الأضحية، وإبادة الآخر. ففي التوراة المتوفرة اليوم نصوص كثيرة تأمر بالإبادة وتروي قصص إبادة عنصرية بشعة.

تدلّ الأحداث الكثيرة والخطوات التي ينتهجها الغرب اليوم على وجود رغبة كبيرة وسعي للإبادة الفعلية. فالتسلح الكبير في المنطقة والذي يغذيه الغرب والولايات المتحدة بالدرجة الأولى ينمّ عن وجود مخطط إبادي شامل عند هؤلاء

المعتدين. كما نسمع كثيراً عن أعمال جنود أمريكيين يمارسون الإبادة في العراق، فمن أين تولّدت هذه الأعمال القذرة؟ انتهج الغرب فلسفة وفكراً عاماً أبعد المواطن عن مسيحيته الديانة السمحاء، وجعله يبرر القتل والتدمير والإبادة. واستخدم الغرب تلك النزعة في حروبه العدوانية وفي احتلاله لأراضي الشعوب الأخرى بدءاً من غزوه للعالم الجديد وإبادته للهنود الحمر مواطنيه الأصليين،

لقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبنت منظومات أخلاقية مطلقة، تتبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/المادة، وأنه سابق عليها، وله معياريته ومرجعيته وغائيته الإنسانية المستقلة عنها. وإن هذه الفلسفة المرحلية تتفق مع المفاهيم اليهودية لعقيدتهم. ولذلك فقد تبنتها الصهيونية ظاهرياً.

ثم تطورت هذه الرؤية الإنسانية المادية من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان والطبيعة ومن خلال تَصاعُد معدلات الحلولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد ـ السياسة ـ الفلسفة ـ العلم) عن المعيارية والمرجعية والغائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقيته وأسبقيته على الطبيعة/المادة وتحوَّل إلى جزء لا يتجزأ منها وأصبح هو الآخر مادة، منفصلة عن المرجعية والغائية والمعيارية الإنسانية وأصبحت هذه علمانية شاملة.

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية.

ومن ثم تَحرَّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم الإنسانية جمعاء أو صالح الإنسانية، كما تحرر من القيم المطلقة مثل المساواة والعدل، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته، وقانون ذاته، ومعيارية ذاته، وغائية ذاته، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوّل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرَّفه هو. وبذا تحوَّلت الإنسانية الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية، وثم جاء تقسيم البشر إلى نوعين وهما

الإنسان المسيطر والمهيمن والآخر المسيطر عليه. ويطلق الدكتور عبد الوهاب المسيري عليهما اسمي السوبرمان والسبرمان.

- الإنسان المسيطر والمستبد والإمبريالي الذي يحق له أن يتحكم في كل البشر والطبيعة، وهو ماأطلق عليه المفكر المصري عبد الوهاب المسيري تسمية السوبرمان.

- الإنسان الذي فرض عليه أن يبقى دون البشر وهو أداتي ومن المفروض أن يذعن لإرادة السوبرمان ولقوانين الطبيعة والمادة.وهو ماأطلق عليه المسيري تسمية السبرمان.

وهذا مايلخص نظرية النفعية الداروينية وهي المنظومة التي تذهب إلى أنه من يمتلك القوة له الحق في أن يوظّف الآخرين لخدمة مصالحه، فكان يُشار إلى البشر باعتبارهم مادة بشرية يمكن توظيفها، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة غير نافعة» وترد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل الصهيوني ماكس نوردو وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هيرتزل دولة اليهود).

وقد استمد كل من ماكس نوردو وهيرتزيل فلسفة الانتقائية والإبادة من العقيدة اليهودية نفسها بل إنهما لم ينتجا إلاّ شروحاً حديثة للنصوص التوراتية وفلسفة حديثة مبنية على الأسس العقيدية اليهودية. فكان نتاجهما في الحقيقة نوعاً من الرؤية اليهودية الحديثة للمجتمع والكون.

وكان يتوجب على الغرب المسيحي ألاّ ينجرّ وراء تلك الفلسفة الإبادية لأنها لم تكن تتماشى مع عقيدته المسيحية الإنسانية. وبالمقارنة مع ماأنتجه ابن رشد من فلسفة شارحة للإسلام ومتوافقة مع الإسلام والمسيحية مستفيداً من نتاج الفكر اليوناني الغزير، ونكتشف البون الواسع بين هذين النتاجين. فقد ساهم ابن رشد في تطوير الفلسفة والمجتمع المسيحي وساهم في تعظيم الإنسان ونشر قيم الإنسانية جمعاء. ثم وجاء اليهود ليهدموا بعض مابناه فيلسوف الإسلام تحت شعارات فلسفية حديثة..

ونلاحظ أن كل المصطلحات الفلسفية اليهودية كانت تُضمِر البُعدين الإمبريالي والأداتي، الداروني والبراجماتي، وجعلت الإنسان مادة تُوظّف.

وإن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية. فالسوبرمان والسبرمان ينتميان إلى عالم وثني حلولي كموني وما هذا العالم الا يهودي توراتي. إذ لم يكن على الإطلاق من نتاج المسيحية المفعمة بالإنسانية ولا من نتاج الإسلام الذي هو موضوعه الإنسان.

إن الفكر الإبادي اليهودي والعنصرية تجاه الأغيار وعقيدة وجوب إبادة الأغيار كلها مصطلحات دينية يهودية تم تطويرها بعد عصر النهضة الأوروبي وجعلها مدارس فكرية وفلسفية ومذاهب وحقائق اجتماعية.وبالحقيقة وللتاريخ نقول قام اليهود بتسميم العقل الأوروبي وتحميله مبادىء الإبادة وتقسيم البشر إلى السوبرمان والسبرمان.

وبمقارنة بسيطة بين المصطلحات الغربية الطارئة على الإنسانية وبين مايعادلها في نصوص العهد القديم نكتشف خلفية وعمق اللعبة الصهيونية:

سوبرمان: يعني في المفهوم الغربي الحديث الإنسان الذي يستحق العيش والذي يحق له تدمير ممتلكات الغير وإبادة الغير واكتساب عمل وممتلكات وحقوق الغير لنفسه. وحسب العقيدة اليهودية فإن اليهودي وحده يستحق أن يعيش وتبيح له نصوص العهد القديم والشريعة التي يؤمن بها أن يقوم بإبادة الغير وبتدمير أملاكه ومحاصيله واغتنام أرضه وممتلكاته بل وإبادته وحرقه. ويعتبر الغير عند اليهود مادة غير بشرية ويجب التخلص منها وإبادتها. وإن كل العقيدة اليهودية تقوم على أساس أن اليهودي هو الذي اختاره الرب من بين البشر، أي أنه السوبرمان.

سبرمان: وأصبح معناها في المصطلح الغربي الإنسان الوضيع الذي لانفع منه ويجب إبادته أو اكتساب جهده. وإن صورة هذا التعريف نفسه نجدها في العقيدة والنصوص اليهودية، فكثير من تلك النصوص تعتبر غير اليهودي غير إنسان وتجمله مع البهائم وتحرّض اليهود على إبادته وتنظيف الأرض منه. وإن اليهود قد صدّروا هذا المعنى منذ عصر النهضة واستطاعوا تسميم العقل الغربي به، وتضليله بشعارات

فلسفية وبمدارس فكرية. حتى أصبح حقيقة إبادية في الحربين العالميتين وفي أفريقيا وفي القارة الجديدة. إذ اعتمد العقل الغربي على هذه المبادىء أثناء قيامه بأعمال الإبادة. بل وكانت خاتمة كل تلك الأحداث ادّعاء اليهود أنفسهم بأنهم تعرضوا للإبادة وبنفس الوقت قيامهم هم حين أصبح لهم كيان بأعمال إبادة مهوّلة ضد الشعب الفلسطيني وغيره من العرب والمسلمين.وقد ظل هذا المفهوم للنفس البشرية وهو السائد عند الغرب حتى يومنا هذا ، ونلاحظ ذلك في أعمال القتل العشوائي الذي يمارسه جنود الغرب في أفغانستان والعراق وفلسطين.

ورغم تواري المصطلحات التي تُعبِّر عن المفهوم بشكل متبلور فمازال العمل بهذا المبدأ قائماً حتى يومنا هذا . ففي العراق قذف المدنيون بقنابل تحوي يورانيوماً مخصباً وفي لبنان أعلن خبراء بريطانيون أنهم اكتشفوا اليورانيوم المخصب في مخلفات القنابل التي رمتها إسرائيل على المدنيين اللبنانيين. كما أن الصهاينة مارسوا فيه أعمال إبادة واضحة لاخلاف على وصفها بالإبادية ، ومن ذلك مذبحة صبرا وشاتيلا ، وإبادة المئات المتحصنين داخل مركز الأمم المتحدة. وماهذه إلا أعمال إبادة حقيقية. وفي الحرب اللبنانية الأخيرة رمت اسرائيل ملايين الألغام الصغيرة في جنوب لبنان. ثم استمرت في رمي بالونات غازية خانقة قتلت عدة أشخاص. وداخل فلسطين المحتلة احتج السجناء الفلسطينيون على جعلهم حقل تجارب مخبرية. حيث أجبروا على تناول أدوية مجهولة بغية معرفة نتائج تأثيرها على البشر. وأعلن عن ذلك في أواخر العام ٢٠٠٦.

ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي ، ولن ينتظر الفرد الغربي فردوس الله. وهذا مايخالف الإسلام وعقائده ، وتُعلَن نهاية التاريخ والإنسان. وبالطبع كان المتطرفون اليهود أول من أعلن بوضوح كبير عن هذه الرؤية الخطيرة ، فقد اعتبر بعض اليهود أن حدث المحرقة كان نهاية التاريخ اليهودي ونهاية وجود الرب نفسه الذي لم يعد هناك مبرر لوجوده حسب فلسفتهم. ورأى بعض فلاسفتهم أن الرب قد أحرق مع شعبه اليهودي داخل المحرقة النازية ولم يعد موجوداً.!.

وقد بـرّرت هـذه العقائـد الجديـدة للإنـسان المتـسمم بهـا أن يرتكـب المجـازر والمذابح وأن يرتكب كل المحرّمات ومن هنا كان انتشار ظاهرة الإباحية الجنسية عند اليهود في بداية الأمر ثم انتقلت إلى مسيحيي الغرب. فقد أطلقها العقل المتطرف اليهودي وسمم بها العقل المسيحي الغربي. وضمن هذا الإطار ظهرت في الغرب أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) وكلها ذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم. لكنّ تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة، وضع الغرب أمام معضلة جديدة فلم يَعُد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني وبنفس الوقت لم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي. وتلك المعضلة كانت تهدد اليهودية بالدرجة الأولى وتؤدي إلى اضمحلالها في المجتمع المادي العلماني. ومن هنا انطلقت الحلول اليهودية الصرفة .وطُرحت الأساس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيف أبناء المجتمع. وكان هذا الطرح يتناسب مع اليهودية التي تعتبر العرقية واحدة من أهم أركانها. وهنا لابد لنا من ذكر ماحصل في شمال العراق، فقد دعم المحتل الأمريكي قيام كيان كردي مستقل على أساس عرقي في شمال العراق. وتم منحه كافة الصلاحيات التي تجعل منه دولة مستقلة مادياً وعسكرياً وأقليمياً. بل تجرأ الأكراد على بيع البترول من مناطقهم وقبض أثمانه ، ثم بدؤا بطرد العرب من الموصل. وماكان لهذا أن يحصل إلا بعدما فرض الأمريكيون والصهاينة مباديء العنصرية والعدائية والطائفية في المنطقة.

ومع تَصاعُد معدلات العلمنة في الغرب ظهرت كذلك فكرة الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها. وقد جاء هذا المبدأ متفقاً أيضاً مع الصهيونية، التي سعت بواسطته لاحتلال أرض فلسطين. وتم قبوله في الغرب رغم أنه يخالف العلمانية الحديثة كلها، لأنه هو الذي سيبرر للصهاينة امتلاك أرض فلسطين باعتبارها الرابط العضوي لهم. وعندما تمّ إفراغ المواطن الغربي من الديانة المسيحية فإنه لن يظلّ بدون عقيدة بل هو يسعى لاعتناق

عقيدة دينية تملأ فيه الفراغ الفطري الإنساني. ومن هنا كان اتجاه الغربي نحو الإسلام. فيصبح الأذى الذي صنعته الصهيونية في الفكر المسيحي الغربي سبباً لانتشار الإسلام كفكر يصلح كلّ التشوهات التي أحدثتها الصهيونية. واليوم تنشر الصهيونية عقيدة مشوهة أخرى وهي المسيحية الصهيونية، ويكثر أتباعها في الولايات المتحدة على وجه الخصوص. وبنفس الوقت فإنها ستكون عاملاً جديداً وسبباً اضافياً في البحث عن العقيدة الصحيحة، وعندئذ سيكون الإسلام هو الدين البديل الذي سيختاره أولئك التائهون والضالون.

نشر المبدأ الإبادوي

لم يعرف تاريخ شعوب العالم كلها فكراً ومبدأ ابادياً مثلما عرفه اليهود. فهم وحدهم الذين اختصّوا بالاعتقاد بالإبادة والتحدث بها، فلأنهم كشعب وعرق يحملون هذا المبدأ وهم كيهود يثبتونه في نصوصهم التوراتية. ولأنهم يحرقون الأضحية ويقومون بإبادتها وتحويلها إلى رماد، ويعتقدون بأن الرب أمرهم بذلك فهم يسحبون مبدأ الإبادة على الغير ليصبح ممكناً تحقيقه على البشر جميعاً. هذا إضافة إلى أنهم يعتقدون بأن الرب أمرهم بإبادة شعوب كثيرة في نصوص العهد القديم. فهم يمارسون طرق إبادة مستمرة على الشعوب الكثيرة دون رادع أخلاقي أو حضاري. ففي جنوب لبنان قامت قوات اسرائيلية عدة مرات بتدمير مراكز وآليات وبقتل جنود تابعين للأمم المتحدة.رغم أنّ هؤلاء لايشتركون في الحروب معها وفي فلسطين المحتلة قتلت اسرائيل عدة مرات مراسلين وغربيين رغم حيادهم الواضح.كما إنّ نشر الفكر الصهيوني وفلسفة الإبادة على حساب المسيحية ماهو إلاّ مشروع لإبادة المسيحية نفسها.

وكانت صورة الإبادة تتجلى باستمرار في كافة النتاجات اليهودية اليومية. ومنهم انتقلت إلى المجتمع السياسي الغربي، وكان ذلك بفضل الاحتكاك الكبير بين يهود أوروبا وأبناء الغرب المسيحيين. كما وساهم المفكرون والفلاسفة اليهود في نشر مصطلحات ومفاهيم الإبادة في الذهن الغربي المسيحي. وفي القرون الأخيرة

تشرب الغرب هذه المبادئ، وتبناها واعتمد عليها كمبرر في تنفيذ أعمال إبادة إجرامية عديدة رغم أنها تخالف عقيدته المسيحية السمحة. وتخالف قيمه الحضارية التي ينادي بها.وبسبب ذلك المدّ الفكري الصهيوني أصبح الغربي يمارس الإبادة تلقائياً وبدون أيّ رادع أخلاقي أو ديني أو حضاري، ومن هنا نفسّر جرائم الإبادة الحقيقية التي يقوم بها جنود أمريكيون في العراق وأفغانستان. ففي هذا اليوم بالذات٢٠ آذار ٢٠٠٧ أعلن عن محاكمة جندي أمريكي لقتله عشرة مواطنين سجناء عراقيين دون سبب. وعندما أصبحت الابادة ممارسة يومية في العراق كان لابدّ من انتقال عدواها إلى العراقيين أنفسهم، فأصبح الجندي العراقي الذي يحضر أعمال الإبادة على يد الأمريكيين أصبح يقوم بها وأيضاً بدون رادع ديني أو وطني، لأن الأمريكي برر للعراقي القتل بدون وجود للرادع.ثم انتقلت تلك الحمّى إلى الميليشيات والأفراد وإلى الجماعات التي تحمل أيديولوجيات دينية إسلامية، فرغم أنّ الإسلام يحرم عليهم اغتيال المسجد بكلّ من فيه ومافيه، رأيناهم يجدون مبررات للإبادة، وهذا السياق الذي بدأ في الذهن الصهيوني والذي امتدّ ليصل في النهاية إلى الجماعات الإسلامية، يعكس الخطر الصهيوني على البشرية كلها.ويوجب علينا أن نحذر منه باستمرار.

ويستند الاستعمار الاستيطاني الغربي أيضاً إلى الإبادة، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد استخدم المستوطنون الجدد كافة طرق الإبادة البشعة في القارة الجديدة. كما أبادوا عشرات الملايين في قارة أفريقيا. كما ومارس اليهود أنفسهم عمليات إبادة كثيرة في الأراضي الفلسطينية التي اغتصبوها وفي لبنان .

ومن سمات مفهوم الإبادة الحديثة الذي أنتجته اليهودية، أنها ارتبطت بأيديولوجيات فكرية وسياسية منهجية، وأرادت تحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان، وهذه المفاهيم تبيح تحويل كل شيء ضمن ذلك الإنسان، إلى وسيلة. ومن ثم فهناك فارق

ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح وأعمال الجنود في المجتمعات التقليدية القديمة. وعن الإبادة العنصرية تحدث الباحث اليهودي الإسرائيلي إيلان بابية عدة مرات عن أعمال التصفية العنصرية والإبادة المتعمدة والمنظمة التي تمارسها الصهيونية في فلسطين وتسعى بواسطتها لتصفية العرب الفلسطينيين.

نشر الأسطورة في الثقافة الإسلامية

انتشرت في السنوات الأخيرة في المجتمع العربي عقائد وأفكار تحمل ظاهراً صفة الإسلامية، لكنها في حقيقتها لاتمتّ إلى الإسلام بصلة، وإنما هي أساطير من صنع الصهيونية العالمية، وإن هذه الأساطير إلا نوع من الأسلحة الموجّهة ضدنا.ويغفل من ينشر هذه الأساطير من مواطنينا ويدافع عنها بأنه بذلك يقوم بالدفاع عن الصهيونية نفسها.

وكلنا يذكر كيف قام الغزاة الأمريكيون وأعوانهم باقتحام متحف بغداد وبتدمير قسم من آثاره التي هي هوية العراق التاريخية، وقاموا بسرقة كنوزه بهدف تجريد العراق من ثقافته التاريخية ومن هويته العريقة. وما ذلك الفعل إلاّ جزء من المشروع الصهيوأمريكي الذي يسعى لتجريد العراق من ثقافته وعلمانيته وفكره. وإحلال ثقافة الأسطورة الخرافية محلها.

مسرحية تكشف جرائم الغرب ضد المسلمين

تعرض في مسارح الغرب مسرحية بعنوان (ماركس في سوهو) لمؤلفها "هوارد زين" وهي تكشف سرّ استخدام الأمريكيين للأسطورة الصهيونية، في حربهم ضد العراق والبلاد الإسلامية. وتشير في الوقت نفسه إلى التحالف الأمريكي الصهيوني التام في الإعداد لمعركة مقدسة صهيونياً، ولاتخدم الا الصهيونية وحدها.

الفصل الحادي عشر

ضرورة تجديد الفكر الإسلامي

دعوة لتجديد الفكر الإسلامي

إننا اليوم في وضع شديد الدقة والمسؤولية، والواجبات التي تنتظرنا جسيمة، فالعالم كله ينتظر في كل لحظة ماسيفعله المسلمون. والعالم يخاطبنا اليوم بطرق شتى وبأفواه وبأساليب كثيرة للغاية. فلا وقت للتأني ولاوقت للانتظار، فالعالم كله والغرب بشكل خاص يحاكينا ويريد أجوبة ومواقف. فلم تعد المواقف التقليدية تكفي: كالمظاهرات التي تحتج على الرسوم أو على تصريحات البابا. وأصبح لابدّ من مواقف فكرية وحوارية وثقافية تشمل كافة المجالات التي نتصورها. فعندما يخاطبوننا بالرسوم المضحكة يتوجب علينا أن نخاطبهم بنفس الطريقة وبرسوم مضحكة تكون بمستوى أفضل وفي صحافة غربية أكثر انتشاراً وبلغة أكثر عمقاً وبفنية أكثر براعة. وعندما يخاطبوننا بواسطة السينما أو المسرح لابد من الرد عليهم بواسطة السينما أو المسرح الغربيين، وفي ذلك لابد من امتلاك القدرة على الإبداع والصناعة الفنية والفكرية والمسرحية. وإذا كنا لانمتلك المنفذ الذي هو مسرح وسينما وصحيفة توجب علينا أن نشتري تلك الوسائل التي هي مشاريع تجارية. مسؤوليتنا كبيرة للغاية ونحن مازلنا نائمين وكأننا نقول " للبيت رب يحميه". ولدخول تلك المجالات كافة لابد لنا بداية من أن نطور أنفسنا. فكيف ندافع عن الإسلام ونحن لانفهم الإسلام نفسه؟ وكيف ندافع عن الإسلام وفينا من يخلط بين التراث والعادات من جهة والإسلام من جهة أخرى. ثم كيف نخوض هذا التحاور العالمي الذي انفتح علينا فجأة ونحن ليس فينا من نعتمد جميعاً بأنه الناطق باسم الإسلام. ثم كيف لنا أن نخاطب الآخر الذي هو ليس مسلماً ونسعى لتعريفه بالإسلام فيما كثير منا مازالوا يكفّرون مسلمين مؤمنين وأتقياء. ومن بيننا انتحاريون يريدون دخول الجنة في أداء عمل انتحاري يقتلين به مسلمون يؤدون الصلوات والعبادة في مساجد إسلامية.؟؟

لقد انفتح أمامنا باب الحوار المشاكس على مصراعيه. وليس أمام أحدنا ثانية واحدة لترتيب أوراقه، فقد تأخّر المسلمون كثيراً عن اللحاق بهذا الركب، وأصبح من الحماقة اتكال كل مسلم على الآخر وترك مسؤولية المهمة للآخرين. فالدفاع

عن الإسلام مسؤولية جميع المسلمين. والحوار المفيد والمثمر مسؤولية الجميع. ولنكون محاورين فاعلين لابد لنا من فهم إسلامنا بعيداً عن الموروث والعادات والخرافات.

نتفق جميعاً على الثوابت في الإسلام وندعو لكسر الجمود الفكري المتشدد الذي يعيق تطورنا. هذا الجمود الذي يتجلى في مظاهر كثيرة نذكر بعضها:

- يمنعنا من التحاور المفتوح مع الآخر.
- يعيق تطورنا الفكري وبالتالي يعيق فينا أي تطور تسعى إليه الأمم والشعوب.
- يعيق فهمنا لذاتنا ولديننا وفهمنا للآخر.
- يعيق فهم الآخر لنا.
- يجعلنا نحافظ على ثوابت ونقيمها كإيقونات فكرية لايمكن تجاوزها.

القرآن عربي والإسلام بكل اللغات

لقد أثبت الإسلاميون الأتراك بأنهم أقدر وأجدر من نظرائهم العرب على صناعة وقيادة نهج فكري إسلامي معاصر. ومثلهم تميّز كل عرق من المسلمين غير العرب بميزات دون غيرهم من المسلمين جميعاً.

يحمل العرب نزعة العروبة في الإسلام نفسه، ويعتقد العربي المسلم بأنه هو المحافظ على الإسلام وأنه عقل الإسلام ومركز الإسلام ونواة نشر الإسلام ، ومركز الدفاع عن الإسلام. وأتصور أنه عندما يلتقي عربي وصيني مسلمان يكون العربي معتقداً بأنه سيعلّم الصيني اركان إسلامه وأنه سيوضح له الكثير من المعارف الإسلامية التي تنقصه. وعندما يلتقي عربي بباكستاني مسلم يكون شعور العربي أيضاً بأنه هو العارف والعالم بالدين والناشر والداعي للإسلام والمحافظ على دين الله. وسيقوم بنصح هذا الباكستاني. لكن الحقيقة ليست كذلك دوماً. ففي باكستان تنتشر المدارس الإسلامية بشكل كبير للغاية لدرجة لانتصورها نحن. وإن نظريات في فهم الإسلام وتطوير مجتمعاته جاءتنا من باكستان، وإن أجمل أبيات الشعر الإسلامي سمعناها من الباكستاني محمد إقبال. وعندما كان فلاسفة

الإسلام الباكستانيون يبحثون في تطوير المجتمعات الإسلامية وتسييسها كان قسم كبير من المسلمين العرب في درجة ثقافية لاتمكّنهم من فهم تلك النصوص الفلسفية الحديثة. وعندما يتعرض الإسلام إلى انتقادات أو اعتداءات نجد الباكستانيين والإيرانيين والأندونوسيين والأفغان والهنود يتظاهرون ويستنكرون الحدث أحياناً قبل أن يشعر العرب المسلمون به.

وعندما يتملكنا الذهول والإعجاب بالمسلمين الباكستانيين يتوجب علينا أن نتذكر أن فيهم مذهباً سنياً ومذهباً شيعياً ومذهباً إسماعيلياً، وفي هذه اللحظة يتوجب علينا أن نستمر في إعجابنا بهؤلاء جميعاً وبنتاجاتهم الإسلامية وحرصهم على الإسلام وبعظمة هذه الشعوب.

إن الذي نبهنا إلى شر (سلمان رشدي) هو الإمام الخميني رحمه الله الذي لم يكن عربياً.

إن انتماءنا للّسان العربي الذي نزل فيه القرآن الكريم يجعلنا قادرين على قراءة القرآن بيسر وسهولة وهذا كل شيء نمتلكه بانتمائنا العربي، فهذا الانتماء لايجعلنا بالطبع مميزين عند الله ولايجعلنا أرفع درجة ، ولايكسبنا الجنة قبل غيرنا من شعوب الأرض. بل إن أعمالنا الصالحة هي التي تؤهلنا للدخول إلى الجنة.

إن عدد المسلمين العرب لايزيد عن ١٠ ٪ من عدد مسلمي العالم ، وبهذا نصبح نحن العرب الأقلية بالنسبة للمسلمين غير العرب.

لنفرض أن لك صديقاً أوروبياً وأنك بفضل عقيدتك استطعت أن تقنعه بالإسلام، فكم ستكون سعادتك كبيرة عندما يشهر إسلامه ويشكرك على تعريفه بالإسلام ؟!

إننا حينما نكسب مسلماً واحداً تعمّ فينا البهجة والثقة ويزداد إيماننا. فكيف يقوم البعض برفض الاعتراف بشعوب مسلمة لاتنتمي إلى مذهبه ؟؟ وكيف يجرؤ أحد المسلمين بأن يخرجهم من الإسلام كله ؟؟. إن إطلاق صفات (الفرس والصفويين) على الإيرانيين ، ورغم اتسامها بالطائفية، فهي تحمل في طياتها مشاعر التفوق العربي ، وعقدة أحقية العرب في الإسلام وفي فهمه. لكن الرسول محمداً

عليه السلام ورغم أنه كان عربياً فهو لم يكن رسولاً لنا وحدنا. بل كان رسول الإسلام للبشرية كلها. والقرآن الكريم ليس مخصصاً للعرب دون غيرهم بل هو قانون للبشرية جمعاء. فالآيات القرآنية الكثيرة التي تخاطب الناس في قوله عزّ وجلّ: " ياأيها الناس" هذه الآيات موجهة لبني البشر.

تحييد اللاإسلامي من الموروث الثقافي

لقد دخل على الفكر الإسلامي موروث كبير دخيل على ثقافة شعوبنا، ومع مرور الزمن امتزج هذا الموروث بالفكر الإسلامي الأصيل، ونتج عن هذا المزج فكر جديد يعتقد غالبية الجمهور الإسلامي بأنه فكر إسلامي رغم براءة الإسلام منه. وهذا الموروث الكبير ظاهر وواضح عند المسلمين، وتنتج عنه مساوئ كثيرة تضر بالإسلام والمسلمين. فالموروث الدخيل على الإسلام يشكّل ضرراً وخطراً على الإسلام والمسلمين، ولعلّ الجهاد في تحييد هذا الموروث، عمل كبير وضرورة ملحّة، فإن تعقيم الإسلام من تلك الشوائب الفكرية يعيد إليه النقاء والصفاء والصورة الصحيحة التي يريدها الله لهذا الدين. وإن فلترة الإسلام من تلك الشوائب هي أهم خطوة في أي عمل إسلامي. لقد مرت المسيحية بمراحل تاريخية عديدة وكانت في تلك المراحل تتعرض لتغييرات وانقلابات فكرية وعقيدية، وكانت ليّنة مطواعة أمام ظروف التغيير الخطيرة، حتى غدت في النهاية مسيحية أخرى. لكننا نحن المسلمين حريصون على سلامة الإسلام من كل تغيير أو تحريف، ومن هنا يتأتى واجبنا في الجهاد الكبير الذي يقتضي فلترة الإسلام من الشوائب الدخيلة عليه.

اختلاط الموروث القديم بالمعرفة الإسلامية

عبر التاريخ الطويل اكتسبت الشعوب الإسلامية الكثير من العادات والمعارف والسلوكيات. واختلطت تلك عند بعض المسلمين بالمعرفة الإسلامية، فزادت كمية المحرّمات، وكمية المحظورات.واختلط الحرام بالمعيب وبما يعتبر عادة سيئة، فمنذ

عقود قليلة كانت القهوة محرّمة عند بعض المسلمين ذلك لأنها عيب، ثم زال عنها العيب والتحريم مع مرور السنين وتطور الوعي العام.

واجب العمل الإسلامي الفردي

لأسباب عديدة تبرز اليوم ضرورة العمل الإسلامي الفردي البعيد عن الارتباطات والشبهات والمغامرات والبعيد عن التطرف والطائفية. ونقصد بالعمل الإسلامي الفردي هذا تركيز الفرد على ثقافته الإسلامية وتوجيهها توجهاً سليماً وتحقيق الإصلاح الذاتي، وإبعاد شبح التطرف والطائفية عن النفس وعن المجتمع.وسيحقق عمل الفرد بمفرده نتائج مذهلة في المستقبل ، حين لايجد دعاة التطرف آذاناً تصغي إليهم، ولاشك أن في بغداد التي عانت من الطائفية أفراداً التزموا بالاستقلالية ولم ينتموا إلى جماعات وحركات. وظلّوا يقومون بجهود فردية ويحولون دون استفحال الصراع الطائفي، وأنهم هم وحدهم وبجهودهم الفردية يقومون بإنقاذ الأمة الإسلامية من خطر كبير.

الإسلام لايساوي المسلمين

بالنظر إلى الحجم الكبير للثقافة الموروثة، وانطلاقاً من الأخطاء التي يرتكبها بعض من المسلمين، وابتعادهم عن الإسلام نستطيع القول بأن الإسلام لايساوي المسلمين، أي أننا لايمكن أن نعتبر أن المسلمين المعاصرين يشكلّون صورة حقيقية عن الإسلام. وبذلك تظلّ صورة الإسلام في الإسلام نفسه. وهذا المصطلح نفسه يمكن تطبيقه على المسيحية فنقول المسيحية لا تساوي المسيحيين. وبواسطة هذا التطبيق نكثر من أهمية ابتعاد الغرب عن المسيحية. وبالتالي نطالب بدعوته للإيمان المسيحي أو لاعتناق الإسلام.

السلفية من الحركة الوهابية إلى الرؤية العالمية

كانت السلفية في منشئها حركة إصلاحية تسعى لتصحيح فهم الدين والالتزام به، وهي أقرب إلى مدرسة دينية وليست جماعة أو تنظيماً، ولكنها بدأت في مراحل لاحقة تأخذ طابعاً تجمعياً وإن لم يكن تنظيمياً، وتحرص أيضاً على تقديم نموذج في التدين والسلوك والفهم والتطبيق، لكنها مرّت بمراحل عديدة حيث تبدلت وتعدّلت قراءاتها الدينية. فبعد اكتشاف النفط وزيادة أسعاره والتطور الاقتصادي والعام الذي حدث في الخليج، زادت أهمية السعودية والدول الخليجية وتأثيرها في العالم. وصاحب النشاط الدولي والإقليمي لهذه الدول نشاط إسلامي يستخدم المؤسسات والمراكز الثقافية والإسلامية والمدارس والمساجد والمنظمات. وبهذه الطريقة امتد الفكر السلفي من الجزيرة العربية إلى معظم أنحاء العالم وبخاصة الدول العربية والإسلامية. وظهرت في السعودية حالة إسلامية متنامية منذ أوائل السبعينات، وكانت حالة تنتمي إلى مدارس وتيارات عدة، إخوانية وسلفية.

ولكن هذا المد الإسلامي رافقته حالة من التشدد والتعصب الذي وجد له أتباعاً ومؤيدين في السبعينات.وفي أواخر العام ١٩٧٩ احتلّت جماعة متشددة ومسلحة بقيادة جهيمان العتيبي المسجد الحرام في مكة المكرمة، ودخلت في مواجهة مسلحة مع القوات المسلحة السعودية. وانتهت بالقضاء التام عليها وبتكفيرها. وظهرت أيضاً حالات أخرى من التعصب والمواجهة غير المسلحة مع المجتمع والدولة، فقد حرّم بعضهم الصور بكل أشكالها حتى ما كان منها على جوازات السفر والبطاقات والأوراق النقدية، وقاموا بإحراق محلات الفيديو.

وشهد عقد الثمانينات تحولاً كبيراً ومهماً في مسار السلفية وهو المقاومة الإسلامية للحكم الشيوعي في أفغانستان والقوات السوفياتية التي دخلت أفغانستان.

وتدفقت التبرعات وأفواج المتطوعين إلى أفغانستان، وتكونت في باكستان وفي أفغانستان جماعات إسلامية مسلحة متشددة امتدت من هناك إلى أوروبا والولايات المتحدة وأفريقيا وسائر أنحاء العالم.

وفي السعودية تشكلت مجموعات إسلامية كثيرة معارضة تنتمي إلى مدرسة الإخوان المسلمين أو حزب التحرير، وخرج بعضهم إلى بريطانيا لممارسة دور إعلامي وسياسي معارض للسياسات والمواقف السعودية، مثل الفقيه والمسعري.

وتشكلت مجموعات إسلامية سلفية جهادية تتوسل بالعنف، ونفّذت عمليات عسكرية ضد المصالح الغربية منذ منتصف التسعينات.

السلفية المعتدلة

يمتد التيار السلفي المعتدل ليشمل أفراداً وتجمعات وتيارات مختلفة، ولكن يجمع بينها العمل الإصلاحي والاعتدال النسبي. وقد استفاد هذا التيار في السنوات الأخيرة من توجه الحكومة السعودية للحوار وإتاحة المجال للنشاط الإصلاحي، وإن نسبة أتباع السلفية المعتدلة تزيد كثيراً عن السلفية المتطرفة.

السلفيون الجدد

ثم انقسمت السلفية وتعددت في أساليب عملها الفكرية والسياسية والتنظيمية، فقد نشأت جماعات تمزج بين الإخوان والسلفية، وأخرى تعيد تجميع السلفية التقليدية، وبدأت تشارك في العملية السياسية المتاحة كما في الكويت، أو تشارك فيها على نحو غير معلن، وامتدت السلفية أيضاً إلى حركات وجماعات إسلامية متشددة ومتطرفة هي في الأصل انبثقت من الإخوان المسلمين أو قامت بموازاتهم تسعى برأيها لاستدراك ما فاتهم أو ما قصروا في تنفيذه، وهي إجمالاً قائمة على أساس التعامل مع أنظمة الحكم في دول العرب والمسلمين، وهم ما يمكن تسميتهم بـ"السلفيون الجدد"، ومن هذا التلاحم نشأ شيء جديد ومختلف تماماً عن الجماعتين.ولذلك فإن تعبير السلفية لم يعد دقيقاً ولا محدداً ولا يصلح لوصف كثير من الحركات والجماعات والأفكار المنتسبة إلى السلفية، وهو في غالب حاله وتاريخه يصلح لوصف السلفية التقليدية التي عرفها العالم الإسلامي لفترة طويلة،

وإلى حد ما السلفية الإصلاحية التي تنتمي إليها أجيال من العمل المؤسسي والمنظم والممتد إلى السياسة ممارسة وفهماً.

الستراتيجية العالمية للإسلاميين

بتحليل خطابات وأعمال الحركات الإسلامية عموماً يمكننا قراءة هذه الاستراتيجية في منهاجهم، والتي تظهر كمشروع نظري وعملي، إذ يرى الإسلاميون عموماً أن الإسلام هو القادر على أن يطرح بديلاً للحداثة الغربية، التي أثبتت فشلها. وأن صمود الإسلام أمام محاولات القضاء عليه يشير إلى قوة وتماسك هذه الرؤية.فقد صمد الإسلام والمسلمون في يوغسلافيا في حقبين من الزمن، وانتصروا في المعركة الأولى مع السوفييت. كما صمدوا في البوسنة والهرتسك، وصمدوا في فلسطين ستين عاماً. وفي أفغانستان حقبين من الزمن.فطردوا السوفييت منها واليوم يقاومون الاحتلال الغربي. كما أن ثورات الشعوب العديدة ضد الاستعمار الغربي القديم، اتصفت كلها بالأسلمة وأثبت الجسد الإسلامي أنه لايمكن أن يهضم عند أي عدوان يستهدفه. وهذه التجارب تزيد من عزيمة الإسلاميين الجدد ومن قدرتهم على تصدير مشروعاتهم. وأن خلفية المواجهة بين الإسلاميين والعالم الغربي راجعة إلى تطور حقيقي داخل المركز الإسلامي، وهذا التطوريسعى لبناء مركز حضاري مستقل عن الغرب، وغير تابع له.ومن هنا كان حرص العراق السابق وإيران الحالية لامتلاك تقنية نووية. وتجلى هذا التطور بظهور حركات الإحياء الإسلامي وتنامي وعي متزايد لدى الجماهير الإسلامية بضرورة العودة إلى الإسلام. وهذا مايبرر ظهور الالتزام والوعي الإسلامي في الغرب كله وفي تركيا والبلدان الإسلامية الأخرى. وليس الغرب بغافل عن هذا المدّ الإسلامي الجديد، بل إنه يلمس حضوره الواضح، ويقوم بأعمال تهدف لإجهاضه. ولمنع قيام بديل حضاري إسلامي. ومن هنا كانت المواجهة التي نشهدها اليوم بين الإسلاميين والغرب كله.

إشكالية المذهب الواحد داخل الجماعات الإسلامية

بدأ العمل الإسلامي الحديث بمبادرات ومشروعات وأفكار ودعوات للنهضة والإصلاح والوعي الإسلامي و للتحرر والاستقلال ومقاومة الاحتلال العثماني، ثم الغربي. وقام بها مصلحون ومفكرون مثل محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وجمال الدين الأفغاني في مصر والدولة العثمانية، ومحمد عبده ورشيد رضا في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي في الشام، ومحمد بلحسن بلحجوي وعلال الفاسي في المغرب، وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي في الجزائر، وسعيد النورسي في تركيا، والطاهر والفضل بن عاشور في تونس، والمهدية في السودان والسنوسية في ليبيا والمريدون بقيادة الإمام شامل في القفقاس، والدهلوية في الهند وحركة دان فوديو في نيجيريا.

كانت الحركات والمشروعات والمبادرات والدعوات قائمة في بدايتها على إصلاح الخلافة والدولة العثمانية. ثم شغلت بمقاومة الاحتلال والاستعمار والعمل على التحرر والاستقلال، وانشغل بعضها بالنهضة والتقدم واستيعاب تجربة الغرب وتطوره كما في حالة رفاعة الطهطاوي.

ويعتبر جمال الدين الأفغاني مؤسس الحركة الإسلامية المعاصرة تلك المدرسة التي تتالت من بعده واستمرت حتى يومنا هذا، فقد تبعه تلميذه الشيخ محمد عبده. وقد أثّر الأفغاني في جيل كامل من المسلمين، وكان له نفوذ وتأثير في البلدان الإسلامية التي طاف بها (أفغانستان وإيران والهند وفرنسا ومصر والعراق وتركيا). وبالنظر للبلدان التي زارها محمد عبده ، وللجولة التي قام بها عموماً، وبزيارته لفرنسا، نكتشف سعة أفقه وعالمية فكره، واكتشافه لضرورة التبادل الحضاري وإيقاظ الأمة، وبالطبع كان يدعو للحوار المذهبي، وكان مشروعه يهدف إلى نهضة المسلمين جميعاً. وامتد تأثيره إلى رشيد رضا الذي كان لمجلته "المنار" صدى وتأثير في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان حسن البنا على صلة قوية برشيد رضا.ويمكن تلخيص المسار المتتالي لقيادة الحركة الفكرية الإسلامية على هذا الترتيب:

المرحلة الأولى: جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - رشيد رضا. وهؤلاء دعوا للصحوة الإسلامية عموماً وعالمياً، ولإصلاح الفرد والمجتمع عموماً، ولم يعملوا للإسلام السني فحسب.

المرحلة الثانية: وفيها ظهر حسن البنا- سيد قطب - عمر عبد الرحمن: في هذه الفترة تأسست جماعة الإخوان ككيان، وكان لها نظام داخلي، وانتشرت عند أهل السنة لأن منهاج التثقيف الديني الذي اعتمدته الحركة كان منهاج السنية الشائعة والمتوارث في المجتمع السني، أي أنه كان مشوباً بالصوفية. وقد استمرت الجماعة على هذا المنهاج حتى يومنا هذا. ويلاحظ أنه في هذه الفترة الزمنية قامت دولة اسرائيل وكان للحروب العربية الإسرائيلية تأثير على مسيرة الجماعة الإسلامية عموماً.فأصبحت أكثر تشدداً واتخذت مواقف سياسية متشددة من الحكومات العربية، واصطدمت عدة مرات مع بعض تلك الحكومات، فمنعت في سوريا. ومنذ ثلاثة عقود وحتى يومنا هذا لاتتمتع باحترام الشارع السوري، بل إنها تواجه بالاستنكار الشديد.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة أيمن الظواهري.الذي انشق عن جماعة الإخوان المسلمين، وضمّ جماعته ومنهاجه الجديد إلى حركة القاعدة، وجاءت هذه الظاهرة في زمن يئس فيه المجتمع العربي من عقم الصراع مع الصهيونية، وظهرت فيه الولايات المتحدة كعدو معلن وجديد للعرب والمسلمين. وهنا لابد من الربط بين هذه العوامل التالية:

- إن التشدد داخل الجماعة الإسلامية ظل يزداد باستمرار. حتى بلغ أقصى مرحلة له في القاعدة. ومن مظاهر التشدد عند القاعدة: السلفية في المنهج، ومعاداة المسيحية والشيعة المسلمين، ومعاداة الأنظمة العربية كلها،

- ارتبط التشدد الجديد بزيادة الأزمة والضغوط العالمية، فالصراع مع إسرائيل بلغ درجة العقم، ودخلت الولايات المتحدة كعدو جديد، وقد ازدادت الهوة والتناقض بين الجماعة الإسلامية والحكومات العربية نفسها، وبلغت حالة العقم في كثير من البلدان.

- إن تشدد نهج القاعدة بالشكل الذي نراها عليه يدل على سأم الحركات الإسلامية من طريقة العمل السابقة ومن النهج السابق لها والذي طال عمره وبلغ قرناً كاملاً.

يبدو الطابع الإصلاحي لجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا عام ١٩٢٨ قوياً وواضحاً، ثم شهدت فيما بعد تحولات كبرى أشبه بالاختطاف. فقد نصت أهداف الجماعة كما في قانونها الأساسي الذي أقر عام ١٩٤٨ على أن "الإخوان المسلمون" هيئة إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء بها الإسلام وما يتصل بهذه الأغراض: شرح دعوة القرآن الكريم، وعرضها وفق روح العصر، وجمع القلوب والنفوس على المبادئ القرآنية، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة، وتنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها، والعمل على رفع مستوى المعيشة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، والمساهمة في الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والفقر والمرض والرذيلة، وتشجيع أعمال البر والخير، وقيام الدولة الصالحة، ومناصرة التعاون العالمي، والمشاركة في بناء السلام والحضارة الإنسانية، وتحرير وادي النيل والبلاد العربية والوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي. ويعتمد الإخوان المسلمون في تحقيق هذه الأغراض وسائل الدعوة والتربية، والتوجيه والعمل بإنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية وعلمية وصحية وخيرية.

لم يكن الجميع قد تنبأ من قبل بأن نشهد يوماً صراعات طائفية داخل المجتمعات الإسلامية. وإلا فكانت تلك الحركات ستقوم بتحضير البلسم الشافي الذي يحتاجه المجتمع الإسلامي اليوم. فبعدما داهمنا خطر الطائفية بات من واجبنا جميعاً أن نبحث عن كل الوصفات التي توحّد مجتمعاتنا الإسلامية. ومما لاشك فيه وبسبب الأحداث الطائفية الأخيرة. فإن المنظومات الإسلامية كلها ستنتج في السنوات القليلة القادمة فكراً إسلامياً أكثر انفتاحاً على المسلمين الآخرين بل وعلى المسيحيين أيضاً.

ونلاحظ في المخطط التالي نقاط التحول في اتجاه الحركات الإسلامية: فقبل قيام الكيان الصهيوني في العام ١٩٤٨ كانت جماعة الإخوان أشبه بتظاهرة شعبية إصلاحية، ولم يكن لها أعداء وخصوم. ويبين المخطط تسلسل الحركات الإسلامية بشكل عام وصفاتها في كل مرحلة والعوامل التي تأثرت بها.

أهمية العلوم الحديثة

نشير هنا إلى أهمية العلوم الحديثة وضرورة تحصيلها إلى جانب العلوم الإسلامية أو الفقهية.ومنها علوم التربية وعلوم الآداب والنصوص وتحليل النصوص، وعلوم اللسانيات وتفرعاتها وتعامل اللسانيات مع النصوص. وعلوم التحقيق والسرد التاريخي، وعلوم الاجتماع وكل مايتفرع عنها، وعلوم السياسة وعلوم النفس والتحليل النفسي. إضافة لعلوم الفلسفة والطب والهندسة وغيرها.

وهذه العلوم يجري توظيفها في أغلب بلدان العالم ، وصحيح أن في مجتمعاتنا العربية متخصصين بكل هذه العلوم، لكن هؤلاء جميعاً يسخّرون نتاجهم بعيداً عن المؤسسة الإسلامية، مما يسمح لأفراد تلك المؤسسة أو الحركة الإسلامية وهم الذين يجهلون هذه العلوم، بأن يقحموا أنفسهم فيها، فيصبح الشيخ عالم طب وعالم كونيات ومحللاً للظواهر الكونية ولعلوم الفضاء، ومحللاً للمدارس الفلسفية كلها (اذ يستنكرها ويكفّرها في أغلب الأحيان). وعندما تحصل المؤسسة الدينية الإسلامية على فقيه في أمور الإسلام ومختص بعلم الاجتماع مثلاً سيقوم هذا باعداد برامج تربوية وتعليمية تتوافق مع الإسلام كدين ومع علوم التربية الحديثة والمتطورة. وبغياب هذا الفقيه المتخصص بعلم حديث يقوم الإسلاميون بتربية الأجيال وفق أنماط متخلفة لاتتناسب مع تطور العصر ولامع أنماط التربية المعاصرة فتأتي النتيجة بأفراد متخلفين أو متطرفين. فالمؤسسة الدينية مثابرة بكل نشاطاتها سواء أوكلها المجتمع ورضي عن أسلوبها أم لا، ففي كثير من البلدان العربية تقوم جماعة الإخوان المسلمين بمهمة التربية، وفي البلدان العربية والأوروبية ظهرت مدارس إسلامية تنشئ

الفرد وفق مناهج متخصصة بأمور الدين الإسلامي. وقد تفيد تلك التربية عند بعض الأفراد ومن المحتمل أيضاً أن تضر بمستقبلهم وتقودهم إلى التطرف والطائفية.

إنه من غير الممكن أن نطالب متحدثاً إسلامياً واحداً بأن يعطينا مواقف الإسلام من كل مشكلة أو قضية تظهر وتواجه المسلمين. وأن نجعله عالماً متخصصاً بكل أمور الكون، فمشكلة الرسوم الكاريكاتورية التي جاءت من الدانيمارك كان يتوجب مناقشتها أيضاً من قبل فنانين واختصاصيين بفنون الرسم وفنون الصحافة والنقد الفني، فإن للرسم دلالات كثيرة وتعطي مفاهيم وأبعاداً كبيرة له. إذ يستطيع الناقد الفني تحديد عناصر وأفكار ومعانٍ للرسم نفسه لم نجرؤ نحن جميعاً على التفكير أو الخوض بها.

الحاجة لتوظيف العلوم الحديثة

هنا تبرز ضرورة تخصص كل شخص يحمل سمة الشيخ أو عالم الدين، أو المتحدث بالدين بنوع من العلوم. وضرورة أن يحمل هذا الشيخ صفة علمية إضافية ليتكلم ويحكم من خلالها، فنقول عن المشايخ بعدئذ: هذا شيخ طبيب، وهذا شيخ أديب، وهذا شيخ قاضٍ... الخ.

ولعلّ أفراد المجتمع الإسلامي هم أنفسهم الذين يتحملون اليوم مسؤولية تطوير اختصاص عالم الدين. فعندما نقصد شيخاً يجهل علوم الطب ونحمّله وظيفة ومسؤولية الطبابة والعلاج ونأخذ بحكمته. نكون نحن المشجعين لاستمرار ظاهرة الشيخ غير المتخصص. وعندما نسمح لشيخ أن ينتقد ويشتم ويلعن كل المفكرين والفلاسفة والمدارس الفكرية الغربية، ويتهمهم بالكفر والإلحاد ومعاداة الإسلام. نكون عندئذ قد ساهمنا في تحميل الشيخ علوماً هو في حقيقته يجهلها. ويذكر أن كثيراً من خطباء المساجد مازالوا يلعنون كل المدارس الفكرية والفلسفية الغربية، ويتهمونها بالكفر والإلحاد وبمعاداة الإسلام، وباليهودية والصهيونية. وبالمقابل فإن ابن رشد الأندلسي قام بترجمة أرسطو إلى العربية واستفاد من فلسفته، بل وابتدع

فلسفة إسلامية جديدة لايمكن تغافلها. ويذكر أيضاً بأن المدارس الدينية الشيعية تدرس أهم الفلسفات الغربية وتستفيد منها.

عندما نؤسس مدارس دينية إسلامية تختص كل واحدة بإتقان نوع من العلوم الحديثة. وتختص في الوقت نفسه بتعريف هذه العلوم وفهمها وفق الشريعة الإسلامية، في ذلك الوقت سنحل الكثير من المشكلات التي تعترض المسلمين بطريقة علمية وحضارية.

ففي مصر تظاهر آلاف المسلمين احتجاجاً على رواية أدبية!! في مثل هذه الأزمة كان يتوجب أن تقوم المدرسة الإسلامية المتخصصة بالآداب بالنظر في الرواية وبنيتها، وهي وحدها ستكون القادرة على إعطاء الجمهور الرأي النهائي في منعها أو الإبقاء عليها. لكننا حين نفتقر لتلك المدارس المتخصصة نلجأ إلى أحكام المشايخ الذين يجهلون الأدب وفنون الرواية، وقد تظلم الرواية أو يظلم الشارع الذي استنكرها.

صحيح أننا في بلدان ذات أنظمة حكم متعددة ومتنوعة، منها العلماني، لكن المسلمين كأفراد ومشايخ وعلماء دين ومتطرفين إسلاميين، هؤلاء جميعاً لهم تأثير وضغوط على بعض الحكومات العلمانية. ففي الشارع المصري يفرض الأفراد إيقاف توزيع هذه الرواية أوتلك، وسيكون لهم مايريدون، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين. وهنا تظهر حاجتنا للمدارس الدينية المتخصصة بالعلوم المتنوعة.

إن مشايخ لايعرفون شيئاً عن الرحم في جسم المرأة مثلاً ذهبوا في تشريع وتحليل وتحريم أحكام أطفال الأنابيب والتلقيح الاصطناعي وتعويض الأعضاء البشرية وغير ذلك .!! ولم تنته القضية هنا بل سيأخذ الأفراد المسلمون بأحكامهم. وقد يموت أفراد في أمراضهم بسبب أخذهم بآراء المشايخ الخاطئة.!!

توظيف الآداب

نتحدث هنا عن ضرورة توظيف الآداب عند المسلمين كمثال يمكن تعميمه على كافة العلوم الحديثة. ففي أحد مواقع الأنترنيت التقيت بهذا النص الذي يتحدث عن المدارس الأدبية بمنطق التطرف الإسلامي:

"... الحداثة هي مذهب فكري أدبي علماني، بني على أفكار وعقائد غربية خالصة مثل الماركسية والوجودية والفرويدية والداروينية.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين ، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجة أنها قديمة وموروثة لتبني الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية ، وذلك باسم الحرية ، . والحداثة خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوروبا كالمستقبلية والوجودية والسريالية وهي من هذه الناحية شر لأنها إملاءات اللاوعي في غيبة الوعي والعقل وهي صبيانية المضمون وعبثية في شكلها الفني وتمثل نزعة الشر والفساد في عداء مستمر للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعي لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوروبي ولظهور الشك والقلق في حياة الناس مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

- *ومن أبرز رموز مذهب الحداثة من الغربيين:*

- شارل بودلير وهو أديب فرنسي أيضاً نادى بالفوضى الجنسية والفكرية والأخلاقية ، ووصفها بالسادية.

ومن رموز مذهب الحداثة في البلاد العربية:

- يوسف الخال – الشاعر النصراني.. وقد مات منتحراً أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

أدونيس نصيري سوري، ويعد المُروِّج الأول لمذهب الحداثة

والحقيقة أن كل ماكتبه هذا المتطرف عن مدرسة الحداثة خطأ وافتراء ويعبّر عن جهله بالآداب وعن تطرفه في سلوكه العام. وهذا التطرف ليس سوى حالة

مرضية إذا أصيب بها الفرد يصبح عاجزاً عن تقبل كل جديد وبنفس الوقت رافضاً لكافة أصناف الصيغ الجديدة. والحديث عن مدرسة الحداثة في فرنسا يصعب قراءته وفق منطلقات إسلامية متطرفة، حتى إذا قرر البعض أن يقرأها بمنطلق ديني إسلامي فيتوجب عليه أن يتفهم السياق التاريخي لتلك المدارس الأدبية بل أن يكون متخصصاً بالآداب الأوروبية.

إن مايدل على استفحال الحالة المرضية في الرفض والعدائية عند واضع هذا النص هو بحثه عن كافة الكلمات والمفردات المدينة والمستنكرة والتي تتهم وتسيء، فقد استخدم مصطلحات إدانة شديدة اللهجة: (الادمان- الغرائز – تحطيم القيم - الإباحية – الفوضى الجنسية) وأثناء حديثه عن مدرسة أدبية وعن أتباعها خرج عن الموضوع مرغماً لأنه اعتاد على النقد وفق التطرف واستخدم كلمة نصراني لوصف يوسف الخال واستخدم كلمة نصيري لوصف أدونيس، واستخدم مصطلح فساد الإعلام لانتقاد الحكومات.

وفي وصفه للشاعر الفرنسي شارل بودلير اتهمه بالفوضى الجنسية والفكرية والأخلاقية، علماً بأن بودلير كان متديناً مسيحياً ومؤمناً وقد اتخذ التصوف الديني عن الإسلام فكانت عقيدته تجمع بين تعاليم إسلامية ومسيحية في وقت واحد.وكتب قصائد تحوي مناجاة لله، ولاتختلف صورة المناجاة عنده عن صور مناجاة محمد إقبال. بل إنه ابتدع نظرية في المناجاة والمحاورة ورسم مخططاً تعبيرياً في قصائده لتلك المناجاة. إذ تحوي المحاورة عنده: حواراً عمودياً وهو حوار يسير في خط واحد صاعد على الدوام. ويتمثل الحوار الصاعد في مناجاة الشاعر لله.

وحواراً أفقياً ويكون متبادلاً ويسير باتجاهين اثنين. وهو الحوار العادي بين البشر.

وقد أبدع بودلير القصيدة النصية والقصيدة الحرة تلك التي قلدها الشعراء العرب، فأنتج نزار قباني قصائد حرة تحمل بعداً ثقافياً عظيماً وكانت مفيدة للعرب والمسلمين. كما ويخطيء واضع النص بوصف بودلير والحداثة بالفوضى والتدمير وبتحطيم القيم الإنسانية، لأن قصائد بودلير هي غاية في الإنسانية

والشفافية والحب الكبير، والتعلق بالحبيبة. ولايمنعنا الإسلام عن مثل هذا الحب، لأن عكس الحب هو الكره. وليس الكره من الإسلام.

وفيما يخص الأدب، فالإسلام كعقيدة ودين وظاهرة عالمية وتاريخ مليء بالأحداث هو بحاجة لاستثمار فنون الأدب والقصة والرواية. وهذا الاستثمار يتطلب من الأدباء أن يكونوا ملمّين بعلوم الآداب بما فيها دراسة كافة المدارس الأدبية وخصائصها. وبذلك نصبح بحاجة لنتاج تلك المدارس وبحاجة لتوظيف إبداعات أولئك العظماء الذين رسموا مذاهبها. إذ لانستطيع أن نكتب كافة الآداب الإسلامية أناشيد وقصائد وتأريخ وسيناريو بطريقة نصوص (ألف ليلة وليلة)، بل إن طبيعة العصر وطبيعة المتلقي الذي هو نحن توجب علينا أن نكتب بطريقة مدرسة الحداثة، وهي نفسها التي يحذرنا منها ذلك المتطرف وغيره.

كما ونلفت انتباه المتخصصين بعلوم اللسانيات إلى توظيف هذه العلوم ونتائجها في دراسة النصوص القرآنية الكريمة. مما يثمر عن إنتاج مفاهيم ومعان جديدة لتلك النصوص، وقد أجريت بعض الدراسات اللغوية على نصوص قرآنية كريمة وتوصلت إلى نتائج مذهلة تزيد في فهمنا للآيات وتؤكد من ناحية أخرى على مصدرها الإلهي.

وتوظيف الآداب يتمثل في هذا الكتاب الذي نضعه بين يديك ليكون فيه نصح وفائدة للمسلمين جميعاً.

من الطائفية إلى الحضارة

نزل الإسلام للبشرية جمعاء، وتخاطب آيات القرآن الكريم كافة البشر، وكثير من الآيات تبدأ بعبارة (ياأيها الناس) وفي كافة العصور الإسلامية كانت الحاجة تتطلّب مخاطبة المسلمين للبشرية جمعاء وتعاملهم معهم على أسس عالمية تترفع عن الانتماء المكاني الصغير أو المذهبي الضيّق، أو العرقي. وفي هذا العصر تكبر الحاجة لخروج الخطاب الإسلامي من الخصوصيات الضيّقة الصغيرة، ولجعله خطاباً عالمياً واسع الآفاق يدركه ويحتاج إليه كافة البشر. فإذا انتقدنا المذهب

الإسماعيلي مثلاً فلن يحتاج لسماع خطابنا أي شخص صيني بوذي، بل إنه حين يصله خطابنا المذهبي ويدرك ما في طياته فذلك يبعده عن فهم الإسلام وعن فهم الحقيقة الإسلامية العظيمة. ومن هنا توجب أن تكون خطاباتنا الدينية عالمية وحضارية، ولن تكون كذلك إلا إذا استطعنا نحن أن نكون عالميين وحضاريين.

الانزلاق في أتون المذهبية والطائفية هي حالة أبعد مايمكن عن الانتماء العالمي والحضاري. فالعالمية تمثّل اتساعاً مكانياً وينعكس ذلك على الفرد نفسه فيتسع أفق فكره وإدراكه لمبادئه وبالتالي أعماله. بينما الطائفية هي ضيق وقوقعة فكرية ومكانية وقد تصغر مساحة انتماؤها حتى تصبح أسرية وعائلية وقبلية. ويمكننا القول على سبيل المثال إن السيد محمد البرادعي ينتمي بوضوح إلى العالمية والحضارة العالمية، ويعمل وفق برنامج عالمي. ورغم أنه عربي ومسلم فهو لايحصر انتماءه إلى مذهب ولايحصر نطاق عمله وفق مذهبه. ولو أن البرادعي أقام اليوم في حي الفلوجة العراقي فإنه لن يستجيب لدعوات التطرف المذهبي والطائفي، ولن يساهم في دفع الأفراد إلى الاقتتال، لأن انتماءه عالمي وليس محلياً. وبالمقابل فإن الطائفي يحصر نشاطه وعمله وفق مايمليه عليه الكيان الطائفي الصغير الذي يقوده. وعندما يقيس هذا الفرد أعماله بما يتفق مع طائفيته فإن العالم كله سينظر إليها بمنظور عالمي عام وسيحكم عليها وفق الاعتبارات الحضارية. أي أن العالمية لاتستغني عن أي فرد ولاتحيّد أحداً من الأفراد. وهذا يدل على حتمية الانتماء الحضاري.

الإدارة الإسلامية

إن بعض حكومات الدول الإسلامية لاتعير الإسلام وأموره أهمية كبيرة.وتعتمد بذلك على إدارة أمور نمط موحد من الظاهرة الإسلامية. وهي بنفس الوقت لم تنتبه حتى الآن إلى ضرورة إدارة كافة مجالات الظاهرة الإسلامية.

وبغياب دور الدولة لم ينتظر الأفراد تدخلها ولم يبحثوا عن دورها، بل انهم يديرون أمور الإسلام والمسلمين كل فرد بطريقته وكل جماعة بطريقتها.

فالجماعات الإسلامية تقوم بأدوار عديدة، إذ تقوم جماعة الإخوان بدور المربي وهنا تأخذ دور الأسرة والمدرسة والمجتمع. وليس من المؤكد على أقل تقدير أن تربيتها سليمة ومقبولة للمجتمع العام كله. كما تقوم جماعات أخرى بتربية الفرد وفق أسس طائفية ، تلك التي تهدد الانتماء الإسلامي الموحد.

إن أحداث العراق وغيرها تنبهنا إلى ضرورة التيقظ إلى إدارة أمور المسلمين بشكل كامل ومنضبط، والانتباه إلى تربية المسلم باستمرار وإلى مناهج المربين والتربية المنتشرة،

وعند غياب مشروع إسلامي يدير أمور المسلمين العامة كالدعوة والتحديث والتحاورمع الحضارة وتأسيس قواعد التربية وقواعد المحاورة مع الآخر، عندئذ قام الغرب نفسه بتسلم هذه المهمات وبإعداد مشاريع كبيرة ومتكاملة تحمل في العلن مفاهيم تنظيم وإصلاح وتقويم أمور المسلمين، لكنها في الخفاء قد تسعى إلى إيجاد إسلام جديد يتفق مع المشروع الغربي بالدرجة الأولى، إذ تتسرب المعلومات القائلة بأن ثلاثة آلاف شخص من الذكور والإناث يجري تدريبهم وتعليمهم في بريطانيا ، وذلك ضمن مشروع بريطاني لإصلاح الفكر الإسلامي كما أعلن.!. ولن يكلّف هؤلاء ، حسب المخطط البريطاني لتزعّم المسلمين في بريطانيا وأوروبا فحسب بل سينتشرون في الدول الإسلامية العديدة. وضمن هذه المشاريع التنافسية الجديدة، تتنافس الكنائس الغربية مع الإسلام نفسه لمنع أسلمة أفواج كثيرة من المسيحيين في دول الغرب وفي أفريقيا السوداء وغيرها.

في تشرين أول ٢٠٠٧ أجمع ١٣٨ من علماء ومشاهير المسلمين على إرسال رسائل تسعى للحوار الإسلامي إلى خمس وعشرين شخصية مسيحية عالمية. وبهذه الخطوة وجدنا من يتكلم باسم الإسلام ويرفع الصوت عالياً ورأينا خطوة من رجال كانت ضرورية ومطلوبة. وبدأ المسلمون يحاورون بالعقل وبالفكر والكلمة، هذه هي الإدارة الإسلامية التي يطالبنا العالم الحديث المتطور بها. والتي لابدّ من وجودها. وهذه التي شهدناها هي نموذج مصغّر عن الإدارة الإسلامية المطلوبة والتي لابد لها من أن تحوز على ثقة غالبية المسلمين.

سلطة النصيحة وسلطة التكفير

يقوم المتطرفون بمحاكمة الآخر وفق قوانين ليست سوى عرفية عسكرية، في وقت يعتقدون بأنها قواعد إسلامية صارمة. ووفق قواعدهم يلجؤون إلى تكفير الآخر ومحاكمته بالسرعة الكلية، والحكم عليه وتنفيذ الحكم. وبهذا التسلسل الإجرائي التعسفي السريع تتم أعمال الاغتيال والهجوم على المساجد والكنائس والجامعات في بغداد والعراق كله. ويعتقد المتطرفون بأن أعمالهم مقدسة وجهادهم ضد الأبرياء مقدس أيضاً. وهذا مايفسر ظاهرة الأعمال الانتحارية. إذ يعتقد الانتحاري بأنه مجاهد في سبيل الله وسيدخل بعمله الجنة. لكن الإسلام لايمنح سلطة لأحد من المسلمين سوى الدعوة إلى الخير والموعظة الحسنة، والتنفير من الشر، وإنه ليس لمسلم، مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد، والإيمان في الإسلام حالة واجبة على المسلم، وإيمان الفرد يكسبه منزلة حسنة لاقدرة على التسلط وتكفير الآخرين. وبالتالي لابد من صيانة الإيمان من التكفير العبثي للآخر. وفي ظل هذه الأحداث الخطيرة يتحمّل كل مسلم مسؤولية تكفير المسلم الآخر، وقد بات من واجبنا جميعاً العمل الجادّ والدؤوب لمحاربة ظاهرة التكفير واستئصالها. إذ يتوجب على الأفراد عدم الانسياق وراء الشائعات الصهيونية التي أريد منها تمزيق الأمة، والتي تحمل تأويلات تكفير عديدة. بل يستطيع الأفراد محاربة تلك الشائعات مهما كان مصدرها. فلو أن شيخاً أو خطيباً أو فقيهاً أو عالم دين قام بتكفير مذهب إسلامي آخر توجب على المسلمين انتقاده ومنعه من تكرار تلك الأخطاء الفادحة. إذ يتوجب على العلماء والفقهاء وذوو النفوذ العمل على جمع الأمة الإسلامية ومحاربة كافة دعاوى التكفير.

إن كتب التراث التي يتوارثها المسلمون ليست مقدسة عند أحد منا ولاعند أيّ من المذاهب. فالنص المقدس هو القرآن الكريم، والنص المقدس الثاني هو المؤكد والموثوق من أحاديث الرسول محمد عليه السلام. إذ لايخفى على أحد أن الكثير من كتب التراث تحمل في طياتها نصوص تكفير للكثير من المذاهب الأخرى. وهذه النصوص شديدة التطرف ولايمكن الأخذ بها على الإطلاق وذلك لأسباب كثيرة:

لقد وضعت تلك النصوص في عصور متخلفة ومشحونة أحياناً بالاقتتالات الطائفية، ولذلك فهي تعبّر عن انفعالات لاعن أحكام إسلامية كتبت في ظروف حرة.

وكان واضعوها لايمتلكون أفقاً فكرياً ودينياً واسعاً كالذي يمتلكه أبناء هذا العصر.

ففي النصوص التراثية يقوم كل مذهب بتكفير الآخر، بل يقوم كل فريق داخل المذهب نفسه بتكفير الفرق الأخرى في نفس المذهب أحياناً، وعلى هذا تعم قائمة الذين تم تكفيرهم ويصبح الكلّ (لاسمح الله) كفّاراً في شرائع ونصوص كثيرة. وليس هذا إلاّ بلاء للإسلام والمسلمين.

تلك النصوص ليست مقدسة ولذلك يمكن تجاوزها، بل عندما تصبح ضارة يتعين على المسلمين محاربتها واستئصالها.

النص المقدس هو القرآن والحديث، ونصوص التفرقة والطائفية ليست سوى اجتهادات أشخاص من بني البشر. وهؤلاء مثلنا قد يخطؤون وقد يصيبون.

الفصل الثاني عشر

الحوار الإسلامي المسيحي
طريق نحو أسلمة أوروبا

رأي المسيحيين بالقرآن الكريم

فيليب حتّي يعتزّ بالقرآن

يقول الباحث فيليب حتي في كتاب "(الإسلام منهج حياة) "إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى."

إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات" .

اللوح المحفوظ

يذكر القرآن الكريم صراحة أن الكتب المنزّلة واحدة، وأن أصلها محفوظ عند الله وهو واحد، وهذا الأصل يدعى حينًا (أم الكتاب) وحينًا آخر (اللوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)"

"لم يقدّر لأي سفر، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب" (لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٣٧).

أشدّ المسيحيين تعصّباً يعترفون بالقرآن

يقول السير توماس أرنولد في كتاب"(الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢) إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar الإسباني الذي عرف بتعصبه ضدّ الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به"

ونحن نلمس دوماً اعتراف المسيحيين بحقيقة القرآن وحقيقة نزوله على سيدنا محمّد عليه السلام. فرئيسة وزراء بريطانية السابقة تحدثت ذات مرة عن المسلمين وقالت أنّ الإسلام دين سماوي. ونسمع مثل هذا الاعتراف في كل يوم تقريباً. وهو

يحمل اعترافاً ضمنياً بحقيقة الدين الإسلامي وهذا يعني اعترافاً بأنّ الإسلام دين سماوي أي دين حق، وبأنّ القرآن منزّل من عند الله سبحانه. واعترافاً بنبوة محمّد. وإنّ من يعتقد ضمناً بهذه المبادئ يكون بحسب العقيدة الإسلامية مؤمناً بالدين الإسلامي. ومن هنا فإنّ مابين أولئك المسيحيين وبين الإسلام ليس سوى خيطٌ رفيع من الاختلاف، تماماً كما قال النجاشي ملك الحبشة للمسلمين.

مسيحيون يعترفون بصوابية القرآن

يقول المفكر اللبناني جورج حنّا في (قصة الإنسان ص. ٧٩) " لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزّلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

لايسع النصراني إلا أن يرضى بنقد القرآن للثالوث

إميل ديرمنجيم مستشرق فرنسي، ومن آثاره: (حياة محمد) ١٩٢٩، ويكتب فيه ص. ١٣١ : "للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى [عليه السلام] كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح [عليه السلام] ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب

الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم."

التعرّف على القرآن يقنع المسيحي بمحمّد

يقول جان جاك روسّو في العقد الإجتماعي: من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب لخرّ ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار."

القرآن كلام الله

يؤكّد الباحث المسيحي اللبناني نصري سلهب قناعته بأن القرآن كلام الله حيث يقول في كتاب لقاء المسيحية والإسلام ص. ٣٤٢ "تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله.." ومن اللافت للنظر أن كثراً من المسيحيين يحملون هذا الإعتقاد.

القرآن الكريم يحاور أهل الكتاب

لقد حافظ أسلوب الحوار الإسلامي مع أهل الكتاب على مرّ التاريخ، حافظ على التعايش السلمي الذي تؤكده الآية الكريمة (تعالوا إلى كلمة سواء). وما شنّ المسلمون يوماً حرباً دينية ضدّ غيرهم من الأديان السماوية، لكنهم واجهوا دائما حرباً دموية باسم الصليب ضدّهم استمرت قروناً متمادية، ويعتقد بعض المسلمين بأنها لاتزال مستمرة حتى يومنا هذا.

غير أن الموقف الإسلامي العام لايزال كما نصّ عليه القرآن: (تعالوا إلى كلمة سواء). والظاهرة الرائعة في هذا المجال أن شوكة الإسلام كلما قويت ازدادت قوة الدعوة إلى الحوار مع أهل الكتاب، مما يدلّ على أنه حوار ينطلق من موقف مبدئي لا من موقع ضعف. فالقرآن الكريم وضع للمسلمين حدّاً لن يستطيعوا أن يتجاوزوه مهما علت شوكتهم. فإذا امتلكوا قوة وقدرات وأسلحة وقارات سيظلون يدعون إلى كلمة سواء كما تفرض عليهم الآية الكريمة.

تقبّل فكر الآخر

نتحاور حتى يقدّم كلّ واحد منّا فكره بوضوح للآخر، وأن يتقبّل الآخر فكر غيره بدون عصبية. لأنّ بعض الناس يحاولون أن يشوّهوا صورة المسيحية عند المسلمين، وصورة الإسلام عند المسيحيين. ونبدأ من السلام الإنساني والعدل الإنساني بين يدي الله سبحانه وتعالى، الذي يوصينا بتحقيق السلام والعدل والأمن للإنسانية كلها.

من أين يبدأ الحوار؟

من أين نبدأ ببناء الجسور بين الإسلام والمسيحية؟

الانطلاق من مبدأ الإيمان بالله:

نبدؤها من الإيمان بالله، فالله ربّنا جميعاً، ومن الرّسل الذين أرسلهم الله بكلمته المقدّسة، لأنّهم حملوا ما يحبُّ الله لنا أن نعيشه كإخوة في الإنسانية، بأن نعيش إنسانيتنا في إنسانية الإنسان الآخر في القيم الروحية والأخلاقية، وأن نلتقي بالإله الواحد، وأن لا يكون لنا آلهة من الذين يتكبّرون على الإنسان ويعتبرون أنفسهم آلهةً للناس، ومن محبّتنا لله، لأنّنا إذا أحببنا الله أحببنا الإنسان، وإذا التقينا على الله فلن نختلف، لأنّ المشكلة التي يعيشها الناس هي أنهم ابتعدوا عن الله وأصبحوا يعبدون المادة ولا يعبدون الله.

مبادئ الحوار

ثمة مبادئ عامة يلتزم بها المتحاورون ومنها نذكر:

الحوار بهدف الفائدة: لابدّ للمتحاورين من الاعتقاد بأنهم يسعون في حوارهم للاستفادة وليس للنقد أو الإساءة للآخر. وهذا يعني أن يكون ذهن المحاور منفتحاً على الآخر بغية الاستفادة من طرحه.

الموضوعية في الحوار: أي أن يدخل الإنسان الحوار دون مسبقات ذهنية. وأن يطرح المفاهيم السابقة التي يحملها على الآخر جانباً، ويؤكد القرآن على ذلك أيضا. القرآن يعلّم النبي العظيم كيفية الحوار مع المشركين يقول: (إنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين). وهذه هي الموضوعية في الحوار.

تشخيص المشكلة التي هي موضوع الحوار

من أصول الحوار المهمة " أن تحدد المشكلة التي يتحاور بها الطرفان وأن تحل نتائج هذا الحوار محل النزاع". أي تشخيص الموضوع الذي نتحاور حوله. قد نجد متحاورَين أحدهما ينظر إلى القضية بمنظار، والآخر يتناولها من منظار آخر، فهما قد يكونان متفقين، وإن اختلفا في اللفظ.

الحوار العملي:

يكون الموضوع عملياً نعيشه ونلمسه ونعاني من آثاره. لا أن يكون عقلياً محضاً عقيماً لا أثر له. لأنه مضيعة للوقت ومفسدة ذهنية وترف ذهني.

كفاءة المتحاورين:

ومن أصول الحوار أن يتم بين شخصين متخصصين، لا أن يكون بين متخصص وبين آخر لا حضور علمياً له في الموضوع، والا انقلبت موازين التكافؤ.

الإحاطة بأبعاد الموضوع:

ومن أصول الحوار أيضا أن ينظر المتحاوران إلى كل أبعاد الموضوع ، لا أن يركزا على بعد دون الأبعاد الاخرى وينشغلوا به.

التدرج بالاتفاق على النقاط المشتركة:

ومن هذه الأصول العامة أن يتفق الطرفان على المبادئ التصورية والتصديقية المشتركة بينهما. وأقصد بذلك أن المتحاورَين إذا لم يكن بينهما أصول يتصورانها معا ويصدّقان بها معاً ، فإنّ حوارهما سيبقى عقيماً. لأن المراد من الحوار أن يرجع كل طرف مع الطرف الآخر إلى أصول يؤمنان بها معاً. إذا استطاع الطرف (آ) أن يوصل المسألة إلى نقطة يؤمن بها الطرف (ب) ويؤمنان بها معاً ، فان الطرف (ب) لاكلام معه عندئذ. وإذا استطاع الطرف (آ) أن يثبت تناقض مايؤمن به (ب) مع تلك المبادئ المتفق عليها ، فيُقضى الامر الذي فيه يتحاوران.

الحرص على الاّ يكون الحوار عقيماً:

قبل الحوار يجب أن تشخص المبادئ التي يؤمن بها الطرفان. أما إذا لم يصلا إلى مبادئ مشتركة فالحوار عقيم. فمن ينكر الأمور الوجدانية مثلاً لا تستطيع أن تحاوره وأنت تمتلكها ، فقد تستطيع أن تنبهه إلى أنه يخالف وجدانه ، لكنك لا تستطيع أن تدينه ، لأنك لا تتفق معه حتى على الأمور الوجدانية.

نصري سلهب مشروع تقريب

نصري سلهب مسيحي من لبنان ، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة ، وبنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان ، إن على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع. وعبر الستينات كتب العديد من الفصول وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على

السواء، متوخّياً التقارب بين الديانتين . من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (١٩٧٠)، و(في خطا محمد) (١٩٧٠). وهو يقول في الصفحة ٢٢ من كتابه الأول: ".. إن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب. فإذا بهذا الأمي يهدي إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين..").

الخط الروحي الذي يجمع بين الديانتين

الخط الروحي الذي يجمع بين الإسلام والمسيحية هو نفسه الخط الذي اكتشفه محمد رسول الله في تحاوره مع المسيحيين، وهو نفسه بالذات الذي رسمه ملك الحبشة النجاشي المسيحي الذي ماإن سمع تلاوة سورة مريم حتى قال للمسلمين الذين دخلوا بلاده: " والله ليس بين ديننا ودينكم من اختلاف سوى هذا الخيط الرفيع"

الخطّ الروحي الذي يرتبط بالله تعإلى من خلال السيِّد المسيح وأمّه العذراء مريم هذا الخطّ الروحي يجمع بين المسلمين والمسيحيين، إنّنا نلتقي مسلمين ومسيحيين على هذا الخط الروحي، في الإيمان بالله الواحد، وفي اعتبار السيِّد المسيح يُمثِّل روح الله وكلمته، ويمثِّل في عقيدة المسلمين أيضاً النبيّ الذي يُبلِّغ رسالة الله تعإلى إلى العالم، ونلتقي جميعاً في التّقديس والتّعظيم للسيّدة مريم العذراء، باعتبارها أطهر امرأة هكذا يصفها الله سبحانه في القرآن الكريم وهكذا يعتبرها المسلمون، فنحن نعتقد أن السيدة مريم تُمثِّل أعلى قيمة روحية في محبتها لله، وفي محبتها للإنسان، وفي عقيدة المسلمين أنها حملت بالسيد المسيح بقدرة الله من دون أية علاقة جنسية بأيّ إنسان آخر، فهي إنسانة العفّة. والقرآن الكريم يتحدّث عنها بأنها سيدة نساء العالمين، كما تحدّث عن ابنها بأنّه المبارك، أي الذي ينفع الناس، وأنّه الشخص الذي يحبّ والدته ويبرها ويُخلص لها ، وإنّ عقيدتي المسلمين والمسيحيين المتقاربتين حول المسيح وأمه العذراء موضوع يجمع الأمتين ويقرّب التوافق بينهما.

الحوار منهج قرآني

إنّ القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى أن يتّبعوا مع الآخرين الأسلوب الّذي يحوّل أعداءهم إلى أصدقاء، وهو يدعو اليهود والنصارى إلى كلمة سواء، أي إلى القضايا التي يلتقي المسلمون فيها معهم. وهذه القضايا هي:

العقيدة، ووحدانية الله، ووحدة الإنسان، والتي على أسسها لا يكون الإنسان رباً للإنسان بل أخاً له.

ويتم الحوار الإسلامي المسيحي بوجود ثلاث صفات عامة عند الطرفين:

- العقل المفتوح
- القلب المفتوح
- الحوار المفتوح.

وفي القرآن الكريم مساحة كبيرة للتعريف بالمسيحية وتاريخها وقصصها. وتعريف موسع برسول الإسلام النبي المسيحي عيسى عليه السلام، وتعريف بأمه العذراء عليها السلام. فقد خصص القرآن سورة باسمها وبنفس الوقت لم يتحدث أبداً عن أم محمد عليه السلام. وقد ذكر اسم المسيح في القرآن الكريم حوالي ٢٤ مرة بينما لم يذكر اسم محمد أكثر من خمس مرات.

مشروعية هذا الحوار

الآية الكريمة: (قل يا أهل الكتاب تعالوا...) تعتبر أفضل موجّه قرآني للحوار. ورسول الله(صلى الله عليه وآله) حاور النصارى واليهود. سألوه فأجابهم. وكذلك أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا منفتحين على كل مسألة وكل حوار، حتى ولو كان المحاور زنديقا. الزنادقة كانوا يبثون الشبهات ، والإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا يدخلون معهم في مناقشة جادّة وحوار رصين. وهكذا عمل

الصحابة والتابعون. وعندنا في تاريخ الخليفة عمر بن عبد العزيز صور كثيرة من دخوله في حوار مع النصارى مما أدى إلى دخولهم في دين الله أفواجاً.

الإنسان الذي يملك جوهرة ثمينة لايخاف عليها من نقد النقّاد.

مايقوله المسلم للمسيحي

"إن الآية التي تتبع سماحًا إذ تقول: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت ٤٦.

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنا جميعًا، مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعإلى حتى السماء، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله.

الخطوط الأولى في الحوار

يقوم حوار الأديان في المرحلة الأولى؛ بأن يطرح كل دين أفكاره لأتباع الدين الآخر، بحيث يصبح في استطاعة أتباع هذه الأديان أن يقفوا على القضايا المشتركة فيما بينهم، ويتم إدراج هذه القضايا المشتركة كأسس ثابتة متفق عليها، ومن ثم يتحاوروا في القضايا الأخرى المختلف فيها. لإيجاد سبل جديدة أخرى يتفقون عليها.

المبادىء المشتركة بين الإسلام والمسيحية

إن هناك مبادئ يؤمن بها الطرفان الإسلامي والمسيحي ولابد من استقصائها أولاً. وإذا اتضحت هذه المبادئ، يمكن أن يدخل الطرفان في حوار مثمر ومفيد. ومن هذه المبادىء:

الإيمـان باللّـه تعـإلى، وباللّـه الواحـد (هـم يحـاولون أن يجعلـوا مـسألة التثليـث منسجمة مع فكرة الإله الواحد).

ونـؤمن معهـم أيضاً بوجـود قـيم إنـسانية أخلاقيـة يـدعو اليهـا الـدين. وهنـاك قـيم اجتماعية نتفق معهم عليها، مثل قيمة الخلية العائلية في البناء الاجتماعي المتكامل، ومثل قيمة الرحمة للفقراء والمساكين والمعوزين. هذه أمور نتفق عليها، وحينئذ يجب أن نتحاور في هذه الأطر وفي مثيلاتها، ثم نتطور في الحوار وندخل في مواضيع مهمة أخرى.

ومن الطبيعي جداً أنّ هناك مشتركات كبيرة جداً في الحياة. هـذه المشتركات يجب أن تتحدّد وتتضح في ذهن المتحاورين.

حوار الشعوب

يدعو الإسلام إلى حوار الشعوب بعضها مع بعض رغم تنوّع حضاراتها، فالحوار هو الذي يمكن أن تلتقي فيه الشعوب بعضها مع بعض، إذ يصبح في إمكان هـذه الشعوب أن تفهـم بعضها بعضاً مـن خـلال الحـوار، فيـؤدّي ذلـك إلى أن تلتقـي علـى القضايا المشتركة. وفي القرآن الكريم آيات عديدة تصف الشعوب الأخرى وتروي أخبارها وتدعو المسلم لتفهم شؤونها والحوار معها والاستفادة منها.

رغبة المسلمين في الحوار

نحـن كمـسلمين نرغـب أن نكـون أصـدقاء للغـرب وأصـدقاء للمـسيحيين، وأن يلتقي الإسلام والمسيحية على أساس السلام في العالم.

ويتعين على مسيحيي الغرب أن يفهموا المسلمين جيداً بعيداً عن الإعـلام المعادي الذي يعمل على التفرقة بين الشعوب، ويتعين على المسلمين أيضاً أن يفهموا الغرب

كمسيحي جيداً بعيداً عن الإعلام المعادي، لأنّ الإعلام يخلق مشاكل غير صحيحة عندما يكون كاذباً أو موجهاً.

المسيح عامل في بناء المحبّة والسلام

يُنقل عن السيد المسيح قوله إنّ الله محبة، ويقول الحدي النبوي : «الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله» وقوله عليه السلام: "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه" فإذا كنّا نحن نحبّ الحرية لأنفسنا، فعلينا أن نحبّها لكلّ الشعوب، وإذا كنّا نكره أن نُمنَع حقوقنا، فإنّنا نكره ذلك لكلّ الشعوب.

علينا أن نلتقي على محبّة الله، ومن خلال محبة الله ننفتح على الإنجيل والقرآن، فنحن نعتبر أن الإنجيل كتاب الله المقدّس، كما أنّ القرآن كتاب الله المقدس، ونحن نتعلم من الإنجيل كما نتعلم من القرآن، لأنّ الإنجيل والقرآن كلمة، وعلينا أن نتعلم من كلمات الله. نحن نؤمن بالسيد المسيح بأنه روح الله وكلمته، وهو الذي يحبه الله، كما يؤمن المسيحيون بذلك، وإذا كان هناك اختلاف في الجانب اللاهوتي الآخر، إلاّ أنّنا لا نختلف على السيد المسيح باعتبار أنه المسيح الإنسان.

محمد رسول الله يحب المسيح

يحبّ المسلمون المسيح عليه السلام حباً كبيراً. ويأتي ذلك من حب رسول الله محمد عليه السلام للمسيح ابن مريم. وهذا مادعانا إليه القرآن الكريم وألزمنا به.فقد كان محمد رسول الله يحب المسيح ويعظّمه، وإنّ المسيح، حسب عقيدتنا الإسلامية، بشّر بأنّه سوف يأتي شخص يسمى (أحمد) يحمل رسالة الله في الكون، ولذا نحن لا نعتقد أن هناك مشكلة بين محمد(ص) وبين السيد المسيح(ع)، وبالتّالي، فلا مشكلة بين الإسلام والمسيحية، وإنّما هناك اختلاف في فهم بعض الأشياء التي يمكن أن ندير الحوار حولها. والعقيدة الإسلامية تقول إنّنا

"لا نفرق بين أحد من رسله". ولذلك فالدّين لا يفرق بين الرسل وبين المؤمنين بهم، ولكن العصبية المنحازة هي التي تفرق.

تطبيق عملي للمحبة

المسيح يجمع المسلمين بالمسيحيين

يرى بعض المسلمين أن الإسلام هو المنطلق الوحيد الذي يجمعهم بالمسيحية. وهم بناءً على ذلك ينطلقون في حوارهم مع المسيحية من الرؤية الإسلامية التي يعزلونها عن المسيحية كلها. لكن يتوجب علينا أيضاً كمسلمين أن ننطلق في فهمنا للمسيحية من المسيحية نفسها. ومن إيماننا بالمسيح نفسه: والحقيقة فإنّ السيد المسيح يجمعنا مسلمين ومسيحيّين، ويتوجب على المسلمين والمسيحيين أن يطبقوا هذه المقولة عملياً، خصوصاً وأنَّ المسلمين يعتقدون بأن الأنبياء جميعاً يدعون إلى السّلام، وأن طريقتهم في الحياة كانت طريقة المحبة والتضحية. فالمسيح يعتبر رسول سلام إلينا نحن المسلمين أيضاً. وأنه كان في حينه مرحلة رسالية سماوية هي جزء من الرسالة الشاملة التي أنزلها الله سبحانه للبشرية كلها وأتمّها بما أنزل على رسول الإسلام محمد عليه السلام.

نحن نلتقي بالسيّد المسيح، لكن لا بدّ من أن ندرس المسألة في دائرة أنّ هناك اجتهادات في اللاهوت المسيحي بالنسبة إلى شخصيَّة السيد المسيح(ع)، فالمسيحيون يعتبرون أنّ الله تجسّد في السيد المسيح(ع)، ونحن نعتقد أن السيد المسيح هو روح الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأنّ ولادته كانت مظهراً لقدرة الله على الخلق، كقدرة الله على خلق آدم وحواء.

اختلاف في اللاهوت واتفاق في المحبّة الإنسانية

على الرّغم من أنّ المسلمين يختلفون في اللاهوت مع المسيحية، إلاّ أنّ المسلمين يعتقدون بأن المسيحية والإسلام يلتقيان في القيم الإنسانية الأخلاقية الروحية، فنحن جميعاً نعبد الله الواحد، ونحن جميعاً نعتقد أن الإنسان لا بد من أن يعيش مع الإنسان في وحدة إنسانية، وأن لا يكون الإنسان رباً مستعلياً على الإنسان الآخر، وأن السيد المسيح والنبي محمد يلتقيان في المحبة، فالنبي محمد(ص) يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»، فهو يربط الإيمان بالمحبة، والسيد المسيح أيضاً يؤكّد المحبة. ولكن أساليب المحبة في العالم تختلف، فمحبتنا للإنسان الذي يريد أن يضطهد أو يقتل الإنسان الآخر، تفرض علينا أن نمنعه من ذلك لنعيده إلى إنسانيته من خلال احترامه للإنسان الآخر، والسيد المسيح أرادنا أن نتعاون، فنفجّر طاقاتنا لخدمة الإنسان، وأن نتواصل، فلا يبتعد الإنسان عن الإنسان، حتى لا يُساء فهم بعضنا لبعضنا الآخر، وأن نتكامل، فيعطي كل واحد منا للإنسان الآخر ما ينقصه، لتتحرّك الطاقات كلّها في خدمة الإنسانية. وبذلك يلتقي المسلم مع المسيحي بين يدي الله على أساس احترام إنسانية الإنسان في القيم الروحية والأخلاقية للإنسان.

أن تكون مسلماً، أو أن تكون مسيحياً، يعني أن تكون إنساناً، أن نلتقي بالإنسانية التي تنفتح على الله وتنفتح على الإنسان. وإذا كان السيد المسيح(ع) في عهده قد استخدم أساليب معيّنة مع الرّومان، فذلك يعود إلى الظّروف التي عاشها الرومان آنذاك، وخصوصية نمط الحكم القائم وسمات ذلك المجتمع في تنوعاته، وقد كانت طريقتهم في العدوان على المستضعفين تأخذ حدوداً معينة، أما المستكبرون اليوم، فإنّهم يملكون القنابل الذرّية وأسلحة الدمار الشامل، ويملكون مصادرة ثروات الشعوب. ولذلك لا بد من أن نأخذ من روح السيد المسيح(ع) لنعرف كيف نمنعهم من ذلك بالوسائل التي تسقطهم أمام شعوبهم. وقد نكون بحاجة إلى عمليات جراحية للذين يريدون اضطهاد الإنسان ومصادرته، فنحن نحبّهم، ولأنّنا نحبّهم نقاومهم، وبكلّ محبة، ننقذ الإنسان الطيب من الإنسان الشرير.

بدايات الحوار بين المسلمين والمسيحيين

قصة «سفر أشعيا» الذي اكتشف في الأردن كشف الدكتور محمد معروف الدواليبي مستشار الملك فيصل سابقاً في حوار مع مجلة العالم الإسلامي في العدد ١٢٢٩ كشف بدايات وخفايا الحوار الإسلامي المسيحي، وفميا يلي نص الحوار:

كان الدكتور محمد معروف الدواليبي، رئيس وفد المملكة العربية السعودية في لقاءات «الحوار بين الإسلام والمسيحية» التي عقدت في عاصمة «الفاتيكان» يكشف عن حقائق مذهلة عن تلك اللقاءات.

ويقول: بدأت قصة «الحوار الإسلامي ــ المسيحي»، عام ١٩٥٨م، عندما اكتشف مخطوطات - في إحدى المغاور في جبال الأردن والتي كان يختفي بها المؤمنون قبل آلاف السنين، ومن هذه المخطوطات التي تم اكتشافها «سفر أشعيا» الصحيح بكامله، بينما المنشور في التوراة هو جزء منه.

وبعد دراسته، اجتمع الفاتيكان لمدة أربع سنوات - من ١٩٦١ إلى ١٩٦٥- وأكد أن لهذا السفر تأثيراً جديداً على قواعد ومفاهيم المسيحية بالنسبة للإسلام. فأصدروا كتيباً دعوا فيه إلى الحوار ما بين المسيحية والإسلام. وفيه يثنون على الإسلام كدين، ويأسفون لما سبق من خلاف بين الديانتين، ويطلبون نسيان الماضي، وأن يدخل المسيحي في حوار مع المسلم، لا ليُعلّمه ويتظاهر بالعلو، وإنما ليتعلم كيف يُنقي عقيدته المسيحية من عقيدة التثليث.

وثيقة الفاتيكان الهامة:

بعد ذلك صدرت عن الفاتيكان وثيقة هامة، كانت بمثابة اعتراف رسمي مسيحي بالدين الإسلامي، ولأول مرة، جاء فيها: «إن كل من آمن بعد اليوم بالله خالق السماوات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم المسلمون».

الفاتيكان دعا للحوار

بعد صدور هذه الوثيقة، وفي عام ١٩٦٥م، وجّه «الفاتيكان» -عن طريق إذاعته- نداء بالتهنئة بالحج وقضاء مناسكه إلى الملك فيصل وإلى الحجاج، فرد فيصل بالإذاعة، محيياً هذه الروح الجديدة. ولم يلبث «الفاتيكان» أن سعى إلى الدخول في حوار، والناس بين مصدق ومكذب، حتى وصلت الدعوة إلينا للدخول في حوار معهم وزيارتهم، وذلك للتعاون «فيما يتعلق بحقوق الإنسان» وكنّا أيضاً، في كل مكان مستغربين هذه الروح الجديدة. ولما دعاني الملك فيصل ليسألني رأيي في الدعوة التي وجهها «الفاتيكان» إلى علماء المملكة ليزوروه من «أجل حوار وتعاون لا يُقصد منه البحث في أصول الدين، وإنما التعاون على ما يأمر به الدين بحقوق الإنسان». ألححت على قبول الدعوة فذهبت بالفعل إلى الفاتيكان وكان معي سفير المملكة في روما، واجتمعنا بالكاردينال «بيمونوللي»، وزير الدولة في حكومة الفاتيكان فيما يتعلق بالعلاقات ما بين الإسلام والمسيحية، فعرفت أن الدعوة صحيحة وطيبة وأنهم يريدون التعاون ونسيان الماضي.

وكانت إذاعة الفاتيكان تركز في نشراتها على الاجتماعات التي كنا نعقدها على أنني «مندوب» الملك فيصل، وعلى أننا اتفقنا على مبدأ الحوار.

السفير الإسرائيلي يسعى لوقف الحوار الإسلامي المسيحي

بعد ٤٨ ساعة من مغادرتي «الفاتيكان»، طلب السفير الإسرائيلي في روما مقابلة الكاردينال «بيمونوللي» مع أنه لم يكن بين «إسرائيل» و«الفاتيكان» تمثيل دبلوماسي، وإنما كان طلبه الزيارة باسم «حكومة إسرائيل».

وقال الصهيوني حرفياً: «نطلب منكم وقف أي حوار بين «الفاتيكان» وبين «المملكة العربية السعودية»..». فرفض الكاردينال طلب السفير.

وفي اليوم التالي، عاد السفير وكرر الطلب. ورُفض طلبه.

.. وهكذا على مدى خمسة أيام متوالية..!!

أكثر من ذلك، فقد بعث «البابا بولس السادس»، برسالة إجلال واحترام للملك فيصل وراوياً له فيها ماذا جرى بين السفير الإسرائيلي في روما والكاردينال «بيمونوللي» من إصرار على عدم تحقق لقاء الحوار بين الإسلام والمسيحية.

ثورة داخل الفاتيكان

يومها أعلنوا بأننا قمنا بثورة داخل الفاتيكان لأنه ليس من التقاليد البابوية أن يبدأ «البابا» الكتابة لأي رئيس دولة فقد جرت العادة، منذ القديم أن يتولى «البابا» الإجابة عن رسائل رؤساء الدول، لا أن يكون هو البادئ بكتابة الرسائل.بينما في حالتنا حصل العكس.

بدء الحوار

وقبل أن يبدأ الحوار بين علماء المملكة وبين «الفاتيكان» صدر عن مجمع الفاتيكان الثاني كتيب يقع في نحو (١٥٠) صفحة تحت عنوان «توجيهات للمسيحيين من أجل الحوار بينهم وبين المسلمين». فقد أمروا بنسيان الماضي، وذكروا بأن المسلمين ناجون عند الله، عملاً بما اتخذته أعلى سلطة في «الفاتيكان». وفي هذه الأجواء بدأت اجتماعات الحوار الإسلامي المسيحي في الفاتيكان، ويقول الدكتور دواليبي: ثم ما لبث أن دعانا «مجلس الوحدة الأوروبية»- بناء على قرار مجمع الفاتيكان الثاني- في «نستراسبورغ»، ولبينا الدعوة أيضاً التي وجهها إلينا «مجلس الكنائس العالمي» في جنيف، وأيضاً إلى وزارة العدل الفرنسية، ثم إلى «جمعية الصداقة السعودية - الفرنسية».

وكانت كل تلك اللقاءات تتم وفقاً لتلك الروح التي أعلنها «الفاتيكان»، والتي كان لها الدّوي والتأثير العظيمان. فقد كانت المرة الأولى في التاريخ التي يخرج فيها وفد من المملكة العربية السعودية، بناء على دعوة الغرب المسيحي، للقاء «البابا» و«مجلس الكنائس العالمي البروتستانتي» الذي يُقابل «الكنيسة الكاثوليكية».

وقف التنصير

يتابع الدكتور دواليبي ويقول: بعد إنهاء اللقاءات المتعددة التي حصلت بين علماء المملكة وبين كبار مسؤولي الفاتيكان، وفي يوم مغادرتنا عاصمة الفاتيكان وقف الكاردينال «بيمونوللي» مخاطباً العلماء المسلمين بقوله: «لقد قررنا في هذا اليوم وقف التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي ونحن نطلب منكم أن تعودوا إلينا بالبشارة، ذلك أن السيد المسيح عندما ودّع نبأهم أنه ستأتي من بعده «بشارة»- أي نبي يخبرهم بالحقائق، وقد جاء في سفر أشعيا ما يلي:

«بعد المسيح يأتي نبي عربي من بلاد «فاران» - بلاد إسماعيل- و«فاران» باللغة الآرامية هي بلاد الحجاز، وعلى اليهود أن يتبعوه، ولعامته أنه إن نجا من القتل فإنه النبي المنتظر، لأنه يفلت من السيف المسلول على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قديس».

وهذه تنطبق تماماً على الواقع، فقد جاء في القرآن الكريم حديث عن اليهود يحمل هذه النقاط:

«يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

فأعطى مكانه: «بلاد إسماعيل»- أي مكة المكرمة.

وأعطى صفته: «يهرب من السيف المسلول على رقبته»، وذلك عندما هرب ليلة المؤامرة التي حيكت لقتله صلى الله عليه وسلم.

«ويعود بعشرة آلاف قديس»: وقد عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة المكرمة بعشرة آلاف مؤمن.

فهذه النصوص واضحة كالشمس في رابعة النهار، ولذلك نعتبر أن ما صدر عن «مجمع الفاتيكان الثاني» في عهد «البابا بولس السادس»، كان خطوة طيبة وجديدة.

مقتل البابا.. والكاردينال

لقد استمر الغرب في تحريم التطرق لذكر الإسلام أو فهمه أو التعاون معه أو محاورته. هذه حقيقة بدأت منذ أن قضي على النفوذ الإسلامي في الغرب. وبواسطتها تم لجم أفواه الغربيين وإرعابهم ومنعهم من التطرق للإسلام. ومن جرائم الغرب الكثيرة هذه قتل بابا الفاتيكان الذي سعى للتقريب بين الديانتين والكاردينال بيمونيللي الذي كان الشخصية الثانية في الدولة البابوية.

لم يلبث البابا أن توفي في ظروف لا ندريها. كما توفي من بعده بقليل الكاردينال «بيمونوللي» الذي كان صلة الوصل بيننا وبين الفاتيكان. وبوفاتهما، توقف الحوار بين الإسلام والمسيحية آنذاك.

ومما لاشك فيه أنه كان لليهود يد في القضاء على الحوار الإسلامي المسيحي آنذاك إذ يضيف الدكتور الدواليبي ويقول: عندما انفصلنا، تواعدنا على أن تكون الندوة الثانية في الرياض، وفي هذه الفترة قتل «البابا» وقتل بعده بأيام «الكاردينال».

ثمار الحوار

مجال التعاون بين الإسلام والمسيحية في مكافحة العلمانية الملحدة. وفي مجال الدفاع عن حقوق الإنسان. في المؤتمرات المختلفة تعاون رجال الدين مسلمون ومسيحيون في هذه المجالات وأسفر التعاون عن نتائج طيبة. حدث ذلك في مؤتمر القاهرة وفي مؤتمر المرأة ببكين.

وهناك تعاون في المجال التربوي أيضاً. يخبرنا أحد المندوبين إلى المؤتمر ويقول: كان الأب ألكسي الثاني يطلب منا أن نتحدث عن تجاربنا في تربية الشباب وتربية السجناء، وذوي العقد النفسية، وكان يقول: عندكم تجارب جيدة في صد الهجوم الثقافي، ونحن نتعرض لهجوم ثقافي إباحي يجب أن نتحاور في كيفية الوقوف بوجه هذا الطوفان الإباحي.

ومن ثمار هذا الحوار أن نظرة بعضنا إلى البعض الآخر قد تغيّرت . فبدل أن ينظروا إلى علماء الدين في إيران بأنهم علماء متزمتون بعيدون عن الحياة. أصبحوا يعرفون أنهم حضاريون ولهم موقف من التاريخ والحضارة والعلاقات الدولية. وهناك مجال جيد للبحث في العلاقات الدولية. ماهي العلاقات الدولية الأنسب فى نظر الأديان؟ من هنا فإن مجال الحوار واسع جداً ومثمر جداً.

معوقات الحوار الحالية

نلاحظ جميعاً سهولة التحاور بين المسلمين وأشقائهم المسيحيين العرب، وسهولة توصلهم إلى نتائج مرضية ومثمرة في كل حوار. وبالمقابل نلاحظ تعسّر الحوار مع المسيحية الغربية، وهذا العسر ناتج عن الثقافة الغربية الموروثة نفسها تلك التي تدبّ الرعب في قلب الأوروبي من مجرد ذكره للإسلام. فالغرب مريض من ثقافته الكاذبة ويمكن محاورته بصعوبة وتخليصه منها.

لا نستطيع أن نحكم على كل المسيحية بحكم واحد. ولا على كل رجال الدين المسيحيين بحكم واحد. وإذا أردت أن تضع يدك على النقطة التي أوقفت كل تجارب الحوار من الاستمرار، فإنك ستصل إلى مشكلتين:

الأولى: موجودة عند المسلمين، وتتمثل بالتشكيك في نوايا الآخرين ، نتيجة التاريخ الطويل والأحقاد الصليبية، والتآمرات، وارتباط بعض عناصر الكنائس المسيحية بالاستعمار. مما يخلق تشكيكاً في نوايا الحوار. ولهذا توجب علينا أن نفصل بين المسيحية من جهة، وحكام الدول المسيحية الغربية من جهة أخرى.

الثانية: موجودة عند المسيحيين وهي عدم جرأتهم على الاعتراف الرسمي بنبوة محمد، وليس من الضروري للمسلم أن يطالب خلال الحوار بهذا الاعتراف المسيحي. فالحوار لأجل التفاهم والتعاون وليس لأجل أسلمة المتحاورين المسيحيين. والحوار لأجل التعريف بالإسلام وبعدئذ يختار المسيحي الذي أعجب بالإسلام أن يدخل فيه أم لا.

وهـذه النقطـة العقيديـة تمـنعهم مـن الـدخول في مـسألة الحـوار، وتتمثـل بـبعض النصوص الإنجيلية التي لا تـسمح لهـم بـالاعتراف بنبـوة محمـد(صلى الله عليـه وآلـه)، هذه النصوص تقول لهم: إن المسيحية هي خاتمـة الأديـان، أو تـذم مـن يـدعو إلى النبـوة بعد المسيح.

المـسلم يعلـن نبـوة المـسيح وطهـارة مـريم وعظمـة الإنجيـل ، أمـا المسيحي فلـه مشاكل في الاعتراف بنبـوة محمـد كنبي مـن الأنبيـاء أو الاعـتراف بـالقرآن صـراحة. أما من ناحية القناعة الشخصية الذاتية عنـد المسيح فـالأمر يختلـف كـثيراً ، إذ يـؤمن أغلب المسيحيين بنبوة محمد وبحقيقة القرآن وبحقيقة الإسـلام كدين سمـاوي وخـاتم الرسـالات، وتدلّ تصريحات هؤلاء الكثيرة على اقتنـاعهم بهـذه الحقـائق. فكـل مـن يقـول بـأن الإسـلام ديـن سمـاوي هـو يعـترف ضـمناً بـأن الإسـلام مـن عنـد الله ويعـترف ضمناً بنبوة محمد، وبالتالي يعترف بصوابية القرآن.

غربيون يعتزون بالإسلام

وول ديورانت

مؤلـف أمريكـي معاصـر، يعـدّ كتابـه (قـصة الحـضارة) ذا الـثلاثين مجلـدًا، واحـدًا مـن أشـهر الكتـب الـتي تـؤرخ للحـضارة البـشرية عـبر مـساراتها المعقـدة المتشابكة، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥،

ويكتـب في الـصفحة ٦٨ مـن الجـزء ١٣ : ".. ظـل القـرآن أربعـة عـشر قرنـاً مـن الزمـان محفوظًـا في ذاكـرة المـسلمين يـستثير خيـالهم، ويشكل أخلاقهـم، ويـشحذ قـرائح مئـات الملايـين مـن الرجـال. والقـرآن يبعـث في النفـوس أسـهل العقائـد، وأقلـها غموضًـا، وأبعـدها عـن التقيـد بالمراسـم والطقـوس، وأكثرهـا تحـررًا مـن الوثنيـة والكهنوتية. وقد كـان لـه أكـبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقـافي، وهو الذي أقام فيهم قواعـد النظـام الاجتمـاعي والوحـدة الاجتماعيـة، وحرّضـهم علـى اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهـام، ومـن الظلـم

والقسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض."

موريس بوكاي

طبيب وعالم فرنسي معروف. كان كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) من أشهر المؤلفات أصالة واستيعابًا وعمقاً. وفي الصفحة ١٥٠ منه يكتب:

"قمت بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي حياد فكري مسبق وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا. وبالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض."

"لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بالظاهرات العلمية وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد [صلى الله عليه وسلم] أن يكوّن عنها أدنى فكرة.)."

عبد الله كويليام

مفكر إنكليزي،ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية) و(أحسن الأجوبة).

"من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. (وهو حافل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة).." (العقيدة الإسلامية، ص ١١٩ – ١٢٠). "أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف ماديًا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعديمة التأثير" (العقيدة الإسلامية ، ص ١٢٢ – ١٢٣).

"هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقًا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبًا كذلك يرى موافقًا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقّت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين. وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعًا لجميع ما يحتاجه البشري في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضًا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول.." (العقيدة الإسلامية، ص ، ص ١٣٩ – ١٤٠).

روم لاندو

نحّات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢-١٩٥٧)، من آثاره: (الله ومغامراتي)، (بحث عن الغد)، (سلم الرسل)، (دعوة إلى المغرب)، (سلطان المغرب)، (فرنسا والعرب)، (الفن العربي) وغيرها.

"بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحي المحمدي. والواقع أن كثيرًا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية" (الإسلام والعرب ، ص ٣٦ – ٣٧). ".. كلف كاتب الوحي، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب وكان أبو بكر [رضي الله عنه] قد أشرف على هذه المهمة. وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان [رضي الله عنه] اتخذ القرآن شكله التشريعي النهائي الذي وصل إلينا سليماً لم يطرأ عليه أي تحريف" (الإسلام والعرب ، ص ٢٩٦). ".. إن بين آيات قصار السور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجداني برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيرًا ما يخلف في نفس المرء تأثيرًا بليغًا. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير. ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكمًا عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزًا لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله" (الإسلام والعرب ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧).

جوستاف لوبون

ولد عام ١٨٤١م، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

".. إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى[عليه السلام].. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة" (حضارة العرب، ص ٤٣١ – ٤٣٢).

اليس ليختنستادتر

سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

".. إن المسلم العصري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يوجب عليه، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه.. وإن مزية القرآن – في عقيدة المسلم – أنه متمم للكتب السماوية ويوافقها في أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان" (الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ، ص ١٩). من الضروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسًا لإدراك الحكم المعقدة التي تعالج

مشكلات المجتمع الحديث. فإن النبي [صلى الله عليه وسلم] يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الإلهي وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان. وإن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان. وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره" (الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ، ص ١٩).

فنسان مونتانييه

فرنسي، اختص بدراسة القضايا الإسلامية والغربية، عن كثب، قضى سنوات عديدة في المغرب والمشرق وانتهى الأمر به إلى إعلان إسلامه في صيف عام ١٩٧٧.

"إنني لا اشك لحظة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وأعتقد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه بعث للناس كافة، وأن رسالته جاءت لختم الوحي الذي نزل في التوراة والإنجيل. وأحسن دليل على ذلك هو القرآن المعجزة. فأنا أرفض خواطر بسكال العالم الأوروبي الحاقد على الإسلام والمسلمين إلا خاطرة واحدة وهي قوله: ليس القرآن من تأليف محمد [صلى الله عليه وسلم]، كما أن الإنجيل ليس من تأليف متّى" (رجال ونساء أسلموا ، ٥ / ٤٥). ".. إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل أفرغ من دمه" (رجال ونساء أسلموا ، ص ٥ / ٥٠ – ٥١).

عائشة بريجت هوني

نشأت في أسرة إنكليزية مسيحية، وشغفت بالفلسفة، ثم سافرت إلى كندا لإكمال دراستها، وهناك في الجامعة أتيح لها أن تتعرف على الإسلام، وأن تنتهي إليه، وقد عملت مدرسة في مدرسة عليا في نيجيريا.

".. لن أستطيع مهما حاولت، أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام.."(رجال ونساء أسلموا ، ص ١ / ٥٩ – ٦٠).

مونتيجومري وات

عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا سابقًا. من آثاره: (عوامل انتشار الإسلام)، (محمد في مكة)، (محمد في المدينة)، (الإسلام والجماعة الموحدة)، وهو دراسة فلسفية اجتماعية لردّ أصل الوحدة العربية إلى الإسلام (١٩٦١).

"يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظرًا لنجاح محمد [صلى الله عليه وسلم] في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليغها.." (محمد في مكة ، ص ١٣٥).
"يجب علينا في رأيي، مهما كان موقفنا الديني، أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقًا خلاقًا في الوضع المكي. ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحلّ، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمان إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي.. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلّها جميعًا دفعة واحدة وليس بصورة بديهية. ولربما قال مؤرخ دنيوي أن محمدًا وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمان ليس هذا ممكنًا. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفند لنا كما يجب رسالة القرآن" (محمد في مكة ، ص ١٣٥ – ١٣٦).

جان جاك روسو

من أشهر الفلاسفة الفرنسيين في عهد النهضة، قرأ ترجمة القرآن الكريم وفلسفة ابن رشد الأندلسي وأعجب بالإسلام. وقد تأثّر نتاجه الفكري بالعقائد الإسلامية. فجاءت أول عبارة في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) تقول: خلق

الإنسان حراً فلماذا نستعبده ؟. وهذه المقولة متأثرة بمقولة عمر بن الخطاب الشهيرة " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟. ويقول روسّو في العقد الاجتماعي الذي كان يعتبر منهج الثورة الفرنسية: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب لخرّ ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار."

هنري دي كاسترو

ضابط في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠) ورد في كتاب "الإسلام خواطر وسوانح ص ١٨" قوله:

".. إن العقل يحار كيف يتأتّى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القس إن هذا الكلام وكلام عيسى جاءا من مورد واحد. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب). ثمّ كيف يعقل أن النبي ألّف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب.."

إيتيان دينيه

أشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام. ومن آثاره : (حياة العرب)، و(حياة الصحراء)، و(أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(الشرق في

نظر الغرب)، و(الحج إلى بيت الله الحرام). ويقول في كتابه أشعة خاصة بنور الإسلام ص ١٠٦ :

"لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله [صلى الله عليه وسلم] إلينا اليوم لكان ميسورًا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم".

فرانز روزينتال

فرانز روزينتال من أساتذة جامعة بيل. وضع عددًا من الكتب أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين).ويكتب فيه، الصفحة ٢١ : "من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدّعي اليهود وجوده في التوراة. وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود والنصارى حرّفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول ، وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي لأن الأحداث التي أشارت إليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية.

جاك ريستلر

باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس. ويكتب في الحضارة العربية ص ٣٠ و ٤٥ : ".. لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى

بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبّر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا كان ملهمًا بجلال الله وعظمته" "كان في القرآن فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف.. وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن في نصه الأصلي" "إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ.."

جورج سارتون

ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١)، ، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسيتها فعين محاضرًا في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد، من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخير تصانيفه وأجمعها: (المدخل إلى تاريخ العلم).

وهو يقول: "إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد.. وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة".

بوزينا غاجان ستريزوسكا

باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا. وهي تقول: "إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أميّة، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة" (تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها ، ص ١٧).

وليم بيرشل بيكارد

مؤلف وكاتب مشهور. ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنكليزية (مغامرات القاسم) و(عالم جديد). أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م. جاء في كتاب رجال ونساء أسلموا ص. ٨٦ ج ٢ ، قوله: ".. ابتعت نسخة من ترجمة سافاري (Savary) الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك. فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيرًا حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق علي بنوره المبارك."

سير: توماس أرنولد

من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب كتاب (تراث الإسلام). تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذًا للفلسفة. متعاطف مع الإسلام، ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الإسلام) و(الخلافة).

وهو يقول في كتاب"(الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢) إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar الإسباني الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به".

مارسيل بوازار

- مفكر فرنسي معاصر. يعتبر كتابه (إنسانية الإسلام)، الذي انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز.

يقول في كتابه "(إنسانية الإسلام) " إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث "لابدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعًا أصليًا، وينبوع إلهام أساسي.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته. إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب .." ".. إن القرآن لم يقدّر فقط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة".

ديبورا بوتر

ولدت عام ١٩٥٤ ، بمدينة ترافيرز الأمريكية، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠ بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان. جاء في كتاب رجال ونساء أسلموا قولها: ".. عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية. ونجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة" "كيف استطاع محمد الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات

الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابدّ إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل".

ميلر بروز

أستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (ييل). وجامعة براون، والجامعة الأمريكية في بيروت، ومن مؤلفاته: "الأديان ١٩٤١" و"فلسطين قضيتنا".

يقول في الثقافة الإسلامية ص ٥١ :"إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس ٥].

وكثيرًا ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: {وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف ١٣].

بارتلمي هيلر

ويقول المستشرق بارتلمي هيلر :"لما وعد الله رسوله بالحفظ بقوله "والله يعصمك من الناس" ، صرف النبي حراسه ، والمرء لا يكذب على نفسه ، فلو كان لهذا القرآن مصدر غير السماء لأبقى محمد على حراسته !".

ر. ل . بلاشير

ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج من كلية الآداب بالجزائر وعين أستاذًا محاضرًا في السوربون، من آثاره: كتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء. يقول في كتابه (تاريخ الأدب العربي: "لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك

العهد.. إن خصوم محمد [عليه الصلاة والسلام] قد أخطأوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم – استقرائيًا فقط – بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول [عليه الصلاة والسلام] ذكرها في هذه السور اندفاعًا وألقاً وجلالة تخلّف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا".

أنّا ماريا شميل

تقول المستشرقة الألمانية أنا ماريا شميل، في مقدمتها لكتاب (الإسلام كبديل) لمراد هوفمان :"القرآن هو كلمة الله، موحاة بلسان عربي مبين، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحي، فمن ذا الذي يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأي لغة؟!".

إميل ديرمنجيم

مستشرق فرنسي، ومن آثاره: (حياة محمد) ١٩٢٩ وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكتب فيه ص. ١٣١ : "للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى [عليه السلام] كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح [عليه السلام] ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم."

كات ستيفينز

المغني البريطاني المشهور. بيع من أسطواناته ما يقدر بالمليون في الستينات وأوائل السبعينات، اعتنق الإسلام وتسمي باسم يوسف إسلام عام ١٩٧٦ بعد أن تعرف على القرآن الكريم بواسطة شقيقه. يقضي الآن معظم وقته في المسجد ويلعب دورًا فعالاً في شؤون الجالية الإسلامية في لندن . يكتب عن الإسلام: "في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلت كل شيء وحققت لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء.. كل شيء، ولكن كنت مثل القرد أقفز من شجرة إلى أخرى ولم أكن قانعًا أبدًا. ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شيء بداخلي كنت أراه حقًا، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتي الحقيقية".

أحمد نسيم سوسه

باحث ومهندس من العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، ترك بعد وفاته الكثير من الدراسات في مختلف المجالات. ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته. ويكتب فيه :

"يرجع ميلي إلى الإسلام.. حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعًا شديدًا.. وكنت أطرب لتلاوة آياته.."

".. الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب وقد جاء ذلك تأييدًا علميًا للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقًا الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيرًا ما يصوّبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو

تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم دون أن يتغير فيه حرف واحد".

مايكل هارت

الباحث الأمريكي مايكل هارت أصدر في السبعينات من القرن الماضي كتاب "المائة الأوائل" الذي ترجم إلى العربية وفيه اختار أعظم شخصية من المائة الأوائل الذين قدّموا فوائد للبشرية كلها اختار لذلك شخصية محمد عليه السلام.وفيه يقول: "لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقي بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن". "بين أيدينا كتاب فريد في أصالته وفي سلامته ، لم يُشكّ في صحته كما أُنزل ، وهذا الكتاب هو القرآن". ويقول مايكل هارت في كتاب (المائة الأوائل) : "كان محمد الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح في مهمته إلى أقصى حد ، سواء على المستوى الديني أم على المستوى الزمني".

لويس سيديللو

مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديللو الذي توفي عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. صنّف لويس كتابًا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب). وفي كتابه (تاريخ العرب العام) يقول:

"لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم. ويكفي جمع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن.. إنه أبصر كلّ شيء."

"مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي أفريقية حتى السودان، كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر..".

هنري سيرويا

مستشرق فرنسي. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (١٩٢١)،و (الصوفية والمسيحية واليهودية)، و (فلسفة الفكر الإسلامي) الذي يكتب فيه:

".. القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، (ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف – لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة)، حيث لم يشعر الإسلام يومًا بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي. فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تمامًا خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين مليء بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد صلى الله عليه وسلم مع كونه مبعوثًا ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبهًا إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملاك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله.."

ايفلين كوبولد

نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤) والذي ترجم إلى العربية بعنوان: (البحث عن الله).

"وذكرتُ أيضًا ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعإلى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة" (البحث عن الله، ص٤٥).

"إن أثر القرآن في كل هذا التقدم [الحضاري الإسلامي] لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانًا وحضارة.." (البحث عن الله ، ص ٥١). "الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفًا ، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعرًا ، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا ، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطبًا فلسفية كمحاورات أفلاطون.

فون هامر

يقول المستشرق (فون هامر) في مقدمة ترجمته للقرآن :"القرآن ليس دستور الإسلام فحسب، وإنما هو ذروة البيان العربي، وأسلوب القرآن المدهش يشهد على أن القرآن هو وحي من الله، وأن محمداً قد نشر سلطانه بإعجاز الخطاب، فالكلمة لم يكن من الممكن أن تكون ثمرة قريحة بشرية". "القرآن وحي من الله، لا يحده زمان، ومتضمن للحقيقة المركزة".

ليو تولستوي

ويقول الأديب الروسي (ليو تولستوي) والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه الحرة الجريئة : "أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء ... ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وفتح لها.

يوشيودي كوزان

ويقول البروفسور يوشيودي كوزان – مدير مرصد طوكيو – نقلاً عن كتاب (إنه الحق):" إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود ... إن الذي قال هذا القرآن يرى كل شيء في هذا الكون ، وكل شيء مكشوف أمامه" .

ويحاول المفكر مارسيل بوازار أن يصل إلى سر التأثير العجيب للقرآن فيقول : "القرآن يخاطب الإنسان بكليته ... من منظور تستطيع نسبته إلى علم النفس التطبيقي."

قلت : إن الذي خلق النفس البشرية والخبير بدروبها ومنعطفاتها وآفاقها ، هو الذي أنزل القرآن ليهديها السبيل. " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ".

يوهان غوتية

غوتية الشاعر والروائي الألماني الشهير يقول:

"إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة ... فالقرآن كتاب الكتب، وإني أعتقد هذا كما يعتقده كل مسلم ... وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي ". ولما بلغ غوته السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بليلة القدر التي أنزل فيها القرآن على النبي محمد.. وفي يوم أبصر غوته ريشة طاووس بين صفحات القرآن فهتف : "مرحباً بك في هذا المكان المقدس ، أغلى كنز في الأرض" وفي ديوانه (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يقول غوته :

هاجر إلى الشرق في طهره وصفائه

حيث الطهر والصدق والنقاء

ولتتلقَ كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض

القرآن ليس كلام البشر

فإذا أنكرنا كونه من الله

فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله! وفي ديوانه الرائع (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يخاطب شاعر الألمان غوته، أستاذه الروحي الشاعر حافظ شيرازي فيقول :

أي حافظ أنت !

إن أغانيك لتبعث السكون ...

وإنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة

لتحملنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم

محمد بن عبد الله ....

ويقول غوته :

إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا

لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد

وسوف لا يتقدم عليه أحد

لامارتين

يقول الشاعر الفرنسي الشهير (لا مارتين) : "أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية ، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد ؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه ، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة . إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد ، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق"

جورج برناردشو

يقول الفيلسوف الإنجليزي جورج برناردشو : "لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً ، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ، وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد ، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة ! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي" "إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً ، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم" "لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً ، سوى محمد ، كان صاحب رسالة وباني أمة ، ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد ، كانت وحدة متلاحمة ، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ".

فولتير

ويقول الفيلسوف الفرنسي فولتير : "لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد ، والإسلام لم يتغير قط ، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة". ونتيجة لأبحاثي الطويلة حول فولتير أؤكد أنه اعتنق الإسلام في العقد الأخير من حياته.

هانز كونج

عالم اللاهوت السويسري المعاصر د. هانز كونج والذي يعتقد أن المسيح إنسان ورسول فحسب اختاره الله ، فيقول : "محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة ، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة" ومما ميز حياة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم أن حياته وسيرته وشمائله كلها قد حفظها لنا

التاريخ ، فليس ثمة غموض في أي ناحية من حياته وسيرته . وقد اعترف بهذه الحقيقة كبار المؤرخين الغربيين .

الكونت كاتياني

يقول الكونت كاتياني في كتابه (تاريخ الإسلام) : "أليس الرسول جديراً بأن تقدَّم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام؟! وإن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها ، فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل" .

المستشرق هيل

ويقول المستشرق هيل في كتابه (حضارة العرب) : "لقد أخرج محمد للوجود أمة ، ومكن لعبادة الله في الأرض ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية ، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام كانت لا تعرف غير الفوضى".

جان ليك

يقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه (العرب) : "لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله : ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) كان محمد رحمة حقيقية ، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق".

كريستوفر دارسون

يقول المؤرخ كريستوفر دارسون في كتابه (قواعد الحركة في تاريخ العالم): "إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئاً بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد".

كليمان هوارت

ويقول الباحث الفرنسي كليمان هوارت : "لم يكن محمد نبياً عادياً ، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء ، لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه ... نبي ليس عادياً من يقسم أنه "لو

سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها" ! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً".

بوشكين

ينشد الشاعر الروسي الشهير بوشكين في قصيدة رائعةيصف فيها الرسول محمد عليه السلام ويقول:

شُقّ الصدر

ونُزع منه القلب الخافق ...

غسلته الملائكة ،

ثم أُثبت مكانه !

قم أيها النبي وطف العالم ....

وأشعل النور في قلوب الناس.

الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل

" لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خدّاع مزوِّر . وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ ! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل هذا القبول، فما الناس إلا بُلْهٌ مجانين ، فوا أسفا ! ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء والرحمة . وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ؛ فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهي دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الأرواح في حياة الأبدان . ولعل العالَم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأَم ، وهل

رأيتم قط معشر الإخوان ، أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره علناً؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ؛ فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير، والجص ، والتراب ، وما شاكل ذلك ـ فما ذلك الذي يبنيه ببيت، وإنما هو تل من الأنقاض ، وكثيب من أخلاط المواد . نعم ، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه، فينهدم؛ فكأنه لم يكن " " وعلى ذلك ، فلسنا نَعُدُّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته ، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائر. وما الرسالة التي أدَّاها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا قول صادق. كلا، ما محمد بالكاذب، ولا المُلفّق ، وهذه حقيقة تدفع كل باطل، وتدحض حُجة القوم الكافرين . ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثه العهد إذ ذاك في بلاد العرب ـ وعجيب وأيم الله أُمِّيَةَ العرب ـ ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء، أولئك الذين أشبِّههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور. وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم بعيداً، كريماً بَرًّا، رؤوفاً، تقياً، فاضلاً، حراً، رجلاً، شديد الجد ، مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب، ليِّن العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان ـ على العموم ـ تضيء وجهه ابتسامةٌ مشرقة من فؤاد صادق؛ لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأقواله ". " كان عادلاً ، صادق النية ، كان ذكي اللب، شهم الفؤاد ، كأنما بين جنبيه مصابيح.

مشاهير دخلوا في الإسلام

القسّ إبراهيم خليل

" إبراهيم خليل أحمد " قس مبشر مصري يحمل شهادات عليا في علم اللاهوت. أشهر إسلامه وهو يكتب عن الدين الحنيف:

"يرتبط هذا النبي (ص) بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح (عليه السلام) في قوله عنه : (ويخبركم بأمور آتية) ، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان. فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه: من طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ .. ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف ..."

وقال أيضاً: "إن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة ".

دوغلاس أرشر

الدكتور دوغلاس أرشر من جامايكا يعمل مديراً للمعهد التربوي فيها، وبعدما تحول إلى الإسلام يقول:

"إن بحثي لنيل إجازة الدكتوراه كان عن التربية وبناء الأمة . ومن هنا عرفت ما تحتاج إليه الأمم لبنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذلك البناء الروحي. واكتشفت أن أركان الإسلام الأساسية تقدم أساساً عظيماً وقاعدة قيمة لإعادة بناء الأمة اجتماعياً واقتصاديا وروحياً" ("رجال و نساء أسلموا" ج٥/ص ٥٦)، وقال أيضاً: "لو أُحْسِنَ عرض الإسلام على الناس لأمكن به حل كافة المشكلات ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية والسياسية للذين يعيشون في ظل الرأسمالية والشيوعية على السواء " ("رجال و نساء أسلموا" ج٥/ص ٥٧).

"الدكتور علي سلمان بنوا" طبيب فرنسي.

"تمسكت بالإسلام، بادئ ذي بدء، لأسباب وراء الطبيعة. ولكن أسباباً أخرى أيضاً دفعتني إلى ذلك. فعلى سبيل المثال، كنت أرفض ما يزعمه الرهبان لأنفسهم

بأنهم يملكون صلاحية الغفران للذنوب نيابة عن الله سبحانه وتعإلى .. "("رجال و نساء أسلموا" ج٦/ص ٦).

ديبورا بوتر

ديبورا بوتر أمريكية تخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان. تحوّلت إلى الإسلام وهي تتحدث واصفة إيمانها وتقول:

"عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها . وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية . أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة" ("رجال و نساء أسلموا" ج٨/ص ١٠٠).

وتتحدث عن قناعة الغربين بالإسلام وحتمية توصلهم إلى اعتناقه وتقول:

"إن الناس في أوربا وأمريكا يُقبلونَ على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة لأنهم متعطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي بل إن عدداً من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدأوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة لا سبيل إلى إنكارها" ("رجال و نساء أسلموا" ج٨/ص ١١٤).

كوفهي لال جابا

"كوفهي لال جابا" من لاهور رجل سياسة ومؤلف وصحفي.

"إن الإسلام هو أفضل دين للبشرية .. فالإسلام يتغلغل في حياة المسلم بكل تفاصيلها ، بل له الكلمة الفصل في كل نشاط يقوم به المسلم وليس هناك أي دين آخر غير الإسلام لديه الإمكانية لحل كافة مشكلات الناس في العالم الحديث ، وهذا هو امتياز الإسلام وحده" .

هنري دي كاستري

كان ضابطا في الجيش الفرنسي وبعدما أسلم تحدث عن الإسلام يقول:

"إن العقل يحتار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظا ومعنى". ("الإسلام خواطر و سوانح" ص ١٨).

و قال أيضاً : "قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين آنذاك" ("الإسلام خواطر و سوانح" ص ٤٤)، و "إننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقي أثراً لما زعموه من أنه إنما انتشر بحد الحسام . ولو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة .." ("الإسلام خواطر و سوانح" ص ٤٨-٥٠).

ناجيمو راموني

"إنني على يقين تام من أن الإسلام يعزز مبادئه وتعاليمه بالحجج المنطقية على النقيض من الأديان الأخرى . وهكذا فعلى الرغم من الجهود الضخمة التي تبذلها الأديان المختلفة الأخرى فقد عجزت تماماً عن منافسة الإسلام ، ناهيك عن سبقه إلى قلوب الناس .. كما أن الملاحظ أن جميع الدعوات الأخرى في انحسار دائم أمام عظمة الإسلام" ("رجال و نساء أسلموا" ج٩/ص ٥٧).

بشير أحمد شاد

ولد عام ١٩٢٨ ، لأسرة مسيحية هندية . كان أبوه ماتيوس مبشرًا نصرانيًا ولذا حرص على تنشئة ابنه على ذات الطريق، وانتهى به الأمر بعد عشرين سنة من البحث والمعاناة إلى إعلان إسلامه عام ١٩٦٨.

".. عندما آمنت بالتوحيد بدأت أبحث عن الحجج والبراهين التي تثبت أن القرآن هو كتاب الله تعالى وأنه آخر الكتب السماوية وخاتمها. وإنني أحمد الله إذ

مكنني من حل هذه المسألة. فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكافة الكتب السماوية الأخرى، بينما نجد أنها جميعًا يرفض بعضها بعضًا.. وهذه في الحقيقة هي إحدى خصائص ومميزات القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وخاتمها" (رجال ونساء أسلموا ، ص ٧ / ١٩ – ٢٠). إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب ألوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط. ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور. وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحي على رسول الله [صلى الله عليه وسلم]. فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم.

لورا فيكسيا فاجيليري

باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها. من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (١٩٣٧ – ١٩٤١)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

"إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نَفَسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء [عليهم السلام] وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله

وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا – وهما صفتان لا تجتمعان عادة حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد [صلى الله عليه وسلم]، وهو العربي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٦ – ٥٧).

"إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يومًا بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًا عميقًا من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٩). "إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد [صلى الله عليه وسلم] أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٩).

ليوبولد فايس

مفكر، وصحفي نمساوي، أشهر إسلامه، وتسمى بمحمد أسد، وحكى في كتابه القيّم (الطريق إلى مكة) تفاصيل رحلته إلى الإسلام. وقد أنشأ بمعاونة وليم بكتول، الذي أسلم هو الآخر، مجلة (الثقافة الإسلامية)، في حيدر آباد، الدكن (١٩٢٧) وكتب فيها دراسات وفيرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام. من آثاره: ترجم صحيح البخاري بتعليق وفهرس، وألف (أصول الفقه

الإسلامي)، و(الطريق إلى مكة)، و(منهاج الإسلام في الحكم)، و(الإسلام على مفترق الطرق).

"أصبحت إلسا (زوجتي)، شأني أنا، أكثر تأثرًا مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليم [القرآن] الأخلاقية وتوجيهاته العملية. إن الله بمقتضى القرآن، لم يطلب خضوعًا أعمى من جانب الإنسان بل خاطب عقله: إنه لا يقف بعيدًا عن مصير الإنسان بل إنه (أقرب إليك من حبل الوريد) إنه لم يرسم أي خط فاصل بين الإيمان والسلوك الاجتماعي" (الطريق إلى مكة ، ص ٣١٨).

سيدني فيشر

أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شؤون البلاد الشرقية، وله كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

"إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتمادًا على أثره البليغ في قلوب قرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع". (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤). ".. إن القرآن كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلامًا عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره.." (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي ، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤).

هاملتون الكساندر روسكين جب

يعد السير هاملتون إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠ ، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧ ، وعضو

مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن. من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (١٩٢٦)، (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية. "إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة ١٧٧]. فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله" (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤). "مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا" (دراسات في حضارة الإسلام ، ص ٢٥٤).

جورج حنا

مسيحي من لبنان ، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان). يقول في (قصة الإنسان ص. ٧٩) " لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزّلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

إشكاليات في طريق الحوار الإسلاميّ المسيحيّ

الحوار الإسلامي-المسيحيّ شعار كبير نادى به الكثيرون وقلائل هم من سعوا إليه فعلاً وقد تكون الخطوة الأولى على هذا الطريق التوصّل إلى تقبّل الآخر في اختلافاته، بهدف معالجة هذا الحوار الذي تتفرع منه حوارات أخرى من كلّ الأشكال والالوان. ولعلّنا نعيش حالياً "عصر الحوار"، فمن الحوار السياسيّ إلى الحوار الدينيّ، مروراً بالحوار الاجتماعي، ويبقى المطلوب واحداً وهو التفاهم.

توظيف الدين

كل الأديان في جوهرها تدعو إلى السلام مع الله أو مع من تؤمن به ، ولكن استخدامات الدين من قبل البشر وتوظيفه لخدمة مصالح خاصة تجعل من الدين وسيلة للصراع والنزاع وبالتالي عدم الاستقرار. اذاً، المصالح الفردية الضيقة هي التي تستفيد من تدين الناس وتجعله وسيلة للتناحر والتنافس غير الديمقراطي وغير الشريف بينهم.

أن تتكشف إمكانات تحاور بين ما اتُفِق على توصيفه بالتعددية ، أو الاختلاف، التمايز، وبالتالي بلوغ هدوء سلامي مبني على قاعدة احترام الكرامة الإنسانية، أم أمسى العالم محكوماً بإلغاء الخصوصيات؟ . على الأرجح، وفي قراءة مقتضبة لمجريات الأحداث، يبدو أن الإجابة على هذا التساؤل شائكة، إذ وتيرة التوترات، إلى تصاعد، والأصوليات إلى تنامٍ، والمقاربات الاحتكاكية للتمايزات إلى مزيد من الانفعالات غير البناءة . إلا أننا، ونحن أبناء الله الواحد إله المحبة، وأبناء الرجاء مدعوون إلى استثمار في حقل الحوار الديني حوار الحياة، بما هو إغناء لإنسانية الإنسان، وترسيخ لماهيته المصانة كونه مخلوقاً عظيماً.

مواضيع يجب التوصل اليها

الإيمان بأن حياة الإنسان وكرامته هبة من الله وليستا منة من أحد على احد، التأكيد أن الواجبات أساس تقرير الحقوق ، إذ لا حقوق بدون واجبات ، فهما أمران متلازمان . الإهابة بالحكومات والدول الاعتناء بتكوين ثقافة الأجيال على أساس من الإيمان والتوازن بين الواجبات والحقوق ، من أجل إقامة التوازن الإيجابي بين المسؤوليات . احترام التعددية والخصوصية الدينية للشعوب وتحريم انتهاك حرمة المقدسات والمعابد والرموز الدينية .

إعادة الاستقرار إلى النظام العالمي.

الدفاع عن المكانة المقدسة للانبياء والأديان السماوية.

حماية الاماكن التاريخية والتراثية.

الحفاظ على حرمة المقدسات.

ترسيخ علاقة المسلمين بالمسيحيين.

ترسيخ للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين، التي تتحقق من خلال صفاء نظرة كل من المسلم والمسيحي إلى الآخر ماهية نظرة الديانتين إلى الإنسان عامة، وإلى أتباع الديانات الأخرى والتعددية في الأديان والعلاقة بين السياسة والدين، نماذج للعيش المشترك بين الديانتين وشهادات شخصية.

مسلمون ومسيحيون في مواجهة التحديات

مؤتمر "مسلمون ومسيحيون في مواجهة التحديات" أدان الأعمال الوحشية والاعتداءات المشينة التي يقوم بها العدو الصهيوني ضد شعب فلسطين والتي تتنافى مع كل الشرائع السماوية والأعراف الدولية والضمائر الحية. وشدد على العمل المشترك الذي يجمع بين أبناء الديانتين في ترسيخ منظومة القيم لبناء إخاء إنساني شامل وتعزيز وحدة وطنية رائدة .والتمسك بالقيم والمبادئ الأخلاقية والتأكيد على حماية الأسرة وتفعيل دورها في بناء جيل واع ملتزم بتلك المبادىء التي نادت بها الأديان

السماوية...وكان الملتقى قد تناول عدداً من المحاور الهامة تشمل المسلمين والمسيحيين في مواجهة العدو المشترك والتطرف والفتن الطائفية والتطهير العرقي والمسيحية المتصهينة .

الشهادة عند المسلمين والمسيحيين

في نطاق الحوار الإسلامي المسيحي أقيمت في الثانوية الإنجيلية اللبنانية في صور ندوة حول "الشهادة في المسيحية والإسلام"، تحدث فيها مفتي صور وجبل عامل السيد علي الامين والمدير العام للجمعية القس الدكتور عيسى دياب. كلمة السيد علي الامين الذي قال إن "تعاليم الأديان لا تختلف بعضها عن بعض ومحورها الإنسان. هي مدرسة تتكامل في تعاليمها وتلتقي في هذا المحور محور الإنسان والإنسانية جمعاء.

ويلدرز يشبه القرآن بكتاب كفاحي

لعله من الحكمة أن نطّلع على مايقولونه من افتراءات على الإسلام والمسلمين. ولن يضرّنا ذلك أبداً. إذ تأتي هذه الافتراءات من ضمن سياق ونهج قديم معاد وخائف من الإسلام. وهو عقدة من الإسلام وهو أيضاً محاولات يائسة لوقف انتشار الإسلام في أوروبا. وسوف نسمع افتراءات أكثر حدة من هذه في المستقبل القريب. فالغرب وضع نفسه اليوم في مكان المدافع عن كينونة زائفة وسيضطر للهجوم الكبير.

وفي هذا السياق الطائفي دعا عضو البرلمان الهولندي وزعيم حزب "الحرية" المتطرف جيرت ويلدرز إلى حظر القرآن في هولندا واصفاً إياه بأنه كتاب "فاشي" يحض من يؤمن به على القتل والاغتصاب.

ولحزب الحرية المعادي للمهاجرين تسعة مقاعد في البرلمان الهولندي الذي يضم ١٥٠ مقعداً.

وقال ويلدرز " أقول منذ عدة سنوات لا يوجد مسلمون معتدلون" مضيفاً إن القرآن يضم العديد من النصوص التي تدعو المسلمين إلى اضطهاد وقمع وقتل المسيحيين واليهود والمخالفين وغير المؤمنين وتدعو إلى ضرب واغتصاب النساء وإقامة الدولة الإسلامية بالقوة".

وقارن ويلدرز القرآن بكتاب "كفاحي" للزعيم النازي أدولف هتلر ودعا إلى حظره اسوة بكتاب هتلر المحظور في هولندا.

وأعلن ويلدرز أنه ضاق ذرعاً بالإسلام و"عبادة الله ومحمد في هولندا " مطالباً بوقف بناء المساجد في بلاده. وإن القرآن لا يمكن استخدامه في هذه البلاد كمصدر لاستلهام وتبرير العنف".

هل من حوار مع اليهودية؟

المسيحية واليهودية

قول المسيح "إنما أُرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة». وهي تعني أن مهمة المسيح كانت محصورة بالتبشير بين اليهود ، فما معنى أنّ المسيحية ترسل المنصرين والمبشرين إلى المسلمين ولا ترسل منصراً واحداً إلى اليهود؟

إن اليهود يتهمون السيد المسيح بأنه ابن زنى، وأن السيدة العذراء زانية، ويؤكدون ذلك. وإنهم بالنسبة للمعتقد: يؤكدون بأنها ولادة من غير زواج: إلا الإسلام فإنه طهرها ودافع عن المسيح، وأنها عذراء، وبمعجزة ولدت، وأن المسيح ابن صحيح وليس ابن زنى، فكيف يقول المسيح إنما أُرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة؟ أي اليهود- فكان يجب أن يرسل المنصرون إلى اليهود وليس إلى المسلمين.

الحوار الإسلامي اليهودي

إذا كنّا نختلف مع "إسرائيل" في المسألة الفلسطينية، فهذا الخلاف ليس خلافاً دينياً، وهو بنفس الوقت خلاف سياسي مرحلي، فلن تدوم الصهيونية في أرض فلسطين ولن يستمر الصراع معها. وإن عمر هذا الخلاف صغير ولم يتجاوز القرن من الزمن حتى اليوم. ورغم ذلك فإن الحوار بين مسلمين ويهود لم يتوقف طيلة هذا القرن. فالمسلمون أفراداً وشعوباً يتعاملون مع اليهود بشكل طبيعي في المجتمعات العالمية، ونجدهم كمواطنين في دول الغرب يتعاملون ويتحاورون دون اختلاف ودون طائفية. وكذلك فإن اليهود العرب مازالوا مواطنين في الدول العربية وفي إيران الإسلامية، وهم يعيشون كمواطنيهم المسلمين دون أي تمييز. والمسلمون يعتمدون في تعاملهم مع اليهود على المفهوم القرآني الثابت والواضح. ويذكر هنا بأنّ اليهود عاشوا طوال العصور الإسلامية مواطنين آمنين أحراراً ومساهمين في كافة نشاطات الحكومات الإسلامية المتتالية. وقد ازدهر اليهود بين المسلمين بالعمل التجاري والصناعي. وحققوا ثروات كبيرة خلّفوها لأحفادهم الحاليين.

ولعلّنا إذا قرأنا التاريخ، رأينا أن المسلمين هم الذين احتضنو اليهود وساعدوهم في العالم الإسلامي في مدى التاريخ. إنّ اليهود قالوا إنّ فلسطين هي لهم من الله، ونحن نناقشهم في هذه المسألة، لأنّ فلسطين لم تكن أرضاً خاليةً من الناس، بل كان فيها شعوب عاشت منذ مئات السنين في هذه الأرض، وجاء اليهود وطردوا الأغلبية منهم، وهم لا يريدون لأهلها أن يرجعوا، فالخلاف هو سياسي؛ هل فلسطين لكلٍّ أهلها، لليهود والمسلمين والنصارى، أو أنّها لليهود فقط ولا حق للنصارى والمسلمين فيها؟ هذه قضايا سياسية.

نحن نختلف معهم في أنّهم يقولون إنَّ حقّهم في أرض فلسطين هو حق ديني، وأنّ الله وهبهم هذا الحق قبل ثلاثة آلاف سنة. ونحن نقول إنّ الله جعل الأرض للناس كلّهم، وأنّ الشعوب تتحرك، فهناك شعب مثلاً يأتي اليوم ثم يأتي شعب آخر غداً، لذلك لا نستطيع أن نعتبر أنّ الأرض التي سكنتها شعوب قبل آلاف السنين، هي من حقهم اليوم. ولهذا فأن المسألة بيننا وبين اليهود في إسرائيل هي مسألة ثقافية

حضارية سياسية وليست مسألة دينية، نحن نختلف معهم في بعض الأمور الدينية، وهذا أمر طبيعي فلكل دين خصائصه وتعاليمه، ولكن لا نحاربهم لأنهم هم يتبنّون الدين اليهودي ونحن نتبنى الدين الإسلامي.

الحرب في الإسلام وقائية

الحرب في الإسلام ليست حرباً عدوانية هجومية، بل هي حرب دفاعية وقائية، حتى يدافع الإنسان عن نفسه وعن أمته، وأيضاً ليتوقّى هجوم الآخرين عليه.

إنّ الإسلام يقول في القرآن الكريم، طالما أنّ الآخرين لا يقاتلونكم في دينكم ولا يطردونكم من أرضكم، فعليكم أن تحسنوا إليهم، وأن تقوموا معهم على أساس أن تعطوهم كل حقوقهم، وأن تعدلوا فيهم. فالقرآن الكريم يريد أن يؤكد للجميع أنّ هناك إمكانات للقاء بين الأديان في القضايا المشتركة، وللحوار معها، سواء كان الدّين يهوديّاً أو نصرانيّاً أو بوذيّاً أو هندوسيّاً. علينا أن نتحاور معهم حواراً علمياً مبنياً على العقل، ولا نعتقد أن الخلاف السياسي يجعلنا نحارب الذين نختلف معهم سياسياً، بل إنّ الخلاف السياسي يمكن أن نحلّه بالحوار الموضوعي المرتكز على أسس إنسانية .

بمقدار ماهي الحرب في الإسلام وقائية فإننا نجدها عند الغرب عدائية وطائفية. فالغرب هو الذي بدأ العدائية مع المسلمين منذ قرون واستمر بعدوانه حتى اليوم. ومن الطبيعي ألاّ نفصل الصهيونية عن الغرب فهؤلاء القلّة الذين يدّعون بأنهم يشكّلون دولة هم رعاع هاجروا من الغرب واستوطنوا في فلسطين وعملوا على إبادة السكان الفلسطينيين وكل ذلك بتفويض ودعم من الغرب. وما إسرائيل كلها إلا أحد جوانب محاربة الغرب للمسلمين ومحاولة القضاء على ظاهرة الإسلام وامتدادها. فإسرائيل كلها مشروع معاد للإسلام. وبالتالي فهي مشروع طائفي.

الدين ضدّ هيمنة القوة

الأديان السماوية هي ضد سيطرة الإنسان على الإنسان، وضد المستكبرين الذين يرون أنفسهم أعلى وأضخم من الإنسان الطبيعي. لذلك فإن بعض السياسات في الغرب أو في الشرق، تُسيء إلى الإنسان الضعيف الطيب الذي يريد أن يعيش حياته بعزة وحرية وحسب المنهج الإسلامي الحنيف، فإنّ كلَّ الثروات الطبيعية الموجودة في العالم هي ملك النّاس جميعاً، وقد أراد الله للناس جميعاً أن يستفيدوا منها، فلا يحق لشعب أن يغتصبها ويسخّرها لمصالحه الخاصة ويحرم الآخرين منها ومن عوائدها. فالغرب له مصالح عندنا في الشرق، وإنّ لنا مصالح أيضاً عند العالم في الغرب، ومن الطبيعي أن تكون العلاقة بين الشعوب مبنية على أساس احترام المصالح المتبادلة، وعلى أساس الاحترام المتبادل لإنسانيتنا وإنسانيتهم. لا على أساس القوة والهيمنة. والمسيحية نفسها تمنع حكّام الغرب من ممارساتهم التي تتصف بالعداوة والهيمنة والسيطرة على ثروات الشعوب العربية والإسلامية.

السلام العالمي الممكن

السلام العالمي ممكن مع المسلمين ومعلن دوماً من قبل المسلمين وهو رغبة المسلمين جميعاً. لكن الغرب لايتجه في سياساته مع المسلمين لايتجه في طريق السلام بل هو يعمل دوماً في طريق الصدام.

نحن نحبُّ أن نعيش بسلام، لا نريد لأية قوة في العالم أن تصادر حرياتنا أو أن تمنعنا من استغلال ثرواتنا في عملية الاكتفاء الذاتي، كما نحبُّ أيضاً أن تكون علاقاتنا مع العالم علاقات عدل وسلام، وقد ذكرنا أنَّ مشكلتنا مع الإدارة الأمريكية، هي أنّها عملت على أن تحتلَّ بعض المواقع الإسلامية، وأن تتدخل أيضاً بكلّ شؤون المسلمين بما لا يريدون، ونحن لا نعتقد أنها في هذه السياسة تؤذي المسلمين وحدهم، بل تؤذي المسيحيين الموجودين في الشرق.

ردع المعتدي واجب إسلامي مسيحي

علينا أن نتحاور مع الشعوب التي تحبُّ الحرية وتحب السلام وتحب الله، وأن نتعاون معهم على إقناع الذين يتحرّكون بالإرهاب والعنف والتطرّف لنعيدهم إلى خطّ الإنسانية، وإذا لم نستطع ذلك، فعلينا أن نرفضهم، وأن ننطلق في العالم حتى نشكّل فريقاً كبيراً يمثّل القوة التي تردع كل إرهاب وكل تطرّف. وعلى ضوء هذا، يمكن أن نُفهِم الناس أنّ سياسة بوش، ومعه المحافظون الجدد، لا تمثّل الشعب الأمريكي، وأنّ الشعب الأمريكي هو شعب طيب، وعلينا أن نكون أصدقاء له ونتعاون معه ونستفيد من خبرته، كما علينا أن نقول للشعب الأمريكي، إنّنا أناس مسالمون وطيبون نحبُّ الحرية كما يحبُّها الشعب الأمريكي. نحن نريد للشعب الأمريكي أن يقنع الرئيس بوش وإدارته بأنَّ سياسته أدت إلى أن يسيء العالم فهم الشّعب الأمريكي، وأن يكره هذا الشّعب، مع أنّ فيه أناساً طيّبين. نحن نلتقي معكم في معارضتكم لسياسة بوش، سواء سياسته في الحرب أو في الاقتصاد، ونحن أيضاً نعارض الرئيس بوش في سياسته في الاحتلال وفي تدمير اقتصادنا وأمننا، فنحن وأنتم في خط واحد، وهو معارضة سياسة الإدارة الأمريكية التي تسيء إلى سلام الشعوب، ونريد للشعب الأمريكي أن يختار رئيساً وإدارةً يمكن لها أن تفتح أمريكا على كلّ شعوب العالم بالمحبة.

عقيدة (الله في صهيون)

لعلّ من أخطر العقائد التي تنشرها الصهيونية طوال التاريخ اليهودي عقيدة جديدة تخلط مجموعة من المبادىء والقيم وتصل في نهايتها إلى أن يسوع المسيح سيظهر في صهيون بعد أن يباد المسلمون جميعاً باسم الرب المسيحي اليهودي. ويؤمن بهذه العقيدة حسب بعض الإحصائيات ٢٥ ٪ من الأمريكيين.ويعتقد هؤلاء بأنهم يولدون من جديد حين اعتناقهم للعقيدة الجديدة. وجميعهم من الإنجيليين. وإنّ نسبة ٧٥ ٪ من الأولاد الذين يدرسون في البيوت في الولايات المتحدة هم من الإنجيليون.

وهـذه العقيـدة موجهـة بالدرجـة الأولى لهـم. وتخـصص لهـم إذاعـات محليـة وقنـوات تلفزيونية ومواقع ألكترونية.

وضمن برامج تدريبية تجـري في (معسـكرات الـرب) يجـري تعليم الناشئين علـى القتـل والتكسير والتـدمير والإبـادة. ومـن بـين تلـك التمـارين يحمـل التلاميـذ مطـارق مرعبة ويقومون بتكسير فناجين وكؤوس وسط أجواء مرعبة وموسيقا خاصة بتلك التمارين. وبهذه الطـرق يجـري تحضير الناشئين ليمارسـوا في المستقبل الإبـادة والقتـل والتدمير ضد العدو الذي يقال لهم بأنه (المسلم والعربي).

ونذكر هنا بعضاً من تعاليم هذه العقيدة:

- تركّز هذه الديانة الجديدة على العداء للمسلمين جميعاً. وتعلّم أتباعها كـره الإسلام والمسلمين كرهاً تاماً.

- تجمـع هـذه العقيـدة الأفـراد المسيحيين في الولايـات المتحـدة وبـسبب جهلـهم بالمسيحية نفسها فهي تثقفهم بعقيدة ظاهرها ديني مـسيحي وحقيقتها صهيومسيحية بعيدة عن كافة القيم الدينية.

- مـن ضـمن العقائـد بعـض المفـردات والمظـاهـر الإسـلامية الـتي اسـتقاها أولئـك المبدعون الصهاينة من التصوف الإسلامي وغيره.

- يعتقدون بالحلول الإلهي فيهم.

- يدعون لشنّ حرب مقدسة مستمرة ضد المسلمين أينما وجدوا.

- يهاجمون كلّ الكنائس المسيحية الأخرى ويعتبرونها كافرة.

- تدعو المعلمة تلامذتها إلى تغيير العالم كله، وتعتبر العالم كافراً.

- ومن بين التعاليم الرئيسية لهذه العقيدة:

" تأسست أمتنا على القيم اليهودية المسيحية – في العالم نوعان من البشر نوع يحبون المسيح، وآخرون يكرهونه وهم المسلمون. – لنشنّ حرباً مقدسة باسم الله على أولئك المسلمين – الشيطان رمز الخطيئة التي تريد تدميركم – السحرة أعداء الله – تمجيد الصهيونية وأمريكا ويسوع هـي أركـان الإيمـان – الله يصون الآلات

الموسيقية والأجهزة الكهربائية وأجهزة الصوت وأجهزة الحواسب لأنها داخل المدرسة الدينية.

تتحدث الأستاذة في المعهد الديني السيدة (بيكي فيشر) للإعلام وتقول: " نحن نؤمن بقضية المسيح مثلما يؤمن أولئك بقضية الإسلام، والفضل في تعليم ونشر هذه العقيدة يعود للرئيس جورج بوش الابن وهو رجل مؤمن. عند المسلمين أفراد انتحاريون يتم تعليمهم وتدريبهم ، ونرى ذلك في مواقع الأنترنيت . ونحن نعلّم أبناء أمريكا أن يستعيدوا الأرض من المسلمين." وهي بذلك تؤيد الاحتلال الأمريكي للعراق وتعتبره جزءاً من الحرب الدينية التي تهدف لاستعادة الأرض المقدسة من المسلمين.

ومن أغرب مانراه في هذه العقيدة والطقوس أنها أخذت عن الصوفية الإسلامية طرقاً وأشكالاً تظنّ أنها عناصر دينية إسلامية، ومن بين هذه الأشكال: اعتقادهم بأنهم يناجون الله وبأن الله يكلّمهم ويحدّثهم ويوحي لهم، فأصبح كل صبي دخل هذا المعسكر الديني منذ الدقيقة الأولى مناجياً لله.وسامعاً لخطاب الله. ويمارس هؤلاء رقصاً دينياً على إيقاع البوب وغيره أثناء الصلاة والمناجاة. ويكون من انفعالاتهم ورعبهم وخوفهم بإيحات من المرشد الديني. ورغم ذلك فإنّ هذه المدارس الصهيومسيحية أقيمت لتحارب المسلمين أينما وجدوا. إذ تتطرق المرشدة الدينية (والتي لايدّل وجهها على أية علامات دينية أو أمارات تقوى بل يحمل أمارات الكره والحقد والسفك والذبح) تتطرق باستمرار إلى الحديث عن المسلمين وتقارن كلّ حالة في مدرستها بأمور عند المسلمين. وتقول لتلامذتها في الدروس: إنّ المسلمين يصومون رمضان ويجبرون أولادهم على الصوم ، أولادهم صغار مثلكم. عليكم أن تتعلموا شظف العيش مثلهم. علينا أن نغير هذا العالم الذي يتحكم به المسلمون. وتعلم تلامذتها بوضوح واجب إبادة الشعوب العربية والإسلامية واحتلال بلدانها بدعوة أنهم أحق بامتلاكها لأنها أرض الميعاد المقدسة فتقول الكاهن بيكر لتلامذتها (لنستعيد منهم الأرض المقدسة). وبالطبع ستفشل كل تلك الادعاءات والمساعي وسيرفضها الأمريكيون والمسيحيون بل واليهود أنفسهم. وثمة أصوات غربية كثيرة نسمعها تعادي هذه الأنواع من التطرف.

الإسلام للجميع

الإسلام للجميع، وليس لأحد الحق أو التصريح بأن ينفي الإسلام عن الآخرين الذين يقولون (نحن مسلمون). وليس لأحد الحق أو الترخيص بأن يكفّر بشكل اعتباطي أحداً أو جماعة أو فئة من المسلمين. فالمتطرفون مسلمون والقاعدة مسلمون والإخوان مسلمون وفتح الإسلام مسلمون وحماس وحزب الله مسلمون. والعلمانيون العرب (البعث والاشتراكيون والقوميون والشيوعيون) مسلمون وكافة حكام الدول الإسلامية وشعوبها مسلمون. والسنّة والشيعة والدروز والإسماعيلية و العلوية مسلمون.

إنّ أخطاء تجريد التطرف من الإسلام الذي يعتنقه الأفراد المتطرفون أمر يضرّ بالحوار مع التطرف نفسه، بل ويلغي الحوار كله. في حين أن ذلك الحوار ضروري. فالمتطرفون هم أبناء مجتمعاتنا، وهم أبناء أسر ولهم آباء وأبناء وإخوة وأقارب وأصدقاء. ولايمكن نفيهم من الإسلام، بل يمكن محاورتهم داخل الثقافة الإسلامية وبواسطة الفكر والفقه والعقيدة.

والإسلام هو ملك للبشرية جمعاء فيمكن لأي شخص مهما كان دينه أن يقوم بدراسات فكرية وتحليلية أو اجتهادات تفيد المسلمين وتكون خطوات في تطورهم.

قصة مسلمة

ولدت في الدنمرك، وتربيت في عائلة أردنية مسيحية في الأردن كان أبي قسيساً (رجل دين مسيحي) لأربعة كنائس وتعتبر أمي من أكبر قادة النساء المسيحيات في مجتمع الشرق الأوسط. وقد كنت قائدة لشبيبة وأطفال الكنيسة، ابتدأت قصتي عندما كنت صغيرة، لقد كرهت الإسلام كرهاً شديداً، وعندما كنت في الصف العاشر، رأيت فتاة مسلمة تصلي فركلتها بقدمي ودفعتها . ولقد تشاجرت مع الكثير من البنات في المدرسة الإعدادية الحكومية، وأردت أن أريهم كم أنا مثقفة، لذلك كنت أحضر الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) معي كل يوم، وأقرأ بصوت مرتفع، أو أكتب نصاً منه على اللوح كحكمة اليوم. في الصف الحادي

عشرة (قبل التخرج)، أذكر أنني قررت أن أحضر درس الثقافة الإسلامية وأستمع لما يقوله البنات عن الدين المسيحي. وقالوا إن الانجيل محرف ومغير، فغضبت كثيراً وشرحت لهم أن الانجيل إعجازي. تساءلت البنات عني وأردن معرفتي أكثر، لذلك أتين وبدأن يطرحن علي الأسئلة عن ديني حياتي وكنت أنا أجيبهن وأريهن الكتاب المقدس ودلائله لمحاولة إقناعهن بدين المسيحية. حتى أنه في يوم من الأيام نادتني معلمة اللغة العربية وقالت لي إنه يجب علي التوقف عن التحدث مع البنات عن الدين المسيحي لأن القانون لا يسمح بذلك، وأصبح لدي الحقد والكره للمسلمين والإسلام. فزادت خدمتي التبشيرية وأردت من الإسلام أن يتحول إلى مسيحية، حتى أنني عزمت بعض صديقاتي المسلمات أن يأتين إلى الكنيسة لإقناعهن بالدين المسيحي. تخرجت من المدرسة الثانوية لأنتقل إلى الجامعة وأدرس الكيمياء في جامعة مؤتة في الأردن، أذكر أننا في المحاضرات ناقشنا عن الجنة والنار، وعن حقوق المرأة في الدينين الإسلام والمسيحية، حتى أننا تحدثنا عن الإنجيل والتوراة، وكعادتي كنت أحضر معي الكتاب المقدس لأثبت له صحة كلامي وأنكر كلام الدكتور. حتى أنه في يوم من الأيام سألني الدكتور كيما ألاقيه في مكتبه وقال لي إن لدي معلومات زخمة عن الدينين وأخذ يدعوني للإسلام، فأجبته مستبدة: "اسمع دكتور، أنا ولدت مسيحية، وأبي قسيس لأربع كنائس، وأمي شخصية مهمة في المجتمع المسيحي، لذلك لا مجال لي أبداً أن أغير ديني، بعد فترة من الزمن، بدأت أهاجم الدكتور بنقاشاتي بحكمي على الإسلام، وصرحت له أنه خاطئ وأن كل الإسلام خاطئ. بدأ الطلاب يشعرون بالفضولية، وكانوا حقاً مستغربين من جرأتي، حتى أن بعضاً منهم كانوا يأتون إلي في مكان منعزل بعد موعد الحصص ويسألونني عن ديني، ولكني كنت أجلس في مكان عام غير مهتمة وأبدأ المناقشة معهم. إلى أن الدكتور محمد رواشدة (دكتور الثقافة الإسلامية) ناداني إلى مكتبه وصرح لي أنني أفعل فتنة في الكلية لأنني أتحدث مع الناس عن المسيحية ومحاولة ارتدادهم عن الدين الإسلامي. فسألته عن معنى قوله. قال لي بكل بساطة: "إن الفصل القادم، لن أكون في الكلية أبداً" لم أهتم لكلامه حتى جاء الفصل القادم لأسجل صفوفي، فقال لي المسجل إنني مفصولة من

الكلية ولم يعد حتى اسمي في برنامج الجامعة. غضبت كثيراً وتركت الجامعة وهاجرت إلى ولاية تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٢، محاولة بداية حياتي من الصفر، وكنت أذهب إلى كنيسة دالاس المعمدانية العربية، وكان عمي هو قسيس هذه الكنيسة. في الحقيقة لم أحب العيش هناك فاتصل أهلي مع عائلة مسيحية في ولاية أريزونا لأذهب وأعيش عندهم وأبدأ حياتي مرة أخرى، وهكذا وجدت عملاً وبدأت دراستي في الكلية وأنا ما زلت أذهب إلى الكنيسة أعمل نشاطاتي المسيحية المعتادة، حتى أني كنت أبعث بعض البرامج والمناهج الجديدة للكنيسة في الأردن وأساعد في تدريس الإنجيل مع الأطفال. أتيت إلى الولايات المتحدة لأبشر عن المسيحية وأكمل خدمتي التبشيرية، وكان هدفي الوصول إلى العرب المسلمين ومحاولة ارتدادهم للمسيحية، لأنني أعتقد أن أمريكا هي دولة حرة فيها حرية الفكر والتعبير والكلام.

كان لديه المعرفة الواسعة في القرآن والسنة، لذا لم أحببه أبداً:

وهكذا تقابلت مع مجموعة من الأصدقاء المسلمين، وبدأنا التحدث عن الديانات المسيحية والإسلامية، فأنا أعلم التوراة والانجيل حق المعرفة، كنت أناقشهم بحدة وأحاول إقناعهم للارتداد. وهكذا أحضر أصدقائي شاباً اسمه المصطفى بالحور – الذي هو زوجي الآن – ليكمل في النقاش معي. وكانت بالنسبة لي كالسباق، فعلاً كان لديه المعرفة الواسعة في القرآن والسنة، لذا لم أحببه أبداً. وكنت معظم الوقت أحاول إضافة الكاز على الدخان لتضخيم المسائل الدينية، وأحياناً نصل إلى نهاية عقيمة مغلقة، فأنا كنت عنيدة جداً حتى أنني بدأت أحس بالارهاق. على كل حال، كانت أمي قادمة في أيلول ٢٠٠٥ واعتقدت أن هذه حجة مناسبة لتجنب النقاش والذهاب بسبيلي، لأنني كنت أشعر بالضيق.

لم يقل أبداً: أنا الله:

كنت أعتقد أنها ستكون إهانة لي لو خسرت النقاش، لذلك قلت لأصدقائي أن علي الذهاب، ولكن مصطفى ناداني باسمي وقال: "أريد دليلاً" فسألته عمَّ يتحدث، قال: "اذهبي فتشي الانجيل بكامله، لن تجدي آية واحدة تفصل أن المسيح

قال عن نفسه هو الله، لم يقل أبداً: أنا الله". لقد وجدت هذه الفرصة المناسبة لدعوته للمسيح (الذي كنت أعتقد أنه المخلص الشفيع وأنه ابن الله) فقلتها بسخرية: "ما الذي تقوله، إنه من المؤكد أن هناك أيات كثيرة تقول أن المسيح هو الله!" قال مصطفى: "أرني الدليل" ذهبت للبيت وهذا السؤال عالق في عقلي يؤنبني" فتحت الإنجيل وبدأت البحث، وبعدها ذهبت إلى الانترنت للبحث، ومن ثم إلى الكتب ولم أجد شيئاً. وبعدها سألت أمي وبدأ نقاشي معها. قالت لي: "في الحقيقة لا يوجد هناك آية حقيقية تصرح أن المسيح قال عن نفسه أنه هو الله، ولكنه قال؛ من رآني فقد رأى الآب". فأجبت: "ولكن الآب والابن ليسا متشابهين؟" قالت: "ولكنك تعلمين أن لهم نفس المستوى في القوى، وهم واحد في الثالوث الأقدس (الآب والابن والروح القدس)" لذا فإن القضية الأولى فاشلة ولا يوجد لديها أي دليل،

القضية الثاينة هي: أنّ المسيح هو الابن (ابن الله) بدأت بالبحث أكثر، ووجدت أن هناك معادلة مكتوبة في الانجيل، إنجيل يوحنا ١:١ " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله" حسناً؟ اذاً فإن الكلمة هي المسيح الذي خلق من بدء الخليقة وهو كان عند الله ولكن في نفس الآية أو العدد يقول: " وكان الكلمة الله" فتعجبت أن الله=المسيح وأن الله مع المسيح في نفس الوقت! كيف يكون هذا؟ هذه معادلة رياضية باطلة، كيف يمكن أن يكون المسيح الله وهو معه في نفس الوقت، هل هو مفصوم الشخصية؟ هذا شيء غير واقعي ولا يمكن أن يتخيله العقل لذا فقد تركت هذا النص وتوجهت إلى نص آخر، إلى رسالة يوحنا الأولى الاصحاح الخامس وعدد ٧ يقول: " فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد" فرحت جداً لأنني اعتقدت أنني وجدت الحل؛ الآب=الابن=الروح القدس (هم واحد) ولكن العدد الذي بعده مباشرة ٨ يقول: "والذين يشهدون في الارض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد" الروح=الروح القدس، الماء=الآب، والدم=الابن. فكيف يمكن أن يكون الثلاثة=(هم) واحد والثلاثة (في) واحد في نفس الوقت، هناك فرق بين المعنيين. ثلاثة (هم) واحد معناها أنهم الثلاثة في نفس المستوى في كل شيء حتى في القوى

والمكونات (مثال: الماء تتشكل إلى ثلاثة أشكال السائل، الصلب والغاز، ولكنها لا تتأثر كيميائياُ فهي تحتوي على الهيدروجين والاوكسجين). أما الثلاثة في (واحد) فانها تشبه ثلاثة إخوان لهم نفس اسم العائلة، ولكنهم ثلاثة شخصيات مختلفة. بالإضافة أنه إذا فعلاً اعتقدت أن الله ثلاثة، فلِمَ لدينا خليقة واحدة وليست ثلاثة؟ فعلى سبيل المثال لو أحضرنا ثلاثة رسامين ليرسموا لنا شجرة معينة، كل واحد منهم سوف يرسمها بأسلوبه الخاص تبعاً لطريقة تفكيره، وحتى إذا كانوا الثلاثة في الواحد يخلقون الخليقة، فإن كل واحد منهم سوف يخلقها بطريقة مختلفة عن الأخرى، حتى لو كانت بنفس الهدف ولكن ستكون بأسلوب كل واحد منهم الخاص. وهنا بدأت أرى التناقض في الكتاب المقدس، فمن أين حصلت بهذا الكتاب؟ أنا أعلم أن المسيح قال عن نفسه ابن الله ولكني أعلم أن جميع اليهود يطلقون على أنفسهم أولاد الله وهم ناس بشر مثلنا، فهذا التعبير كان دارجاً في ذلك الوقت.

المسيح كان يصلي، فلمن كان يصلي.؟

المسيح كان نفسه يجلس لوحده ويصلي، فلمن كان يصلي؟ كان يصلي لنفسه؟ كان يدعو الله، حتى أن الكتاب المقدس يثبت ذلك: " في ذلك الوقت اجاب يسوع وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء" متى ١١:٢٥ " ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلّي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكاس .ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" متى ٢٦:٣٩ " فمضى أيضا ثانية وصلّى قائلاً يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكاس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك" متى ٢٦:٤٢ " وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلّي ولما صار المساء كان هناك وحده" متى ١٤:٢٦ " وفي الصباح الباكر جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلّي هناك" لوقا ١:٣٥ " وبعدما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلّي" لوقا ٦:٤٦ " ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً. وإذ كان يصلّي انفتحت السماء" لوقا ٣:٢١ " وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلّي" لوقا

١٦:٥ " وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلّي .وقضى الليل كله في الصلاة لله" لوقا ١٢:٦ وغيرها من الأمثلة الأخرى. بالإضافة إلى أن هناك ذاكرة أخرى لمعت لي أنه عندما كنت أدرس اللاهوت (العقيدة) المسيحية، جاء أحد الدكاترة البريطانية الكبار، وكان يعلمنا عن تاريخ الكتاب المقدس، وأذكر أنه قال حرفياً: "حسناً .. لقد ذهبت إلى المعرض في بريطانيا لأرى نصوص الانجيل الأصلية المكتشفة، ولم أجد غير أوراق محروقة، وممزقة وضائعة" فنظرت إلى الكتاب بين يدي وسألت في نفسي ما هذا الكتاب؟؟ من أين جاءت كل هذه الكلمات في الكتاب؟ اذا كنت أعبد الهاً كاملاً ليس فيه عيب واحد، فكيف يمكنني بالإيمان بكتاب غير كامل أو غير محفوظ؟ هذا ليس صحيحاً وبدأت التفكير والتأمل، لو أننا أخذنا كل الكتب السماوية التي على الأرض ورميناها بعيداً، ثم سألنا الناس ليحضروا كتاباً آخر مطابقاً للكتب الأولى، فلن أجد مسيحياً واحداً يحضر لي إنجيلاً مطابقاً له، بينما سأجد على الأقل مليون مسلم حافظين القرآن ظهراً عن قلب لأن المسيحيين لديهم نسخ كثيرة مختلفة عن بعضها البعض، وما زالوا يكتشفون نصوصاً إنجيلية جديدة إلى حد الآن، أليس هذا عجيباً؟

هل مات المسيح

بعد ذلك بدأت أدرس لاهوت صلب المسيح، فهل مات المسيح حقاً؟ وبدأت بالتفكير بهذا الانجيل الذي بين أيدينا، هل هو حقيقي؟ الأشخاص الذين كتبوا الأناجيل هم يهود تبعوا المسيح وراقبوه وكتبوا سيرة حياته .. لقد رأوه يموت على الصليب .. ولكن هل من الضرورة أنهم رأو نفس الشخص المسيح الذي يصلب؟؟ في القرآن الكريم يقول الله عز وجل: " وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)" فإذاً الناس الذين رأوا المسيح يقتل، رأوا شخصاً مشابهاً له. فإذاً ما هذا الذي بين أيدينا؟؟ سيرة المسيح وأكثر من ٧٥٪ ملقحة. والآن ها قد

حصلت على النتيجة بين يدي: المسيح هو ليس الله، ولا حتى ابن الله .. خفت كثيراً وقلقت لدرجة لا تصدق. كل هذه السنوات؟ ٢٤ سنة من حياتي وأنا أدرس نظريات غير معتمدة من الإنجيل والتوراة. ٢٤ سنة من حياتي أعبد الإله الخاطئ ٢٤ سنة من حياتي ذهبت سدى، كذبة محققة. أردت الانتحار، شعرت أن الأرض تهتز من تحت قدمي، وأصابني الرعب. أردت أن أرجع إلى بداية المطاف وأبحث من جديد لأثبت العكس، ولكني صمت قليلاً، لا أعرف ما الذي سيحدث بعدها .. شعرت أنني أدمر حياتي. وصرت أفكر .. أنا أؤمن أن المسيح الآن هو إنسان نبي مرسل من الله سبحانه وتعالى، وأنا أؤمن بجميع الأنبياء الذين قبله .. ولكن كانت لدي هناك مشكلة بسيطة مع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفي الحقيقة لم أتعلم شيئاً عن حياته، وكل ما أعلمه هي معرفة بسيطة عن طريق المسيحية الذين زرعوا في داخلي هذه الأفكار عنه (صلى الله عليه وسلم)، ولكن كيف يعظمه الناس المسلمون طوال الوقت؟؟ قلت، كيف يمكن أن تكون هذه مشكلة والقرآن الكريم أتى من الله من خلال النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنه حقاً لرجل متميز .. أعظم الخلق (صلى الله عليه وسلم) إذاً فهي ليست مشكلة أبداً أن أؤمن بنبي آخر وهو خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. بالإضافة أنني أعلم أن هناك إنجيلاً خامساً غير قانوني أو شرعي لدى المسيحية اسمه (برنابا) لأن هناك الآية التي يقول فيها المسيح (سيأتي بعدي نبي اسمه أحمد) ويحدثنا أيضاً أن المسيح عليه السلام شبّه به ولم يمت على الصليب بل ارتفع قبل إمساكه.

تركت غرفتي بعد تأمل طويل وتفكير عميق في البحث، واتصلت مع أصدقائي المسلمين الذين لم أرهم منذ شهرين على الأقل. وذهبت لرؤيتهم. فعلاً كنت أصلي إلى الله وأبكي: "إذا كان هو الطريق الصحيح، فغير حياتي، وإذا لم تكن فاجعلني أموت في حادث سيارة قبل أن أصل أصدقائي واجعلني أدخل الجنة .. فكل ما أريده هو الحقية ومرضاتك يارب، وكل ما أبغيه هو الجنة" وهكذا وصلت إلى أصدقائي ودموعي تذرف من عيني، فاعتقدوا أن شيئاً مكروهاً قد حدث لي، وكان هناك زوجي الحالي مصطفى، وكان الجميع ينتظر مني أن

أتكلم ليعلموا حقيقة أمري، ثم استطردت: أشهد أن لا إله الاّ الله .. وأشهد أن محمداً رسول الله. عم الصمت لعدة دقائق والجميع يرمقني باندهاش، ثم قال مصطفى ساخراً: "أسكتي .. " وبدأت بالبكاء والشهيق" وقلت له: " غداً سيكون أول يوم في رمضان، والآن ستعلمني كيف أفعل الوضوء وكيف أصلي وكل شيء" عندما سمعني أقول ذلك ورأى الاصرار في عيني، وقع علي باكياً من الفرحة والانفعال الشديدين وعانقني مرحباً بي في الإسلام وفعلاً تعلمت الصلاة وكل التقاليد والسنة في ليلة واحدة، واشتريت حجاباً وبدأت أمارس عقيدتي الجديدة. ولكني أخفيت إسلامي عن العائلة لمدة أسبوعين. في ذلك الوقت، ذهبت إلى الإمام وأعلنت إسلامي، وبدأت أتعلم القرآن، وأفعل المقارنات ما بين الإنجيل والكتاب المجيد القرآن الكريم، وكان من الصعوبة علي في البداية التخلص من الرجوع إلى الإنجيل، ولكن الحمدلله فقد تغلبت على هذه العادة، وبدأت أتعلم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن. وكما قلت سابقاً فقد أخفيت إسلامي عن العائلة في البداية، وكنت أصلي الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل حتى لا يراني أحداً أو يشك بي. وفي يوم من الأيام كنت ذاهبة من البيت إلى الكلية وكان معي حقيبتي التي تحتوي على القرآن والحجاب، ولكن فجأة، وقع الحجاب على الأرض ورأته أختي ولكنها لم تعلم ما الأمر إلى أن جاء الليل واستيقظت لتراني أصلي، فعلم أعضاء العائلة عن إسلامي، وبدأ الابتلاء. رفعوا صوتهم علي وصاحوا، واعتدوا علي نفسياً وعاطفياً، نعتوني بجميع الكلمات القذرة وغير الملائمة. ضربوني إلى أن وصلت للموت وهددوني بالقتل، ومع ذلك فقد كنت هادئة ولم أحاول مناقشتهم في شيء، ولكني تركت البيت داعية الله أن يهديهم. بقيت مع صديقتي المسلمة لمدة شهرين قبل أن أتزوج بمصطفى .. الحمدلله .. لقد فقدت عائلتي، ولكني كسبت عائلة مسلمة أخرى في المسجد فقد رعوني رعاية رائعة لا مثيل لها وجازاهم الله كل خير. وبعد ذلك انتابتني الكثير من الضغوط النفسية بسبب الاعتداءات التي حصلت معي، وما زلت لحد الآن أستلم على الأقل ٢٥ مكالمة وايميلات يومية من كل أنحاء العالم، يسبون علي ويهددوني وما إلى غير ذلك. وغير المكالمات الهاتفية، فقد اتصل معي أكبر العلماء والدكاترة المسيحيين من الأردن والولايات المتحدة، يناقشون معي

الدين المسيحي ومحاولتهم لإعادتي لدينهم. سبحان الله .. لقد اعتدت أن يكون معي الانجيل دائماً في الحوارات الدينية وكان الاتجاه المعاكس هو القرآن، والآن فقد انقلبت الطاولة وأصبح القرآن معي دائماً وأبداً ومع كل هذا، فقد تعلمت الدروس المهمة في ذلك الوقت القصير، تعلمت أن أكون صبورة ومتواضعة، وأتأمل الآن في قصة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف أهين من أهله وضرب، وهذه قصتي لا تساوي شيئاً بالنسبة له صلى الله عليه وسلم، حقاً لقد تعلمت الكثير. ولربما فقدت شرف اسم عائلتي في أعين الناس، ولكني فخورة أني اكتسبت أعظم شرف من الله سبحانه وتعالى ألا وهو الإسلام. وفعلاً إنك لا تستطيع أن تتخيل السعادة والسلام اللذين غمراني منذ أن أسلمت بالرغم من كل هذه الإهانات. وفي الحقيقة أني تغيرت كثيراً كما كنت عليه في الأول، حتى أن زوجي لاحظ هذا التغيير الشاسع، فقد تعلمت كيف أكون هادئة مع الناس الذين يعتدون علي، وتعلمت كيف أبتسم لهم رغم وجودي في أصعب الأوقات، ورغم فقداني وظيفتي لكوني مسلمة محجبة، ولكن الله عز وجل يعوضني بما خسرت بأضعاف وبغير احتساب .. الحمد لله فكل الإسلام هو وجود السلام الداخلي الحقيقي، فإنك بالتحقيق لا تستطيع أن تجد هذا السلام من اللذين هم حولك، ولا حتى في البيئة التي أنت تعيش فيها، يجب أن تكون اقتناعاً داخلياً منك عن طريق محبتك لله وارضائه وتسليمه قلبك له. واذا كانت عبادتك حقيقية لله واتبعت طريقه فبالطبع ستكون سعيداً في حياتك لأن الخطيئة تحرمك من هذا السلام وتعكر مزاجك وهي ألم أكثر من سعادة دنيوية. وها أنا أنظر إلى وجوه الناس وأرى الكثير من الحزن والدموع لأنهم بعيدون عن الله الحي الخالق عز وجل، وأحياناً أرى قلوبهم المظلمة ولا يريدون إضاءة شمعة الرجاء فيهم ويلتهون بمشاكلهم ومشغولياتهم ويتمسكون بالدنيا بدل الآخرة. كل ما أعرفه الآن، هو أن هدفي في الحياة عبادة الله وإرضاؤه وصلاتي له واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل من أجل الجنة .. الحمدلله أنا أرجو أن تكون هذه القصة حافزاً لك وتشجيعاً لروحك وايمانك بالله.

Ruba_Qewar@yahoo. com
arabic.html _http://www.creative ruba.com/ islam/story

الفصل الثالث عشر

خطوات غربية سريعة
نحو الإسلام

ازدياد مظاهر التدين في أمريكا

كثرت مظاهر التدين بعد أحداث أيلول في الغرب كله، وفي الولايات المتحدة خصوصاً يمكن أن نختصرها بالنقاط التالية:

إن الشباب المسلم الذى ولد أو نشأ فى الولايات المتحدة عادة متمسكون بتنفيذ التعاليم الإسلامية أكثر من آبائهم. فالكثيرات من الشابات المسلمات يرتدين الحجاب حتى ولو كانت أمهاتهن لا يرتدينه.

كما وتم إنشاء الآلاف من الاتحادات والمنظمات الإسلامية المتنوعة، وأكثرها المنظمات الطلابية. التي يترابط أعضاؤها في جميع أنحاء العالم، من خلال شبكة الإنترنت، وقد دعوا إلى تخاذ أسلوب ديني ملتزم في الحياة وذلك بدون شرب الكحوليات أو المخدرات أو ممارسة الجنس قبل الزواج.

وكانوا يقومون بعقد ندوات وأنشطة تشمل دروساً فى القرآن والحديث ومن تلك المنظمات: منظمة إيمان التي أنشأها في شيكاغو رامي النشاشيبي، والتي بفضل عملها بالدعوة كسبت الكثيرين من الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام. كما تقدم خدمات عديدة مجانية ذات طابع تعليمي.

وإنّ من يوصفون بالعلمانيين الذين اعتادوا الصلاة فى المساجد فى مناسبات قليلة فقط، أصبحوا الآن ينتظرون خطبة الجمعة. كما أقام المسلمون مدارس إسلامية جديدة، وأنشأووا مساجد لله يعمرونها بكثافة واضحة. وأصبحت المساجد مراكز للتعليم والعلوم والنشاطات والرياضات والاجتماعات العلنية التي تناقش فيها أمور المسلمين ومشاكلهم. وبذلك تطوروا عن المسلمين العرب بعض الشيء.

وفي الولايات المتحدة رجع أغلب الشباب الإسلامي الأمريكي إلى القرآن والسنة باعتبارهما المصدر العلمي الإسلامي الموثوق والمؤكّد، وأصبحوا لايكترثون بنصوص الأئمة. وماهذه الطريقة إلاّ نهج سلفي متطور يكاد يخلو من التشدد.

كما واجتهدوا في تفسير الآيات القرآنية الكريمة ونصوص السنّة الشريفة تفسيراً يتماشى مع الحياة العصرية في الغرب: إذ يقوم بعض المشايخ بانتقاد المدارس

السنّية الأربعة، والدعوة إلى إسلام واحد. وأسّس مسلمو شيكاغو إذاعة خاصة تحت اسم راديو إسلام ، وهي تعزز معرفة الإسلام وقيمه وتدعو للحوار مع الآخرين.

تفهّم اجتماعي غربي للإسلام

في المجتمع الغربي اليوم إقبال كبير على الإسلام ويتخذ هذا الإقبال عدة أشكال، فمنها دراسة اللغة العربية والتعرف على الإسلام، ومنها دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والتخصص به في المراحل الجامعية والعليا، ومنها اعتناق الإسلام والإيمان به.

إذ تقبل أفواج كبيرة على اعتناق الإسلام كقرار فردي توصل إليه الشخص دون أن يقوم أي مسلم بتعريفه على الإسلام أو بدعوته. كما يقبل أبناء الغرب المسيحيون في السنوات الأخيرة وبكثرة على التخصص بدراسات جامعية تتعلق بالإسلام وبالعربية وتأمل حكومات الغرب أن يقوم هؤلاء بإصلاح الفكر الإسلامي المتطرف، وبأن يصبحوا أساتذة للدين الإسلامي يتوزعون في بلدان العالم الإسلامية.

وباختصار فمن المرجو منهم أن يقوموا بتشويه الفكر والفقه الإسلامي، لكنّ ذلك لن يتمّ بالطبع لأنهم ما إن يدرسون الإسلام ويتعمّقون بعلومه حتى يدخل الإيمان إلى أعماق قلوبهم ويصبحوا مسلمين عاملين على مايفيد الإسلام وأهله. وقد حدث مثل ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين إذ أقدم الكثير من المستشرقين الغربيين على اعتناق الدين الإسلامي ومناصرة أهله.

التفاعل الإسلامي الأوروبي

يتحدث الغربيون عن مصطلح التفاعل الإسلامي الأوروبي. ولكن آن لهم أن يدركوا ضرورة إجراء تعديل جزئي في هذا المصطلح. فيصبح " التفاعل الأوروبي الإسلامي" والذي هو أقرب إلى الحقيقة. فإن أوروبا قد تغيرت بالفعل والأوروبيون تغيروا.وذلك بفضل الكثير من العوامل الثقافية. وقد أصبحت الثقافة الإسلامية

ثقافة عالمية وكثيرة الشيوع. فيجدها الفرد أينما اتجه. بل أصبحت أكثر شيوعاً من الثقافة المسيحية نفسها على الصعيد العالمي كله. ومن هنا فإن الدعوات إلى تثقيف المسلمين بثقافة أوروبية تبقى ضعيفة وضيقة وخجلى. بينما الحقائق الميدانية تشير إلى انثقاف الأوروبيين بالإسلام، وهذا هو وجه التفاعل الحقيقي الماضي اليوم في المجتمع الغربي. كتبت "جوسلين سيزاري" الأستاذة بجامعة "هارفارد للإلاهيات" ما يقيم توازناً في الموضوع. تقول:"بقدر ما يغير الإسلام أوروبا، فإن أوروبا كذلك تغير الإسلام" وتعتبر الأستاذة "جوسلين سيزاري" أن:"المسلمين لا يسعون إلى تغيير طبيعة الدول الأوروبية" وتتوقع رؤيتهم ينسجمون ويندمجون في السياق الأوروبي. غير أن مثل هذا التفاؤل لا يجد له ما يبرره.

فالأوروبيون مطالبون اليوم بأن يعودوا إلى معانقة عقيدتهم المسيحية، وإلى إنجاب أطفال أكثر، وإلى العناية أكثر بتراثهم. ويمكنهم تشجيع هجرة غير مسلمة أو محاولة تجريد المسلمين الذين يعيشون بينهم من ثقافتهم وعقيدتهم. غير أن هذه التغييرات ليست جارية في الوقت الراهن، وفرص رؤيتها تظهر على السطح تبقى ضعيفة. وإذا ماسعى الغرب فعلاً لتجريد المسلمين من عقيدتهم فستكون تلك لحظة انطلاق الصدام النهائي ين المسلمين الغربيين والغرب كله. ولن يسفر الصدام عن انتصار للغرب المسيحي بل من المحتمل أن ينتصر فيه المسلمون. فإن المسلمين في أوروبا هم الذين يكرّسون مطالب وطموحات ذات نزعة صدامية تجاه ثقافة جيرانهم المحليين. ومما يدعو للتفكير كون كل جيل يطلُع أكثر استلاباً تجاه الإسلام من الجيل الذي سبقه.وهذا الأمر الذي يقلق المراقبين الأوروبيين ليس إلا خصوصية من خصائص الإسلام. وهذه الخاصية تلامس الفرد الأوروبي في بادىء الأمر ثم تغزوه ويصبح مسلماً. وهناك ظاهرة تنمو في أوروبا ولكن بشكل أكثر وضوحاً. فاستطلاعات الرأي بين المسلمين البريطانيين تبين أن أغلبهم يعيشون صراعاً بين هويتيهم البريطانية والإسلامية ويتمنون إقامة نظام الشريعة الإسلامية. وإن احتمال رؤية المسلمين وهم يَقبلون بقيود أوروبا التاريخية ويندمجون دون اصطدامات في هذا الإطار هو احتمال غير ممكن، ولعلّه من الضروري استبعاده نهائياً.

دراسة عسكرية أمريكية للستراتيجيات القتالية للرسول محمد

هذه الدراسة العسكرية البحتة لطريقة المسلمين في القتال تظهر انتباه الغرب إلى نجاح أعمال المقاتلين المسلمين الذين يستطيعون فعل الكثير بطرق ووسائل قليلة وضعيفة. كأعمال حزب الله وانتصاره على اسرائيل بعدد قليل من المقاتلين. وكانتصار حماس بوسائل صغيرة وبمقاتلين أقلّة. ويحاول الباحث الاستفادة الفعلية من طريقة المسلمين في القتال. لكنّ الغرب لن يستطيع تطبيق تلك الطرق لأنه يفتقد للعقيدة الإسلامية. وإن كاتب هذا المقال لايعترف بمنطق الحق الإسلامي ويحاول الإستفادةمن نتاجات الإسلام بدون الإسلام. ورغم ذلك ورغم معاداته المعلنة للإسلام فمقاله وبحثه يصبّ في النتيجة لصالح الإسلام وانتشاره في الغرب. . ورغم تعصب الكاتب ضد الإسلام وضد شخصية الرسول ورغم تحدّثه عن الرسول الكريم بطريقة تزعجنا فإن دراسته الموسعة تفيد المسلمين وهي بلا شك نوع من الحوار الحضاري مع الإسلام. لقد حذفنا الكثير من العبارات المسيئة والتي لاتأخذ بعين الاعتبار رسالة الإسلام إلى البشرية. وحافظنا على فحوى الدراسة من ناحية كونها استراتيجية عسكرية. بل وبإمكان المسلمين توظيف نتائجها في تنظيم الجيوش النظامية المدافعة عن البلدان العربية ، رغم أن هذه الجيوش تتنظم في حقيقتها وفق منهج الرسول الكريم في القتال.

كاتب هذه الدراسة الموسعة يعتمد في منهجه على ملاحظاته لأعمال الجهاديين الإسلامويين المعاصرين. ومن خلالهم ينطلق في تحليل الستراتيجية العسكرية للرسول محمد ص. وبنفس الوقت يقع الكاتب في مأزق عدم فهمه للظاهرة الإسلامية كدين سماوي. وهذه الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الدارسون الغربيون للشؤون الإسلامية تجعل دراساتهم ناقصة ومغلوطة.فقد عرضت الدورية التاريخية الأمريكية "فصلية التاريخ العسكري" دراسة رئيسية حملت عنوان "محمد.. العقلية العسكرية الفذة للمحارب الأول"

Ingenious Military Mind of the First Insurgent Muhammad

كاتب الدراسة هو المؤرخ العسكري "ريتشارد جابريل" ويقوم الكاتب بتدريس التاريخ والسياسة في الكلية الملكية العسكرية بكندا. تذكر الدراسة أنه بدون عبقرية ورؤية الرسول محمد العسكرية الفذة ما كان ليبقى الإسلام ويصمد وينتشر بعد وفاة الرسول. وتدعي أيضا أنه وبرغم توافر الكثير من الدراسات العلمية عن حياة وإنجازات الرسول، إلا أنه لا توجد دراسة تنظر للرسول كأول جنرال عسكري في الإسلام First Insurgent وترى الدراسة أنه لولا نجاح الرسول محمد كقائد عسكري، ما كان للمسلمين أن يغزو الإمبراطورتين، البيزنطية والفارسية، بعد وفاته.- لكنّ كلّ هذه الاستنتاجات كان ينقصها معرفة الكاتب بعامل الإيمان الديني عند المسلمين. ومن رأي كاتب الدراسة فإن تأثير الرسول محمد يوجد اليوم بين أتباع الدين الإسلامي، كذلك يتم الاستعانة بأساليبه العسكرية من قبل القوى الراديكالية السنية على غرار الراديكاليين في باكستان، والمتمردين السنة في العراق. وتقول الدراسة إن النظر للرسول محمد كقائد عسكري هو شيء جديد للكثيرين، حيث أنه كان عسكرياً من الطراز الأول قام في عقد واحد من الزمن بقيادة ٨ معارك عسكرية، وشن ١٨ غارة، والتخطيط لـ٣٨ عملية عسكرية محدودة. وتذكر الدراسة أن الرسول أصيب مرتين أثناء مشاركته في المعارك. ولم يكن الرسول محمد قائداً عسكرياً عظيماً وحسب، بل ترى الدراسة أنه كان "منظراً عسكريا" و"مفكراً إستراتيجياً" و"مقاتلاً ثورياً". وتصف الدراسة الرسول محمد بأول من أوجد " Insurgency Warfare و Guerrilla Warfare

استخدم الرسول طبقاً للدراسة كل ما كان متاحاً من وسائل من أجل تحقيق الأهداف السياسية، واستخدم في هذا الإطار وسائل عسكرية وغير عسكرية (مثل بناء تحالفات، والعفو. وتشيد الدراسة بـ "أجهزة المخابرات" التي أنشأها وأدارها الرسول، والتي تفوقت على نظيراتها عند الفرس والروم أقوى إمبراطوريتين آنذاك. وترى الدراسة أن استراتيجيات الرسول يمكن وصفها بأنها جمع بين نظريات

"كـارل فـون كلاوزفيـتس Clausewitz Carl von ونيقـولا ميكيـافيللي Niccolò Machiavelli".

وتشير إلى أنّ الرسول الكريم نجح في إيجاد أول جيش نظامي عربي قائم على الإيمان بنظام متكامل للعقيدة الإيديولوجية "الدين الإسلامي". مفاهيم مثل "الحرب المقدسة" و"الجهاد" و"الشهادة" من أجل الدين. ومن المسلمين اقتبس العالم المسيحي مفهوم الحرب المقدسة، وباسمها شن الحروب الصليبية فيما بعد ضد المسلمين أنفسهم. وترى الدراسة أن الرسول شكل القوات العربية المسلحة المتحدة التي بدأت غزواتها بعد عامين من وفاته، وكانت تلك تجربة جديدة للجزيرة العربية ليس للعرب سابق عهد بها. وقدم الرسول طبقاً للدراسة ثمانية مناهج إصلاحية عسكرية على الأقل كان لها أثر كبير في تغيير نوعي وشكلي في منظومة القوات المسلحة العربية.

وعلى العكس من القادة العسكريين التقليديين، لم يسع الرسول محمد لهزيمة جيوش أعدائه، بل سعى بنجاح لتشكيل جيش عربي موحد. ورغم أن الدراسة تدّعي أن الرسول محمد بدأ بعدد قليل من المقاتلين إلا أن هذه الأعداد القليلة وصلت لما يقرب من عشرات الآلاف من المقاتلين بعد عقد من الزمان.

الكاتب يرى أن الرسول كان نموذجاً ناجحاً لما تقوم عليه إستراتيجيات قادة الحركات في العصر الحديث. وتوفرت لتلك الإستراتيجيات ظروف مكنت من نشر الإسلام في الجزيرة العربية... ومن أهم هذه الظروف:

- وجود زعيم يراه أتباعه كشخص "غير عادي person special " ويستحق أن يستمع إليه، ويستجاب لطلباته.

- وجود أيديولوجية متكاملة تحل محل ما هو موجود من نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية قديمة، المنظومة الجديدة أفضل، وأكثر عدلاً، ومن عند الله. وترى الدراسة في الدين الإسلامي نظاماً متكاملاً حل بنجاح محل ما كان موجوداً من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية متخلفة في جزيرة العرب.

- مفهوم "الأمة المؤمنة God's Community of Believers تحل محل الولاءات القبلية والعائلية الصغيرة.

ترى الدراسة أن من متطلبات النجاح الأساسية وجود "النظام discipline" بين الأتباع. وتكون أتباع الرسول من مجموعات صغيرة من المؤمنين، وكان أفراد هذه المجموعات من ذوي المهارات الخاصة مثل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح، كنماذج لقادة عسكريين ماهرين. وقدم هؤلاء المقربون للرسول النصح الإستراتيجي. وترى الدراسة أن المقربين من الرسول حصلوا على مناصب قيادية.
- كان الرسول هو أول قائد في التاريخ يتبنى عقيدة سياسة خلاصتها ما نسميه اليوم "حرب الشعب.. جيش الشعب People's Army، People's War "
- تذكر الدراسة أن الرسول قام بخطوات هامة مثل مخالفة ما كان معروفاً وسائداً لدى العرب من حصول زعيم القبيلة على ربع غنائم المعارك لنفسه، . كذلك لم يسمح الرسول للمقاتلين المسلمين بأخذ ما يحصلون عليه من غنائم، بل تم تجميع هذه الغنائم وتوزيعها على أفراد الأمة، مع مراعاة خاصة لليتامى والأرامل ممن قتل عائلهم في المعارك.

الكاتب يرى أن الرسول كان نموذجاً ناجحاً لما تقوم عليه إستراتيجيات القادة في العصر الحديث، وكانت إستراتيجية الرسول لنشر الإسلام في الجزيرة العربية نموذجاً شديد النجاح. وكانت من عناصر نجاحه: التأكيد على النظام والطاعة من أتباعه وزرع الرعب في قلوب أعدائه.

ثورية الرسول محمد: ترى الدراسة أن الرسول نجح في دمج التشكيلات العربية المقاتلة التي انقسمت إلى فئتين، فئة جنود المشاة المكونة من سكان القرى الصغيرة والواحات والتجمعات خارج المدن الرئيسية. وفئة الفرسان المكونة من رجال القبائل ممن لهم مهارات قتالية عالية يتوارثونها عبر الآباء، وكان بين الفريقين قديماً شكوك وحقد كبيران، إلا أن الرسول أكسب الجيش الجديد هوية جديدة ونظاماً عسكرياً صارماً.

وترى الدراسة أن المقاتلين العرب قبل الإسلام كانوا فقط يهتمون بمصالحهم المباشرة والمحدودة، فقد كان الهدف من القتال الحصول على غنائم مادية، لذا غاب عن العرب مفهوم الجيوش النظامية. وكانت الحروب في الجزيرة العربية صغيرة محدودة. ولم يكن هناك ضابط أو رابط لتوقيت المعارك، أو موعد تجمع المقاتلين، فقد كان ينضم المقاتل وقد يغادر أرض المعركة قبل أن تنتهي إذا حظي بغنائم ترضيه. ومن أجل إصلاح هذه المعضلات، ترى الدراسة أن الرسول نجح في بناء منظومة عسكرية للقيادة والسيطرة للمرة الأولى في التاريخ العربي.

كذلك تدعي الدراسة أن الرسول أوجد للمرة الأولى في التاريخ مفهوم "الحرب النفسية"، من أجل إضعاف إرادة أعدائه عند الحاجة على حد تعبير الدراسة.

تقول الدراسة أن الرسول نجح في خلق منظومة عسكرية متطورة، إضافة إلى خلق هوية جديدة لا تفرق بين المواطن والمقاتل في إطار مفهوم "الأمة" الذي كان مفهوماً ثورياً جديداً على القبائل العربية. وترى الدراسة أن الرسول نجح في جعل الدين أهم مصدر للوحدة بين القوات العربية، وفاقت أهمية الدين أهمية عامل الدم والروابط القبلية المعورف أهميتها عند العرب. وفاقت أهمية الإيمان بالدين الجديد أهمية الروابط الأسرية للمرة الأولى في تاريخ العرب، مشيرة إلى أنه من المعروف تاريخياً أن رابطة الدم هي أهم ما كان يوحد بين بعض قبائل العرب.

وترى الدراسة أن التاريخ لا يوفر مادة علمية تكشف كيف درب الرسول جيوش المسلمين على القتال، إلا أن الدراسة تؤكد أن الرسول وكبار قادته العسكريين قد قاموا بذلك بأنفسهم.

تنهي الدراسة عرضها للأساليب العسكرية للرسول بالإشارة إلى مفهوم الجهاد. وترى الدراسة أن الجهاد في الإسلام جوهره الكفاح والتغلب على المصاعب، إلا أن المفهوم يساء تصنيفه في الغرب في زمننا المعاصر، ويتمحور حول مفهوم "الحرب المقدسة" فقط.

وتقول الدراسة إن الجهاد طبقاً للتعاليم الإسلامية هو كفاح الإسلام ضد الكفار والملحدين، وأن الأمة الإسلامية بقيادة الخليفة الإسلامي عليها واجب تطبيق قواعد الإسلام حتى يصبح العالم بأكمله محكوماً بالقانون الإسلامي.

وترى الدراسة أن هناك مفهوم "الجهاد الدفاعي" ويتمثل في حالة الهجوم على أي من أراضي المسلمين، وحينذاك ينبغي على المسلمين مقاومة المهاجمين. وتشير الدراسة إلى أن الإسلام منع التمثيل بالجثث وحظر تعذيب الأسرى.

وترى الدراسة في النهاية أن المحافظين مثل الوهابيين في جزيرة العرب والمسلحين الجهاديين في العراق وباكستان لا يزالون يتمسكون بمفهوم الجهاد التقليدي، وهم أكثر الفئات التزاماً بميراث الرسول محمد العسكري. بل وتعزى نجاح أعمالهم القتالية وبسالتهم، حسب الدراسة، لتمسكهم بالنهج المحمدي في القتال.

فيلم المملكة فهم جديد للحقيقة الإسلامية

عرض فيلم The Kingdom "المملكة"، ويمكن قراءة رسالته بوضوح من خلال مشهدين هما مشهد البداية ومشهد النهاية. فالفيلم يدور حول عملية إرهابية ضربت مجمعاً سكنياً في الرياض، وتعامل الأجهزة الأمنية السعودية مع هذه العملية بدءاً من الفوضى في التعامل مع الأدلة، مروراً بالعلاقة المتوترة مع فريق التحقيق الأمريكي التابع لمكتب التحقيقات الفدرالية وانتهاءً بالقضاء على الجناة وانتهاء مهمة فريق "أف بي أي". الفيلم ببساطة يتناول، موضوعاً يعتبر من الموضوعات الحساسة في كل من الرياض وواشنطن وهو موضوع العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية في ظل تناقض حاد في الأسس التي تقوم عليها كل من الدولتين وتلاق في المصالح وأهمها النفط.

المحطة التي عرضها مخرج الفيلم من خلال مشاهد قال فيها إن "أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة، عرض على آل سعود المساعدة في تحرير الكويت دون الاستعانة بقوات أجنبية، وأن آل سعود حصلوا على عرض أفضل من قبل الإدارة

الأمريكية والتي أرسلت قواتها إلى المملكة من أجل الدفاع عنها وتحرير الكويت. لكن بن لادن أعتبر وجود القوات الأمريكية على الأراضي السعودية عملاً يستوجب إعلان الجهاد عليها."

وبعد هذه المحطة يستعرض بيرج مشاهد تفجير مجمع الخبر عام ١٩٩٦ والهجوم على السفارات الأمريكية في غرب أفريقيا والاعتداء على المدمرة الأمريكية كول في اليمن وتنتهي هذه المشاهد بطائرة ترتطم في برج، إشارة إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والتي شكلت منعطفاً حاداً في العلاقة بين واشنطن والرياض. ولا ينسى بيتر بيرج الإشارة إلى أن ١٥ من بين المهاجمين التسع عشرة في أحداث الحادي عشر من سبتمبر هم من السعوديين.

مشهد النهاية في الفيلم يلخص رأي الفيلم حول مستقبل العلاقة بين الرياض وواشنطن حيث نرى فريق الـ "أف بي أي" قد عاد إلى الولايات المتحدة ونشاهد أحد أعضاء الفريق وهو يسأل المحقق رونالد فليري عن فحوى ما همس به فاليري في أذن المحققة جانيت مايز بعد أن عرفوا بمقتل زميلهم في الـ "أف بي أي" في موقع الهجوم في الرياض، فيجيب فاليري: "سنقتلهم جميعاً". في إشارة إلى مرتكبي الهجوم الذين تسببوا في مقتل زميلهم والضحايا من الأمريكيين.

وفي مشهد متزامن مع المشهد الذي دار في الولايات المتحدة، نرى حواراً في الرياض بين طفل سعودي وعمته حيث تسأله عن الذي همس به جده أبو حمزة في أذنه أثناء احتضاره إثر إطلاق النار عليه من قبل فريق الـ "أف بي أي" فيجيب الطفل: "قال لي لا تقلق يا ولدي سنقتلهم جميعاً". في إشارة إلى الفريق الأمني الأمريكي وإلى أي وجود أمريكي على الأراضي السعودية. وينتهي الفيلم بلقطة تبدأ بوجه الطفل السعودي وتنتهي بعينيه المليئتين بالغضب. والرسالة بالطبع واضحة وهي أن مستقبل العلاقة بين الرياض وواشنطن في ظل الاعتماد الأمريكي على النفط السعودي والاعتماد السعودي على أمريكا في المجال الأمني مستقبل صعب، خاصة وأن خلايا القاعدة ترغب في استئصال الوجود الأمريكي في السعودية بينما ترغب الأجهزة الأمنية الأمريكية في استئصال خلايا القاعدة من المجتمع السعودي، وهو أمر

مستحيل حسب رؤية الفيلم، ويحسب للفيلم أيضاً تفهمه الجديد للشخصية الإسلامية أياً كانت، وللإسلام نفسه. فلم تعد السينما الغربية تتعامل مع المسلم على أنه ذلك الوهم الخرافي القاتل، بل تسعى لفهمه وفهم دوافعه ولفهم سر الخلاف السياسي القائم بين الغرب والمسلمين.

خلاصة البحث

عندما تصبح أوروبا مسلمة

عقدة الأندلس آيلة للزوال، وها العرب والغربيون بدأوا يتحاورون ويتفاهمون. والغرب بدأ في ثورته على الثوابت المعيقة لحريته. ووجد في الإسلام تحقيقاً للحرية الحقيقية. فالإسلام ينتشر في الغرب بسرعة لانظير لها. ولن يكون الغرب في العقود القادمة إلا فضاءً إسلامياً. وإنّ كافة القوى التي تعيق انتشار الإسلام فيه هي غير قادرة على العمل. بل إن كافة خطواتها وأعمالها تؤدي عكس مايرجى منها.فتساعد على نشر الإسلام وامتداده. وعندئذ سينقلب كل شيء في الغرب كله. وستنقلب السياسات والأنظمة الغربية المستبدة. وبالطبع ستنسحب كافة القوى العسكرية الغربية من البلدان الإسلامية. وسيختفي الكيان الصهيوني الذي هو جزء صغير من تلك القوى. سيكون ذلك اليوم رائعاً بالنسبة للعالم كله بكافة عقائده ودياناته. فالصراع الوحيد الذي يشهده العالم كله في هذا القرن هو صراع الغرب المستبد مع المسلمين.

أنجز الكتاب بعون الله

اعتمدنا في هذا الكتاب على مراجع كثيرة يصعب جمعها وذكرها فننشغل عندئذ في عمل آخر هو عمل توثيقي وليس أداء بحثياً، ولأننا كنا نبحث عن الوثائق والأدلة والبراهين التي تثبت نظريتنا فنحن نشكر كافة الباحثين والصحفيين الذين كتبوا والذين اعتمدنا على نتاجاتهم وتعذّر ذكر أسمائهم.

محمد نمر المدني

المحتويات

عقدة الأندلس
وأسلمة أوروبا

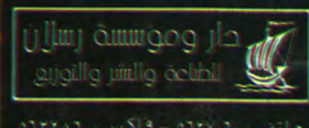
إن هذا الكتاب ببساطة كتاب خطير، لأنه يعيد الماضي الذي لم يمت، بل والذي مازال حاضراً والذي سيكون له تأثير كبير في المستقبل.

إن تاريخ غزو المسلمين قديماً لأوروبا وثم الغزو المسيحي لمسلمي أوروبا في الأندلس والقضاء على دولتهم وابادتهم في جريمة إبادة جماعية بشعة قادتها الكنيسة قد ترك عقدة تاريخية لدى كل من العرب المسلمين والمسيحيين الأوروبين.

تعتبر (الأندلس) الحلم الضائع والأرض المفقودة والإرث المسروق عند المسلمين. أما عند الأوروبين فقد دفعت (عقدة الأندلس) إلى العدائية تجاه المسلمين والعرب والخوف من الإسلام.

في عصرنا هذا استيقظت (عقدة الأندلس) بقوة محفزة بأعمال إرهابية وقف وراءها أصوليون إسلاميون وعلى الطرف الآخر واجههم نهوض المتطرفين الغربيين وظهور أصوات تنادي بحروب صليبية جديدة وإبادة للمسلمين.

لقد ظن الغرب المسيحي أنه بالقضاء على الحكم الإسلامي في الأندلس انتهت صفحة الإسلام في أوروبا ولكن هل هذه حقيقة؟ وإن كانت حقيقة فهل ستستمر؟



هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ - فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠